طريق الرعب إلى الأوشحه مافه



طريق الرعب إلى الأوشحه مافه

رواية شركسية

للمؤلف:ألبيرد مالباخو

ترجمة
بشار إبراهيم حلاو
محمد أحمد أديب رجب

الكتاب : طريق الرعب إلى الأوشحه مافه
التأليف : ألبيرد مالباخو
الترجمة عن الروسية : بشار إبراهيم حلاو
محمد أحمد أديب رجب
سنة الإصدار:2012
عدد النسخ:1000
الترقيم الدولي: ISBN:978-9933-439-98-9

الناشر:دار مؤسسة رسلان

يطلب الكتاب على العنوان التالي:
سوريا-دمشق-دار مؤسسة رسلان
للطباعة و النشر و التوزيع
هاتف:00963-11-5637060
هاتف:00963-11-5627060
فاكس:00963-11-5632860
www.darrislan.com

جميع عمليات التحضير الطباعي والطباعة و التجليد تمت في دار مؤسسة رسلان

كلمات قليلة لابد منها إلى أخ راحل
إلى محمد أحمد أديب رجب

لكلِ مجتهدٍ نصيب ونصيبك أن تحيا بعد رحيلك.
لم تتوقف الأقلام ولا الهواجس، والدعواتُ أرهقت كاهل سطورٍ متنبئةً ببوادر الإشراق.
لم يكن القدرُ مانعاً ولم يكن رحيماً.
ولكن أملاً أيقظ فينا روح السطور.
بعد أن قضيتُ سنوات في انتظار الغيث، أفاض علينا رحيلك وذكراك وبقاءك.
بيدٍ أشد بها أوراقك، وبيدٍ أخرى أمً عظيمة وأباً رحيماً جُبنا فيهما أروقة الكلام وخدْشاتِ قلمك وهمساتِ عرقك على أوراق حلمت بالنور.
من أمٍ خطت البقايا وداعبتها كطفل يتيم، وأب يحمل أملاً ونورا.
نم قرير القلب وامرح هناك، ولتكن روحك الطاهرة عربون إيقاظ.

أختك

مرفت أحمد أديب رجب

شكر و تقدير

أتقدم بجزيل الشكر إلى كل من ساهم في إتمام ترجمة الكتاب الذي بدأ به المرحوم محمد أحمد أديب رجب وللأستاذ بشار إبراهيم حلاو الذي أشرف على إصدار وترجمة وتنسيق الكتاب، وإلى كل الداعمين لهذا العمل ليرى النور.

مرفت أحمد أديب رجب

الإهداء

إلى كل من عانى على طريق الرعب من الأوشحه مافه إلى حيث يعيش الآن.
إلى كل من سقط،
إلى كل من نهض،
إلى كل من حافظ على شمعة أنارها في دروب غربتنا في انتظار نور الشمس.
إلى المتجذرين على أرضهم كشجرة الصفصاف الضخمة.
إلى روح زميلي الذي شاركني من عالمه، ترجمة هذا العمل، **محمد أحمد أديب رجب،** مع زنبقة لأمه العظيمة، ووردة لأخته المحبة مرفت.
وإلى أمي
إلى من تحمّلني
أولادي
زوجتي...
مع حبي لهم

بشار

كلمة الترجمة

طريق الرعب إلى الأوشحه مافه... يا له من عنوان. هناك طرق عديدة للوصول إلى قمة الجبل، خاصة إن كان الجبل هو الأوشحه مافه، جبل السعادة، جبل النور. لكن أن يصر الكاتب على سلوك طريق الرعب، فهذا يجعلني أتسائل، عن أي رعب يتكلم؟

ربما يريد أن يفتح باب الإثارة، التي أعتقد أنها موجودة في كل صفحة من صفحات الرواية.

اللبيب سوف يعلق قائلاً : وهل هو سوق يعرض فيه الكاتب ما صنعه ليسوق إنتاجه بعنوان مثير؟ هل هي تجارة؟... لن أجيب، ولن أحرمكم متعة السير على درب الرعب هذا، لكنني واثق أن الدوار سيصيب البعض من ارتفاع القمة التي يريد الكاتب أن تتسلقها معه.

هل تعلم أن القمة التوأم للأوشحه مافه، هي أعلى قمم أوروبا؟ وهل تعلم أن درب الرعب هذا يسبح في بحر خيالي الجمال؟ وأن الكلمات مهما كانت بليغة لن تجد في مخزونها ما يعبر عن سحر وفتنة الحسناء التي غرست أزهارها، العذراء ستناي، والدة ساوسروقة المولود من رحم الصخرة الملتهبة، حتى وإن ساعدته ريشة فنان؟

أن ترى مرة، لا أن تقرأ ألف مرة ولا أن تسمع إلى ما شاء الله.

لن تستطيع أن تشرب من هذا الفيض الإلهي، ومن هذا النور بالمراسلة. ولكي تعلم عن أي شيء أتحدث، ما عليك إلا أن تشتري بطاقة سفر وأن تتوجه إلى هناك، حيث تتلاحق أحداث روايتنا هذه.

التاريخ، العادات والتقاليد، الكلمات المأثورة والأمثال الشعبية، التشابك المثير للديانة الإسلامية الوافدة مع الديانة المسيحية الراحلة في ظل وثنية عمرها عمر الأوشحه مافه نفسه، حيث صلب زيوس إله الإغريق الأكبر بروميثيوس، في ذات المكان الذي صلب فيه زعيم النارت نسرن الملتحي. الطبيعة، صخراً، شجراً، ومياهاً كريستالية شفافة، أو كبريتية وضاربة إلى الصدأ. العلاقات الدولية المعقدة التي تبتلع بساطة الفلاحين الشراكسة والمتذاكين من الأمراء الذين ضاعوا بين الولاء للعفاريت أو الولاء للشياطين. وفي خضم صراع دموي استعماري لم يتخلف عنه إلا من كان مشغولاً في هضم مستعمرة ما، في جهة ما من كوكبنا الأزرق الجميل، الذي يفترض أن يتسع صدره للجميع. كان أنصار الأرض والوطن يتساقطون برصاص الأترك وقنابل الروس وسيوف التتار وبالسم الزعاف لابن البلد المتذاكي.
أسماء تعرفها وأخرى ستتعرف عليها، صلاح الدين الأيوبي وخصمه الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد، القيصر بطرس وغريمه السويدي كارل السابع، قبلان غيري خان القرم العتيد، الأمير بيرسلان واضع النظام الطبقي في القبردي، حاتجوقة كورغوقة بطل معركة جبل قنجال، والحكيم الذائع الصيت قازانوقة جباغي وغيرهم، وغيرهم ممن تربعوا عرش المجد، وممن أسقطهم التاريخ في مزبلته غير مأسوف عليهم.
لن أخوض أكثر، لن أتحدث أكثر، تابعوا الأخبار الواردة في نشرة ألبيرد مالباخو مؤلف الرواية.

بشار إبراهيم حلاو

كلمة استحسان

اعطني، اعطني النجاح الأول

دافيد كوغولتينوف

عندما تحتل رواية أحد الأدباء الشبان مكانها في الساحة الثقافية، عادة يتم الحديث
عن نضج اللغة الثقافية عنده. لابد وأن تكون هذه النظرية محققة. لأنه في هذه الحالة يمكننا القول أن الثقافة في قبردينا- بلقاريا[١] بلغت مرحلة النضج. فكتابنا نشروا مجموعات عدة من الروايات. وهذه الحقيقة لا يمكن إلا أن تكون مرضية. إذ أن الأساس بالنسبة لنا أن تنمو ثقافتنا، وأن تتجه إلى النضج الحقيقي، حتى تصبح مرآة حقيقية للتاريخ، للحياة، والعارض لمصير الشعوب في طريقها المليء بالرجولة والحكمة والأستقرار. وعلى هذا الدرب الطويل والشاق، وبكل مافيه من شقاء وأمل ودراما ولدت رواية " طريق الرعب إلى الأوشحه مافه[٢] ".
سنقولها مباشرة، لقد أقدم الكاتب الشاب على معالجة موضوع صعب ومعقد، عندما تناول الأزمنة القديمة، ورسم صور الشخصيات التي عاشت ومارست حياتها في القرون السابقة. أعتقد أن ماعقد الموضوع أكثر في حالتنا هذه، هو فقر المنابع المكتوبة لتلك الحقبة. ولا شك أن الكاتب يحمد على شجاعته في تحمل ثقل المسؤولية. ورغم أنها الرواية الأولى له وإن لم تكن

---

[١] - قبردينا بلقاريا – جمهورية فدرالية في روسيا الاتحادية. تقع في القفقاس . يعيش فيها سكانها من القبردي (القبرطاي) ، وهم ينتمون إلى العائلة الشركسية، والبلقر جيرانهم، وينتمون إلى العائلة الطورانية التركية.
[٢] - الأوشحه مافه – جبل السعادة جبل الألبروس كما تسميه الخرائط الجغرافية وهو أحد أعلى جبال سلسلة جبال القفقاس، وتقع فيها أعلى قمة في أوروبا.

أول كتبه، إلا أنه قدم عملاً باهراً تحدث فيه عن أحداث وشخصيات تعود إلى بدايات القرن الثامن عشر.
قد يطرح أحدهم سؤالاً: هل يستحق منا العمل على موضوع ذاب في الزمن؟
أعتقد أن النتيجة التي قدمها لنا البرد ملباخو يعطيني الحق بأن أجيب على هذا السؤال الذكي بإيجابية.
مختصر القول وحسب رأيي، قدم الكاتب رواية جيدة، ممتعة، حية ومهمة، برهن فيها على قدراته الإبداعية، وهذا هو المهم. عادة يقال أن الأهم هو معالجة المواضيع الحياتية المعاصرة، الكتابة عن الشخصيات الفاعلة التي نتفاعل معها ونعرفها بشكل جيد. هذا صحيح بالتأكيد. لكن لا أحد يستطيع أن ينتزع من الكاتب حقه في تناول التاريخ في روايته.
لم يتمكن أجدادنا من رسم صور الأبطال والناس البسطاء لتنقل على شكل روايات أو قصص وحكايات مكتوبة. فأجدادنا لم يمتلكوا ناصية الكتابة، لذلك كانت اللوحة العامة لحياة الناس غير مكتملة. ومع ذلك تمكن كاتبنا أن يصور شخصيات الأمراء القبردين بتجسيده للأمير كورغوقه، وكذلك الراعي أديشيم، والفلاح البلقري كوانتشه، كما قدم من قبل ليون تولستوي شخصيات أمراء البلقان والفلاح كارتايف الذين عاشوا في الماضي.
أنا على ثقة بأن الكتاب سيُقرأ باهتمام شديد، وأحكم هنا من خلال نفسي. فالكاتب نحت تماثيل لنماذج مختلفة لأجدادنا الذين عاشوا قبل مئات السنين، واستطاع أن ينقلنا إليهم لنشعر بهم، ونشم هواء تلك الأزمنة القديمة وهذا بحد ذاته يشكل نجاحاً فنياً باهراً.
لقد استعمل الكاتب اسلوباً جديداً أسبغ على الرواية لوناً محبباً عندما استبدل في العناوين الفصل بالخبر، فالخبر هنا يأتي بمعنى الحكاية أو المعلومة أو الأخبار. وتكثر مثل هذه التخريجات الفنية عند الكاتب.

كتب مالباخو ألبيرد كتابه وهو يكن لوطنه قبردينا- بلقاريا ولشعبها وتاريخها الحب والاحترام العميقين. وكما أوضحت سابقاً هذه الرواية هي الأولى التي تنشر للكاتب القبرديني الشاب باللغة الروسية. وملاحظاتي السريعة هذه أكتبها فقط لكي أعبر عن إعجابي لأول عمل كبير له، وأن أقف داعماً زميلي الشاب في باكورة أعماله الروائية.
لا بد وأن سنوات من العمل الجاد صرفت على الرواية، وأنا على ثقة أن هذه السنين لم تذهب هدراً. كذلك أنا واثق بأنكم ستكونون كقراء راضين عن رواية ألبيرد مالباخو كما كنت أنا سعيداً بها بصفتي أحد أوائل قرائها.

كاسين كولييف[١]

[١] - كاسين كولييف- أحد أهم دعائم الثقافة البلقرية في جمهورية قبردينا-بلقاريا.

كلمة افتتاحية لمتفحص متأمل

هل كان سهلاً؟ يمكنكم أن تحكموا قريباً على الأمر بأنفسكم. وتقيموا نتائج الغوص في الغاز وطلاسم الماضي البعيد. عيونكم المتفحصة أو لنقل المتأملة ستسبح في العمق البعيد لضباب القرون، دون دليل لمادة ثقافية أو تراثية مكتوبة يمكن أن تصبح لنا مرشداً موثوقاً. لقد اكتفينا حقيقة بالأقوال المتواترة من جيل إلى جيل، وهي مدتنا بعون كبير، رغم أنه في مثل هذا الجو الرائع من الأحداث الموغلة في القدم، تصطدم تلك المرويات بزوايا عدة تفقدها بداياتها أحياناً، وأحياناً نهاياتها. بل ويحدث أن تفقدها أسبابها أو نتائجها. لكن الحدود التاريخية والمسافات المفصلية تبقى واضحة عند مرشدنا.
وددت لو أنني رأيت بين من يريد المخاطرة في الذهاب قدماً على طريق صفحات هذا الكتاب أناساً صبورين ومتفتحين، محبين للمعرفة. والأهم وددت لو رأيت شباباً. فتية ليس بأعمارهم فقط، إنما بسرعة تأثر عقولهم واستجابة قلوبهم. لا شك أنهم سيحتاجون إلى الصبر. فالطريق أمامهم وعر نوعاً ما، وغير معبد. ستكون اليقظة مفيدة إذ قد تكون هناك أماكن محيرة أو منزلقة. ولن يصبح حب المعرفة رفاهية فائضة، حيث على الطريق أفكار ومعلومات قيمة في حد ذاتها.
حسناً ... ماذا يفيد الشخص المعاصر المتفاعل مع الحياة عملياً أن يعرف أن الملقط الذي يستخدم لاستخراج نهايات الأسهم من أجساد المصابين كانت تسمى عند القبردي " شتانجا "؟ وماذا يفيده إن عرف أن الحنطة كانت تشكل أحدى أهم المنتجات الزراعية؟ أو معرفته أن الصياد كان عليه أن يقدم النصف الأفضل من صيده إلى المرأة التي يمكن أن تتواجد في منطقة الصيد مصادفة لحظة اصطياد الطريدة، حتى وإن كانت امرأة

غريبة؟ ثم ماذا يهمه إن كانت المتهمة بالسحر تجبر عل أكل كبد كلب مسلوق؟ حقيقة لماذا؟

ليس هباءاً قالوا أن القمر لا ينير درب الأعمى، ولن يبكي طفل من لا تلد.

من المفيد أن تسطع، ولكن حتى وإن كانت الإنارة خفيفة فهو شعاع أمل. ومن الرائع أن نتتبع مصير الشعاع الوليد...

لم يترك الأجداد أرشيفاً تاريخياً. لم يتركوا وثائق مكتوبة في فقه اللغة وقواعدها. إن انعدام أحرف الكتابة لم يمكنهم في يوم من الأيام من التفرغ للدراسة. شغلوا أنفسهم بالقتال وصد العدوان. أحياناً كان عليهم القتال على جبهتين، وأحياناً اضطروا إلى القتال على ثلاثة محاور. وعندما كانت استراحة تلوح في الأفق، لم يسارعوا إلى الكتب للدراسة، فأمراء الأديغة[1] كانوا يحملون السلاح من جديد ليغزو الأول الثاني، وليغزو الثاني الثالث. وما يصعب فهمه في هذا المعسكر الحربي الدائم، هو كيف تمكنوا في ظل تلك الظروف من إنجاب أطفالهم وتربيتهم؟

لقد تفتحت كل المشاهد أمام الباحث الفضولي الذي ساح في ساحات الحقب الزمنية العاصفة، حيث الزخارف تبدو غير واضحة أو أنها فقدت الروابط التي تجمعها ببعض. ومن هنا كان لزاماً علينا أن نبحث وأن نفتح أعيننا وأن نرهف من سمعنا عندما نقود فرس الخيال الجموح. ولن تكون لفرضياتنا تلك الصفة التي يؤكدها القرآن الكريم في سورته الثانية، الآية الأولى

" ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ".[2]

يجب أن نعي رغم الأخطاء، أن هناك صورة تشابه الصورة الحقيقية لحياة القبردي في الحقبة التي نكتب عنها. وهي صورة

---

[1] - الأديغة – هم السكان الأصليين لشمال القفقاس، والمعروفون خارج حدود وطنهم باسم الشراكسة.

[2] - سورة البقرة.

تعطي تصوراً عن حياته المعيشية، وأحلامه، وعلاقاته، كذلك نظرته إلى عوالم الآلهة.

الفصل التمهيدي

الخبر الأول

يقول :
الطريق تختصره بالمضي فيه
والدين، بتسديده.

في صباح يوم ربيعي غائم من عام ٨٩٦ للهجرة، الموافق لعام ١٥١٨ من ميلاد أوسا غيرغي[١]. اقترب من الحدود الشمالية الغربية لبلاد القبردي فارسان يمتطيان جوادين منهكين.
كان الفارس الأول في المقدمة نحيلاً، في الأربعين من عمره، شاحب الوجه، طوقته لحية قصيرة سوداء كثيفة. أما الثاني فكان رجلاً طويلاً ضخماً. زين وجهه شاربان فاخران.
أوقف الأول جواده الكميت أمام منحدر نهر بالقا الصاخب و المتلاطم، بينما اتجه الآخر يساراً، قاطعاً بضع مئات من الخطوات على طول مجرى النهر، ليعود أدراجه مسرعاً ولينادي صاحبه.
- المخاضة ليست بعيدة.
نظر الملتحي إلى الضفة الأخرى من النهر وقد غرق في تأمله، ولو أن أحداً استرق نظرة إلى عينيه الخضراوتين البراقتين الواسعتين. لشاهد فيهما تألقاً خجلاً لفارس متجهم. ولرأى انعكاس الألم الدفين المشوب بالحنين يختلط بشكل غريب مع بقية أحاسيسه التي ربما رافقته منذ طفولته.
عبر غشاوة الضباب الخفيف الذي كاد أن يكون شفافاً، كان يمكن رؤية الجانب الآخر من الضفة ينحدر بتدرج، وخطٍ من الهضاب مع بعض الأشجار والشجيرات التي تبعثرت هنا

---

[١] - المقصود بأوسى غيرغي هو السيد المسيح عليه السلام

وهناك. وكان بالإمكان تمييز قطيع من الخيول، ودخان شاحب لنار تتوهج، وجسد رجل غامض.

* *

تنبه حانوخ، راعي خيول الأمير شوجنوقه إلى وجود الفارسين منذ اللحظة التي ظهرا على الضفة الأخرى، وأدرك بفراسته أنهما غريبان. أيقن أن أحدهما خادم أو حامل أسلحة يبحث عن المخاضة. كان واثقاً بأن الفارسين قد لاحظا وجوده بدورهما. تردد، أيسرع إلى الأمير ويبلغه عن ظهور الغريبين؟ خاصة وأن الضيعة ليست بعيدة أم يبقى لاستقبال الضيوف كما يليق برجل قبرديني؟
لم يسترسل حانوخ طويلاً في التفكير فقد آثر البقاء والانتظار.
على بعد خطوات من النار المشتعلة، وخلف عائلة من أشجار الشوم كان حانوخ قد بنى ركناً صغيراً من القش. ضفر جانبه المعرض للريح بالأغصان بعد أن ثبت الزاويتين المتقابلتين بواسطة وتدين. هرع إلى ركنه وأخرج منه قدراً وضعه على النار بعد أن ملأه ماءاً كان قد أحضره من النبع. ثم أدخل يده في كوم القش، الذي كان يستخدمه كفراش له، أخرج رأس رمحٍ مسموم ثبته على عصا طويلة.
- إن الحذر في كل الأحوال لا يضر.
وضع الرمح أمامه .
- الآن يمكن استقبال الضيوف.
شرع الفارسان بعبور المخاضة التي صادف موقعها في المنطقة الأوسع من مجرى النهر. لكن حتى في ذلك المكان، كان الماء يصل إلى مستوى خاصرة الجواد. ثم أن التيار كان سريعاً، ويمكنه أن يجرف الحيوانات في طريقه. إلا أن هذا لم يعق الجوادين الذين خرجا إلى الضفة المقابلة وراحا يرتقيان المنحدر المغطى بالعشب الأخضر.

نظر حانوخ إلى الفارسين المقتربين بقلق خفي. بينما راحت يده تضغط بشكل آلي على قبضة خنجره المصنوعة من الخشب المغطى بالجلد القاسي، فهناك أمر لم يستطع حانوخ أن يفهمه.
كان أحد الفارسين يرتدي ملابس أكثر من غريبة. صحيح أن السترة الملقاة على الردفين عادية ولكن تلك العمامة الخضراء التي اعتمرها الفارس أقلقته، وكذلك الحذاء العجيب المصنوع من الجلد البني المزين بالتعاريج البيضاء والنعل الغليظ. إن مثل هذه الأحذية تتواجد فقط عند الفرنجة والروم، كما أن الأمراء الروس ينتعلونها. أما بالنسبة لملابس الفارس الآخر فكانت بسيطة. قبعة سوداء من الفرو، ورداء شركسي رصاصي من الجوخ، وقد أحاط قدميه بجلد غير مدبوغ من أسفل الرسغ حتى الركبة. باختصار كانت ثياب خادم الرجل الغريب بسيطة مثل ثياب حانوخ تماماً، إلا أن الزركشة الغريبة لم تكن تزين رداء حانوخ الشركسي.
أسرع الخادم صاحب الشاربين الفاخرين إلى سيده واختطف لجام جواده، ثم أمسك بالركاب مساعداً سيده على الترجل.
اقترب حانوخ من الغريبين وانحنى لهما مرحباً ببساطة وعفوية، ثم أشار إليهما آخذاً بلجامي الفرسين ليربطهما إلى المعلف، حيث توفرت الأعشاب الطرية.
عندما خلع الرجل الغريب رداءه ليجلس قبالة النار. أطلق حانوخ شهقة مكتومة من فرط دهشته، كان الغريب وعلى غير العادة المتبعة لا يرتدي تحت سترته الرداء الشركسي، وإنما جُبة فاخرة أشبه بتلك التي يرتديها باشوات القرم المتغطرسين. إنما تختلف عنها بخيوطها الفضية وزركشتها الأنيقة التي زينت خلفيتها الزرقاء الناعمة رسوم لنجوم ودوائر ومثلثات، مما دفع حانوخ إلى الاعتقاد بأنها أشكال ورموز سحرية.
بالإضافة إلى الملابس العجيبة كان الفارس العجيب مدججاً بالسلاح من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. في وسطه زنار عريض تدلى منه سيف قصير، زخرف غمده شرائط وخيوط

ذهبية، أما قبضته فهي من العاج المرصع بالأحجار الكريمة، كما تدلى قرن له غطاء فضي، وخنجر قبرديني رائع صقلته يد أصيلة.
أنزل الخادم من على ظهر جواده كيساً كبيراً، وقوسين ثقيلين حلت أوتارهما، وشيء ما غامض طوله ستة أقدام كان محجوباً تحت غطاء من اللباد.
حاول حانوخ جاهداً أن يكظم فضوله الشديد. جلس أمام النار يتململ وذر قبضتين من القمح في القدر، ثم ألقى بقطعة من الحطب الجاف في النار، وبعدها تناول كوبين خشبيين ملأهما بالحليب من إبريق كان معلقاً في إحدى زوايا المائدة الصغيرة. أخذ الضيف الكوب من الراعي وعب عدة جرعات بطيئة واقتدى الخادم بسيده.
- اجلس يا صديقي توزار .. الآن وبعد أن عدنا إلى أرض الأجداد، لا تنتظر مني دعوة إلى الجلوس.
توسعت حدقتا حانوخ دهشة، وراح ينظر إلى الضيفين مبهوراً. فالضيفان لم ينطقا بأية كلمة لذلك كان حانوخ قد قدر بأن الأغراب لا يجيدون اللغة الشركسية. وهاهو يصعق الآن وهو يسمع الغريب يتكلم القبردينية.
" لابد وأنه رجل ذو شأن."
كان كلام الغريب على شيء من الفصاحة مثل أغاني الجغواكوه[1] فبعض الكلمات لها وقع غير اعتيادي على الآذان. لكنها واضحة وجميلة. جلس توزار على حجر قرب النار بحذر، أما سيده فكأنما أراد أن يشبع فضول الراعي بكشف الستار له عن سرهما.

[1] - الجغواكوة – شخصية فذة في المجتمع الشركسي قامت على نقل الثقافة المروية من جيل إلى جيل، ولعبت دوراً ريادياً في حفظ الفولكلور من الضياع، في زمن لم تتواجد فيه وسائل الكتابة والأرشفة عند الشراكسة.

- توزار .. لقد فعل حسامك برقاب الأعداء ما لم يفعله حسامي. وسهامك كانت أكثر دقة من سهامي. أنت لست بتابع لي أو خادم وإنما زميل قتال.
عند هذه الكلمات غض توزار نظره بحياء، بينما راح الراعي يحرك ماء القدر المغلي منصتاً إلى حوار ضيفيه بحماسة حقيقية.
آه لو أن المقاتل المتجهم يجيب على سؤالين أو ثلاثة من الأسئلة الكثيرة التي ازدحمت في رأس حانوخ. لكنه كان يدرك أنه مهما بلغ به الفضول، فلا يجدر به أن يعلن عنه، فهذا مخالف للعرف. لذلك قرر أن لا يسأل عن أي شيء. ثم أن الغريب أراد بدوره أن يستفسر عن الكثير ويعرف الكثير من خلال لقاءه مع أول رجل يصادفه في القبردي الكبرى، لكن مقامه ونسبه النبيل لا يسمحان له بأن يتباسط بالحديث مع رجل لا ينتسب إلى أصل رفيع. كان من غير اللائق أن يعرض اهتمامه الحي أمامه، فكان عليه أن يتصرف بطريقة أخرى.
نظر الرجل المهيب إلى خادمه توزار وأشار إليه خلسة إشارة ذات مغزى، فهم توزار المطلوب منه، توجه إلى الراعي وقال:
- لقد نبت العشب بكثافة في المراعي، يبدو أن المكان مرعى طيب للخيول الأصيلة.
أدرك حانوخ بفطنته أن السماح بالحديث من قبل الرجل المهيب لا يتضمن إلا معناً واحداً. سعل ثم بدأ بالكلام :
- حقاً عند السيد الكثير من الجياد، ويمتلك الكثير من المراعي الشاسعة. والمراعي تفيض بالخيول. ولكن الأمير أثناء غيابه في غزوة بعيدة، تعرض هو نفسه للغزو. إذ هبط علينا أمير ساق قطيعاً ضخماً من الخيول. ورغم علم الأمير أن لا ذنب لنا في ما حصل إلا أنه استشاط غضباً علينا. بالنسبة لي كان حظي أفضل من الآخرين فأنا فلاح حر أعمل عند السيد. إنني أتفقد خيول الأمير شوجنوقه كل ثلاثة أيام. أدعى حانوخ، اعذروني على

ضيافتي المتواضعة وعلى النار الشحيحة، فلا يوجد غير القمح والجبن والحليب الحامض.
سمع الرجل الغريب كلمات حانوخ وأقدم على حركة دلت على الكثير.
ابتسم توزار وقال:
- المحارب الحق، لا يفكر بهذه التفاهات يا حانوخ الطيب، ضيفك هذا ليس تركياً يحب إمتاع بطنه بالطعام الوافر الدسم. سيدي مسروقة العظيم يتمتع بقوة النارتيين[1] في الوقت الذي يمتنع فيه عن الطعام مثل فتاة رقيقة.
قام مسروقة بحركة دلت على نفاذ صبره، غير أن وجهه لم يشر إلى أي امتعاض أو اعتراض على المديح، أما حانوخ فقد هزته سعادة غامرة.
- لقد سمعت الكثير، الكثير من الأقاويل التي تناقلتها الأديغة عن إخواننا الذين يعيشون في بلاد مصر البعيدة. شكراً يا تحه[2] العظيم لأنك جعلتني أرى أحدهم بعيني.
- توقف أيها الأخ - قاطعه مسروقة - من يعتقد الأديغة الوثنيون هنا بأنه رب الأرباب تحه، ما هو إلا وهم وسراب. إن كل موجودات الأرض خاضعة وستخضع مع مرور الأيام للإله الحق الواحد. الله ونبيه المرسل محمد .
ارتبك حانوخ وراح يرمش بجفنيه، فهو لا يريد مخالفة مسروقة، ولكن موضوع نبذ الأرباب ملأته رعباً. أما توزار فقد أضاف مسقطاً أهمية كبرى على الموضوع وفي محاولة لإقناع الراعي.
- استمع أيها الشاب إلى ما يقوله السيد الجليل، الذي حج إلى بيت الله الحرام في مكة، وحصل على حكمة الكتاب المقدس التي تشهد عليها له عمامته الخضراء المحيطة برأسه.

---

[1] - النارتيون – هم أبطال الملاحم الشركسية التي يعود تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد.
[2] - تحه – اسم الإله الأكبر في مجمع الألهة في الملاحم النارتية.

ذلك الهدير الذي أحس به حانوخ في صوت توزار الهادئ، أتى على البقية الباقية من اتزانه.
- طبعاً، طبعاً - تمتم الراعي - إننا جهلة ولم نحصل على شرف المعرفة، حقاً إن الله ومحمد وأوسا غيرغا هم آلهة طيبون.
- توقف أيها الساذج الجاهل - انتفض مسروقة بحزم وقوة - وإلا تفوهت بما لا يجب أن يُقال. لقد شرحوا لك بمنتهى الوضوح. الإله واحد عظيم، يرى كل شيء وهو الله، أما محمد فهو رسول الله. وبالنسبة لأوسا غيرغي الأمر مختلف، اسمه الحقيقي عيسى والقرآن الكريم جاء على ذكره، ولكنني لا أذكر كل شيء، فأنا منذ الصغر تعودت على تذكر وجوه الأعداء أكثر من تذكري لنصوص الكتاب، حيث الكلمات الحكيمة المقدسة تضاهي بعددها نجوم السماء مراتٍ ومرات. لقد تعودت أصابعي الضغط على قنوات الرماح ومقابض السيوف أكثر من تعودها على تقليب الصفحات.
انشرحت أسارير حانوخ لانتقال الحديث إلى موضوع آخر.
- إن سيدي مقاتل أيضاً، وهو يعشق فؤوس القتال والرماح الطويلة، إن ضيعته على مسافة طلقتين من هنا، وهو بالتأكيد سوف يقتلني إذا لم يعرج مسروقة الجليل عليه كضيف.
- سنذهب إليه حتماً - أجاب مسروقة ببشاشة - لقد نالت جيادنا قسطاً من الراحة، وسوف نتم طريقنا حالما ندعها تشرب. إننا ما كنا لنحملك هذا الثقل، ولكن ليس من اللائق أن ندخل باحة الأمير على خيول ينضح منها العرق، وكأنها خرجت لتوها من مطاردة.
بينما كان الرجال جالسين حول النار، كان الضباب قد تلاشى والسماء نظفت نفسها من الغيوم الداكنة المتجهمة. وللمرة الأولى شاهد مسروقة وتوزار سلسلة الجبال القفقاسية الرئيسية بكل أبهتها وعظمتها. فمن الشرق إلى الغرب وعلى مد البصر، امتد حائط صخري مسنن. ورغم أن الشمس لم تتسلق السماء بعد، إلا

أن القمم المتفرقة المغطاة بالثلج الأبدي بدت وكأنها ارتدت حلة وردية مالت إلى الصفرة.
ارتفع قرص الشمس فوق نهايات السلسلة الجبلية الشرقية. وأحاطت هالة ملونة ذهبية بمجموعة النتوءات الصخرية المتوزعة بغرابة، بينما تخلصت الصخور الثلجية الرمادية الباهتة من غشاوتها، ولبست غطاءاً أزرق اللون. أما الحجارة المتراكمة بشكل عشوائي، فقد أستبدلت قتامتها السوداء بأخرى برتقالية ضربت إلى البنية، وانتصب فوق السلسلة الجبلية، الأوشحة مافه كقائد خرج من بين صفوف جنده بثقة وكبرياء، رافعاً قامته إلى السماء كعملاق. إنه جبل النور كما كان يدعوه قدماء الأديغه.
كان يمكن رؤية كل شيء من مكان تواجدهم. من القاعدة الغرانيتية، حتى القمم المتلألئة المكورة تكور نهد فتاة هيفاء.
بدا وكأن الأوشحة مافه قد رمى عن نفسه متعمداً الرداء الضبابي الذي ما بارحه خلال الأسبوع الماضي، لكي يصعق بفتنته وجماله الأخاذين، المحاربين العابسين العائدين للتو من غربتهما البعيدة.
تسمرت عينا مسروقة على الجبل دون أن تطرفا لحظة، بينما راحت شفتاه تتمتمان بصوت بالكاد يسمع:
- يا الله.... أوشحة مافه...... أخيراً هذا هو أنت..... لم تستطع أسطورة واحدة توارثتها الأديغة في مصر منذ قرنين حتى الآن أن تفيك حقك. أية جبال وهضاب أرى، أية أنهار ومياه رقراقة نظيفة خيرة، أية غابات عملاقة عذراء. إن جنة عدن تتواضع أمام هذا الجمال... آه اغفر لي يا رب زلة لساني التي صدرت رغم إرادتي.
كان توزار يتنفس بعمق خلف سيده، بينما كان حانوخ يسقي الجياد حتى الارتواء. تلمس سرج حصان توزار الذي علق عليه الكيس الذي يحوي القوسين الكبيرين، وتلك اللفافة الضخمة التي يختفي تحتها شيء ما ثقيل. رمى توزار على كتف سيده رداءه

بينما قفز مسروقة بخفة دون أن يلمس الركاب واستوى جالساً على ظهر جواده.
- أنت تستحق الشكر - توجه مسروقة إلى حانوخ - وقد تسنح لي الفرصة يوما ما لأكافئك.
- من أجل ماذا؟ - تعجب الراعي -
- ربما لأن اسمك حانوخ.
تبسم الفارس الجليل ولكز حصانه، في حين تبع توزار سيده.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

تقع الضيعة الأميرية بمبانيها الخمسة عشر، على منحدر تلة متواضعة الارتفاع، بينما تتزاحم في الأسفل على ضفة النهر الضيق الذي يصب في بالك، أكواخ الفلاحين التي لا يمكن أن تصنف كمساكن. أكواخ هزيلة من أغصان خشب الجوز ضُفرت ثم طليت بالطين وفرشت أسقفها بالقش الكثيف، بينما ارتفعت وسط كل كوخ اسطوانة دائرية تدل على وجود نار وموقد.
عموماً لم تكن بيوت الأمراء بحالة أفضل. وما كانت لتختلف معمارياً عن أكواخ الفلاحين إلا بأبعادها. فبيت الأمير شوجنوقه يعادل في حجمه ثلاثة أكواخ. جدران منزله مضاعفة، ويرتفع من سقفه ثلاثة مداخن، بنيت إحداها من الحجر الخالص لتدل على موقد المضافة، أما السقف نفسه فهو مدهش بجماله وقد صنع من أعواد القصب التي جلبت من ضفاف بحيرة تامبوخان.
كانت المنازل الأخرى مساكن للمقربين والمحاربين والخدم وهي تقع إلى الأسفل قليلاً من دار الأمير.
إلى الأسفل، تقع البوابة المفتوحة على حظائر الخيول والأبقار، وإلى تلك الأماكن المخصصة لتربية الماشية، وكذلك مستودعات الأعلاف، وأماكن حفظ الحبوب والمواد الغذائية المختلفة.

عبر مسروقة وتوزار الدرب الضيق الذي امتلأ بآثار حوافر الخيول حتى وصلا إلى السياج المجدول. وبدا واضحاً لهما أن الأمير الذي كان متواجداً في باحة الدار، يستعد لرحلة صيد. كان بعض الشبان الأقوياء بنظراتهم الحادة يسرجون الخيول ويجهزونها بالأسلحة المختلفة، ويشحذون حوافرها. أما الأمير نفسه، فكان جالساً يثني قوسه في محاولة لشد الوتر عليه.

دخل مسروقة باحة الدار بثقة كبيرة، وتوقف أمام الأمير الذي لم يكن من الصعب التعرف عليه من ملابسه ومن خلال تعابير وجهه الصارمة الجميلة.

التفت الأمير إليهما ورمى بقوسه جانباً، على حين ومض شعاع من الفضول للحظة على وجهه سرعان ما تلاشى دون أثر، لترتسم عليه علامات الترحيب الصادقة.

- آي ببرد.... عندي ضيوف - صاح الأمير منادياً كبير خدمه -

خرج رجل عريض المنكبين قصير القامة. أسرع وتناول من توزار لجام حصانه. كانت نظرة واحدة كافية ليدرك الأمير منزلة ضيفه التي قد لا تقل شأناً عن منزلته كسيد لعائلة شوجنوقة.

- وصلت إلينا بالسلامة أيها الضيف العزيز، الأمير جامبوت شوجنوقة يرجو أن تحل عليه ضيفاً حيث ينتظركم دفئ الموقد.

تلفت الأمير ملاحقاً خدمه.

- إيه أيها الناس افرشوا لضيوفنا في البيت ولا تنسوا الخيول، واعتنوا بخيولنا أيضاً، لن يكون هناك اليوم صيد .... ببرد ! أين هو؟ آ ... صديقي الطيب يعرف كيف يدير العمل بنفسه.

بين زاويتي المضافة توسط باب ضخم مزخرف، توضع بين فتحتين ضيقتين تسمحان للضوء بالتسلل عبرهما، لينتشر النور الخافت الذي يكشف عن نظافة المكان. وعلى الجدار المقابل للباب، تدلت سجادة مزركشة من اللباد الأحمر، انتصبت تحتها أريكة خشبية فرشت بالصوف الأبيض.

ووجدت السيوف والخناجر وقرون الماعز البري أماكن لها على الجدار. أما على طول الحائط الأيمن فقد امتد مقعد طويل ومناضد ثلاثية القوائم. وعلى مسافتين متساويتين من مركز الغرفة وجدرانها، غرس في الأرض المرصوصة جيداً عمودين غليظين أخذا من خشب شجر الدلب، ليحملا عارضة السقف الأساسية، التي استندت إليها الجسور الثانوية الموزعة بانتظام تحت السقف. وتم استخدام الأعمدة لتعليق الأسلحة والسياط وعدة الخيل. وفي منتصف الجدار الأيسر انتصب الموقد الكبير المتميز عن مواقد الفلاحين بحجمه.
شاهد مسروقة خلال حياته الكثير من القصور الشرقية الفارهة. وعاش أعواماً طويلة في البيوت الرخامية التي تشبه بيوت الحكايات الخرافية. فبدت له مضافة الأمير شوجنوقة بالمقارنة مع تلك القصور كوكر كلب. غير أنه لاحظ أن المضافة كانت نظيفة للغاية ومريحة إلى حد ما، ثم أن الأمير كان راضياً تماماً عن مضافته ولم يكن يعتبر نفسه فقيراً.
"هذا يعني أن الأمراء الآخرين أسوأ حالاً - فكر مسروقه - لابد وأنهم لا يفكرون إلا في الصيد وفي الأمجاد القتالية".
نزع جامبوت بنفسه رداء الضيف وبالكاد تماسك عندما ظهر تحته ذلك الثوب العجيب.
"لا يمكن أن يكون تركياً - راح الأمير يحدث نفسه- لا يمتلك الأتراك ملامح قبردينية حقيقية. هيئته وشكله لرجل جبلي من الرأس حتى أخمص القدمين، إن ذلك واضح وضوح سماء الخريف قبل طلوع الشمس. لرجلنا عيون عسلية ضاربة إلى الخضرة وشعر أشقر، ولم يصادف أن قابلت مثل هذه العيون عند الأتراك".
قام مسروقه بخلع حسامه بنفسه، ووضعه حيث أغراضه الخاصة الأخرى.

- اجلس توزار - للمرة الأولى ينفرج ثغر مسروقه - إذا لم يجلس المحارب على سرجه فهو إما قرب نار موقدة، أو خلف مائدة عامرة.
- نعم .. نعم - أردف جامبوت شوجنوقة - إن من يدعو الرجال هو لاشك أكثر رجولة منهم.
جلس ببرد وتوزار في نهاية المصطبة تاركين انطباعاً لدى السادة بأنهما لا يريدان أن يثقلا عليهما بتواجدهما. لم يشأ الأمير مسروقه أن يخفي شخصيته عن مضيفه، لذلك سمى نفسه وحدثه عن رحلته الشاقة الخطيرة.
- أنت ترى أيها الأمير أمامك رجلاً قادماً من مصر البعيدة التي استبد بها الإنكشاري السلطان سليم. اسمي مسروقه وهو الاسم الذي ادعى به، أما اسمي الحقيقي فهو طومان باي تيمناً باسم عمي الملك طومان باي[1]. ولكنني بعد أن عدت إلى الأرض، حيث كان أجدادنا يتزاورون ويستضيف أحدهم الآخر فيها، سوف أكني نفسي بتامبي فإن له وقعاً أكثر قبردينية ولن يكون شاذاً ليلفت أنظار الجواسيس الأجانب القادمين من وراء البحار.
- يشرفني أن أرحب بك في منزلي المتواضع أيها الضيف النبيل - قالها جامبوت بشيء من الاضطراب - مسروقه، تامبي من كان يمكنه أن يتكهن ... لقد وصلتنا الأخبار حول سقوط حكم الأديغه، وأن طومان باي ! لا أدري هل حقاً حصل ..؟
- نعم لقد حدث - قاطعه مسروقه - لقد حكم السلطان سليم على عمي بالإعدام. إن مشيئة الله لم تكتب له الموت في ساحة القتال كما مات سلفه قانصوه الغوري. وأحمد الله أن والدي لم يعش ليشاهد تلك الأيام الأليمة المهينة.
عشت وحيداً دون عائلة، والأحداث المتسارعة لم تترك لي مجال تكوين أسرة. و لم أستطع البقاء في القاهرة بعد المعارك.

---

[1] - طومان باي – المقصود به هنا آخر السلاطين في دولة المماليك البرجية التي حكمت مصر وبلاد الشام قبل أن يهزمه السلطان سليم العثماني.

لذلك قررت العودة إلى أرض الأجداد ... إلى الوطن الأم في القفقاس.
- وهذا الثوب الذي يرتديه رجال الدين ساعدك في رحلتك؟ - سأل شوجنوقه دون أن يطرح سؤاله مباشرة -
- نعم أنت على حق - ابتسم مسروقه - ولكنني أعتقد أنك لن تختبئ تحت هذه الثياب التي لا تعود إليك حقيقة. إن المقاتل لا يحني هامته بمثل هذه الخسة حتى ولو كان الأمر يتعلق بحياته الشخصية. لقد استحققت شرف رتبة الحاج الشريفة مع شرف ارتداء هذه الملابس عندما قمت بزيارة الأراضي المقدسة في مكة المكرمة. ولكن، لن تراني هنا في القبردي إلا في زيي الشركسي معتمراً خوذة المحارب، يبدو من الصعب أن تجعل من مقاتل أديغي رجل دين، كما هو صعب تحويل رجل دين تركي إلى مقاتل.
- ضحك شوجنوقه من كل قلبه.
- إن بلاغتك هذه أيها الضيف الغالي تنسجم تماماً مع صفتك الشريفة، ولك حق علينا أن ندعوك بالأمير الأكبر.
- قبل الحديث عن الحقوق والألقاب، لا أطمح الآن بأكثر من حقوق الضيافة.
هب مسروقة واقفاً عندما دخلت المضافة امرأة فتية حسناء ترتدي ثوباً أبيضاً طويلاً طرز بخيوط ذهبية رائعة، توسطه حزام فضي أحاط بخصرها النحيل، و اعتمرت قبعة من الجلد الأبيض المزركش بالخيوط الملونة. كان لها عينان سوداوان مثل ثمرتين يانعتين توضعتا تحت جناحين دقيقين لحاجبين فاحمين. هاتان العينان كانتا تنظران بهدوء وانتباه. حملت المرأة بين يديها صينية بيضاوية الشكل، عليها جرة مكتنزة مع بعض الكؤوس الخشبية الصغيرة.
- غواشه[١]، سيدة نار موقدي - قدم الأمير زوجته للضيف.

[١] - غواشه – كلمة شركسية ويقصد بها هنا السيدة.

- إن في وصول الضيوف إلينا بركة وسعادة - قالت الأميرة وهي تنحني واضعة الصينية على المائدة -
- إن البيت الذي تعيش فيه مثل هذه الربة لابد أن يكون سعيداً - أجاب مسروقه بنبرة جادة وهو يتناول كأساً من يد المرأة -
- إن السيدة تسعى لكي يرضى ضيفنا النبيل القادم من مصر عن حسن ضيافتنا.
قدم شوجنوقه الضيف إلى زوجته بلباقة. ارتفع حاجب الأميرة دهشة وفرحاً عند سماعها نسب الضيف، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة كاشفة عن سرب من الأسنان الناصعة المتناسقة. انحنت الأميرة مرة أخرى ثم انسحبت بوقار دون تسرع.
خلال هذا كان اثنان من الفتيان قد وضعا قدراً مملوءاً بالماء على النار، ورموا قطعاً من لحم الضأن فيه، ثم توجه أحدهما وتسمر أمام المدخل كحارس استلم نوبته. أما الثاني فقد واصل عمله دافعا الحطب جانباً ليحتل مكانه خروف كامل من أجل شوائه.
- أما الشراب فمخمر؟ - سأل مسروقه وهو يمسح شاربيه - أعتقد انه شراب الـ..
- لا ليس شراب العنب - طمأن جامبوت ضيفه - إننا نعلم أن المسلمين لا يشربون الخمور، إنه شراب العسل.
- آه لقد تذكرت الآن - قاطعه مسروقه - إنه الماخسمة، سمعت عنه من أجدادي. إننا في مصر ما كنا نشرب إلا (الشربات).
قام ببرد بإعادة صب الأقداح الفارغة، ثم عاد إلى مكانه لينضم إلى توزار، حيث كان هناك إبريق يطفح بالماخسمة المنعشة.
- اعتقد أنني ضعيف الإيمان - تبسم مسروقة وهو يتناول القدح من جانبوت - فأنا أتذوق ما ُقدم حتى ولو كان خمراً. يبدو أن الله سوف يعاقبني على تهاوني وتسامحي مع بقية الأديان. فها أنا أعلم سلفاً أن اسمك شوجنوقه، ومع ذلك طرقت بابك دون تردد، مع أن شوجن هو خوري مسيحي قبرديني، أليس كذلك؟

- نعم، يبدو أن أحد أجدادي قام بالعمل مع أحد المبشرين الإغريق. أما الآن فإن الدروب تغص بالأتراك والتتار. إن الشوجن يلوموننا على إهمالنا ديانة أوسا غيرغي، والناس البسطاء لا يدرون إلى أية جهة يديرون وجوههم، ولكن الجميع لا يريد أن ينسى آلهته القديمة.
- الآلهة الوثنية- صحح مسروقه- على حين سكت جامبوت.
بدأ الشاب الواقف أمام عتبة المضافة بتناول أطباق الطعام وإيصالها حتى المائدة. الجبنة البيضاء الدائرية، رؤوس الثوم، العسل، القشدة، وغيره الكثير من مختلف أنواع المأكولات. بينما قام رفيقه بوضع الأضلاع المشوية التي ما زال الدسم يقطر منها أمام الضيوف. لم يأكل مسروقه كثيراً وإنما اكتفى ببضع لقيمات من كل نوع، ثم طلب الماء القراح. شرب مسروقه بتمهل شديد وكأنه يتلذذ بالماء.
- أليس من الأفضل شرب الماخسمة؟ فالماء يبقى ماءاً بكل الأحوال - سأل جامبوت -
- لا جدال في ذلك، الماء يبقى ماءاً، ألا فلتعلم أنه في الصحراء الإفريقية لا شيء أغلى من الماء. إنني خلال حياتي كلها لم أتذوق مثل هذا الماء المنعش. نعم ... نعم لا تستغرب عدم ارتوائي إنني لا أستطيع منع نفسي من الاكتفاء منه.
- لماذا اختار الله أرضاً قاحلةً ليبعث منها رسالة الإسلام؟ ماذا يقول الكتاب الكريم حول هذا الأمر.
- بصراحة يا ابن شوجن إنني لم أتقن الكتابة تماماً، ثم لماذا على المقاتل أن يجيد القراءة. لقد وجد الأئمة من أجل شرح هذه الأمور. لقد كانت لدي رغبة أكيدة بتعلم الفقه، وأن أستخرج أسرار القرآن الكريم، إلا أن الأحرف العربية كانت تبدو لي مثل خرزات الدروع المتشابكة. ومع ذلك فإن ملوك الأديغه كانوا علماء ضليعين، ونشروا العلم.

- ربما أردت أن أتعلق بدوري بالدروع أكثر من الكتب - ضحك جامبوت بطيبة - خاصة بدرع الأمير الذي ساق أمامه نصف جيادي ولا أعلم حتى الآن من يكون.
- لقد سمعت عن هذا من حانوخ الراعي - قال تامبي - وقفنا عنده هذا الفجر بعد مسيرة طويلة استمرت الليل بطوله، وأخبرنا بأنك سوف تقتله إذا لم نعرج عليك.
- ربما قتلته فعلاً - صادق شوجنوقه على قول تامبي -
- والآن يجب أن يكافأ وسوف أفعل ذلك بعد إذنك. فبعد التعب المستمر، والوحدة القاسية تدخل القبردي ليطالعك أول وجه قبرديني. ثم ماذا ! يحمل اسماً له من الدلالات ماله.... حانوخ. اسم الذئب.
- هذا صحيح - وافق جامبوت -
- ولكنك تنسى أن نوخ باللغة الفارسية تعني الصبر وهكذا يصبح معنى الاسم.... صبر الذئب.
- إنها دعابة جميلة - ضحك الأمير - حسناً وبمناسبة حلنا لغز هذا الاسم، يمكننا شرب قدح آخر.
- أفضل الماء الزلال أيها الأمير العزيز، فالماخسمة هذه خطيرة ولا يستطيع مقاومتها حتى الدرع الرومي.
- الدرع الرومي ! إنني لم أرى مثل هذا الدرع.
- إذاً سوف تراه.
نهض مسروقه وحل رداءه الذي كان يخفي صدره حتى العنق وما أن برز ذلك الشيء حتى غص ببرد وسعل، أما جامبوت فبالكاد استطاع أن يحتفظ بتوازنه. لقد كان جسد مسروقه حبيس قفص فضي لامع ضارب إلى الزرقة. كان درعاً أتقن صانعه صنعه، تلعب عليه ألسنة اللهب. بتحدبه أخذ شكل الجسد، وعند فتحة العنق والذراعين تلألأت براشيم ذهبية نجمية الشكل. وعلى الجنب الأيسر وعلى مستوى الصدر تماماً، كان الرجال يشاهدون وجه أسد مذهب برزت أنيابه عن زمجرة وحشية. ارتبط النصفان الأمامي والخلفي للدرع بأحزمة متينة من

الذهب الخالص، وفوق وجه الليث المزمجر كانت هناك نقوش لكتابة عربية.
مد جامبوت يده بحذر ليلامس المعدن المصقول فوجده ناعماً بارداً ورأى انعكاس أصابعه عليه.
- نعم إن هذا الدرع ثمين حقاً.
- إنه ثمين جداً - قاطعه مسروقه - وقيمته العظمى تكمن في هذه النقوش المقدسة.
- ما هذه الكلمات؟ وما هو المكتوب؟
- إنها تعويذة سحرية، ودعوة إلى الله تطلب منه الحماية ضد أي نوع من أنواع الأسلحة. أنا لا أعلم حرفياً ما هو المكتوب ولكنني أستطيع أن أروي لك ما يثير اهتمامك حول هذا الشيء الذي صنعه حرفيو ميلان. ولكن خشيتي أن أبدو ثرثاراً تعيقني وخاصة أن شرابك أيها الأمير قادر على فك عقدة لسان الأبكم.
- آه يا تامبي، يا ضيفي العزيز، أيها المحارب العظيم هل تريد أن تقنعني أن عدة أقداح من الماخسمة تستطيع أن تعكر صفاء وعيك وأن تنتزع قوة ساعدك.
كانت ابتسامة جامبوت العريضة صادقة ولم يستطع مسروقه إلا أن يبادله الابتسامة.
- حسناً إليك هذا الخبر إذاً.

الخبر الثاني

يقودنا إلى فكرة تقول:
مهما كان النجاح بعيداً، سيجد الإنسان إليه طريقاً .

ـ قبل عدة سنين، كنت أقضي أجمل سنوات عمري كفارس مقاتل. أقود مجموعات عدة من المحاربين المتحمسين. كنت أعشق ألعاب الفروسية، وأدرب شبان العائلات النبيلة على حمل السلاح، وعلى فنون القتال. قضيت الأيام في حلٍ وترحال. أجوب الدولة المصرية الواسعة من أدناها إلى أقصاها. أخوض المعارك الشرسة لترويض القبائل المتمردة، وألاحق الأتراك الملاعين الذين صالوا وجالوا في سورية دون رادع يردعهم. كانوا يتوغلون بوقاحة وصفاقة داخل الأراضي المصرية. كنت أقضي الأيام والليالي مفترشاً سرج جوادي. صابراً على قيظ الصحراء الملتهب مستبدلاً الماء العذب بدماء الجمال، أو بمياه المستنقعات المالحة النتنة. لقد كان اهتمامنا كأديغة ينصب في المقام الأول على الخيل والسلاح. ولم نعر أطايب الطعام والشراب اهتماماً حقيقياً.

بيتنا.... بيت والدي، ذلك النبيل الوجيه في القاهرة، كل شيء فيه صمم لراحة ورفاهية نزلائه. توفي والدي باكراً، وترك لي ثروة ضخمة. أواني ذهبية، سجاد من أنفس الأنواع غطى الأرضيات والجدران الرخامية. أما حديقة المنزل فكانت غناء ظليلة. غنية بالأزهار الملونة، وتنضح بالثمار على الأشجار، حتى تكاد أغصانها تلامس الأرض لثقلها. وكان يفصل الحديقة عن الشارع المغبر سور ضخم. كل هذا كان ملك لي.... ولكن السأم والكمد سرعان ما أرغماني على نبذ حياة الرفاه والانتقال

إلى داخل جدران القلعة، حيث كان المقاتلون يتجمهرون هناك. كنت أنتمي إليهم. كانت حياتي هناك حيث الضحك الهادر وصفير السهام المرسلة إلى أهدافها المنصوبة. في الأمسيات كانت رائحة القطران تفوح من المشاعل وروائح روث الخيل تنتشر في المكان. لطالما أعادت إلي جدران تلك القلعة ذكريات الأجداد وحكاياتهم عن قلعة سلطان مصر وسوريا العظيم صلاح الدين. إن الإفرنج والروم والإنكليز يخطئون في تهجئة اسمه عندما ينادونه بسالادين. في تلك القلعة كان يتواجد قسم من قوات الأديغه التابعة للخليفة البغدادي الذي كان يحلم بخدش عرش سلطان المماليك البحرية التركي حاج بن شعبان.

تعلم أن صلاح الدين أسس الدولة الأيوبية في مصر. لقد اشترى واختطف الآلاف من المماليك البحرية الذين ينتسبون إلى الأتراك السلاجقة. وجعل منهم مقاتلين أشداء، سرعان ما غزوا السلطة وبنوا دولتهم. ثم أن السلاجقة بعد نحو مائة وأربعين عاماً تعرضوا للهزيمة. ليحتل زعيم قادة الأديغة برقوق سدة الحكم، حارماً الخليفة العباسي من حلمه. دعي برقوق بالملك الظاهر. استمر حكم الأديغه نحو مائة وخمسة وثلاثين عاماً. أطلق الأجانب علينا تسمية المماليك البرجية رغم أن التسمية لا تتطابق مع واقع حالنا نحن الأديغه والقبردين والشركس.[١] إذ أن العباسيين قاموا بدعوتنا من القفقاس، لا بد وأنك سمعت بهذه الأحداث يا عزيزي شوجنوقة.[٢]

كان الفتى المسمر عند المدخل يستمع إلى الحديث بكل جوارحه، حتى أنه لم يلحظ اليد التي مست كتفه عبر الباب.

---

[١] - يعيش الأديغي في جمهورية الأديغي، كما يعيش القبردي في جمهورية قبردينا بالقاريا، أما التشركيس فيقطنون جمهورية قرشاي تشركيسك. وكلها تقع ضمن روسيا الفدرالية. وعموماً الكل لهم الاسم القومي أديغه.

[٢] - لا شك أن الكاتب يتجنب الحقيقة التي يعلمها هو قبل غيره. فما ينطيق على المماليك البحرية ينطبق على المماليك البرجية.

- وهكذا أعود مرة أخرى إلى الدرع. فهو يعود إلى صلاح الدين العظيم. الذي حصل عليه ضمن مجموعة من الهدايا التي قدمها له غريمه وعدوه ريتشارد قلب الأسد ملك الإنكليز، بعد أن وقعا على هدنة إثر معركة كاد الفرسان الصليبيون أن يتعرضوا للإبادة فيها. يجدر بالذكر أن صلاح الدين وريتشارد كانا خصمين شريفين، يكنان لبعضهما الود والاحترام الشديدين. وعلماء التاريخ يؤكدون أن هذا الدرع صنع في ميلان خصيصاً من أجل الملك ريتشارد، لكنهم أخطأوا في مقاييس الدرع الذي لم يتناسب وجسد الملك الإنكليزي الضخم. لذلك لم يُقدر لهذا الملك أن يرتدي الحلة التي تحمل صورة الأسد المزمجر. وهكذا وقع الدرع بين أيدي السلاطين البحرية ومنهم انتقل إلى السلاطين البرجية. وكان آخر من ارتداه قريبي السلطان قانصوه الغوري. إن الصدأ لا يعلو هذه الحلة أبداً وهو يختزن قوة سحرية تعصمه عن أسنة السهام والمزاريق وشفرات الفؤوس وحد السيوف ورؤوس الرماح. وللأسف القدرة السحرية هذه لم تنفع السلطان قانصوه، إذ أن سهماً استقر في عنقه وأرداه، فمات مختنقاً بدمائه. بعد مقتله تحول العرش إلى عمي ومولاي طومان باي. قدر لذلك الرجل المسن المريض أن يكون آخر السلاطين.
ذات يوم أرسل السلطان خلفي يطلبني لغرض هام وسري. استقبلني في قاعة الأسلحة لا في بهو الاستقبال. كانت الأسلحة التي زينت الجدران والزوايا كافية لتسليح مائة فارس. استلقى طومان باي على أريكته وقد بدا التعب واضحاً عليه. أرغمني على الجلوس إلى جانبه على وسادة جلدية دمشقية . وأمر خدمه ومقربيه بمغادرة المكان لنبقى على انفراد.
- ثقتي بك كثقتي بابني البكر- هكذا بدأ طومان باي حديثه - أتظن أننا قادرون على الوقوف والصمود في وجه السلطان سليم؟ إنه يعد العدة للمعركة الحاسمة.
كان السؤال مفاجئاً، أجبت :
- إنني لا أعتقد أن هناك خطراً جدياً يتهددنا.

- وهذا ما كان يظنه قانصوه - تأوه عمي بألم - لقد اهتم بالبلاد كثيراً. أقام القنوات وشق الطرقات. بنى المساجد الجميلة والمستشفيات، فتح المدارس والمكتبات. بل إنه اهتم حتى بالحجيج فحفر لهم الآبار الجديدة على طول الطريق إلى مكة. ولكنه استنزف الدولة بهذا وتركها تفتقر إلى احتياطي الجياد. كان الأفضل لو أنه دعم القدرة العسكرية للبلاد، كم من النقود ألقاها بين أيدي الشعراء والموسيقيين.

وافقت عمي إذ لا يجوز أن نقلص عدد الجياد، ثم إنني كنت مقتنعاً تماماً بأن جواد أصيل واحد يساوي عشرة شعراء موهوبين.

- والآن لننتقل إلى مسألة أخرى - أردف طومان باي وهو يرفع جسده عن الأريكة ملتفتاً برأسه إلى المنضدة السوداء - لابد أنك تعرف ذلك الدرع. لماذا لم ينقذ قانصوه؟ أعلم... أعلم أن السهم وقع في عنقه ومع ذلك، لماذا لم تحرف قوى الدرع السحرية ذلك السهم عن هدفه؟ ألا تعلم؟ أنا أعلم .. نحن مسلمون ومع ذلك ومنذ أعوام طويلة لم يتوجه واحد من عائلتنا إلى زيارة بيت الله الحرام والدعاء هناك أمام الكعبة الشريفة. إنني أريد منك أن تقوم بذلك مرتدياً هذا الدرع. وأريد منك أن تقترب من الحجر الأسود وتلامسه، وأن تطلب من أحد الأئمة هناك بأن ينقش على المعدن بضع آياتٍ قرآنية أو دعاءاً يتوجه فيه إلى الحنان المجيد. أعتقد أن هذين الاسمين مناسبين للدعاء في ظل ظروفنا الحالية.

- صمت الملك ثم أزاح عمامته جانباً ومسح العرق المنصب من رأسه الأصلع وأضاف - كان بودي أنا القيام بهذه الخطوة، لكن الواقع يرغمني على البقاء هنا في القاهرة. وعلى كل الأحوال ما كنت لأستطيع إنهاء مثل هذه الرحلة مع وزني وتلك الحلة الثقيلة على جسدي. إن شرف ارتداء الدرع والوقوف أمام صفوف المقاتلين وقيادتهم منوط بك مسروقه، إنك أملي الوحيد مع الذخيرة المقدسة هذه، والتي أرجو أن تساعدك على قهر الأتراك.

كنت أحلم دائماً بقيادة الجيوش ولكن، أنا الذي لم أتجاوز بعد السادسة والثلاثين أقود قوات الدولة .. إنه حلم ما كنت أتوقع تحققه في مثل هذه السرعة.
- أدامك الله يا مولاي، لقد ألهبت روحي - أجبت بعد تفكير - هناك ابنك أصلح مني للقيادة ثم ماذا عن المقاتلين فبينهم من هو أكبر سناً وأكثر تجربة.
أشاح طومان باي بيده باستياء واضح.
- ابني ! يلعب الهواء في رأسه. قد تولد الحكمة الدبلوماسية لديه في يومٍ من الأيام، أما أن يقود جيشاً فهذا ما لا يمكن تصوره. وبخصوص الصناديد الذين ذكرتهم، لقد أفسدهم الدلال وتمرغوا بالأبهة وتشاغلوا بالمناحرات كالديوك المتصارعة. لا يامسروقة، لقد قررت وسوف أعلن عن عزمي حالما تعود من رحلتك. لا تنس أن تأخذ مالاً معك ..... سوف أنادي الخازن ..آ.. يمكنك أن تتصرف بنفسك.... خذ ما يكفيك فسوف تتعامل مع أناس يلبون رنين الذهب أكثر من تلبيتهم نداء المؤذن للصلاة..... ليغفر الله لي..... والآن لقد أتعبتني... اذهب واستعد للسفر ولتنطلق بعد صلاة العشاء.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لم نتأخر في إعداد ما يلزم. ما أن ابتلعنا بضعة لقيمات حتى حل الظلام، وتحت جناحه انطلقت وتوزار، تصحبنا ثلة من المحاربين المدججين بالسلاح، سالكين الجهة التي تتوجه إليها أنظارنا عند كل صلاة. مضت ليلة ثم نهار ، وليلة ونهار آخر، خلفنا ورائنا الهضاب الغنية للنيل لتستقبلنا الصحراء القاحلة، حيث لا محطة تتوقف عندها إلا خيمة بدوي. هذا إن ابتسم لك الحظ. وربما تقابل بعض قراصنة الصحراء وقطاع الطرق. إن دروب الصحراء تحفل بمثل أولئك اللصوص من العبيد المارقين أو الفارين من الخدمة في الجيش. غير أننا لم نكن تجاراً أو

رحالة مترددين، لقد كنا نشكل كتيبة عسكرية مقدامة، تستطيع مجابهة أي عدوان، حتى وإن وصل عدد المعتدين إلى المئات من قطاع الطرق. بعد عدة أيام وصلنا الى شاطئ البحر الأحمر، إلى ذلك الجزء الضيق الذي يفصل الساحل الإفريقي عن الأرض العربية، أرض النبي محمد صلى الله عليه وسلم. امتد طريقنا على طول الساحل لعدة أيام. فتارة نقترب منه وتارة يختفي، كنا نستحم بالمياه المالحة الحارة حتى ننفض عن أجسادنا الغبار الأصفر الصحراوي. ولكن هذا ما كان ليريح أجسامنا، فسرعان ما تجف الأبدان لتتكون رواسب ملحية بيضاء تهيج جلودنا، وإذا أضفنا إلى هذا وذاك أشعة الشمس الحارقة التي لا تحتمل، ورياح الخماسين التي تستمر في هبوبها لمدة خمسين يوماً خلال موسم فيضان النيل. جارفة أمامها الحصى من جنوب البلاد. عندما تقع وسط هذه الدائرة سوف تدرك ما معنى أن تجوب أصقاع مصر العظيمة. حتى تلك الآبار النادرة التي يمكن أن تصادفك، لن تكفي مياهها المتجمعة نقطة نقطة حصانك المنهك. ولكن ولله الحمد، الحصان العربي جلود ويتميز بصبره على الماء....كنا مسرعين، لهذا كنا نتوقف فقط بين منتصف النهار وموعد صلاة العشاء. فالقيظ خلال هذه الفترة يكون على أشده. وكنا نتوقف قليلاً قبل الفجر لتستعيد الخيول أنفاسها.

غادرنا القاهرة عند أول القمر. وها نحن بعد يوم من ولادة قمر آخر يرسل ضيائه علينا، تسرع خيولنا دون أن نستحثها لتصل إلى بوابة خان قذر يقع على طريق القوافل. ورغم افتقار هذا النزل إلى أدنى درجات النظافة والنظام إلا أنه اجتذبنا كما تجتذب المصيدة فريستها... اختلط الحابل بالنابل في ذلك المكان، الحراس الموكلون بدب الذعر في قلوب اللصوص، والتجار الذين يتفحصون بضائعهم، والبحارة الذين ينقلون الناس إلى جدة، وأولئك الذين يلعبون القمار بالعظام مخالفين بذلك تعاليم الدين الحنيف، والدراويش الذين يتزاحمون حول القدور التي

تغلي فوق النيران، بثيابهم الرثة ووجوههم النيرة المباركة. روث البعير ونهيق الحمير، بقايا الطعام ورائحة البول النتنة، غيوم الذباب المزعجة وصياح الناس. وفوق كل هذا يجب أن ندفع الأجرة نقداً رناناً...... لحسن الحظ استطعنا حجز مكانين على ظهر السفينة الرابضة عند الشاطئ بعد أن اتفقنا مع ربانها الكويتي بأن يسمح لنا باصطحاب جوادين مقابل أجرة مضاعفة. قررت التخلي عن حاشيتي فالمسافة من جدة إلى مكة قصيرة ثم أننا يجب أن نسارع في العودة. لذلك تركت حاشيتي في الخان.
اشترينا في جدة قطعتين من قماش أبيض سترنا بها أجسادنا الخاطئة، وحثثنا السير إلى مكة المكرمة في ملابس الإحرام التي يرتديها الحجاج عادة. كنت قد لبست درع صلاح الدين تحت ثياب الإحرام فوق بطانة رقيقة من الجلد. أما توزار فقد أخفى تحت ردائه كيساً مكتنزاً بالذهب وخنجراً حاداً. أما ملابسنا فقد حزمناها ووضعناها على ظهور جيادنا. عند إشراقة اليوم التالي ارتفع الغبار تحت سنابك الخيل ونحن نتوجه إلى مدينة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتراءت لنا من على بعد تلك التلال التي كنا نسمع عنها منذ الصغر، ثور و الصفا، عند غياب الشمس كنا ندلف من بوابة مكة..... توقفنا عند الجدار الجنوبي للمدينة عند مرابض الخيل وتوجهنا إلى مركز المدينة. هناك إلى جانب السوق الممتد رأينا الكعبة الشريفة بشكلها الرباعي وقد أسدلت عليها الستائر السوداء.... هذه هي الكعبة الشريفة......اختلطت الأصوات المتنافرة في الساحة الصغيرة المقابلة لمدخل الحرم. مجموعات الدراويش تحوم وتغمغم بمختلف الأدعية والتعاويذ مع أصوات وصراخ الباعة الذين عرضوا بضاعتهم المكونة من خبز الشعير وكرات الجبن، البلح والجوز بالإضافة إلى العقاقير التي تعالج الجروح وأمراض المعدة. وكان هناك موزعوا الماء وهم يضربون على صنجاتهم النحاسية الصغيرة. شققت طريقي خلال هذا الصخب ودخلت الحرم. بينما بقي توزار خارجاً ينتظر عودتي. لم يكن توزار

مستعداً بعد لأن يحمل على عاتقه تلك الوظائف والمسؤوليات التي تجعل منه حاجاً بالدرجة الأولى ثم مقاتلاً.[1] أما بالنسبة لي فالقضية منتهية، فأنا أمير وأية مرتبة دينية أحصل عليها سوف تبقى في المرتبة الثانية وسوف يبقى لقب الأمير هو الأساس.
كان الهدوء يخيم داخل الحرم، وجموع المصلين اتخذت وضعيات مختلفة بين ركوع وسجود.....عند الجدارين الشرقي والشمالي ازدحم قراء القرآن وقد فتحوا مصاحفهم ذات الأغلفة السوداء الضخمة المسترخية على مساند خشبية، وقد ثبت القراء أنظارهم عليها بينما راحت شفاههم تتحرك وهم يتلون آيات الذكر الحكيم.....عند الركن الشمالي الشرقي للكعبة الشريفة، وعلى مستوى صدر رجل توضع الحجر الأسود. حجمه لا يتجاوز حجم سرج حصان قبرديني، ومع ذلك فإن لهذا الحجر من القيمة ما لألماسة بحجمه. لا بل إن حجارة من الألماس التي يمكن لها أن تبني بناءاً يضاهي الكعبة لن تمتلك ما يمتلكه الحجر الأسود من القيمة. إنه حجر أنزله الله من السماء عندما نقص بناء الكعبة حجراً. كان سطح الحجر ناعماً متقعراً مثل فولاذ درعي. أدركت فيما بعد أن هذا التقعر نجم عن كثرة ملامسة شفاه الحجاج للحجر. غمرني شعور لا يوصف، وفاضت عيناي بالدموع وأنا ألامس بشفتي الحجر الأسود. كشفت عن الدرع ليلامس بدوره الحجر المقدس. رن صوت مكتوم لارتطام الدرع بالصخر، اعتقدت لوهلة أنها موسيقا آتية من الجنة. أحد الحجاج القريبين مني داخلته الريبة غير أنني ابتعدت عنه ليرن صوت معدن آخر عبر النافذة المخصصة لتقديم الصدقات. تناثرت من بين أصابعي الدنانير الذهبية العربية والتومات الفارسية. عندما رأى الحاج ذلك الذهب اتسعت حدقتاه دهشة، شهق وعاد من

---

[1] - واضح أن الكاتب لا يمتلك ثقافة دينية، فالحج لا يقتصر على الدخول إلى المسجد الحرام، وإنما هي مجموعة شعائر مترابطة. ولنا أن نعذر الكاتب، فالرواية كتبت في زمن الحقبة السوفيتية، التي لم تكن تشجع في الخوض في المسائل الدينية.

جديد إلى مصحفه الكريم... وهكذا تم تنفيذ الجزء الأهم من المهمة بقي أن نجد شيخاً يزودنا بنصائحه ويغنينا بإرشاداته ومواعظه. والأهم أن يكتب على الدرع دعاءاً يزيد من فعاليته وقوته الفريدة..... استقبلني أحد المشايخ الكبار ببشاشة في منزله، بعد أن قامت الدنانير الذهبية التي أرسلتها عبر خادمه بترتيب هذا اللقاء.....كان الشيخ رجلاً متين البنية، متقدماً في السن، يحمل لحية بيضاء طويلة، و يعتمر عمامة ضخمة. كان قد جلس على سجادة ناعمة بين وسائد وثيرة متناثرة، وكانت أصابعه تتلاعب بحبات سبحته بينما عيناه الدامعتان تجولان هنا وهناك متفحصتان....عندما لمح الشيخ الدرع وأدرك سبب زيارتي. اختفت علامات الترحاب من وجهه وتسارعت حركة أصابعه التي تتلاعب بالسبحة، وفاضت عيناه بالدموع.

- ابني - قالها العجوز بلطافة - عندما توجهت إلى شيخ ألم تشعر بتفاهة ووضاعة أهدافك الدنيوية؟

- أبي... كل واحد منا يدفعه واجبه إلى قدره - أجبت- وهذا القدر هو الذي حدد أصولنا واهتماماتنا.

- هذا صحيح - قاطعني الشيخ - لكن ليس هذا ماقصدته، هل خطر ببالك يا فارس الإسلام الجريء أنك ترتدي إلى جانب العمامة الخضراء حلة الكفر. إن هذا الدرع الذي تلبسه لم يصنعه تجار السلاح الدمشقيون. وهذا الليث، ترى على من يزمجر؟ ليس هذا من الإسلام بشيء... الإسلام ينهى عن تصوير المخلوقات الحية. اترك الدرع هنا وسوف نعرضه على العامة. وكل مؤمن سوف يقذفه بحصوة بسم الله ونبيه الكريم، أما وجه الوحش فسوف نصهره ونزين بمعدنه المسجد.

- كلا أيها الحكيم - أجبته بهدوء - للدرع حصانة حقيقية، وهو لم يصنع في دمشق، وإنما في ميلان. وكان يخص سلطان السلاطين صلاح الدين، وعلى لمسات أصابعه الشريفة اختفت وتبخرت صفات الكفر عنه. وهو الآن ملك سلطان مصر. أما

فيما يتعلق بزخرفة المسجد بالذهب، أعتقد أن هذه القطع الذهبية تزن أكثر مما يزن هذا الوحش الذهبي.
قذفت بين قدمي الشيخ كيساً منتفخاً. ظهر على وجنتي الشيخ تورد خفيف. وبحركة حاول أن يجعلها عفوية، قام بتغطية الذهب بوسادة حمراء صغيرة. وقال:
- من اجل هذا يمكن أن أكتب على مقبض سيفك، أو حتى على عمامتك، بحيث يصبح رأسك محصناً، أما الدرع فدعه بكل الأحوال، وإلا فإن الآيات القرآنية سوف تجعله ليناً كبيضة مسلوقة، لا صلباً قاسياً.
هنا أخطأ الشيخ فهو يجهل ما أعرفه، لقد لامس الدرع الحجر الأسود واكتسب مناعته. أما تعويذته فسوف تدعم المعدن الفضي فقط. أرسلت يدي إلى محفظتي من جديد.
- لقد كانت تلك النقود من أجل تقديم الزكاة والصدقات لمستحقيها أما هذه فمن أجل التعويذة. ووضعت أمام الوسادة خمس عشرة قطعة نقدية بالإضافة إلى خاتم مرصع بالماسة صغيرة.
لم تزعج صور وجوه القادة الأوربيين المصكوكة على النقود الشيخ أبداً.
- حسناً أيها المبعوث القاهري العنيد، سوف تحصل على تعويذة منقوشة على درعك، الأسلحة التي لن تؤثر على ...
- جميع الأسلحة - قاطعته - جميع الأسلحة أيها الشيخ وعند كتابتك الدعاء أرجو أن تدرج من أسماء الله الحسنى، الحنان والمجيد.
- تقول جميع الأسلحة؟ هذا قد يكلفك أكثر.
ألقيت على السجادة كل ما تبقى معي، ثمانية قطع. كل قطعة تشتري عشر عنزات أو تستخدم عشرة فرسان مع خيولهم لعشرة أيام.

- أبقي هذه القطع الثلاثة لنفسي، والباقي لك يا والدي، للجهد العلمي وتمكنك من القراءة والكتابة الشيء الذي لا أستطيع أنا معه حولاً.
- ماذا ألا تحسن القراءة؟
لا أدري لماذا دهش العجوز.
- حسنا سيكون لك ما أردت سوف أكتب.
نادى الشيخ خادمه ليرسله إلى السوق خلف أفضل نقاش مع كامل عدته. أما هو فقد أخذ ورقة وقلماً وبعد تفكير كتب سطرين طويلين.
كان على النقاش أن ينقل ما كتب على الورقة إلى فولاذ الدرع. لم يكن العمل سهلاً فلقد تطلب الموضوع حفر الكلمات على المعدن، ولكن في نهاية المطاف أُنجز العمل. أخذت الدرع وأخفيته داخل كيس القماش.
- أخبرني أيها الجليل، ماذا خطت يدك الكريمة.
- ما يسره الله - أجاب الشيخ بابتسامة وهو يمسح الدمع الذي ملأ عينه اليسرى وأضاف - ثم إن هذه الكلمات تفقد فاعليتها عندما تقرأ علناً. ربما لأن تأثير النص عظيم. بل إن ذنوبنا قد تدنس تلك الكلمات في حالة قراءتنا لها.
ودعت العجوز راضياً، غادرت المنزل وأنا أشعر بارتياح كبير. وجدت توزار ينتظرني أمام المدخل مع الخيول المسرجة. كان الوقت قد تأخر والظلام بدأ يرخي سدوله، لكن رغبتنا في الوصول الى جدة مع حلول الصباح، جعلتنا ننطلق مسرعين. تسائل صديقي العزيز عن الثمن الذي تقاضاه الشيخ مقابل الخدمة التي أداها. أخبرته، وما أن ابتعدنا عن مكة بقدر كافٍ وعندما لفنا الظلام راح توزار يطلق لعناته ويؤنبني على طيبتي وصفاء نيتي. ربما لأنه قدر عدد الخيول والسلاح الذي كنا نستطيع ابتياعه مقابل تلك النقود.

توقفنا قرب إحدى الآبار للراحة، حيث استبدلنا ملابس الإحرام بملابسنا المعتادة، وتسلحنا. كان توزار يشعر بنفسه عارياً بملابس الإحرام تلك.
في تلك الليلة توجب علينا انتظار السفينة في جدة، تلك المدينة الصغيرة ذات المنازل الطينية المشوهة والملتوية بأحيائها التي تنوء بالفضلات النتنة.
أبحرنا إلى الشاطئ المقابل دون أية مغامرات، باستثناء أن الربان انتزع مني آخر قطعة نقد كانت معي. صحيح أن بعض المال تواجد مع توزار، ولكن ذلك بالكاد يكفي لدفع أجرة الخان. أما فيما يتعلق بإتمام رحلتنا إلى القاهرة فكان اعتمادنا على الله ورحمته.
كان الانتظار الممل قد أضنى الرفاق في الخان، ولم تسعهم الفرحة بعودتنا، ولما لم تكن بهم أية رغبة في الانتظار أكثر ضمن جدران ذلك المكان، ولم تكن مثل هذه الرغبة تراودني، لذلك غادرنا على عجل.
بعد أسبوعين التقينا بقافلة تجارية قادمة من القاهرة، متوجهة إلى وسط أثيوبيا لمقايضة المشروبات العربية بالملابس الحريرية، والأسلحة بجلود السباع وقرون الخراتيت والعقاقير النباتية التي اشتهرت بها القبائل الأثيوبية السوداء، والتي تجاوزت فاعليتها عقاقير أطبائنا.
ومنهم حصلنا على احتياطي جيد من المواد الغذائية، بالإضافة إلى عدة وجبات من الشوفان لكل جواد مع حزام من الدريس المجفف. لم يطلبوا منا ثمن ما زودونا به رغم أن عددهم يفوقنا بأربعة أضعاف، فهم يعلمون ويدركون مع من يتعاملون.
قضينا ذلك النهار بصحبتهم، ولم يحاول التجار التدخل فيما لا يعنيهم. أما الأخبار المشؤومة فلقد وصلتنا عن طريق أحد الحجاج الأتراك المرافقين للقافلة.
سألنا الحاج التركي:
- ألا يحمل المقاتلون الأشاوس غبار مكة المكرمة؟

- بلى إننا نحمله - أجبته -
- ربما يقوم الفرسان الشراكسة الصناديد العائدين من مكة، بخدمة السلطان سليم مثلما خدموا ملكهم طومان باي؟
- ماذا تقول يا تعيس الحظ؟ كيف لم تختنق بسخافتك الباطلة هذه؟
- ما كنت لأتفوه في يوم من الأيام بالترهات - تكلم التركي بهدوء - لا يجدر بلسان الإنسان أن يشط بالحديث وأن يخوض في الذي يصح أو لا يصح، خاصة إن كان لك أزواج وأولاد وأنت في طريقك إلى مكة المكرمة. ومع ذلك إنني أفترض أن محدثي الكريم لا يعلم بالأحداث القليلة التي جرت مؤخراً في مصر.
- عن أية أحداث تتكلم؟ اصدقني القول وباختصار، هذا إذا كنت تريد الوصول إلى مكة سالماً.
حدثنا الحاج عن المعركة الثانية للسلطان سليم عند حدود القاهرة. وعن الهزيمة الساحقة التي تعرض لها جيش طومان باي.
لقد هاجمت القوات التركية قواتنا بقوة وقسوة بعد أن وزعت أنفسها على أربعة فصائل، تيمناً بتشكيلات المسلمين الأوائل. وحمل الفصيل الأخير اسم راية محمد، وهو عملياً لم يشارك في أية معركة إلى الآن.
هكذا وقعت القاهرة تحت القبضة التركية، وهرب الملك طومان باي إلى جنوب البلاد ملتجئاً إلى أحد زعماء البدو. لم يعرف الحاج شخصية الزعيم البدوي، لكن ذاكرتي استعادت وجه الشيخ سعد زعيم العشرات من المخيمات المبعثرة في واحات صحراء النوبة. لقد كان أسد الصحراء هذا على علاقة طيبة بطومان باي، وتذكرت زيارته الأخيرة إلى قصر الحاكم.
كان الزعيم يقطن في مكان قريب من الأقصر، مما يعني أن عمي الملك طومان باي كان أقرب إلينا مما لو كان ينتظرنا في القاهرة. وربما يكون بأمس الحاجة إلي. انطلقنا نسابق الأيام

سائلين البدو الذين نصادفهم عن وجهتنا، حتى كان صباح يوم أطللت فيه من ربوة صغيرة لأشاهد قرابة خمسين خيمة توزعت في سهل النيل. و الكثير من الجمال ولا أقل من ثلاثمائة جندي مسلح.
على مسافة طلقتين كان يمكن تمييز العباءات البدوية البيضاء، وأردية المقاتلين الأتراك الذين فاقوا البدو بمقدار الضعف.
لم نكن نتوقع أبداً أن نلتقي بجنود أتراك هنا في الجنوب الأقصى من البلاد. إلى ماذا يسعى فرسان السلطان سليم؟ بينما كانت الحقيقة تتجلى ببطء مثل انبلاج نور الفجر، كان المقاتلون الأتراك قد لمحونا. انفصل حوالي عشرة فرسان من الجيش و أسرعوا باتجاهنا مجردين سيوفهم، وهم يعتقدون أنني وتوزار فقط على التلة، مما كلفهم هذا الاعتقاد غالياً.
استدرنا إلى الخلف ببطء وأشرنا إلى رفاقنا الذين سارعوا في التواري خلف الشجيرات الشوكية المبعثرة. وما أن وصل الأتراك إلى سفح التلة، حتى كانت السهام تخترق ثمانية منهم خروا أرضاً، بينما لم يتمكن الثلاثة الباقون من الالتفات بخيولهم للعودة، إذ سرعان ما تعامل أصدقائي معهم. بقي تركي واحد حياً. كان قد أصيب بجرح في كتفه. ومنه علمنا أن الزعيم البدوي الشيخ سعد، أقدم على خيانة طومان باي. لقد قام هذا السافل بإعلام الأتراك عن مكانه، ليسارع فرسان السلطان سليم بقيادة جودت باشا لمطاردة الملك. لقد وصلوا بالأمس. قاموا بقتل جميع الحراس والمقربين من طومان باي، وأخذوا الأخير أسيراً. وهم عازمون على نقله إلى القاهرة اليوم. لقد صدقت توقعاتي وصدق ظني.
من المستحيل إنقاذ طومان باي. لكن هناك شيء واحد يمكن فعله. هجوم مباغت على العدو، وقتل ما يمكن قتله قبل الموت المشرف أمام أنظار الملك.
 استشرت مجموعتي التي وافقت دون تخاذل. وما كنت انتظر من فرساني الشراكسة إلا هذا. بل توجب علي كبح جماحهم

وحماسهم في الهجوم المبكر. إن الهجوم المباشر لن يكون مؤثراً وفعالاً، لأن الأتراك سوف يلاحظون ذلك، لهذا قررت الإسراع نحو الشمال لاختيار مكمن مناسب ننتظر فيه الأتراك. وعندما يتوقفون للإستراحة ليلاً، عندها نكر عليهم بغتة ونحن نهتف باسم الملك، بهذا يمكن أن نهب حياتنا غالياً.
تلونا الفاتحة أمام التركي الجريح ثم أرحناه من تململه واهتمامه بالأعباء اليومية الدنيوية، لنتجه إلى الشمال دون انتظار.
كان يمكن للأتراك مطاردتنا في أية لحظة، ولم يكن أحد منا يعلم أي طريق يمكن أن نسلك، لذلك انطلقنا كيفما اتفق.
عند الغروب وصلنا إلى جدول صغير يصب في النيل العظيم. كان الطريق ينحرف بعيداً عن مجرى النهر الذي كان يلمع تحت أشعة الشمس المتلاشية كسيف عزرائيل الذهبي، ملك الموت.
لم تكن سيقان القصب على ضفاف الجدول طويلة. كانت هناك تسعة أشجار نخل نشرت ظل أوراقها الخضراء المسننة على المكان.. رحم الله تلك الأيادي المحبة للعمل التي زرعت النخلات في ذلك المكان. إننا لن نجد مكاناً أفضل من هذا المكان لتكون آخر محطة من محطات حياتنا. المحطة الأخيرة والقصيرة، إذ أن الله تعالى لم يشأ أن تتقدم خيولنا خيول الأتراك بمسافة طويلة تسمح لنا بنيل قسط من الراحة، أو الارتواء من شرب الماء. فسرعان ما شاهدنا الغبار المتصاعد من سنابك خيول فرسان الترك.
خلال لحظات كنا نمتطي صهوات جيادنا ونبتعد عن الغدير لنختفي خلف التلال القريبة.
وصل الأتراك إلى الجدول مع صلاة المغرب، حيث شمخت النخلات التسع. سمعنا مؤذنهم ينادي إلى الصلاة. صلينا من على بعدٍ مع فرسان جودت باشا. انتظرنا حتى لف الظلام المكان. لم يكن القمر بكامل بهائه في تلك الليلة. ودون أي

صخب وبهدوء حذر اقتربنا من خلف التلال إلى مقربة من المخيم.
هدأ معسكر الأتراك، وساد صمت كانت تقطعه همهمات الجياد وطقطقات الحطب في النيران التي تحلق حولها الحراس بأمان. بينما قبع القسم الأعظم من الفرسان داخل الخيام. انتصبت خيمتا جودت باشا الكبيرتان في منتصف المعسكر بالقرب من النار المتأججة. لا بد وأن إحداها تعود للملك الأسير. كنا مستعدين لعناق الموت من أجله في تلك الليلة. شد كل واحد منا وتر قوسه بهدوء بعد أن حدد لنفسه هدفاً. ثم وبإيعاز مني انطلق اثني عشر سهماً تحت ضغط أوتارها، غنوا معاً أغنية قصيرة. ثم اقتحمنا معسكر الأتراك كالإعصار الجامح. وعلى أنين الجرحى وصياح مقاتلينا ألقينا بأنفسنا في مركز الحشد، وبدأنا صراعنا المستميت.
يقول توزار صديقي الصامت هذا في أغنية نظمها بمناسبة الهجوم الليلي.

هذا حصان مسروقه
عربية دماؤه حقه
يدك الأرض... يثير الغبار
بسنابكه... ويوقظ الأشرار

في يسرى مسروقة "قامة"[1]
ذات حدين طويلة الهامة
هو أول من اقتحم الجموع
ولم يختبئ خلف الدروع

في المعركة التقاه خيال

---
[1] - القامه – هو الخنجر الشركسي المعروف

تركيٌ صلبٌ، صال وجال
لكن العدو اللدود الطاغية
تلقى طعنة رمح قاضية

مسروقة في مقدمة الصفوف
سيفه من بين كل السيوف
فولاذ دمشقي لا يُرد
في الحرب صلد دون حد

توزار أبو الشارب
يفتح الدرب بسيف المحارب
ومسروقة بالسلاح لاح
ثم... برأس عدوه طاح

حقاً إن توزار ليس بمهارة الجغواكوة. وهو لم ينته من نظم أغنيته الحماسية هذه. وعندما يتم أبياتها المتبقية سوف يلقيها كاملة في مناسبة ملائمة. والآن سوف أتحدث بلغتي وأروي لكم المآثر التي حققها الأصدقاء.

تغلغل الأخوة الثلاثة تيمرقان إلى وسط المعمعة مقاتلين كذئاب ضارية جائعة، وسط قطيع من الضأن.

- أو أديغة ... اضربوا - صوت رجولي جهور دوى -

الفتى النبيل كيسوقة تعثر بين ألسنة اللهب، لكنه نهض وقد تعلقت النيران بملابسه، توجه مباشرة إلى خيمة الباشا، وبقفزة طائر التصق بقماش الخيمة التي بدأت بالاشتعال. ققز القائد الاستانبولي من الخيمة فزعاً وعلى إثره ذلك الزعيم البدوي الذي خان سيده. آه ... لقد كان هناك حشد من الأجساد الملتحمة تفصل حسامي الدمشقي الذي يشع كصاعقة زرقاء عنه.

أصبح كل واحد منا يقاتل منفصلاً عن الآخر وقد طوقته حفنة من الأتراك. وسرعان ما سقط الأخوة تيمرقان صرعى،

مستقبلين الموت بوجوه بيضاء مشعة. رأيت مساعدي الأيمن صاحب الزند الصلب توزار، يتهاوى إلى الأرض. يا للمصيبة كان هناك ثلاثة من الكواسر يقتربون منه. وعبر كل هذه الجلبة والصراخ وصليل السيوف ميزت وبصعوبة صوت عمي الملك طومان باي المكتوم وهو يصيح.
- مسروقة يا بني اضرب والمجد معك.
وبروح قتالية متجددة صرخت برجالي حاثاً إياهم على الصمود. ولكن يا للأسف..... لم يكن هناك أحدٌ ليستجيب. في النهاية تعثر جوادي بعد أن اخترقته الرماح وسقط، لكنني وبقفزة واحدة طرت إلى الخائن الذي سمره الرعب. شطرت وجهه بشفرة سيفي، لأجعله قطعتين من اللحم.
أوووو يا الهي..... كم كنت أرغب في إنهاء ما بدأته، وأن ألحق الباشا بالخائن. ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه. هاجمتني مجموعة من الأتراك من الخلف أسقطتني أرضاً. قيدوا ذراعي وقدماي. طارت عمامتي، واصطدم رأسي بالصخور، وانطفأ الضوء في عيني......

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

عندما استيقظت من غفوتي التي لم يكن فيها مكان للأحلام، ألفيت نفسي مقيداً......عبر كوة الخيمة المفتوحة، رأيت القبة السماوية المظلمة وقد امتلأت بالنجوم الفضية. عند المدخل جلس الحارس الذي كان ينيره ضوء القمر بوضوح. إلى جانبه انطرح توزار، كان ينظر إلي بألم.
لم نتبادل حديثاً تافهاً، ولم نتساءل عن مجريات الأحداث، كنا والحمد لله سليمين بلا خدوش تذكر. انصب اهتمامنا إلى استراق السمع والإنصات إلى ثرثرة الأتراك خارج الخيمة. لم يكن أولئك الأوغاد قد عادوا إلى وعيهم بعد. كانت عشرات الحناجر

تزعق معاً. كل يغني مواله. تهديدات، لعنات، ونحيب. وكل واحد يعرض رأيه حول كيفية العقاب والانتقام.

فهمنا أنهم دفنوا الأموات. لابد أن عددهم كان أكبر مما توقعنا، فأحدهم كان يتمنى القصاص العاجل. على حين عارضه آخر، واقترح تأجيل العقاب إلى الصباح، حتى يستطيع الجميع التشفي وهو يرانا نعاني ألم الموت. بل كان هناك من اقترح بأن نواجه الموت حرقاً على نار هادئة. وآخر رأى أن نسلق في قدور نحاسية. وتمنى أحدهم أن يرى أوصالنا تقطع بدءاً من أيادينا. و هناك من اقترح بأن نوضع على الخازوق... فجأة اخترقت جلبة الأصوات هذه صوت آمر، قطع الضجيج تماماً. لابد و أنه صوت الباشا:

- أنتم، مالكم اجتمعتم وكأنكم مقدمون على عرس للكلاب؟ لقد تحولتم الآن إلى شجعان. ألم تكن قلوبكم ترتعش قبل قليل؟ حفنة من الشراكسة يقتلون خمسة وأربعين من مقاتلينا.

ارتفع صوت الباشا باضطراب وغيظ.

- إلى العمل أيتها الكلاب الشاردة. منذ هذه اللحظة سوف أجعلكم تفقدون اهتمامكم بالطعام والشراب. سوف أملأ فراغكم بالتدريب والتمرينات العسكرية. أما ما سيتم مع الأسرى، فهذا ليس شأناً من شؤونكم. ومع ذلك أخبركم.... الأرجح أنني سأعرض عليهما الدخول في طاعة السلطان ليدربا الجهلة أمثالكم على فنون القتال. وإذا سمعت منهما كلمة اعتراض، فسوف أقطع ألسنتهما، وأقتلع أعينهما وأرميهما في الصحراء. لا تعتقدوا أن يدي يمكن أن ترتفع لتقتل مثل هؤلاء الشجعان.

- يا الله - تمتم الحارس - كم هو عادل وحكيم جودت باشا!!

- والآن فليتفرق الجمع وعليكم بالراحة حتى شروق الشمس.

بعدها ساد الصمت أرجاء المعسكر.....ارتمى رأس حارسنا على ركبتيه المضمومتين ونام. ماذا يمنعه من النوم؟ لماذا القلق والأسيران مقيدان جيداً وقد طرحا أرضاً مثل نعجتين تنتظران الذبح.

شغلتني الأحداث ولم أتذكر الدرع الذي كنت أرتديه، لم يخطر على بالي لا قبل الهجوم ولا خلاله. لماذا لم يقم الأتراك بنزعه عني؟ لم أجد أي تفسير لذلك سوى أن التعويذة السحرية تعمل عملها، وبفضلها بقيت حياً. وأيقنت أن تأثير التعويذة وصل إلى توزار الذي رافقني إلى مكة. أحسست بثقل المعدن الذي ارتديه، وراودتني فكرة التخلص من الأسر. هذه الفكرة أمدتني بالقوة. انقلبت بجسدي ودرت مرتين حتى وصلت إلى مكان الحارس النائم، ثم ثنيت ركبتي وجلست مستنداً عليهما. وبحركة تشبه حركة راقص البسلني، نهضت لأقف على قدمي محاولاً بصعوبة الحفاظ على توازني، إذ أن قدماي كانتا مشدودتين بالحبال. لم يدرك توزار ما يدور في خلدي .. بهدوء حذر أخذت وضعية تمكنني من إلقاء كامل ثقل جسدي على رأس الحارس. وهذا ما تم بهدوء ودون كبير جلبة، انقلب المسكين على جنبه ليُسحق رأسه بين معدن الدرع وصخور الأرض. لم يتمكن حتى من الأنين. والآن ما هي الخطوة التالية؟ كان توزار أدرى بذلك. زحف إلى حيث رقدت الجثة بسكون، وانتزع بأسنانه الخنجر من الحزام الجلدي، ثم أخرجه من غمده بحركات من رأسه تشبه حركات رأس الحصان. قام بتقطيع القيود التي تكبل ذراعي.
لم أتمكن من استعمال الخنجر مباشرة كان علي الانتظار لبعض الوقت حتى يعود الدم إلى أصابعي المخدرة. أتممت ما بدأه توزار تحررت من قيودي وقطعت قيود توزار. لم يكن في الخيمة ما يلفت النظر، اللهم إلا كيس فيه بعض المأكولات مع قفة مملوءة بلبن الإبل، بالإضافة إلى قبعة توزار وصدريته المزردة. فرح توزار بعودة متاعه الذي سرعان ما قام بارتدائه ثم تسلح بأسلحة التركي القتيل.
وصلنا إلى أطراف المعسكر دون أن يلاحظنا أحد. وهناك كانت الخيول تسرح دونما رقيب، كان بعضها جاهزاً مسرجاً.
عندما عزمنا القفز لاعتلاء جوادين بعث الله إلينا بهدية غير متوقعة. إذ شاهدنا أحد ضباط الباشا يقترب من مكمننا. عندما

رآنا الضابط اتسعت حدقتاه وفتح فمه رعباً. لم يمهله توزار حتى يتمالك نفسه، فقد أطبقت أصابعه الفولاذية عليه وكسرت عنقه ليسقط أرضاً لافظاً أنفاسه الأخيرة.
بالكاد كتمت صيحة فرح عندما رأيت قبعتي الأثيرة وسيفي العزيز على جسد التركي. لابد وأن أسلحتي قد أعجبت هذا الضابط كثيراً، حتى أنها لم تفارقه عندما خرج لقضاء حاجته، كما لم يفارقه ذلك الكيس الجلدي الصغير الممتلئ بالقطع النقدية الذهبية.
كانت فكرة معاودة الكرة ومهاجمة المعسكر ثانية قبل انبلاج الصباح هي أكثر ما نتمناه، غير أنه لا يجب أن تمتحن القدر في عمل واحد، ومكان واحد، ولغاية واحدة، أكثر من مرة. لقد وهبت لنا حياة ثانية فلا يجب أن ننكرها.
عند الفجر كنا قد ابتعدنا عن النخلات التسع. شكرنا الله كثيراً على وجود الدرع، بعد أن حققنا مآثرنا بفضله ونجونا بقوة تأثيره. أما رفاقنا، فلقد قضوا بشرف مكللين بالمجد الذي لا يمكن أن يحلم به أحد.
الشيء الوحيد الذي افتقدناه، هو التنعم بالصراخ والعويل اليائس للأتراك وهم يكتشفون اختفاءنا.
تابعنا سيرنا من جديد. متقدمين الجنود الأتراك بزمن يقدر بالوقت الفاصل بين صلاة الفجر وصلاة العصر. بعد عدة أيام وصلنا إلى مفترق طرق. كان الدرب الأول يتوجه مباشرة إلى القاهرة، والثاني يقود إلى النيل ثم الضفة الأخرى، بعدها يصبح الطريق مفتوحاً إلى الإسكندرية، حيث يمكننا أن نتوارى لبعض الوقت مختبئين كما تختفي حبتان من القهوة في كيس الفاصولياء.. تعثر جواد توزار. ولنمتطي نحن الاثنان جواداً واحداً اضطررنا إلى نبذ الطريق الأول. فجنود جودت باشا خلفنا ولا شك أنه يطلبنا.

كان النيل العظيم قريباً و مياهه الزرقاء تنساب إلى البحر. ما أن عبرنا النهر حتى رأينا الغبار المتصاعد من بعيد تحت سنابك خيول جودت باشا.
لن أتحدث عن كيفية وصولنا إلى ميناء الإسكندرية الكبير. كنت قبل دخول المدينة أحدث نفسي "كيف نتفادى ريبة الجنود الأتراك" عندما لمحت أحد ضباط الملك، عزيز الغوري.
لما وقعت عيناه علي فتح فمه بدهشة شديدة، لكن دهشتي كانت مضاعفة عندما علمت أن عزيز يقود كتيبة فرسان تركية.
تزاحمت الكلمات على لساني تريد أن تصمه بالعار وتتهمه بالخيانة، لكنه سبقني إلى الحديث:
- لا تنظر هكذا إلي يا مسروقه، أنا وأنت خدمنا الملك طومان باي طالما كان حياً، والآن هناك سلطان آخر من نسل أولئك السلاطين الذين كان أجدادنا يعملون معهم قبل مائة عام.
- انتظر.... قلت عندما كان حياً؟
- نعم، إنه الآن ميت. صلب أمام أحد أبواب القاهرة أول الأمس. وأنا قادم من هناك.
ضغطت على أسناني بشدة. ولأول مرة في حياتي بكيت. لم يمهل سليم خصمه يوماً، بل تخلص منه بالسرعة الممكنة.
- لو أن نتيجة المعركة لم تحسم لصالح السلطان سليم، كيف كان تعاملك معه يا مسروقه؟
- كنت ألقيت به فريسة للكلاب الجائعة.
- ها.... هل رأيت !؟ - تبسم عزيز - هيا فلنذهب إن حرارة شمس منتصف النهار تؤثر سلباً على أحاديثنا. سوف ترتاح عندي قليلاً في المنزل ومن ثم سوف نفكر بالخطوة القادمة.
قضينا الليلة في منزله الفخم الذي نجا من نهب الأتراك عندما وافق صاحبه بالعمل تحت خدمة سلطانهم. لم يكن عزيز الوحيد، فهناك الكثير من النبلاء المماليك الذين انحازوا إلى السلطان ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه. كما أن الكثير منهم ألقي في غياهب السجون، والعديد منهم نفذ فيهم حكم الإعدام.

لم أجد ما يغريني فكلا الدربين لم يجتذباني للسير عليهما، رغم أن عزيز أثقلني بالنصائح التي كانت ترمي إلى أن أحذو حذوه. مذكراً بأنه لا مهنة لنا نحن الشراكسة إلا الحرب والقتال. نحن لا نصلح للتجارة، ولا للعمل في قطاع الدولة. اتخذت قراري بأن أترك مصر بالسرعة الممكنة. وإلى الأبد.

كان عزيز محرجاً جداً، فأنا ابن أخ طومان باي، لذلك كان يواصل تقديم الحجج ويسوق الأعذار التي دفعته لتصرفه وانحيازه للأتراك.

- عليك أن تدرك هذا الأمر البسيط، لم يغز بلادنا الكفار، إنهم مسلمون مثلنا... وما تم تم بمشيئة الله سبحانه، وله في هذا حكمة. نحن لا نستطيع أن نقف ضد رغبة الخالق. وفي النهاية بالنسبة لنا لا يوجد فارق، أي من المسلمين يعتلي كرسي الحكم. سنحافظ على امتيازاتنا وسوف نعيش الحياة التي كنا نحياها.

لم استطع مناقشة عزيز ولا أن أدحض رأيه ولكنني كنت متشبثاً بما عزمت عليه.

- حسناً في هذه الحالة سوف أيسر لك سبل السفر إلى سوريا، ولن تغادرني فارغ اليدين. ولا تحاول التهرب من مساعدتي لك. حاول أن تطاوعني في هذا الأمر على الأقل. ولا تعارضني فأنا أكبر سناً منك. ثم فلأقلها بصراحة. إنني بعد أن تفارقني أريد أن أضطجع على فراشي مرتاح الضمير. لذلك أشفق علي ولا تجعلني في خصام مع ضميري الذي قد تعتبره أنت الآن مزاجياً متلوناً مرناً مثل هذا السيف الذي صنعته أيادي الحدادين الدمشقيين.

تناول عزيز سيفاً مستقيماً رفيعاً كان معلقاً على الجدار دون غمد، قام بثنيه بثقة حتى شكل حلقة، وقام بوصل نهاية النصل مع القسم الأعلى لقبضته. فولاذ صقل سطحه بمهارة وروعة، فشع حرارة وخفة. وعلى ملمسه الضارب إلى الزرقة كان من الممكن تمييز التجعدات المنحدرة للمعدن الأصيل المضفور

والمغلف بأناقة دون تكلف. إن إنتاج مثل هذه القطعة لا يقل صعوبة عن ضفر شعر نسائي.
المقاتل الحق عندما يقف أمام قطعة سلاح فريدة، ينسى آلامه وأحزانه وينسى الجوع والعطش وتتراجع النساء في سلم أولوياته. بل إنه يسهى أنه بعد يوم مشمس لا بد وأن يشع نور القمر في الليل.
- إنه يناسب خصرك تماماً.
سمعت صوت عزيز وكأنه قادم من مكان ما بعيد..... قام العجوز الداهية بلف السيف حول خصري مثل حزام متخذاً شكلاً بيضوياً متماشياً مع جذعي. لقد بدا هذا السلاح وكأنه صنع خصيصاً لي. ورأيت في هذا علامة طيبة، لأنه في تلك اللحظة بالذات ألهمني الله القرار الصائب.
- حسناً يبدو أنني مضطر لقبول مساعدتك لصدقك معي. وأنا أستطيع أن أجد طريقي، رغم أن هذا سوف يكون صعباً. ولكن قل لي .. لماذا تظن أنني أريد السفر إلى سوريا؟
طرحت هذا السؤال على عزيز لأنني لا احب أن يلقنني أحد ما يجب علي فعله. وللحقيقة كنت عازماً على ركوب البحر حتى صور، أو صيدا على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. ومن هناك وعبر هضاب لبنان وسهل البقاع الخير، وفي رحلة يوم، سوف يرتوي جوادي من مياه نهر بردى الصافية، وسوف أمتع ناظري بمآذن الجامع الأموي. لو أن هذه الرحلة تمت، لاستقبلت هناك في العاصمة السورية كما يليق ولشغلت منصباً هاماً فيها.
- لا أنوي السفر إلى البقاع العربية أيها الذكي عزيز. إن قلبي يتوق لرحلة إلى القفقاس، إلى أرض الأجداد.
لم تكن هذه الفكرة قد خطرت لي من قبل وإنما ولدت للتو واللحظة. وكأن وحياً هبط علي ودلني على طريق تنعطف فيها حياتي باتجاه آخر. نظر عزيز إلي بدهشة وسرعان ما صرف نظراته عني. أعتقد أن عيناه لمعتا حسداً وشوقاً.

- سوف نقوم بذلك، تريد الرحيل إلى القفقاس، هذا سهل جداً فأنت رجل محظوظ. هناك سفينة تبحر غداً إلى استنبول ومنها بعد وقفة قصيرة ستكمل رحلتها إلى القرم.
على ظهر هذه السفينة يسافر أحد الباشوات الكبار حاملاً معه رسالة من السلطان سليم إلى خان القرم. سوف أقوم بترتيب نقلك مع توزار على متن تلك السفينة. فأنا اعرف مبعوث السلطان. كنت قد التقيته في القاهرة.
في اليوم التالي عند منتصف النهار، كنا نلقي نظراتنا الأخيرة على الشاطئ المصري البعيد.
كان الجو هادئاً، والبحر ساكناً، والسفينة التركية الطويلة تمخر عباب البحر إلى الأمام بواسطة عشرين زوجاً من المجاديف المتناغمة. في المساء هبت رياح متوسطة الشدة، وانتفخ الشراع الكبير لتنطلق السفينة في سيرها مسرعة.
عبر عزيز عن صدقه عندما اتفق مع الباشا التركي وقبطان السفينة، الذي تعامل مع رنين الذهب بشغف وانتباه. ثم أن عزيز قدم لي عدا السيف رداءاً من جلد وحيد القرن، وبندقية مصنوعة في بلاد الإسبان، وكذلك قوساً مع ثلاثين سهماً. ولم ينس الملابس الجديدة التي تضمنت عمامة وجبة ملساء، وحذاءين من جلد العجول كان قد حصل عليهما من بلاد الفرنجة.
كما حصل توزار على قوس رائع، لا يقل روعة عن قوسي، مع جعبة وسهام ورأسين مدببين لرمحين. عدا ذلك قدم عزيز خنجراً لكل منا، وكيساً ممتلئاً بالنقود العربية الذهبية لي، وآخرلتوزار، يطفح بالعملة التركية الفضية.
توقف المركب في استانبول. افرغوا حمولته من الغنائم المصرية. نقلوا إليه الماء والغذاء و بعض الأغراض والأمتعة الأخرى.
توقفنا في استانبول ليوم وليلة لم نبارح فيهما ظهر المركب، بل ولم نحاول أن نخوض في أي حديث مع أحد، حتى مع مرافقينا. ونحمد الله أن الباشا لم يسع إلى صحبتنا.

حدثتنا رياح آخين[١] التي شعرنا بها باردة قاسية عن اقترابنا من الوطن. و أدركنا أن نهاية الربيع القفقاسي لا يشبه أبداً نهاية الربيع في مصر.
حط مبعوث السلطان سليم رحاله في كافي، بينما واصلنا نحن طريقنا على متن سفينة متوجهة إلى الشاطئ الأديغي. في نهاية ذلك اليوم نزلنا أرض تامان. و لاحظت التشابه بين اسم المكان تامان مع اسم طومان باي.
تأخرنا في تامان قليلاً لنبتاع بعض الحاجيات من سوقها الذي اختلط فيه الجورجيون باليهود، والتتار بالناغوي والأديغه. انتقيت لنفسي جوادا رائعا قويا ودفعت فيه ثمنا ليس بالقليل، كذلك اختار توزار لنفسه جواداً جيداً . واشترينا من أحد المحلات الأرمنية رداءا شركسيا أسودا من الجوخ لي، واختار توزار رداءاً رمادي اللون. وأخيراً اشترينا القبعات والأحذية الأديغيه. ولما كنا ندرك تماما أن راحتنا الحقيقية تبدأ عند نهاية الطريق الذي سلكناه. قررنا عدم المبيت ومغادرة تامان في نفس اليوم.
استفسرنا عن الطريق إلى ضفاف نهر بالك. وفي وقت مبكر من المساء كانت خيولنا مسرجة ومستعدة للرحيل.
تجنبنا القرى ولم نتوقف للتحدث مع أحد. كنا نتوقف في الغابات للمبيت. كنا نشعر بالسعادة، فلا شمس تحرقنا، ولا غبار بين أسناننا، ولا يجف حلقنا من تأثير الهواء الجاف. يجب أن نحمد الله على غنى هذه البلاد حيث يمكن أن تتلذذ دائماً بالهواء النقي، والظل المنعش للأشجار الخضراء، وببرودة المياه الكريستالية الصافية. فلا حاجة لنقل الماء معك ولا حاجة للبحث عن الحطب للنار. ثم لاحاجة لنقل العلف للجياد فكل ذلك متواجد تحت أقدامك.

[١] - آخين – الاسم الشركسي القديم للبحر الأسود، وهو اسم أحد كبار الآلهة.

إن الأيام الستة التي قضيناها على الطريق من تامان إلى منزلك يا شوجنوقه مروا دون أن نشعر بها. لقد كانت هذه الأيام أسعد الأيام التي قضيناها في طريق رحلتنا الطويل من القاهرة إلى مكة ومن مكة إلى سفوح الأوشحة مافه.

الخبر الثالث

يمكن أن تنجو من الطاعون، ولكن قد يقتلك الإسهال.

بسط شوجنوقه أجنحة ضيافته الدافئة محتضناً بهما مسروقه. أقيمت على شرفه الألعاب والمباريات، صدحت الموسيقى، وارتفعت الحناجر بالغناء تستنهض ذكرى البطولات. وسردت الأحاديث المطولة عن الأساطير ومآثر جبابرة النارت. بالإضافة إلى كل هذا نظم الأمير رحلة صيد إكراماً لضيفه قاما فيها بالترويح عن نفسيهما بمطاردة الوحوش الكاسرة، و الدببة، والخنازير البرية في الغابات الكثيفة.
عندما ارتمى أمام قدمي مسروقه دب ضخم تلقى للتو طعنة نجلاء من سيف قصير (السيف القصير يختلف عن السيف العادي بكونه طاعناً بالإضافة إلى أنه قاطع) لنبيل ساخط, بعد أن خدش وجهه. تغيرت تعابير مسروقه الصارمة. راح يبتسم لذلك النبيل الذي كان يقهقه ضاحكاً، بعد أن فقد خلال تعارفه مع الدب أذنه اليسرى. انغمس مسروقه بكل جوارحه في هذا اللهو، وسرعان ما تحولت نظراته الجامدة إلى نظرات لطيفة، وبالأخص عندما شاهد السهام المحكمة المتطايرة باتجاه خنزير بري كان يحاول جاهداً الخروج من الطوق الذي وقع به. وربما كان يتمنى لو أنه استطاع أن يريق دماء أعداءه الأزليين، الجياد والكلاب، وفي مقدمتهم الإنسان.
في النهاية لم يتعرف شوجنوقه على عدوه الذي قاد نصف قطيع جياده. هل هو النبيل العجوز كوتشمازوقه والأخوة تيجيف، أم أحد فتيان عائلة قودينت. وعلى كل حال آن الأوان لتنظيم غزوة إلى المراعي الغريبة.
انضم مسروقه تامبي إلى حملة الأمير الشاب. جرت الأمور على أفضل وجه. كان الطقس جافاً والليل دون قمر. وكان

القطيع المقصود كبيراً. انتهت الأمور بحمد الله دون مناوشات جادة مع أتباع قودينت وتيجيف. ساقوا عند الصباح أربعمائة حصان إلى شوجنوقه حابلة. وفي طريقهم اقتادوا قطيع ماشية صادفهم.

حسب العرف اختص مسروقه بنصف الغنيمة. صحيح أن المضيف كان كريماً جداً مع ضيفه حين اقترح عليه أن يأخذ الغنيمة كلها، إلا أن مسروقه رفض هذا العرض، مفضلاً أن يأخذ حصته فقط ،باعتباره كان رأس أحد قادة الحملة.

قام شوجنوقه بتوزيع حصته على أتباعه. بينما أعطى مسروقه جزءاً من الغنيمة لتوزار.

إلى ذلك الحين كان أتباع شوجنوقه وخدمه قد انتهوا من تجهيز مكان لإقامة مسروقه الدائم إلى جوار ضيعة شوجن حابله. وذلك بعد أن وافق الأمراء على ذلك. بهذا احتل مسروقه مكاناً خالياً على ضفة نهر كوركوجين. هذا المكان الذي كان محل نزاع بين الأمراء. لا لأن المراعي قليلة والأرض شحيحة، فلقد كانت الأراضي تفيض عن الحاجة. ولكن في ذلك الوقت كانت الحاجة ماسة إلى اليد العاملة الزراعية التي يمكن لها أن تقوم بالفلاحة. كانت القطعان تلتهم كل ما يزرع من نهر بالكا حتى سونجي. ولم يكن أحد من الأمراء يعترف بحق الآخر في تلك الأراضي. لكن مسروقه كان شيئاً استثنائياً فهو رجل قادم من البعيد، من مصر الغامضة، مصر الأسرار.

بقي شوجنوقه مع مسروقه كريماً يحيطه بالرعاية، حتى اللحظة التي أزف فيها وقت انتقاله إلى ضيعته الخاصة. والعادة أن لا يطلق الضيف خالي الوفاض، فلا بد من إغداق الأعطيات والهدايا عليه.

اقتاد عمال شوجنوقه بالإضافة إلى ما غنمه مسروقه من غزوته، خمسين حصاناً، وخمسين بقرة، ومائة رأس من الغنم. وخصص له سبعة عائلات من العائلات القادرة، والتي كان أكبر أولادها في سن العمل لخدمة مسروقه. مما يعني أنهم أصبحوا

تابعين مباشرة له. و حملت عدة عربات أمتعتهم القليلة، كانت إحداها تحمل محراثاً ضخماً، بالإضافة إلى عزاقة معدنية كبيرة بحاجة لأربعة أزواج من الثيران لجرها، وإلى ثلاثة رجالٍ أقوياء لتوجيه المحراث.
لم يغادر توزار شوجن حابلة دون إكرام. فلقد تلقى من صديقه الجديد ببرد زوجاً من الجياد الضخمة القوية، بالإضافة إلى الماشية، وخادم يقوم بالواجبات المنزلية كلها.
ثم أن عدة عائلات رغبت بالانتقال إلى الضيعة الجديدة المقامة. من بينها عائلة الراعي حانوخ.
في القبردي يمكن أن تبني قرية بأكملها في زمن وجيز. إذ أن الحياة المضطربة التي اعتاد السكان على معايشتها، من الحرائق التي كانت تداهمهم، والغزوات التي كانوا يتعرضون لها، والفاقة التي كانت تجتاحهم. كل ذلك كان يدفعهم إلى إعادة البناء من جديد، ثم من جديد. مما صقلهم بمهارة الإنجاز وسرعة الوتيرة. فالأول يقوم بتقطيع الأشجار وجلب الخشب من الغابة، والثاني يقوم بتنظيف الأخشاب وتصنيع الأبواب والأسوار وبناء الموقد ومد المجاري وصناعة خلايا النحل. بينما يقوم الثالث بمد الطين المتواجد بكثرة عند شاطئ النهر، والرابع يجلب الماء. بينما يقوم الفلاحون بحراثة الأرض وبذر البذور وجني المحاصيل.
بعد أن انتقل مسروقه إلى داره كان أول الضيوف الوافدين إليه جاره الطبيب جامبوت شوجنوقه.
لم تكن شوجن حابله تختلف عن هذه القرية الجديدة كثيراً فهي توأم لها تقريباً، بالطبع كانت هناك بعض الأمور الصغيرة ما تزال تنتظر الإنجاز.
خلال جلسة السمر العامرة أمام المنضدة المليئة بما لذ وطاب، جرى حديث عملي بين الصديقين. تمت فيها مناقشة تنظيم غزوة كبيرة يمكن أن تدر غنائم كبيرة.

لم يكن أحد يشك في أن مسروقه سوف يصبح من الملاكين الكبار، وأنه في يوم قريبٍ سوف يمتلك الآلاف من رؤوس الماشية والخيول، والمئات من العائلات التي سوف تتوزع على عدة ضياع خاضعة لإرادته. كما هو الحال عند الأمير جامبوت.
ثم إنه سوف يجتذب الكثير من عائلات النبلاء الفتية الذين يبحثون عن قائدٍ قدير يقودهم ويرفع من مكانتهم القتالية، ويزيد من حصصهم في الغنائم. وكذلك كان الحال مع الأمير شوجنوقه، فهو يطمح إلى رفع مكانته أكثر وأن يضاعف ممتلكاته أكثر من أي أمير آخر.
بعد التفكير اقترح شوجنوقه أن تكون الحملة موجهة إلى بلاد بعيدة. وفضل أن يقصدوا الداغستان، رغم أن هذه الغزوة لن تخلو من المخاطر ولكنها سوف تعطي من الغنائم ما لا يمكن تصوره في حال نجاحها.
وافق مسروقه على اقتراح شوجنوقه بحماس، وقام بتعداد الفرسان اللازمين لمثل هذه الحملة. فتبين أن هناك أربعون فارساً على أتم الاستعداد للمسير في اليوم التالي. واقترح عدم تأخير الحملة، وأن تبدأ حالما تنتهي إقامة شوجنوقه عنده.
قال جامبوت مبتسماً:
- إذا كان يجب الانتظار حتى يسأم شوجنوقه من الإقامة في ضيافة مسروقه فإن مثل هذه الغزوة لن تتم على الإطلاق.
قرر الصديقان المسير في ليل اليوم التالي.
- أما الآن - قال مسروقه - لقد أزف الوقت الذي انتظرته طويلاً، لأستطيع كمضيف أن أشكر الأمير الفتي جامبوت على معاملته الرفيعة لي، وسلوكه الرائع معي.
أشار مسروقة إلى توزار الذي أسرع وأحضر أداة طويلة لفت بعناية بقطعة قماش. كان هذا الشيء هو السلاح الذي أهداه إياه عزيز الغوري.
أخرج مسروقه السلاح الرائع الذي لم يكن معروفاً في القبردي بهدوء.

- بالمناسبة إن اسمها ليس بندقية. إنما الإسم الصحيح لها ترابوك. وهو الاسم الإسباني، إذ أنه صنع في إسبانيا. ومثل هذا السلاح لا تقابله كثيراً حتى عند الباشوات الأتراك. خذ ....وهذه علبة لحفظ البارود....... وهذه محفظة فيها أجود أنواع البارود المستورد من بلاد الإنكليز، وسوف تكفيك لإطلاق مئات الطلقات.
حاول جامبوت أن يكتم سروره المفرط، ويداه كانتا ترتعشان وهما تمتدان بلهفة لتلقي الهدية الثمينة. مست أصابعه المرتجفة برفق سطح البندقية المثمن الشكل، المصنوع من الخشب الأحمر المرصع بالصدف والعاج.
- ترابوك كلمة إسبانية تشابه مثيلتها القبردينية - دمدم شوجنوقه
- الآن أصبح عندي ترابوقه.
ضحك تامبي وقال:
- رويدك يا جامبوت فهذا ليس كل شيء، إن لي مع أصدقائي الطيبين مواقفي الخاصة. وهذا ما سوف يؤكده لك أي سلاح يمكن أن تحمله دون غمدٍ يضمه، وقد صاغته أيدي صناع السلاح الدمشقيين أطال الله أعمارهم. لاشك أنهم سوف يزهون سرورا حينما يدركون أن بعض إنتاجهم في يد من يستحقه.
اصفر وجه شوجنوقه واحتبست أنفاسه رغماً عنه. لقد كان يأمل في أن يحصل من هذه الشخصية المصرية على قطعة سلاح واحدة من مجموعته، لكن لم يكن ينتظر هذا الكرم.
إن أي أمير قبرديني مستعد لأن يهب مئات الرؤوس من الماشية مقابل قطعة سلاح كهذه... وقف جامبوت يريد أن يقول شيئاً، لكن لم تسعفه الكلمات. هز برأسه فقط.
أشار مسروقة إلى توزار الذي أخذ سلسلة معدنية بثخانة سهم من الموقد، اقترب من سيده الذي نهض من مقعده ملوحاً بالسيف بسرعة ثم... سُمع صوت صفير شفرة السيف، لتقع النهاية الحرة من السلسلة عند قدمي توزار. أما القسم العلوي فقد بقي في يد توزار وهي تتأرجح بشكل غير ملحوظ.

تلاحقت أنفاس المتواجدين في الغرفة من أتباع جامبوت. تفحصوا نهايتي السلسلة وقد عقدت الدهشة ألسنتهم. تناول ببرد السلسلة من الأرض وهو يقول :

- لقد قصها بنعومة، مثل عود من القصب.

- ليس هناك من ثلم. بهذا السيف، وبمثل هذه الطريقة، سوف يقطع شوجنوقه أوصال أعدائه.

قدم مسروقه السيف إلى جامبوت الذي عاد إلى مكانه ليبتلع عدة جرعات من قدحه. على حين قام الخدم بإخراج المائدة ذات القوائم الثلاثة ومدوها بالأطباق المتنوعة. وسط المائدة توضع صحن بسيط عليه كأس فضي متقن الصنع.. مد مسروقه الكأس الفضية إلى جامبوت.

- سوف تشرب المارماجيه بهذه الكأس في بيتك. لكنها الآن ممتلئة بالنقود الذهبية لا بالشراب القوي. سوف تحتاج إليها لتزين قطع الأسلحة ومعدات الخيل. فأنتم أيها المقاتلون القبردينيون تجيدون التعامل مع الذهب المذاب أفضل مني. وتستخدمون كل ما يقع في أيديكم من نقود ذهبية، إذ أنكم لا تستخدمون النقود في عملية البيع والشراء التي لا تجيدونها أصلاً.

- شكراً لك على كل حال. ولكن لا شيء أستحق عليه كل هذا الشرف وكل هذه المنح الرائعة. إذا تمكنت من الإقدام على مأثرة، فإن الجغواكوه سوف يذكر بالتأكيد، البندقية اللافظة للنار، والسيف الفولاذي، الذين لن تجد لهما مثيلاً عند أحد من أمراء القبردي. أعتقد أنها سوف تكون أغنية رائعة.

- أرجو أن يوفقك الله وأن تصل إلى ما تطمح إليه نفسك - قال تامبوت -

- إنني أعتمد أكثر على قوة ساعدي و أسلحتي - قال جامبوت -

- شوجنوقه، آه يا شوجنوقه إنك أشبه بالضالين الذين ختم الله على قلوبهم غشاوة كما جاء في القرآن الكريم ومن المؤسف أن لا يكون هناك من يشرح لك المعاني العظيمة للكتاب.

- حسناً مسروقه - ابتسم جامبوت - أعدك بأنني سوف أجد أحد الحفاظ، ومن يدري قد نجد في غزوتنا القادمة على بلاد الآفار أحد العلماء العارفين.

* *

في الليلة التالية تم سرج الجياد. تفقدوا متانة الأحزمة، و تفحصوا للمرة الأخيرة حوافر الخيل. وفي الأكياس خزنوا كمية كافية من لحم الغنم والبقر المقدد والمدخن، وكذلك قطع الجبن القاسية كالحجارة، وبضعة أكياس من الدقيق المخلوط بالعسل. ذلك الطبق المتميز الذي يمكن حفظه لعشر سنوات دون أن يفسد. ولم ينسوا الأكياس الفارغة والحبال من أجل الغنيمة المقبلة. كما أخذوا عدة قطع من القماش الأبيض، فمن يدري قد يضطرون إلى دفن أحدهم خلال الرحلة.
حمل غالبية الفرسان قطعاً خشبية من تلك الأشجار التي ضربتها الصاعقة[1] بعد أن لفوها في قطع قماشية، كتعويذة حتى لا تصيبهم العين الحاسدة.
عندما ساد الظلام وجه الأرض، تحرك الجميع إلى الأمام، دون أن يشعر بهم أحد من الجيران أو الأغراب، ودون أن يلاحظ أحد أي اتجاه سلكوا.
عموماً حتى ولو عرف كلب من الكلاب المنطقة المقصودة، لن يتجرأ على كشف هذه المعلومة لأحد.
لم يسلك الفرسان الدروب المألوفة، ولم يعبروا المناطق المأهولة، إنما أخذوا الطريق المستقيم المار عبر السهول العشبية والأنهار والغابات المعترضة عند سفوح الجبال.

---

[1] - كان الشراكسة يعتقدون أن الإله إذا ما إختار شخصاً، أرسل عليه صاعقة. ولم تكن مجالس العزاء تفتح وإنما كان التهاني تزف إلى عائلة المختار. كذلك الحال مع الأماكن والأشياء. فالأشجار التي تصيبها الصاعقة تصبح مقدسة.

تقدمهم ببرد الذي تميز بحدة البصر في العتمة، وكذلك بإدراكه وإحساسه العميق بالإتجاه الصحيح. بعد مسيرة يومين وليلتين كانوا قد تركوا خلفهم نهر تيمك بعد أن غرق أحد فرسان المجموعة. وكذلك هضاب تالوستان، التي أصبحت تدعى مؤخراً باسم الأمير القبرديني جالاخستاني، والتي سميت بعد فترة بالقبردي الصغرى.
انقضى يوم آخر وليلتان. كاد جامبوت وتامبي أن يقتربا من هدفهما عندما شاهدا عند الفجرالجبل الأجرد ساريلوم. هناك فاجأتهم مقابلة غير متوقعة. أمير يتوجه إلى الغزو يتقابل مع أمير آخر عائد من الغزو.
في الوهلة الأولى لم يتمكن شوجنوقه وأتباعه اليقظين من تحديد هوية القادمين. لكن بعد فترة صدرت عن الأمير آهة قصيرة تبعتها ابتسامة. أما الفرسان فقد أمسكوا أنفسهم عن الضحك.
- ماذا تظن مسروقه؟ من هذا القادم؟ - التفت جامبوت إلى صديقه -
- إنني أرى مجموعة من الفرسان، وعربة كبيرة يجلس فيها رجل سمين مثل ذئب نهم في ثياب متجعدة. أعتقد أنه يلتهم قطعة كبيرة من اللحم. أما عن شخصيته فأنا واثق أنك تعرفه اكثر مني.
- الآن يا عزيزي سوف تتشرف بالتعرف على أمير أمراء القبردي الكبرى... بيرسلان جانخوت.
عندما ميز الفرسان القادمون أولئك المنتظرين، صار تقدمهم أكثر ثقة. تحرك جامبوت إلى الأمام ليكون أول من يرحب بأمير العربة الكبيرة، الذي كان يعرف بحدة الذكاء.
- هيييي... أيها الفتى شوجنوقه - زأر الأمير جانخوت بصوت جهوري أجش - إن عيناي حادتان مثل وشق جائع.. لقد تعرفت عليك من على بعد.
- فليكن طريقك سهلاً وهدفك مستجاباً يا أميرنا الطيب - قال جامبوت وهو يسارع مقترباً من العربة –

- وليكن التوفيق حليفك أيضاً، ألن تؤاخذاني إن لم أترجل من العربة؟ إن لم يكن لديك حديث طويل؟ فأنا كما ترى لم أعد فتيا.
- كيف لي ذلك. ولكني يا أمير لست وحدي. لا بد أنك سمعت عن مسروقه تامبي؟
- آ آ .. هذا هو إذاً سليل الملوك المصريين. في هذه الحالة لا بد من الخروج من هذه العربة.
نهض بيرسلان وهو يتأوه، ثم صفق بيديه.
- أيييبي ألا تسارعون إلى ما يجب عليكم فعله دون أن أدعوكم؟
صرخ بيرسلان على أتباعه فتقدم البعض ليساعده على الوقوف. في تلك اللحظة كان مسروقة قد وصل ليقف إلى جانب جامبوت.
كان بيرسلان جانخوت رجلاً فارع القامة، عريض الكتفين. لكن كل هذه الصفات تختفي أمام ضخامة كرشه الذي يتأرجح عندما يسير أو عندما يضحك، بل حتى عندما يتحدث.
كان منتفخ الخدين يمتلئ وجهه بالشحم من العينيين حتى أسفل الذقن، ليتهدل على الكتفين. له أنف معقوف ممتلئ ارتخى فوق الشفة العليا التي يعلوها شارب، أما الشفة المكتنزة السفلى فقد تهدلت فوق لحية خفيفة الشعر، اختفت تحتها رقبة قصيرة مكتنزة.
ارتدى الأمير بذة شركسية سوداء بسيطة، لم تكن مزودة بطلقات البارود على الصدر، وكانت ضيقة عليه عند الرقبة وعلى الساعدين. اعتمر قلبقاً لا شكل له من جلد فاخر رمادي. ومن حزامه تدلى خنجر رائع بقبضة طويلة غير اعتيادية، وسكين معقوف في غمد فضي.
رفع بيرسلان جفن عينه بإصبعه ليتسنى له تفحص مسروقه الذي بالكاد لجم ارتعاشة تحت تأثير تلك النظرة الثاقبة التي خصه بها الأمير الذكي الذي يتمتع بالسلطة. شعر أن عينا الأمير السمين حادتان مثل عيني وشق جائع.

- لترافقك السلامة على أرض القبردي أيها القادم من مصر - قال بيرسلان -
- فلتكن السعادة والغبطة دوماً صديقين لك أيها الأمير.
قال مسروقه وهو ينحني انحناءة خفيفة ضاغطاً بقبضة يده على صدره.
- فلنجلس - اقترح جانخوت - يجب أن نحافظ على أقدامنا، أنتم أيها الأمراء ضيوفي في هذا الوادي.
كان رجال الأمير بيرسلان قد انتهوا من مد اللباد على الأرض، وأخرجوا من العربة أكياساً منتفخة بالصوف لاستخدامها كوسادات .. ثم وبسرعة كانت حزم الحطب تشتعل تحت قدر نحاسي هائل. بينما قام شابان بسلخ خروفين أخذا من القطيع الذي يتبع فرسان بيرسلان.
لم يكن الأمير جانخوت يحرم نفسه من متعة الطعام أبداً. حتى خلال حله وترحاله. كانت أصوات قرقعة الصحون وطقطقة الأواني والخوابي الممتلئة بالمارماجيه تنبعث من مكان ما في العربة باستمرار.
حتى العسل والجوز والفواكه المجففة كانت حاضرة دائماً، وكذلك التوابل التي تضفي نكهتها على اللحوم. بل إنه كان يجر خلفه قن دجاج على عجلات ليتسنى له الاستمتاع بالبيض الطازج دائماً.
حقاً لقد كان الأمير جانخوت يختلف عن باقي الأمراء باهتمامه الحي بالطعام، لذلك كان من النادر أن يترك فكيه القويتين ترتاحان.
جلس الأمير على اللباد متكئاً على الأكياس المنتفخة بالصوف، آخذا بيسراه فخذ خروف ليتم ما كان قد بدأه في العربة من قضم قطع اللحم.
أقدم على حركة ترحيبية ودعا الجميع إلى الجلوس. ما أن جلس جامبوت ومسروقة حتى قدمت الأوعية الخشبية الضخمة التي يبلغ قطر الواحدة منها قطر إطار عربة، وقد وضع عليها اللحم

المقدد والجبن المجفف. ووضع أمام كل فرد قدح، بينما اختص الأمير بيرسلان لنفسه إلى جانب قدحه بإبريق فخاري يطفح بالشراب.
رمى الأمير بقطعة العظم التي تجردت عن لباسها اللحمي. ثم تناول الإبريق وحرر السدادة بضربات حذرة من أصابعه .. طار الغطاء من فوهة الإبريق مخلفا وراءه الزبد الأصفر للشراب. لقد كان الأمير يحب أن يملأ بنفسه المارماجيه.
- ألم يفسد الشراب بعد؟ لا بد من تذوقه.
قالها بيرسلان وهو يصب في إنائه الضخم ما يكفي لإرواء ثلاثة جياد. وسرعان ما انسكبت الرغوة الكثيفة والندية من فم الإناء إلى أوسع حلق في القفقاس. كان خرير الشراب الفخم المنساب كشلالٍ إلى جوف بيرسلان مسموعاً بوضوح.
بعد أن شرب نصف الإبريق على الأقل صب أقداح ضيوفه مفتخراً.
- أقسم بآخين، إنه لشراب رائع.. - ثم مسح شفتيه بكم رداءه -
بعد عدة جرعات امتدح جامبوت وتامبي الشراب.
- هل سبق وأن شربت هناك في ما وراء البحر، مثل هذه المارماجيه؟ - بادر بيرسلان تامبي بالسؤال -
هز الأخير رأسه بالنفي و أجاب :
- إنني لم أتذوق شراباً مخمراً أبداً وإنني أتسائل عن عظم المعصية التي أرتكبها الآن وأنا أشرب الماخسمة.
تشعب الحديث بين كلام عن مصر والأتراك، ونقاش عن الإسلام الذي قال عنه بيرسلان بأنه أفضل الأديان على الإطلاق. لكنه شكك في جدوى المسارعة إلى نبذ الآلهة الأخرى. كان اهتمامه الأول منصباً على إقامة النظام على الأرض القبردينية.
- يجب على الأمراء القبردي تطبيق النظام على ممتلكاتهم وأن يكفوا عن غزو بعضهم البعض ... ألا يوجد في الجوار أغنياء؟

استمع مسروقة بانتباه شديد إلى حديث بيرسلان الذي كان يلوك الطعام ويتجشأ. فكر قليلاً وقال :
- نعم أيها الأمير المبجل، لقد لا حظت أن القبردي لا تشبه دولة. إنها أشبه بقرية عسكرية كبيرة، فيها الكثير من القادة والقليل من النظام.
رفع جانخوت جفنه بسبابته اليمنى ونظر الى مسروقه بتمعن.
- لقد نطقت بالحق، ولكن قريباً سيعلم كل شخص المكان الذي يجب أن يحتله خلف المنضدة حيث يستطيع التهام الطعام .. وسوف يستمع الجميع إلى الأمير الأكبر - ضرب بيرسلان صدره بقطعة اللحم وأردف - ولن تكون هناك منافسات أو مصادمات دموية. سوف تعلم القبردي قريباً من سيأكل الكبد ومن سيلتهم الأحشاء. سوف يتدرج النبلاء بالمراتب.. الرتبة العليا هي (التليكوتلييش) وهي قريبة من رتبة الأمير، وسوف يمتلك هؤلاء قراهم الخاصة. سيعيشون في عالمهم كما الأمراء. ثم تأتي رتبة نبلاء (الجانوقة) وهم أقل درجة من التليكوتلييش، ولكن إذا حققت أسرة ما من أسر الجانوقه ولثلاثة أجيال مآثر قتالية، فإن الجيل الرابع يمكن أن يرتفع إلى منزلة التليكوتلييش. سيخضع للجانوقة الوجوه النبيلة والأمراء القادمين من الدول والمناطق المجاورة، وهؤلاء سوف يحملون رتبة (قودز)....
نظر مسروقة إلى الأمير بتساؤل، لكن الأمير أردف فوراً :
- هذه القوانين لن تنطبق على سليل الملوك المصريين. فإن اسم تامبي سوف يبقى على حاله.
أراد مسروقه أن يسأل الأمير، ماذا يعني أن يبقى على حاله، ولكن بيرسلان استمر في الحديث دون أن يقطع نفسه..
- بعد الجانوقه تأتي رتبة نبلاء (البشش). أو نبلاء بيرسلان. هذه الرتبة سوف تكون تخليداً لي. وأصحابها سيعيشون في قرى الأمراء ويكونون تحت خدمتهم، ومنهم سوف يحصلون على الهدايا والأعطيات. ألقابهم سوف تورث أيضاً. المرتبة الثالثة التي تحتل مرتبة الشرف تحت اسم (شاوتليخوس). وهم تابعون

للتليكوتليبش. والتقسيم سيمس أصحاب الطبقات الدنيا.. ببساطة هناك الفلاحون الأحرار (التليخوكوتل)، ولهم شرف حمل السلاح والخروج في الحملات القتالية .. ثم الفلاحون الأرقاء .. وأخيراً الخدم، ثم العبيد . الفلاحون الأرقاء الذين يعتقون يسمح لهم بحمل السلاح أيضاً..
إن تدفق هذا الكم من الكلمات ربما استهلك الكثير من طاقة الأمير. وليستعيد هذه الطاقة المهدورة، تناول الإبريق متجاهلاً القدح أمامه، وراح يعب منه عباً.. أخذ قعر الإبريق يرتفع رويداً رويداً، إلى أن انتهى تدفق الشراب منه تماماً. نظر جانخوت إلى الإبريق بعدم ثقة ثم قذف به بعيداً.
- أي .. من هناك في خدمتنا؟ - صاح الأمير بغضب - احضروا إبريقاً آخر، ألا ترون أن الشراب أعجب ضيوفي. أقسم برب السماء - ارتفع صوت جانخوت - على كل فرد أن يعرف مكانه المناسب. وسيعرض المتمردون على القضاء. و المحكمة هي الفصل. ولن تتقاعس المحكمة في التعامل حتى مع نبلاء الدرجة الأولى إذا لم يكفوا عن الغزو والنهب فوق الأرض القبردينية .. أكرر السؤال ألا توجد أرض غنية خارج القبردي؟
- ها نحن متوجهون إلى أرض غريبة - قال شوجنوقه -
- ها .. إنني أدرك ما ترمي إليه يا جامبوت - قاطعه جانخوت - ولكن لا داعي للعجلة فهم سوف يأتون إليكم بأنفسهم. لقد نجحت هناك - نثر بيرسلان في فمه قطع الجوز وأكمل حديثه - لقد كانوا تجاراً أغنياء جداً. قافلة كاملة من تجار فارس.
مضغ الأمير قطع الجوز ثم أخذ بضع جرعات من المارماجيه .. وبدأ كرشه الضخم يتراقص من فرط الضحك المجلجل..
- الآن يبدو أن هؤلاء الأغنياء جداً قد أصبحوا فقراء جداً..
وبصعوبة أتم الأمير كلامه وهو يضحك.
- هكذا يبدو الأمر... أما لماذا سوف يأتون إليكم، فهذا لأنني واثق أن هؤلاء الفرس جمعوا كل ما استطاعوا من العصابات المحلية، ومن قطاع الرؤوس، ليلحقوا بي ولكن لا بأس. سوف

يصطدمون بمجموعتين، أي مع أكثر مما يعتقدون. وكل الغنيمة التي ستؤول إلينا من هذا الصدام، ستكون لكم، الجياد، الأسلحة، والأسرى كلها لكم. أما بالنسبة لي فقد اكتفيت. لقد كانت قافلة غنية جداً. أحجار كريمة، ذهب، أقمشة ناعمة بألوان زاهية، قادمة من استرخان ولكنهم لم يستطيعوا إيصالها .. ها .. ها .. ها.

تحمس مسروقه.

- إذاً أظن أننا لن ننتظر طويلاً؟

- كيف ننتظر؟ - صاح جامبوت - علينا أن نحذر الرجال لكي ...

- لقد تم تحذيرهم - طمأنه بيرسلان - إن رجالي يعرفون واجبهم ويقومون به. إنهم جاهزون للحاق بالشيطان عبر بحر قزوين.

وبالفعل كان رجال المجموعتين جاهزين تماماً، أعدوا الأسلحة وأخذوا مواقعهم، ليتمكنوا في أي لحظة من اتخاذ الوضع القتالي ... وكان كل فرد يقبض على عنان جواده.

- أما الآن - قال بيرسلان - كلوا من العسل والجوز واعلموا أن المثل القائل " من يحب تناول الحلويات، لا يتقاسم السكر مع أحد" لا ينطبق علي - واها.. ها..ها..ها - إلى ماذا يحتاج الرجل الحق؟ إلى ماذا؟ حديث طيب خلف مائدة عامرة ومجد براق..

صدر صوت ما من حلق الأمير وفجأة رفع عقيرته بالغناء :

انقطع حزام السرج
وانقطع وتر القوس
انقطع ...وهذا ما كان..

ومن سطح درعي
تسيل الدماء أنهاراً
أنهاراً تسيل ...وهذا ما كان

وعند قائد الشابسوغ
سيف دمشقي
دمشقي ...وهذا ما كان

ولكن للأسف لم يسعفه الوقت لينهي أغنيته، فمن خلف الصخور ظهرت مجموعة فرسان وهي تكاد تطير على جيادها المسرعة. أدرك هؤلاء المقاتلون المرتزقة بعد فوات الأوان أنهم اصطدموا بمجموعة تفوقهم عدداً.
كان المقاتلون القبردينيون مستعدين للقاء هذه المجموعة المنتمية إلى أعراق مختلفة. أغلبهم لم يكن يفقه لغة الآخر.. حقاً كان هجومهم شجاعا ولكن بتهور، وما كان باستطاعتهم الصمود أمام القبردين.
سقط الكثير من المرتزقة مثخناً بجراحه يتلوى ألماً. بالنسبة لبعضهم كان الأمر، سيان فلم يعد يهتم بنتيجة المعركة بعد أن قتل.. وستعقبها الآلاف من المذابح المقبلة التي سوف تروي دماؤها الأرض القبردينية.
كان الأمير بيرسلان منكمشاً في عربته وهو يغمغم مطلقاً سهماً إثر سهم.. وكانت سهامه تجد ضحاياه دائماً.
جامبوت كان سعيداً في نزاله مع أحد القوموق. فهو للمرة الأولى يجرب سيفه الدمشقي.. و مع كل ضربة من جامبوت، كان عدوه يفقد شيئاً من ترسه، حتى انفلق إلى قطعتين ليعاجله بعدها بضربة مميتة، أصابت رقبته المستديرة.
ثلاثة من المقاتلين اجتمعوا حول مسروقة الذي لم يفقد رباطة جأشه، بينما كان توزار يشق طريقه لنجدة أميره. كانت ضربات مسروقة هائلة. وإن حدث أن التقت عينا الخصم بعينيه الهادئتين فإنه كان يرى موته في عينيه. قام تامبي ببتر قدم أحدهم، فبقيت معلقة على السرج بعد أن سقط صاحبها أرضاً. أما الثاني فكان التعامل معه أيسر، إذ رفعه مسروقه بيده العارية من قدمه ورماه بعيداً. لكن مسروقة لم يتمكن من تفادي الفارس

ذي اللحية الحمراء، وتوزار تأخر في استعمال رمحه الطويل. أصاب فأس الفارس الثقيل يد مسروقه اليمنى ليسمع صوت تحطم العظام. بقيت اليد معلقة بدون حياة، على حين وقع حسام تامبي المشرب بالدماء من أصابعه القوية. وسقط الفارس صاحب اللحية الحمراء صريعاً بعد أن عاجله توزار بطعنة من رمحه. كانت المعركة قد أوشكت على نهايتها بعد أن ولى قسمٌ من المرتزقة الأدبار. أما المحاصرون فقد القوا بسلاحهم مفضلين الاستسلام.

أخذ توزار بلجام جواد مسروقه وتوجه إلى عربة بيرسلان. سارع تامبي دون أن يطلب عوناً وجلس في ذات المكان، حيث كانوا يأكلون ويشربون قبل قليل. أسرع مرافق الأمير بيرسلان المختص بمعالجة الجرحى إلى تامبي، لكن توزار نحاه جانباً إذ لم يكن يثق بالمسعفين المحليين، ثم إنه تعلم بعض الأمور في مصر. خلع توزار عن سيده حزامه الجلدي بحرص، وقام بقص القماش حول الجرح الذي بدا غائراً عميقاً حتى وصل إلى العظام التي تهشمت. كان الدم يتدفق غزيراً. ربط توزار ساعد مسروقه إلى الأعلى من الجرح، ثم وضع كمية من العسل وضمد الجرح بقماش نظيف. خلع عنه رداءه و حل أربطة الدرع وأبعده عن جسد الأمير ثم أعاد عليه الرداء وعصب يد مسروقه إلى رقبته حتى لا تبقى معلقة. كان توزار يمارس عمله بدقة بينما جانخوت وشوجنوقه يمازحانه بطيبة قلب. كان تامبي يرد على مداعباتهم، لكن الاصفرار كان ظاهراً على وجهه، على حين بدأ العرق البارد يتصبب من جبينه.

هنأ بيبرد مسروقه بالفوز وأخبره عن حصيلة الغنائم، اثنان وأربعون حصاناً، سبعة وعشرون أسيراً، مع إسقاط المصابين بالجروح الخطرة من عين الاعتبار، لم تكن الغنائم من الأسلحة بتلك الأهمية، ولم تكن هناك بضائع نفيسة ولم تكن المأكولات الاحتياطية تشكل اهتماماً إلا كيساً من الزبيب طلبه جانخوت لنفسه.

ـ الزبيب أحضروه إلى هنا ـ صاح جانخوت ـ وكل ما عداه لكم. حان وقت العودة إلى المنازل. فلنشرب بصحة الوصول بالسلامة.
لم يترجل بيرسلان من عربته، شرب كأساً، وتناول قبضة من الزبيب وهو جالس في عربته، تحيط به وسائده الأثيرة.
أُجبروا مسروقه على تجرع كأسه كاملة و أطعموه من دهن الدببة المخلوط مع عظم رأس غزال. هذا النوع الذي ما كان يفارق جانخوت.
عادت المجموعة أدراجها مخلفة وراءها أربعة مقاتلين ممن تعرضوا لجروح بسيطة، ليهتموا بدفن خمسة عشر قتيلاً، وليعتنوا برفاقهم الذين أصيبوا بجروح خطرة.
أما خسائر القبردين فكانت ثلاثة قتلى أعادوا جثثهم معهم. ووجد مسروقه القوة في نفسه ليعتلي صهوة جواده من جديد.

* *

التأم جرح الأمير تامبي بسرعة، لكنه لم يكن قادراً بعد على استعمال ذراعه كما في السابق. وإلى أن تعود إليها القوة، فكر مسروقه بالزواج. كان عليه أن يؤسس عائلة جديدة بين عائلات نبلاء القبردي. تحمس الأمير شوجنوقه كثيراً للفكرة. زار العديد من العائلات النبيلة، وفي النهاية وجد ضالته. فتاة جميلة ذات صدر ممتلىء وورك قوي، متناسقة القوام، طويلة وبصحة جيدة. إنها الأم المثالية للعائلة الجديدة. مهر العروس كان مرتفعا، لكن مسروقه بعد أن سمع مديح جامبوت لها لم يتردد. مائة رأس من الخيل، وستة عشر زوج من الثيران، وأسلحة نفيسة وكيس من النقود الذهبية حصل عليها والد العروس.

نالت المرأة إعجاب زوجها الذي أحبها من فوره، واستطاع بدوره أن يبعث فيها حباً وشوقاً إليه.
أنسته الحياة السعيدة التي لم يألفها سابقا آلام ذراعه. وحذا توزار إثر سيده و تزوج أيضا. وتسارعت الحياة في قرية تامبي هادئة مستقرة..
العجيب أن مسروقه استطاع التآلف مع الحياة الجديدة بيسر، فلم يكن يشعر بالضجر. وسارت الحياة على هذا المنوال إلى أن جاء يوم أحضر فيه جامبوت إلى مسروقه رجلاً بديناً في منتصف العمر. بدا الرجل نبيهاً، وقد حمل معه كتاباً مع بعض الأوراق، بالإضافة إلى ريشة إوزة.. لقد كان مثل هذا الرجل نادرا في ذلك الزمان.
- صديقي العزيز، ها أنا أفي بوعدي - تحدث جامبوت - تذكر طبعاً حين وعدتك بأن أجد لك كاتباً؟
- أنا سعيد جداً يا صديقي الأمير - ابتسم تامبي - فلتتحقق وعودك دائما. ولكن لماذا هو متجهم هكذا ، هذا المدرس؟
- أيها الناس - فجأة نطق الكاتب بحزن - إلى متى ستعيشون في هذا الظلام؟ ومتى ستدركون نعمة الكتابة، ومتى ستحنون رؤوسكم أمام حكمة الحكماء؟ لقد أصابني الإعياء من تعاملي مع غطرسة النبلاء المتعجرفين. إنني أجيد العربية والتركية والروسية، ولقد قرأت القرآن الكريم سبع مرات. ألا يحق لي أن أحظى بالقليل من الاحترام. وأي احترام... إنهم يتقاذفونني من نبيل إلى آخر ولا أجد إلا الإهانة والتحقير، ثم تجد من لا يعجبه البؤس المرسوم على وجهي.
- كفى - قاطعه جامبوت -
- إذا لم يتوقف هذا المسكين عن الأنين - تكلم مسروقه - فسيعمل مع الحصادين من الصباح حتى المساء.
كان واضحاً أن مسروقه لم يتأثر بتباكي الكاتب.
- إن وجهك يوحي بشيء ما - توجه مسروقه إلى الكاتب - هناك شيء أديغي و آخر تركي فيك، من أنت؟

- لقد أصاب السيد الطيب الحقيقة. إن أمي شركسية. ولدت في حريم سيد تركي معروف. نشأت في استنبول وهناك تعلمت في مدارسها، وأرسلت بمهمة إلى القرم، ومن هناك توجهت مع أحد الباشوات التتار إلى سودجوك قاله ولكن العاصفة قذفت بمركبنا بعيداً إلى الجنوب لنجد أنفسنا على شواطئ الشابسوغ. تحطم القارب وغرق الباشا. نجوت مع بعض البحارة، ولكن وقعت بين أيادي الشابسوغ الذين قاموا ببيعي إلى آخرين. وهؤلاء بادلوني بحصان. وأي حصان؟ إنه لم يكن حتى أصيلاً. وبعدها باعوني ثم قايضوا بي ليعودا إلى بيعي من جديد. وها أنا هنا؟ إلى متى لا أدري؟

- لفترة طويلة - قال تامبي - إن شاء الله، وستضطر إلى تعليم أولادي في المستقبل القراءة والكتابة واللغة العربية.

- الحمد لله، أعتقد أن المسكين عليم قد وقع أخيراً في بيت مسلم حقيقي.

- نعم سوف تحظى في هذا المنزل على الاحترام اللائق، ولكن يجب أن تتوقف عن التباكي. هل فهمت يا عليم؟

- سأتوقف - ظهرت على وجه عليم الجدية -

في اليوم التالي وبعد واجبات الضيافة المعتادة رحل جامبوت. استدعى مسروقه عليم إلى المضافة ووضع بين يديه الدرع الرومي.

- لقد ذهبت إلى مكة وأنا ارتدي هذا الدرع و قام أحد المشايخ بكتابة تعويذة عليه ولم يفصح لي عن مضمون ما كتب، متذرعاً أن الكتابة فعالة حين لا تقرأ. وأنا أريد الآن أن أعرف ما هو المكتوب. اقرأ....

انحنى الكاتب المتعلم على الدرع ، تحركت شفتاه ثم نظر بخوف إلى تامبي. وبصوت يخنقه الاضطراب قال:

- هناك بعض المشايخ هكذا..... من الممكن أن سيدي لم يقنع الشيخ.....

- ما هو المكتوب هنا؟ أجب.

- أنا أيضا لا أريد أن أقرأ هذه الكلمات بصوت مسموع.
- أنا انتظر - بدأ صبر مسروقه ينفذ -
التفت الكاتب نحو الباب، لم يكن هناك في المضافة غيرهما، عندها وبصوت بالكاد يسمع قرأ عليم السطرين الذين نقشا على المعدن في مكة.
صعد الدم إلى وجه مسروقه، ترنح قليلاً، وضع كفه على عينيه وبعدها قبضت أصابعه على قبضة الخنجر:
- أيها الحقير الكاذب - صرخ تامبي - كيف تجرؤ .. تجرؤ على هذا.
تغلغل نصل الخنجر بسهولة في حنجرة الكاتب الذي يجيد العربية والتركية والروسية، والذي ختم القرآن الكريم سبع مرات لتذهب روحه إلى دار الأموات من بني آدم، حيث الحدائق دائمة الخضرة، والمياه نقية صافية.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لقد آمن مسروقه بصدق نوايا الشيخ التعيس. ونهضت أمام عينيه في تلك اللحظة صورة وجهه المتجعدة، بعينيه الدامعتين، والابتسامة الغريبة على شفتيه الشريرتين.
كانت ضربة الخنجر التي تلقاها سيئ الحظ موجهة إلى ذلك الوجه، وجه العجوز المخادع. لم يأسف مسروقه ولم يفسر لأحد معنى هذين السطرين المقدسين، إنما وضع هدية ملوك مصر في حقيبة من جلد الغزال. وامتطى صهوة جواده، ليتوجه إلى مكان ما إلى الأعالي باتجاه النهر. وعند صلاة المغرب كان قد عاد دون الحقيبة ودون الدرع. استلقى دون أن يصلي، ثبت نظراته على السقف، عاد الألم الشديد إلى ذراعه ثم انتقل هذا الألم إلى صدره. وتراكض أهل البيت عندما اصبح يتنفس بصعوبة . زوجته، خدمه، الجيران، فعلوا كل ما يمكن فعله. لم يعطوا مسروقه فرصة للنوم في الليل. ضربوا جذوع الأشجار

بالفؤوس، غنوا، رقصوا، دقوا الطبول، ولكن كل شيء ذهب عبثاً. عند الصباح كان مسروقه قد مات. وقبل موته ابتسم، وبصعوبة خرجت الكلمات من فمه، ردد المثل الأديغي:
" نجا من الطاعون، ليقتله الإسهال.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لم يعرف أحد سبب موته، ولا أين اختفى الدرع الثمين مع رأس الأسد الذهبي. ومسروقه لم يكن يعلم أن زوجته ستضع توأماً، وسيخلفه طفلان جميلان قويان.

كلمة المراقب المتأمل

عاش مسروقة وتوزار حياة رائعة مليئة...
لقد مرت أمام نظرة المتأمل المندهشة، مجموعة من الشخصيات والأحداث المثيرة، التي لم تأخذ حقها في الأخبار الثلاث السابقة، لكن تحميل كل ماشوهد أو سمع على الأسطر القليلة، سيكون صعبا. إذ من الصعب أن تتسع صفحة واحدة للحديث عن طريقة تذخير بندقية واحدة. سيكون هناك عرض لملاحم تراق فيها الدماء أكثر. وفي أحسن الأحوال سوف تسقط عشرات الجثث. وفي أوقات الفراغ ستكون هناك مشاحنات وجدل، ومن المحتمل أن تجري أحاديث ودية مع فواصل غنائية، كتلك التي غناها مسروقة. بالمناسبة هل أعجبتكم شخصية بطلنا وهو يلعب دوره كمغني يمجد مآثره دون أن يخشى أن يمس تواضعه بسوء. لقد كان هناك مايدفع بالمتأمل للتدخل ليلجمه ويدفعه إلى السكوت. لكن هذا لم يحصل. عموماً كانت هناك مواقف دفع فيها الإغراء بالمتأمل للتدخل والتأثير على مجرى الأحداث. لقد كان مثل هذا الإغراء شديداً ليدفع بمسروقة إلى لكم عزيز على أنفه ويدميها، وكذلك بدفعه إلى التعرف على السلطان التركي سليم الذي يشاع أن جدته شركسية، وأخيرا وعلى سبيل المزاح دفعه لأن يقلب عربة الأمير السمين بيرسلان. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. وجرت الأمور كما هي.
ليس من وسيلة أخرى عند جبابرة الناس للهو والمرح غير المعارك والغزوات. لذلك وجب علينا الإبقاء على سرد الحوادث دون تغيير أو تحريف. وسنضطر إلى مواجهة آثار رحلة مسروقة البعيدة إلى الحج. وأول تلك الآثار، سوف نواجهها بعد زمن طويل.
كان أحفاد الأمير القادم من مصر قد فارقوا الحياة. وبين الزمنين ستذوب ثلوج بحجم الأوشحه مافه، وسيمر قرنان من

الزمن. سيدور ماجلان حول الأرض، وتبنى كنيسة القديس بيتر في روما، وستلمع أسماء...ليوناردو، مايكل آنجلو، رافائيل... سيتغير وجه العالم، وستعتنق أوروبا طريق العلم والفن، وطبعا سيهتمون بالجيوش وتقويتها. أما القبردي... فستبقى على حالها كما كانت. سيقيمون علاقات طيبة مع جارهم الشمالي، لكن العلاقة لن تدوم طويلاً. سيسارع القبردينيون إلى الالتحاق بروسيا، وسيزوجون أميرتهم ابنة تيمروقة من القيصر إيفان الرهيب. تيمروقة الذي قاتل التتار ببسالة. سيأتي المبشرون المسيحيون ليضموا سكان بيتي غورسك إلى دينهم. وسينافسهم المسلمون. لن يجد الروس الوقت الكافي للإهتمام بالشراكسة، فلديهم كم من المشاكل. خانات التتار و أستراخان، القوزاق، البولونيون الذين يزعجونهم من الغرب كالديوك، مشاكل الفلاحين والإنتفاضات. كل ذلك والعالم أصبح يعرف حقيقة أن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس. صحيح أن حكام الأرض كانوا بعيدين عن فهم الحقيقة البسيطة التي تقول أن أكبر الإنجازات دوياً لا تتحقق بزئير المدافع، ولا من خلال الحملات العدائية، ولا عبر الأنوار الساطعة للمدن المحترقة. إن حكام الأرض لربما امتلؤا غيظاً لو أننا أخبرناهم أن حمامات الدماء التي أقاموها لم تدهش أحفادهم، وأن ما أدهشهم هي أعمال الكادحين البسطاء الهادئة، الذين لم يتربعوا على قمم المجد في حياتهم. مثل ذلك الإنكليزي الذي عاش في مدينة ستراتفورد[١]، ولم يكن غنياً أو معروفاً، وكتب عن ملوك وأمراء ونبلاء من مختلف المراتب مع أفراد حاشياتهم. مثل ذلك الرجل الذي أحب الحرية فقضى في السجون الإسبانية، حيث كتب تلاً من الأوراق التي تحدثت عن الفارس العجيب الذي حمل إسم دون كيشوت.

[١] - المقصود به الكاتب الإنكليزي المعروف وليم شكسبير مؤلف الملك لير وهاملت وتاجر البندقية.....

مثل ذلك البولوني الذي لم يجد لنفسه صنعة إلا أن يراقب السماء ليلاً ويرسم مختلف الدوائر والخطوط المنحنية.

ومع ذلك لم يختلف شيء في القفقاس. فالعالم بالنسبة إليهم يعيش تحت القمر. والأرض لم تكن يوما كروية، ولم تدر حول الشمس. واستمروا في القتال. واستمر تطاحن الأمراء.

القسم الرئيسي

الخبر الرابع

يؤكد أن الغراب يحوم حول الجيفة .

- لقد أفزعتني أيتها الأفعى الملعونة، كدت أن أطأ طرف ذيلك. من المؤسف أنك اختفيت داخل جحرك أيتها المخلوقة الدنيئة. و إلا فإن عصاي جاهزة للقضاء عليك. اسخري من أديشيم أيتها اللعينة، ففي الجحر حتى الفأر يصبح بطلاً. ولكن سنرى هل ذهبت بعيداً.
أديشيم رجل فقير يتمتع بمحبة واحترام الفلاحين، وهو كثير التحدث مع نفسه أو مع خيول توزار التي كانت ترعى العشب الندي في أعالي نهر بالك.
لم تكن الخيول لتمانع أبداً من الإنصات إلى أحاديث أديشيم، ولم تكن لتبحث عن فكرة خرقاء في حديثه. الأهم من كل ذلك ما كانت تلك الخيول لتقاطع حديثه.
استمر أديشيم في مخاطبة نفسه وهو ينقب في جحر الأفعى. كان يتوقف أحيانا وكأنه يطبق المثل القائل " تلفت قبل أن تجلس، وفكر قبل أن تتحدث".
- سأنال منك أيتها اللعينة. إن إله الغابات مزتحه وإله الوحوش المفترسة شو موتس لن يتخليا عني، أنا الراعي المسكين. مر الشتاء بسلام وها نحن نستعد لاقتياد الجياد إلى تيرتش، إلى قرية توزار. ماذا لو تلقيت من شدقيك كمية من السم المميت؟ عندها لن أرى تيرتيش، ولن أحصل على النعجتين، ولا على الحصان. من يدري قد يقدم قارالبي توزار حصانا لي.

في تلك اللحظة اصطدمت العصا بجسم معدني ورن صوت معدن مكتوم.
- أيييي هل يمكن أن تسكني في منزل معدني أيتها الأفعى المحترمة.
وبحماس متزايد راح أديشيم يحفر بعصاه الأرض، ويوسع الفتحة ثم يزيح طبقة الحصى.
- ما هذا؟ إنه بالفعل جحر معدني. أقسم بمزتحه، إنه قماش متعفن ... ولكن... إنه فولاذ ... يا إلهي إنه درع.
نبش أديشيم حول حواف الدرع حتى استخرجه من مكمنه. نظف سطحه الفولاذي من الغبار، ومسح البقايا المتعفنة. عندما جلس كان قد نسي كل شيء عن الأفعى، التي كان يمكن لها أن تعقصه في أي مكان من جسده. لكن الأفعى اختفت في مكان ما، ولم ترغب بالإعلان عن نفسها.
عندما قلب الراعي الدرع انعكست أشعة شمس الصباح مباشرة على زخرفة وجه الأسد الذهبي المزمجر.
فتح العجوز فمه ولكنه لم ينطق حتى احتلت الكلمات المناسبة مكانها في دماغه.
- إذاً هذا هو منزلك أيتها الأفعى..... ولكن لا.... لم يصنع هذا الدرع الرائع لأمثالك. لا بد وأنه يساوي الكثير. ولا بد أن قارالبي سوف يمنحني حصاناً أصيلاً وسيهبني أفضل النعاج بالإضافة إلى خروف..
شكر العجوز إلهه الحامي مز تحه بكل جوارحه، ولم ينس يمش رب الحيوانات الداجنة. احتضن الدرع بجسده النحيل وسارع إلى رفاقه الرعاة الذين تفحصوا الدرع بذهول وفضول شديدين.
اقترح الرعاة على أديشيم أن يسارع في التو واللحظة إلى توزاروقه، وهم سيتكفلون بقيادة القطيع من دونه.
قاد العجوز حصانه بسعادة بالغة متلهفاً الوصول، وهو الذي لم يحث حصانه على الإسراع في يوم من الأيام.

أسرع باتجاه الشرق منحدراً إلى أسفل النهر. عند حلول منتصف النهار كان قد توغل في الفراغ الرحب للغابات الكثيفة الممتدة بين أنهار مالقا، بقسان، تشقم، تشيرك وتيرك. كانت المياه غزيرة حتى في تلك المناطق الضحلة من كوركوجين، وما كان لفارس أن يعبرها بسهولة. الغابات الكثيفة بأشجارها ذات الأوراق العريضة كانت تحمي مجاري الأنهار.

تسببت مياه الأمطار في رفع مستوى منسوب المياه. وتبين أن المخاضة عبر بقسان أصبحت خطرة، فالمياه وصلت إلى مستوى صدر الحصان.

بالكاد استطاع أديشيم المحافظة على توازنه وهو على سرج حصانه، وعندما وصل الجواد إلى الحصى، وقف بصعوبة على قدميه.

- هذا ما كان ينقصني. أن تغمرني المياه وأنا أحاول الوصول إلى الشاطئ الآخر. أقسم بمزتحه إنني كدت أن أغوص. وما كنت لأتمكن من السباحة مع هذا الدرع.

عاد أديشيم يحدث نفسه. بدأ الغسق يلقي بثقله على الطريق. راح يفكر بقضاء الليل على ضفة النهر حين تراءت له من على بعد أضواء إحدى القرى.

- إنها قرية بابوك، حسناً سوف نجد مكاناً نقضي فيه ليلتنا عند رجال حاغور بابوك.

عندما اقترب من القرية ارتفعت الحان موسيقية وسمع أصوات مرحة.

- يبدو أن احتفالاً ما أو سهرة صاخبة تنتظرنا. أو... ربما جاء الأمير عليغوكه شوجنوقه لزيارة تابعه الجانوقه. سيكون هذا بالنسبة إلى حاغور شرفاً عظيماً..لا يبدو أن هناك عرس... لماذا التخمين؟ إذا لم تفتح الكيس لن تعرف ما بداخله.

لكز أديشيم حصانه.. ضاعفت الدابة الذكية خطواتها وهي تشعر بالعلف الطري الذي ينتظرها في محطة الإستراحة القريبة.

* *

تأججت النيران أمام البوابة الرحبة لآل بابوك، وفاحت الأواني والقدور النحاسية برائحة اللحم المسلوق، وعصيدة القمح، وحساء لحم الغنم، الذي أضيف إليه الكثير من الثوم والبصل.
اهتم بعض الشبان بتوزيع اللحوم وهي ساخنة على المناضد ذات القوائم الثلاثية، لتنتقل فيما بعد إلى المضافة التي أنارتها المشاعل. حظي النبلاء على أجود الأجزاء رغم أن العامة هي من قدمت النعاج والخرفان. ومع ذلك بقي لها أحشاء الذبائح وأضلاعها ودهونها.. كانوا راضين، فهم يعلمون أنه عاجلاً أم آجلاً سيحكون جانبهم الأيسر، مما يعني أن بابوك سيعود من غزوة ما وسيوزع عليهم الأعطيات، أما الآن فيمكنهم الجلوس حول النار والاستمتاع بشرب حساء اللحم والترويح عن النفس بالأحاديث المرحة.
لاحظ رجال حاغور فارساً مدرعاً يسرع إليهم. قفز أحدهم واختطف لجام الحصان، ليقتاده إلى الحظيرة. أما رفاقه الجالسون فسرعان ما هبوا وهم في حيرة من أمرهم. من يكون هذا القادم؟ تبدو عليه البساطة، ولكن ما عليه لا يحمله الأمراء.
- ماذا ألم تتعرفوا على متشرد منكم؟ - ضحك أديشيم - أما هذا الشيء - وطرق بأصابعه على الدرع - فإنني لا أملكه... إنه للنبيل قارالبي توزار. والآن لنبدأ من جديد حسب العادات.
خطا أديشيم خطوة إلى الأمام وقال بلطف:
- بارك الله جمعكم أيها الطيبون.
- حفظك الله أيها الطيب.
- تفضل إلى دفء النار.
- امنحنا الشرف وكن ضيفنا.

تناول أديشيم كوباً خشبيا طفح بالماخسمة من أكبر الموجودين سناً. شربه بصمت إلى آخر قطرة. وبسرعة أعاد أصغر الجمع ملئ الكوب من جديد، ليعيدها أديشيم إلى أكبرهم، مع انحناءة صغيرة.
- الآن يمكن الانضمام إلى المجموعة والجلوس.
سرعان ما وضعوا أمام الضيف اللحم والجبن والخبز. راح أديشيم يأكل ويشرب بروية دون أن يزعجه الصمت الذي خيم، والعيون التي كانت تختلس النظر إلى الدرع. كسر الكبير حاجز الصمت ووجه إلى الضيف بضعة أسئلة. عن صحته و طريقه، وعن حياته الطيبة. حمد أديشيم الإله وراح هو أيضاً يعيد الأسئلة نفسها على مضيفه ثم سمى نفسه و أرضى فضول الحضور حين أخبرهم من أين وإلى أين يمضي. ثم دار حديث ودي.
تكلم الكبير الذي تبين أن اسمه بيتا محدثاً أديشيم عن سيدهم. فهو يقيم احتفالاً بمناسبة عودة ولده إبن الأعوام الستة عشر إلى البيت. لقد غادر المنزل وعمره خمسة أعوام ليقوم أحد الفرسان النبلاء بتربيته. واليوم يعيد المربي الفتى إلى أبيه حسب العرف.
كان الفتى مدججاً بالسلاح ويمتطي جواداً ممتازاً، لهذا يقوم النبيل بابوك بواجبات الضيافة ويخدم المربي بيديه تعبيراً عن شكره له.
وأردف بيتا بحزن :
- والآن بدأت راحتنا اليمنى توخزنا، فحسب العادة يجب على حاغور أن يقدم عشرات الثيران، والكثير من الماشية بالإضافة إلى الجياد، فهذا وقت دفع الحساب. ومن غير الرعاة سيدفع الحساب؟ لو أن الإله أوش غيري ساعده بغزوة مظفرة يصيب منها غنائم كثيرة.
اعترض أحدهم :
- لا يا بيتا إن الله عز وجل هو أقوى الآلهة.

- ممكن - وافقه بيتا - ولكن من الأفضل احترام الأرباب، لا أن نرفع الدعاء إلى إله واحد فقط وننسى الآخرين ...قد تغضب باقي الآلهة. فليس عبثاً يغنون.

تلبش يحمل الحسام
وأوش غيري يوجه الحسام

فجأة صاح أحدهم في أذن أديشيم:
- أيييييي... أيها الرجل الطيب إن رب هذا البيت يدعوك لتخطي عتبة مضافته.
قام أديشيم المنتشي بخفة وتوجه إلى باب المضافة المفتوح على مصراعيه.
" لماذا إن مقامي ليس هناك؟ - فكر الراعي - آ.. لقد فهمت.. إنه الدرع."
عندما اجتاز العجوز عتبة المضافة حيا الجالسين متمنياً لهم مجلساً سعيداً. كان السيد وضيفه الكبير قد احتلا أماكنهما أمام الموقد. توجهت الأنظار وتسمرت عيون الجميع على أديشيم، في حين صمتت الآلة الموسيقية الخشبية بعد أن أطلقت زفرة أخيرة خجولة على أوتارها السبعة.
دوى صوت بابوك المندهش الجاف، وكأن جرحاً أصاب حنجرته :
- تعال إلى هنا ... اقترب.
- لم ينس بابوك أن يومئ بيده ليصبوا له الشراب في قدح كبير.
- اقترب ولتكن في كل خطوة من خطواتك توفيقاً. - ومد يده بالكأس إلى أديشيم -
بهت أديشيم من اختصاصه بهذا الشرف الذي لا يستحقه. لكنه لم يظهر استغرابه. صحيح أن الشراب المزبد كان قوياً جداً، والكأس ممتلئة حتى حافتها بالإضافة إلى أنها كانت واسعة إلا

أن أديشيم شربها حتى آخر قطرة، وأعاد الكأس مجدداً إلى السيد بعد أن أُعيد ملؤها.
- اجلس أيها القادم الغريب.
كان بابوك يتكلم بصوته السلطوي، وبلهجته المتعالية وهو يقدم كرسياً صغيراً بنفسه إلى أديشيم.
مسح الأخير شاربيه الذين خطهما الشيب بكم ردائه وهو يفكر...
" إن كل هذا الاهتمام موجه إلى الدرع، وإليه يطلب منه الجلوس، وهذا يعني أن عليه أيضاً الجلوس. "
- فلتحمي الأرباب هذا البيت.
يبدو أن صبر بابوك قد نفذ وهو يتصنع التعامل مع الراعي كسيد.
- من أين حصلت على هذا الشيء؟ ماذا تريد أن تفعل بهذا الدرع؟ ومن أنت؟
ابتلع الراعي الإهانة الموجهة إليه بحكمة وأجاب:
- أدعى أديشيم، أنا فلاح حر، أعيش على أرض توزار، على الضفة اليمنى لتريتش أما الدرع فسوف أقدمه للنبيل قارالبي توزار فأنا تابع له.
- من أين حصلت عليه؟ ومن هو توزار؟ وأين يعيش؟.... حسناً إننا من دونك نعلم هذا..
امتلأ وجه حاغور العريض بفمه الدائري الصغير وعينيه الماكرتين الضيقتين بالحماس.
- أستطيع أن أجيب، فلا تعتقد أيها السيد الطيب أن لدي ما أخفيه. كان الدرع مخفياً تحت الأرض لمدة طويلة جداً. لأن القماش الذي كان يحيط به تفتت إلى ذرات. أما أين وجدته ففي مكان ما جنوب مراعي نهر بالكا. دلتني عليه أفعى بعثها الرب شوموتس بنفسه لكي أطاردها قبل أن تنزلق إلى جحرها. كان مدخل الجحر ضيقاً جداً، فكان لا بد من الحفر، والحية اختفت

تحت سابع أرض. ومن هناك أرسل هذا الدرع الرائع... ربما تلبش[1] بنفسه صاغه على هذا الشكل.
لم يكن واضحاً هل كان العجوز الذي خط الشيب لحيته جاداً في حديثه أم أنه يراوغ .
- أوي يا دنيا كم كانت الحية ضخمة. كان طولها سبعة أذيال ثور...
انتشى أديشيم تحت تأثير الشراب. لكن عيناه كانتا تلمعان بعناد وفرح.
- اشرب أيها العجوز - قال بابوك - لا تخجل خذ قطعة من اللحم اللذيذ، إنها من الكلية طرية للغاية.
التفت بابوك إلى مضيفه وسأله دون أن يبدو على وجهه انتظار لأي جواب:
- ماذا تقول يا عزيزي ايدار؟
كان ايدار رجلاً في الخمسين من عمره، صلباً، تميز بالدهاء وسرعة البديهة. ولم يكن يحتاج إلى أية إشارة ليدرك الجواب الذي ينتظره بابوك. لكنه لم يكن خبيثاً، وحاول أن يجيب بابوك بما لا يخالف ضميره وبما يجد صداً في صدر النبيل:
- لا يجب أن نقحم الإله تلبش في هذه المسألة - بدأ حديثه - لقد سمعت من جدي عن شيء يتعلق بدرع يلمع وقد نقشت عليه بالذهب صورة وحش مع أزرار ذهبية. لم أظن في يوم من الأيام أن عيناي ستقعان على هذا الدرع. يقال أن الدرع جاء من مكان ما من الأناضول قبل زمن طويل... أوي كم كان ذلك الزمن قديماً،
جلبه تامبيوقه. إن البذور التي سقطت على الأرض في ذلك الزمن نبتت وأصبحت أشجار بلوط ضخمة لا تحيط بها أذرع ثلاثة رجال .. ويقال أن الدرع مصنوع من الفولاذ النادر، وهو

[1] - تلبش - رب الحدادة وحامي الحدادين في الملحمة الشركسية.

لا يتأثر بالطلقات ولا بالسهام ولا تنفذ فيه الحراب الحادة، وكان فيما مضى عائداً لـ ...
- عائداً إلى ملوك مصر - قاطعه بابوك بحماس - إننى أعلم هذه القصة ولكن لماذا لم أدرك منذ البداية أن ما أراه هو الدرع نفسه؟
لم يكن أديشيم يفهم ما يقال، حرك رأسه قليلاً.عندما وقعت عينا بابوك عليه أمر بحنق:
- أعطوه كأساً آخر من المارماجيه.
وعاد إلى ضيفه متمماً حديثه:
لقد قص علي الأمير عليغوكه أن جد، جد، جده ولا أدري أي جد، كان صديقاً حميماً لتامبي وكان يتمنى أن يهديه الدرع، لكن تامبي مات فجأة، أما الدرع فقد اختفى دون أثر، وكأن ربة المياه خبأته في طياتها في أعماقها . وها هو يظهر ثانية. أعتقد أننا يجب أن نسلمه إلى الأمير عليغوكه.
- ألن يطالب به آل تامبي - سأل ايدار بحذر - صحيح أنهم قلة ولكنهم يشكلون عائلات.
ابتسم بابوك باستخفاف:
- وهل يتحدون الأمير؟ وأي أمير؟ أمير قوي... إن هذا الدرع جدير بأمير، والتامبيون نبلاء... مميزون ولكنهم ليسوا بأمراء.
انتفض أديشيم فجأة ورفع رأسه:
- أنا وجدت الدرع وسوف آخذه إلى توزاروقه.
- اخلعوا عنه الدرع - أمر بابوك -
لم يقاومهم أديشيم، شعر بجسده فارغاً عندما حملوه من المضافة.
- ماذا نفعل به؟ - سأل النبيل -
- لا تقتلوه - أجاب ايدار - الأفضل أن تضعوا عليه درعاً من دروعنا وغداً سيعود إلى منزله. إنه لن يتجرأ و يفاتح توزراقه بشيء حول الدرع.
- ما أشد حكمتك يا عزيزي ايدار.

بدا السرور واضحاً على بابوك. تناول الدرع وتفحصه ملياً بفضول نهم ثم وضعه جانباً:

- حتى وإن كان اسمي الذئب الهزيل حاغور، إلا أن الدرع ليس لي.

ضرب بابوك بيده الثقيلة على بطنه، لتداهمه الأفكار السوداء، كأن أفكاره الكئيبة لا تكفيه. صحيح أن الأمير شوجنوقه غني، لكنه بخيل ولا يملك ذرة من الحياء. وهو رغم تفانيه في خدمته إلا أنه لا يحصل منه إلا على الفتات. جال بنظره مضافته... الجدران الطينية بدأت بالتشقق، والسقف تعامل الدخان معه حتى اسود وتقوس. وعلى السجادة القديمة التي أخفت الجدار توضع سيفان بسيطان بغمدين مهترئين لا أثر لأية زخرفة عليهما، ومسدس بدا رائعاً ولكن، لا تستطيع رصاصاته اختراق درع مزرد عادي. والسرير مد عليه غطاء عاف عليه الزمن. لا انسجام من حيث الشكل بين الأوعية الخشبية والنحاسية التي توضعت قرب الموقد وقد امتلأت بالخدوش وتشوهت. (فضة لها قشرة ذهبية فقط) هذا ما أنت عليه يا جانوقه. لا رائحة للذهب هنا أما الفضة فتزين مقبض الخنجر فقط. إن حصول حاغور على هذا الدرع يعني إمكانية أن يصيبه من الأمير شيء من الكرم. قد يهديه أسلحة أصيلة وملابس جديدة وماشية... لابد أن هذا ما سوف يحدث، إذ على الأمير أن يرد لتابعه النبيل صنيعه المتميز. بالإضافة إلى ذلك يجب أن يطلق يده في اختيار الأوقات التي تناسبه لشن غزوات بعيدة وغزوات منفردة. وهذا سيجعله معتبراً أمام رجاله.

استرسل بابوك في أحلامه وسبح في أعطيات الأمير التي لاحصر لها. لكن، لو أن هذا الأمر يتم بسرعة، فبيوت الفلاحين أصبحت فارغة، وإذ استمر الوضع على ما هو عليه فأنه سيضطر إلى اغتصاب آخر ما يمتلكه الفلاحون، وبعدها من أين ستأتي الموارد؟ نعم لقد وصل هذا الراعي التوزاري في الوقت المناسب. وغداً سوف يأخذ بابوك الدرع إلى الأمير. ولكن أليس

من المستحسن إرسال أديشيم إلى مملكة الأموات؟ لن تكن كارثة إذا نقص الرعاة واحداً ... لا إنه لا يستحق ذلك. سيكون عليه دفع ثمن دمه. ولن يتوقف الأمر على رأس ماشية فهذا لن يرضي قارالبي توزار، أما أن يأمر بالتخلص من الراعي في مكان ما من الغابة بهدوء دون لفت أي نظر، فهذا ما لم يخطر على بال حاغور. إذ ليس من عادات القبردي إخفاء الدماء. يمكن السرقة والقتل ويجب أن تدفع ثمن القتل إما من ممتلكاتك أو من دمك. أما إخفاء القتيل وطمس أثره، فهذا يعني أنك تجلب العار والخزي لنفسك، عار لم يسمع به أحد وبذلك يسقط قلبقك في الأوحال.
لن يسامحك أحد على الخيانة والجبن حتى أولئك الذين تخدمهم بإخلاص. والعامة سوف تطلق أغنية تلعنك وتلعن أحفادك.
- أيييبي حاغور - لمس ايدار كتف النبيل الشارد - بماذا تفكر يا صديقي.
انتفض حاغور وطبع على شفتيه ابتسامة غطت قليلاً وجهه المتغضن.
- كنت أفكر بأولئك الموسيقيين الذين توقفوا عن العزف.
التفت إلى العازفين الثلاثة القابعين بملابسهم الرثة في الزاوية.
- أيييي ... أنتم يا من ولدتم صدفة! هيا إلى المرح.
ضرب أحد الموسيقيين براحتيه الثقيلتين على الطبل، بينما راح الثاني يمرر العود المضفور من شعر الفرس على أوتار الآلة الخشبية، أما الثالث فبدأ بإصدار صوت ثاقب على مزمار صغير.
لاحظ بابوك بانفعال، أن الموسيقيين لايتقنون العزف وأن آلاتهم رخيصة وسيئة.

* *

عندما استيقظ أديشيم في صباح اليوم التالي، وجد نفسه في كوخ العجوز الطيب بيتا. اقترح الأخير على أديشيم الإفطار. قدم له الحليب الحامض والعصيدة مع القليل من لحم الخروف البارد المتبقي من حفلة الأمس.

بدأ أديشيم بالأكل لكنه توقف فجأة، وتوقفت اللقمة في حلقه عندما لاحظ الدرع المزرد الذي يرتديه. سعل والتفت إلى بيتا وعيناه مغرورقتان بالدمع، كان في نظرته تساؤل. أحس بيتا بمصاب الرجل فتنفس بعمق وقال بهدوء:

- أنا ما زلت حياً، هذا يعني أنك لم تسلب وأنت تحت سقف بيتي.

- سأذهب إلى بابوك - أعلن أديشيم - لا بد وأنه يمازحني.

- بابوك لا يعرف المزاح - أجاب بيتا بحزن - لا تذهب.

- لكن الدرع لتوزار، آه أين كنت وأين كانت عيناي، لقد صدق المثل حين قال " إذا غابت البصيرة عمي البصر."

- لا بد وأن المارماجيه عند بابوك كانت قوية كفاية.

- كيف لي أن أستعيد الدرع؟

- صحيح كيف لك أن تستعيد الدرع؟ وحاغور يريد أن يأخذه إلى الأمير عليغوكه. لا تحمل نفسك فوق طاقتها.

- حسناً سوف يجد توزار تلك الطاقة في نفسه، وسوف أقص عليه ما جرى... أين حصاني؟

- ألا تبقى في ضيافتي لفترة، لماذا الاستعجال؟

- لا بد من الإسراع - وقف أديشيم وتوجه إلى المدخل - أرجو لبيتك السعادة، أنا ذاهب.

- انتظر أيها الضيف العزيز، هل يستحق الأمر أن تفاتح نبيلاً وتحدثه بما جرى. أنت تعلم أن العربة إذا انقلبت ستكون أنت أول ضحاياها.

- عربة توزار لن تنقلب.

- حسناً فليكن طريقك سهلاً ، وليكن جوادك قوياً لا يتعثر على الطريق، ولا تضطرب خطواته، وليحالفك النجاح كرجل حق.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

تقع قرية توزار على الضفة اليمنى أعلى نهر تيرك، حيث يتفرع أكبر أنهار القفقاس في تلك المنطقة إلى عدة أنهار عريضة، دون أن تشكل حاجزاً أمام فارس، لأنها لم تكن عميقة كفاية. على هذا الجانب من النهر، امتدت الغابات الكثيفة التي وهبها الخريف مؤخراً حلتها الذهبية. أما على الجانب الآخر، فقد امتد على مد البصر سهل تشبع بنضارة العشب الأخضر التي سمحت الأمطار بنموه. ورغم أن كمية هذه الأمطار في القبردي الكبرى المتاخمة لسلسلة جبال القفقاس الرئيسية كانت أغزر منها في القبردي الصغرى، إلا أن هذه الكمية كانت كافية حتى في منتصف الخريف، مما سمح بنمو العشب والعلف حتى موسم الاخضرار الربيعي.

كان قارالبي رجلاً خط الشيب لحيته، طيباً، قوياً، راضياً عن حياته، سعيداً. عنده ما يكفي من روائع الأسلحة ، وفي مراعيه تسرح المئات من الجياد الأصيلة، والآلاف من رؤوس الماشية. حتى الأساس المعيشي لفلاحيه كان قوياً. فزوجاتهم كن يلدن الأطفال الأقوياء الأصحاء. نقطة واحدة لعبت سلباً في حياته. وفاة زوجته المبكر دون أن تهدي زوجها إلا طفلاً واحداً. ومع ذلك أصبح الطفل وهو في ربيعه الثاني والعشرين خلفاً حقيقياً لوالده. لم يكن لجانبولات منافساً له في مباريات الرماية. كان ماهراً في استخدام الأسلحة النارية، ولم يكن أقل مهارة في استخدام القوس، و يمتلك من القوة ما يجعله قادراً على طرح ثور على الأرض. لم تكن تستحوذ على ذهن قارالبي إلا فكرة واحدة تلح عليه. إيجاد عروس مناسبة لابنه، وانتظار الحفيد، بل الأحفاد الكثيرين، فإذا حرم الله الوالد فلا بد وأنه لن يحرم الابن.

خرج قارالبي من بوابة الدار متوجهاً صوب النهر، إذ لا بد وأن جانبولات هناك يسقي حصانه الأبيض الأثير إلى نفسه شولوخ. لقد أهداه بنفسه إلى جانبولات قبل خمسة أعوام عندما كان مهراً

صغيراً. لكن لماذا لا يعود الابن، لقد غابت الشمس وقريباً سيحل الظلام. هبط قارالبي إلى الشاطئ الموحل حتى لامس الماء.

"آه جانبولات يعود، ولكن من هذا الذي يرافقه؟ ... إنه أديشيم، لكن لماذا عاد وحده؟ ومن أين لهذا الراعي درع مزرد؟"

أسرع جانبولات إلى والده بادي الاضطراب.

- أبى أرجوك أن تستمع إلى أديشيم فهو يحمل خبراً.

رفع قارالبي حاجبيه الكثيفين متسائلاً. ألا يبدي هذا الشاب حماساً أكثر من اللازم؟ لكن عندما استمع قارالبي إلى حديث الراعي الذي أسهب في التفاصيل، كان انفعال الابن لا يقاس باضطراب الأب. فالوالد يدرك تماماً عن أي درع يدور الحديث. ويعلم أكثر مما يعلمه بابوك أن جد ذلك الذئب الهزيل لم يقطع البلاد، إنما سلف قارالبي الذي عبر البحار ورافق ملوك مصر. كان يعلم أن هذا الدرع إنما كان في يوم من الأيام ملكاً لسلطان السلاطين، شمس الشرق صلاح الدين. وكان يعلم أن الدرع كان يخص ملك الإنكليز العظيم صاحب الحظ التعس ريتشارد الذي كان يخفق في صدره قلب أسد، بالإضافة إلى كل هذا كان قارالبي يعلم أن هذا الدرع حصن بحجاب في مكة مما جعله درعاً لا يثمن.

- لا إن بابوك الذي يسبح في أوحال الوثنية لا يستحق هذا الدرع. فمعدنه المقدس لا يجب أن يلمسه إلا جسد مؤمن طاهر - قال قارالبي بحزم -

قاد جانبولات الجوادين دون عجلة من أمره وهو ينتظر كلمة والده الأخيرة.

- حاغور يريد أن يأخذ الدرع إلى الأمير شوجنوقه - تذكر أديشيم - نعم، نعم، لماذا لم أقل هذا منذ البداية؟

- هكذا إذاً؟ - نظر توزار إلى الراعي بحدة - أنت أيها الراعي العجوز لا تستطيع أن تميز الصالح من الطالح. هل كان عليك التوقف عند بوابة بابوك. كان الأجدر أن تقضي الليلة في الغابة.

أطرق أديشيم رأسه بتواضع، وبصوت بالكاد يسمع قال:
- لم أكن أعتقد أنه في بيت نبيل، يمكن أن يسلب رجل فقير.
- إنك ماكر أيها العجوز - ضحك توزار - كيف لم يدفع رأسك ثمن طول لسانك حتى الآن؟ أسرع بحصانك إلى نارتشو وشوجي، وليسارعوا بجيادهم إلي.... وأخبرهم أن يصطحبوا ثلاثة أو أربعة رجال معهم. ودع هذا الدرع المزرد لأن جانبولات سيعيده إلى بابوك.
خلال فترة انتظار أولئك الرجال، وجد قارالبي الفرصة سانحة للحديث مع ابنه عن الحكاية القديمة التي تناقلتها الأجيال. كان جانبولات يستمع باهتمام شديد، حتى أنه ابتلع سعاله وبالكاد كان يتنفس خشية أن تفوته كلمة. كان يدرك أن من يحفظ هذا الخبر هو الأكثر جدارة بحفظ الدرع .. تورد خداه ثم اصفرا فجأة، أما عيناه فكانتا مثل خوختين كبيرتين، لكن لم تنضجا بعد. كانتا تنظران دون أن ترمشا وكانت شفتاه ترتعشان عندما أنهى قارالبي حديثه قائلاً:
- والآن أنت تدرك لماذا يجب على آل توزار أن يحتفظوا بالدرع، إن الله شاهد على أن جدنا الأكبر كان الخادم الأمين له، وحقنا بامتلاكه يفوق حق شوجنوقه. أما التامبيين فلا يجب ان يحسب لهم أي حساب، لأنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على دين جدهم العظيم وكذلك لم يستطيعوا أن يحافظوا على مميزات الإمارة.
- لو سمح لي أبي ان أسترد الدرع بنفسي - قال جانبولات بحياء -
لم يكن صوت توزار الابن الخشن والهادئ ينسجم مع وجهه الطفولي، رغم أنه وضع فيه كل صدق مشاعره. كانت عيناه ذكيتان، طيبتان، تعلوهما رموش كثيفة، وأنف مستقيم لا هو بالقصير ولا بالطويل، وشفتاه كشفتي الفتيات، متوردتان وتحتقنان بسرعة، وذقن دائري يحمل شارباً أسود تتدلى أطرافه

تحت زوايا فمه بقليل. كانا ما يزالان كما عند الأطفال زغباً ناعماً.
تعمد قارالبي أن يظهر عدم الاكتراث وهو يتفحص قوام ابنه. كان للفتى كتفان عريضان وصدر بارز مع خصر نحيل. لم يكن ضخماً، لكنه كان يمتاز بخفة الحركة. وكانت قوة ذراعيه وقدميه هائلة. كان يستطيع أن يضرب مرتين قبل أن يُضرب مرة. ولو أن جانبولات كان حصاناً، لكان جواداً لا يثمن. كانت هذه الفكرة مضحكة ومخجلة، لكنها عبرت بسرعة مخيلة توزار الأب.
- إنني لا أنوي مطاردة الذئب الهزيل بنفسي رغم أنه سمينٌ جداً، الدرع سوف ترتديه أنت. لذلك حاول أن تحصل عليه أنت. بالنسبة لي، لقد ولى زماني. ولكن فليكن بعين الاعتبار أن الدرع لن ترتديه إلا في اليوم التالي لعرسك.
احمر جانبولات وطأطأ رأسه حياءً.
- اسمع أيضاً. يجب أن تعترض طريق حاغور قبل أن يصل إلى شوجنوقه. لأنه إذا وصل إلى أميره، عندها قل الوداع للدرع... ماذا عندك؟ ... لا شيء؟ ... حسناً هذا يكفي.
رغم أن الفارس الصغير لم يكن يبتعد كثيراً عن منزله، ولم يكن يغيب طويلاً، إلا أنه كان يتسلح جيداً. فحزامه يحمل سيفاً وخنجراً، ويعتمر خوذة تتصل بالدرع المزرد الذي يرتديه. وجواده المسرج تتأرجح عليه بندقية.
صهل جواد جانبولات بسعادة عندما أحس بأصوات حوافر جيادٍ قادمة لأربعة فرسان ينزلقون إلى النهر. في المقدمة ظهر فارس في الخامسة والثلاثين من العمر.كان ضخماً عريض الصدر. له رأس كبير فوق عنق غليظة وقصيرة. كانت تفاصيل وجهه مثل قامته ضخمة. أنفه، شفتاه اللتان يتأرجح فوقهما شاربان أشقران كثيفان، وتحت حاجبيه عينان رماديتان واسعتان، وعظام وجنتين بارزة، وفك سفلي قوي مع لحية أنيقة .. لم يكن لقب الفارس الصغير "شاوه جي" يعبر عن حاله أبداً.

كان رفاقه أصغر سناً منه ولم تكن لهم علامات فارقة على أجسادهم. سرعان ما انضم الفرسان إلى توزار ملقين عليه التحية.
- لماذا لم يأت حه مشه معك؟ - سأل قارالبي -
عوضاً عن الإجابة تنفس الفارس الصغير بغضب. أما صديقه فقد ضحك وأجاب:
- الأفضل أن يصاغ السؤال ياقارالبي على الشكل التالي، لماذا لم يمسح شاوه جي براحته الناعمة على رأس حه مشه. فكل ما هناك أن شاوه جي طلب من حه مشه سرج حصانه، فسأله الأخير " وإلى أين نذهب؟"عندها غضب هذا الضخم الذي لا يحب فضول القطط وأمره بالبقاء في المنزل.
- حسناً سوف تنفذون العملية أنتم الخمسة.
أخذ قارالبي لجام جواده من يد ابنه وقال:
- أسرعوا الآن، وليحالفكم الحظ.
ارتقى توزار التلة العالية وشيع الفرسان بنظراته حتى عبروا النهر واختفوا في الغابة المظلمة.
" أليس من الأفضل أن أتوجه غداً صباحاً إلى أمير القبردي الكبرى كورغوقه حاتوجوقه، وأخبره بكل ما جرى - فكر قارالبي وهو عائد إلى داره - إن هذا الغدار شوجنوقه قد يهاجمه عندما يعلم أن الدرع طار من بين أصابعه قبل أن يلمسه. وكورغوقه قادر على لجم اندفاعه."

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

يقول المثل - لا تذهب خلف الشمس - وجانبولات لم يكن بحاجة إلى مطاردة غروب الشمس لتعويض الوقت الذي ضاع، فقرية الأمير عليغوكه على الطريق التي قدم منها أديشيم، وهي أقرب إلى قرية توزار منها إلى بابوك. ثم قد يتأخر حاغور في

الانطلاق صباحاً بعد تلك السهرة العارمة. والأرجح أنه قد يؤجل سفره إلى الغد.
سار جانبولات ورفاقه طوال الليل في درب ضيق يمر عبر الغابة. وقبل انبلاج الصباح كانوا قد اقتربوا من قرية عليغوكه. كانت القرية هادئة ساكنة مما طمأن الرفاق أنه ما من ضيف وصل. تقدمت المجموعة الصغيرة إلى مسافة خمسة عشر طلقة إلى الأمام حيث من المتوقع أن يظهر حاغور بابوك الذي سرق الدرع، ولابد أن يكون الدرع معه.
ارتفعت الشمس خلف ظهر جانبولات، وما زال الطريق خالياً، فهو مكشوف تماماً ويمتد على طرف الغابة بين جدران الأشجار الكثيفة والمنحدر العشبي. هناك وفي جزيرة صغيرة شمخت فيها ثلاثة أشجار ضخمة أقام جانبولات كمينه.
تنفس الفتى هواء الصباح المنعش بنهم ثم تفقد البقعة التي تنتظر المعركة القادمة.
نعم سوف يحتدم القتال في أجمل مكان تحت أشجار البلوط التي بلغت من العمر ربما المائة عام. كانت الأشجار قد بدأت بالتخلي عن أوراقها الصفراء لتستقبلها الأرض، وما زالت تحتفظ بحلتها العشبية الخضراء التي تجرأت على الظهور بعد الأمطار الخريفية الدافئة.
كان العشب يمتد على مد البصر وهو يشكل مرتفعات نجدية خضراء، وكان أوشحة مافة يلمع تحت أشعة شمس الصباح، حتى تخاله قد اقترب من تلك الهضاب العشبية بهدوء وراح يرتاح على أقرب هضبة.
فجأة اكتشف جانبولات أنه لم يخبر أصدقائه حتى الآن بهدف الرحلة. وبالكاد استطاع أن يشرح لهم الهدف من رحلتهم. عندما لاحت على بعد مجموعة من الفرسان يسيرون بخبب ، دون أن تظهر عليهم علامات الاستعجال.
- ثمانية أشخاص - قال نارت شو باستخفاف - اعتقدت أنهم سيكونون أكثر.

فكر جانبولات مقيماً الوضع:
- نارتشو سوف نذهب معاً لملاقاة المجموعة أما الباقي فعليهم الانتظار تحت الشجر... شاوه جي انتبه جيداً واختر اللحظة المناسبة لتدخلكم أنتم الثلاثة .... ومع ذلك من المؤسف أن حه مشه ليس معنا.
انطلق جانبولات ونارتشو جنباً إلى جنب معترضين طريق حاغور وايدار الذين كانا يتقدمان الفرسان المجهولين. كان بابوك يعرف تمام المعرفة قارالبي والآن ها هو يواجه ابنه الذي يشبهه، وأدرك الموضوع الذي قدم من أجله ومع ذلك قرر حاغور أن يتجاهل معرفته به.
- أي ي... من يقف هناك معترضاً طريق بابوك؟ من يعترض طريق الأمير عليغوكه؟
أخذ جانبولات الدرع المزرد من مؤخرة حصانه ورفعه إلى الأعلى وصاح بصوته الجهوري:
- أنا من يريد إعادة الأمور إلى نصابها، إلى توزار الدرع، وإلى بابوك معدنه الصدئ.
احتدم حاغور غيظاً.
- هذا الحمل تحت صوت الثور يبدو واثقاً من نفسه... ماذا؟ أيريد ان يبقى والده دون وريث؟
سارع نارتشو بالإجابة :
- ينبغي أن تحذر فقد يرثك ابنك باكراً.
شكل فرسان بابوك نصف دائرة خلف سيدهم وضيفه ايدار. على حين لم يستطع تابع شوجنوقه صبراً. استل فأساً ثقيلة ذات شفرة حادة، و قذفها باتجاه جانبولات الذي تجنب السلاح المصوب إليه لاكزاً حصانه ومندفعاً إلى الأمام. لم يتمكن حاغور أن يسحب نصف سيفه من غمده حين صفر الدرع المزرد في يد جانبولات ليصطدم بقوة عظيمة بوجهه ليقع على عنق حصانه وقد جدع أنفه، وانفجرت شفته، ونزف الدم من عينيه، ليتحول إلى شبه أعمى. أما الضربة الثانية التي وجهها الفتى فتلقاها حصان

حاغور. لكن قبل أن يبتعد بفارسه الذي فقد وعيه تمكن جانبولات من اختطاف الكيس الكبير الموجود خلف السرج الذي لابد وأنه يحتوي على الدرع القيم.
على الرغم من أن ايدار كان مقاتلاً محنكاً ورغم الشيب في رأسه، إلا أن تأخره وهو يراقب ذلك السلاح الغير عادي، مثل الدرع الصدئ، سمح لنارتشو أن يسرع إليه كالإعصار ليتجاوزه ضارباً حصانه الذي قذف بفارسه إلى الأرض.
بدأ الهرج والمرج في حاشية بابوك وتجمهروا في فوضى. كل يعترض طريق الآخر حول جانبولات الذي لم ينتظر وإنما ألقى بنفسه بين الأعداء كالذئب الضاري وهو يؤرجح الدرع المزرد مدافعاً عن نفسه و متقياً ضربات السيوف بالكيس الثمين الذي كان يرن.
كانت الجياد تصهل منزعجة، على حين كانت هناك ابتسامة على وجه جانبولات تزيد من حماس المعركة.
اصطدم نارتشو بفارس قوي. كان يصد ضربات رمحه بصعوبة، حتى دهاؤه القتالي الذي كان يرافقه لم يفلح مع هذا الفارس. فالرجل كان على دراية بكل حركة مباغتة يقدم عليها نارتشو. كان لا بد من الخلاص من هذه المشكلة وبالسرعة الممكنة لمساعدة جانبولات. لقد نسي نارتشو خلال خضم المعركة وجود شاوه جي والآخرين... آه لقد تدخلا في الوقت المناسب كم هو سعيد بسماع صوت شاوه جي يدوي مثل دب تم إيقاظه.
- أيييبي ... دعوا لنا حصة لا تسقطوهم جميعاً.
التفت جانبولات فشاهد أحد الأعداء وقد انسلخ جلد وجهه عنه.
- أما أنت يا صاحب الشارب المتهدل خذها.
ضرب نارتشو عدوه ليتغلغل السلاح عميقاً حتى العظام.
- لن تتمكن من حمل السلاح بيديك الطويلتين بعد الآن، كان من الممكن أن أفصل رأسك عنك أيضاً، ولكن لا بأس في أن تعيش.

استدار فجأة بجواده ليتواجه مع شاب رفع حسامه يريد أن يسدد ضربة إلى جانبولات.
- سأضطر إلى ترك علامة على رأس هذا الولد .
قال جانبولات وهو يتجنب ضربة السيف وهابطاً في الوقت ذاته بالكيس مع الدرع على رأس الشاب. هدأت حركة الشاب ووقع السيف من يده، وببطىء انزلق من على ظهر حصانه ليهوي إلى الأرض.
عندما استدار جانبولات مرة أخرى بجواده لم يجد لنفسه خصماً فشاوه جي ونارتشو والآخرين كانوا قد أوقعوا أحد رجال بابوك من على ظهر جواده وضربوا الثاني على خوذته المعدنية، فوقع هامداً على الأرض، أما الثالث فجرح نفسه بسيفه في عنقه. و النبيل صاحب اللحية السوداء آثر أن يرمي سلاحه ليكون بذلك الوحيد الذي ينجو دون أي جرح.
- من الجميل والعجيب أن الجميع ما زالوا أحياء - قال جانبولات -
لمعت عينا نارتشو الضيقتان والخبيثتان عند سماعه تلك الجملة وقال معلقاً:
- إذا كان الفتى توزار سيقاتل في المرة القادمة بمنديل حرير نسائي عوضاً عن هذا الكيس فلن يجرح أحداً.
- يكفي ثرثرة - صاح شاوه جي - يجب جمع الأسلحة.
اقترب نارتشو من ايدار الذي جلس على الأرض، انتزع منه حزام خنجره والسيف. وما كان على المحارب القديم إلا أن يصمت ويعقد حاجبيه من الغضب. شاوه جي بدوره كان يتفحص خوذة المحارب الذي تلقى الضربة على رأسه. أسف وتنهد بحزن.
- للأسف الخوذة لم تعد للاستخدام... لقد كانت تناسبني.
نزع المحارب صاحب الرأس الضخم خوذته بنفسه، وبدأ بمساعدة أصدقائه الجرحى. انضم إليه الفارس المحظوظ الذي خرج من المعركة دون أي خدش. لينقلا الرجل الضخم صاحب

الذراعين الطويلتين. ضمدا كتفه المصابة وربطوها إلى عنقه. أما ذاك الذي تلقى ضربة الدرع بوجهه واقتطع جزءاً من لحم وجهه، فقد قاما بوضع ضمادات ناعمة دهنت بالعسل على جرحه.

- أين حاغور؟ - قال توزار متلفتاً حوله - يجب ان أعيد للسيد ما يخصه.

-ها هو هناك تحت التلة على العشب الأخضر - صاح نارتشو - يبدو أنه استلقى ليرتاح.

اقترب جانبولات مسرعاً من بابوك المنطرح أمام جواده، وجثا عند رأسه. كانت الدماء ما زالت تنزف من جرحه. أخرج جانبولات من جيبه منديلاً وبدأ يمسح الجرح بحذر. كان الجرح واسعاً لكنه لم يكن عميقاً. أما عظم أنفه فكان مكسوراً وشفتاه متأزمتان. المهم أن عينيه كانتا سليمتين. وبشكل عام لم يكن هناك ما يخيف.

- آ ... ماذا؟ كيف؟

- كيف؟- أعاد جانبولات السؤال - هكذا ... ولكن لا تخف كان ابنك معك أليس كذلك؟ لا تقلق الجميع أحياء.

- لماذا؟ لقد كنتم ثلاثة فقط.

- لا كنا خمسة.

- يا للعار!!!

- لا بأس عليك لقد قاتل رجالك ببسالة. لكنهم جرحى.

- أبعد بابوك يد جانبولات عنه . جلس متكئاً على جانبه ليرى ابنه يهرع إليه لاهثاً.

- خذ درعك المزرد - قال توزار - إن أردت ساعدتك على ارتدائه.

- اغرب عن وجهي - زعق حاغور - يسعدك إهانتى.

- لقد أوقعت قبعتك في مكان ما، أما سلاحك وحصانك فسنأخذهما من أجل الذكرى فقط.

- اسكت باسم زيقوتحه... أرجوك أن تقتلني.

- لتبقى سالماً يا بابوك وليرحمك الله.
قفز جانبولات إلى فرسه دون أن تمس قدمه الركاب. أخذ بعنق جواد حاغور وتوجه إلى حيث أصدقائه المستعدين لرحلة العودة.
ضحك نارتشو حتى بدت أسنانه البيضاء و قال:
- لا تغضب ولا تحزن أيها الطيب بابوك، يمكنكم قطع المسافة المتبقية إلى قرية عليغوكة سيراً على الأقدام، وهذا لن يكون شاقاً عليكم ما دمتم قد تخلصتم من ثقل أسلحتكم.
عندما عاد جانبولات إلى المنزل رأى لأول مرة الدرع المشهور. سلم الكيس الذي تمزق نتيجة ضربات السيوف التي تلقاها إلى والده.
- جميعنا أحياء، عندهم جرحى وغنمنا سبعة جياد.
أحنى توزار الأب رأسه وحل ربطة الكيس. اضطرب جانبولات واصفر، إذ كان يخشى أن يعبر أباه سلباً، فيعلن أن المخاطرة لم تكن تستحق هذا الشيء. لكن الانفعال والاصفرار أصابا الأب عندما سقطت قطعة القماش عن الدرع، ليظهر الوجه المزمجر للأسد الذي زين صدر الدرع وقد لمع نتيجة انعكاس وهج الموقد.
توقفت نظرات الأب عند سطري التعويذة وقال وهو يغالب أنفاسه المتسارعة.
- لا بد من إيجاد الرجل الذي يستطيع قراءة هذه الأسطر المقدسة التي نقشت في مكة المكرمة نفسها. وعلى كل الأحوال لا بد من التوجه إلى حاتاجوقه كورغوقه حالاً.

الخبر الخامس

يبرهن صحة المثل القائل :
" يلتهم الذئب الحمل، دون أن ينظر إلى وشمه "

مثل وحش أفلت فريسته احتدم عليغوكة شوجنوقه غيظاً. ذرع مضافته الواسعة ذهاباً وإياباً.
- أيتها الخرفان التي لا طائل منها! سلمتم أنفسكم للذبح، سمحتم للغير بتحطيم قرونكم حتى ابن توزار، هذا الصبي الغارق في مخاطه سلبكم الدرع.
وقف حاغور وايدار أمام الباب بذل. لم يكن جرح بابوك قد جف بعد. كانت قطرات الدم مازالت تسيل تحت ذقنه. وقف يعض على شفتيه المتضررتين، على حين كانت نظراته فارغة لا توحي بأي شيء.
" لن يدع الأمر يمر بسلام - حدث حاغور نفسه - لا بد وأن هذا الأمير الجشع سيريق دماءاً كثيرة من أجل الدرع المصري"
" فليأكله غيظه - فكر ايدار - إنه ليس شبله[1] وصواعقه لن تحرقنا، حتى أنه لا يشبه النمرالأرقط الذي يدعيه. أنفه طويل حاد، عيناه صغيرتان غائرتان في محجريهما، شفتاه رقيقتان، أسنانه الحادة قليلة. إنه يشبه الثعلب، نعم الثعلب... حتى حاجباه وشارباه لهما لون فروة الثعلب."
كان العرق البارد يتصبب من جبين الأمير الذي ارتمى على الأريكة. خلع قبعته البيضاء الكثيفة، ثم أخرج منديلاً، وبحذر مسح أم رأسه الذي غطاه شعر قصير قص عشوائياً دون عناية. لم يكن عليغوكة بقادر على الحلاقة لإصابته بالجرب وهو

---

[1] - شبله : هو إله الرعد والصواعق عند الشراكسة

الشيء الذي كان يعلمه القاصي والداني، لذلك لُقب بـ " الرأس الأجرب "
أخذ عليغوكة نفساً عميقاً، اعتمر قبعته ليعود إلى الصياح، وليعلو صوته من جديد تحت سقف مضافته وهو يرتعش غضباً.
- أصبحت أقدامكم هشة كالقش، فقدتم درعي ولم يقتل أحد، ولا واحد قتل، ولا حتى كلب. أية أعطيات تنتظرونها بعد هذا من أميركم. إنكم لا تستحقون إلا قرصين من روث البقر ستناسب رؤوس الحمير التي تحملونها كقبعات.
ضغط ايدار على أسنانه بقوة، على حين تسارعت أنفاس حاغور الذي تحشرجت الكلمات في فمه.
- يكفي أيها الأمير يجب أن نرحل، لن يهدأ لي بال قبل أن أراك والدرع على صدرك.
- ويعظني أيضاً - ضحك شوجنوقه بلؤم - أعلم أنه آن الأوان لزيارة توزاروقه. اذهبوا واجمعوا الكثير من الرجال. ويمكن لمحمد حاتاجوقه أن ينضم إلينا فأنا على موعد معه اليوم.
تنفس النبيلان الصعداء وخرجا مسرعين من منزل الأمير.
لا يستطيع الأمير شوجنوقه تناسي موعده مع محمد، الأخ الأصغر لأمير القبردي الكبرى كورغوقه حاتاجوقه. فعلى ضفة نهر بقسان، ينتظرهم تاجر تتاري قادم من شودجوك قاله. كان من المفترض إبرام صفقة معه. فهناك عدد من الفتية والفتيات يريدان بيعهم له.
كانت تجارة الرقيق تجارة رابحة. ورغم كونها مستهجنة، إلا أنها كانت قانونية. ومع ذلك كان معظم النبلاء القبردين يتعاملون مع تجارة الرقيق باستنكار. فهم كانوا يأنفون من بيع جيادهم. ومع ذلك كانت عمليات مقايضة الجياد والعبيد مقابل الأسلحة والأقمشة النفيسة والأواني الفضية جارية على قد وساق. بالنسبة للعملة النقدية، لم يكن النبلاء يدركون حقيقتها، فكانت النقود المصكوكة في تركيا وفي المناطق الأخرى لا تمثل بالنسبة للأغلبية إلا قطعاً ذهبية أو فضية مستديرة، يمكن أن تصهر

وتصنع منها الحلي لزينة النساء، أو لزخرفة أغمدة السيوف ومقابض الخناجر، وكذلك قطع ومستلزمات لجام الخيل.
شوجنوقه كان يعي ما تعنيه العملة النقدية بشكل رائع، ولم يخجل يوماً من المتاجرة بالإنسان.
ما كان أحد من الأمراء والنبلاء يعلم عدد رؤوس الماشية التي يملكها ولم يكن يعلم كميات الحبوب أو الخضار التي يحصدها الفلاحون على أرضه. والأهم من هذا وذاك، ما كان أحد منهم يعلم بالتحديد الأراضي الخاضعة لسيطرته، وكم عدد فلاحيه. لكن شوجنوقه كان قادراً على حصر ممتلكاته، وكان يعلم أن الشاة العجفاء ومكيال الحبوب وجرة العسل يمكن أن تتحول إلى نقودٍ.. إلى أموال كان عليغوكة يحترمها جداً.
لقد فاق شوجنوقه بتعامله مع التجار التتار الجميع، حتى أنه ذهب ذات مرة معهم إلى القرم وشاهد البيوت الفارهة للخانات في بختشيساراي. وهناك أدرك قيمة المال.لابد وأن يمتلك مالاً كثيراً، بل وكثيراً جداً وذهباً. أصبح لديه ولع بتجميع التحف، وتغيرت نظرته إلى الأمراء البسطاء. لم يكن شوجنوقه طيب القلب بسيطاً أبداً. لم يكن يعلم على وجه التحديد كيف سينفق هذه الأموال المكدسة، ولكنه عندما فكر نهضت في ذاكرته صورة البيوت المرمرية لأمراء بختشيساراي، والجدران المرصوفة بالحجارة البيضاء، والمسابح في الحدائق الظليلة، والملابس المرصعة بالجواهر، والسجاد النفيس، والأسلحة المزخرفة بخيوط الذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة. بدأت أصوات موسيقا غريبة لكنها جميلة تصل إلى أذنيه، وكذلك الأصوات الرقيقة الصادرة من مساكن الحريم. كان يأمل أن تساعده هذه الأموال ليصبح أمير القبردي الأكبر، دون أن يتصور الآلية التي يمكن أن ينتهجها ليتحقق ذلك. لم يكن يحب أو يميل إلى حاتاجوقه لا لأنه اختير كأمير أكبر للقبردي، وإنما حسداً، فقد تفوق على باقي الأمراء حكمةً وعقلاً، وارتدى قبعة الإمارة بجدارة.

وجد شوجنوقه في محمد الأخ الأصغر للأمير كورغوقه، شيئاً مشتركاً معه. كان محمد متقلباً متغطرساً، ولم يكن ليتجاهل بريق النقود. وكان يخفي بغضه لأخيه الأكبر، ثم إن شوجنوقه ومحمد كانا قد تجاوزا معاً منذ فترة سن السابعة والثلاثين.
إسماعيل حاتاجوقة فرد آخر في عائلة حاتاجوقه, الأوسط بين الإخوة. أكبر من محمد بثلاثة أعوام وأصغر من كورغوقه بخمسة. كان مريضاً وضعيفاً، وكان مسلماً غيوراً يكثر من قراءة القرآن، وكثيراً ما كان يلتقي مع العلماء القادمين من تركيا ومن القرم. كانت علاقة الأمير الأكبر مع إسماعيل متسامحة حنونة، على عكس الأصغر الذي كان يميل إلى التصنع والزيف، فهو لم يؤمن بذوبان صفات الإمارة بين صفحات الكتب.
أما شوجنوقة عليغوكة فكان مستعداً لاعتناق الإسلام، لكنه لم يكن ليهدر وقته في دراسة اللغة العربية إذ تكفي إجادته للغة التتارية بشكل طليق. وهؤلاء أيضاً مؤمنون مثل أسيادهم الأتراك ثم يمكن أن يحفظ سورتين أو ثلاثة من سور القرآن القصيرة لينتهي الأمر عند هذا الحد. كان لا بد له من اعتناق الإسلام إذا كان يطمح في الوصول إلى كرسي إمارة القبردي تحت ظل سيادة القرم على القبردي... نعم، هذه سوف تكون خطوة صائبة.
تناول عليغوكة درعه اللامع، المعلق على عمود المنزل الرئيسي. ولأول مرة ارتداه دون حماس، إذ تذكر درع مسروقه. لقد فقد الأمير سكينته ولن يطمئن حتى يصبح ذلك الكنز في قبضة يده، لا ليس كنزاً ثمينا، إنه شيء لا يثمن، من يمتلكه يمتلك الثراء الأسطوري، وربما سلطة لا حد لها.
كان يُغذي نفسه بمثل هذه الأفكار ويخدرها بعمق لتتلاعب به الأحقاد. كان تنفسه يتسارع حتى يظهر الزبد الحار على شفتيه المصفرتين. آه توزار... توزار ... ظل خلال الطريق إلى بقسان صامتاً، لم يلتفت أبداً. كان ينطلق بجواده إلى الأمام أحياناً إلى

أن تتلاشى أصوات مائتا حافر حصان وأصوات صرير عجلات العربات. وعندما تنقطع الأصوات تماماً كان الأمير الفاقد للصبر عندها يكبح جماح جواده.
عند غياب الشمس وصل شوجنوقه وحاشيته المهيبة حاملين عشرات العبيد إلى غايتهم. كان الأمير محمد ينتظرهم عند صخرة ارتفعت إلى قامة ثلاثة رجال ومعه التاجر الذائع الصيت على الشاطئ القفقاسي كله عبد الله.
- وصلت بالسلامة - رحب حاتاجوقة الصغير بصديقه - أرجو أن طريقك لم يكن مملاً.
- إن طريقي يبدأ اليوم بالذات ومن هذا المكان بالذات.
قال شوجنوقه وهو يُحمل كلماته معاني كثيرة، وألغازاً غير مفهومة.
- أمن أجلِ هذا أتيت اليوم بجيش كامل؟ - ضحك محمد -
- حسناً محمد، سنتكلم عن هذا لاحقاً.
اقترب عليغوكة من التاجر وراح يتحدث معه باللغة التتارية.
- السلام عليكم، أنا على ثقة بأن الله سوف يبارك تجارتك وأنك ستدفع ثمناً جيداً.
عندما فتح عبد الله فمه انكشفت أسنانه السوداء المتعفنة وبدت التجاعيد الشديدة على وجهه مثل إجاصة جافة. طبع ابتسامة ماكرة وقال :
- وأنا على ثقة بأن أعمالك مزدهرة أيها السيد العزيز - بدا صوت التاجر هادئاً - وأنك كسابق عهدي بك قادر على عرض البضاعة التي تستحق أن يُدفع من أجلها الكثير.
منع عليغوكه نفسه عن البصاق وهو يتفحص قوام التاجر. يدان طويلتان، أصابع نحيلة، عنق قصير وأقدام دائرية نحيفة. لهذا المخلوق بطن عظيم. بالإضافة إلى ذلك الانتفاخ الظاهر إلى الجهة اليسرى من حزامه الجلدي العريض، حيث كان عليغوكة يعلم أن عبد الله يخفي محفظته المكتنزة تحت ردائه.

توجه التاجر ليعاين بضاعته. لحق به الأمير وقد دارت الأفكار في رأسه " لابد وأن بيرسلان جانخوت أمير القبردي الكبرى والذي شبه الجغواكوه بطنه بالحساء المتخثر لا يستطيع أن ينافس عبد الله. أوه كم مضى على هذا من زمن، لا يجب الوقوع في فم الجغواكوه وإلا تناقلتك الألسن إلى الأبد. إن الناس لا يذكرون ثراء بيرسلان الفاحش وبالكاد يذكرون أنه من قسم المجتمع القبرديني إلى طبقات ولكنهم ما زالوا يذكرون جيداً ضخامة كرشه.
أنهى محمد عملية عرض البضاعة مع عبد الله ثم وقف جانباً يستمع إلى حوار عليغوكة مع التاجر. تسرع الأمير في قبول السعر الذي عرضه التاجر. لينتاب محمد قلق ما، وليتسائل عما يجول في نفس صديقه.
" هل من الممكن أنه يريد أن ينهب التاجر المكتنز؟ ولكن حراسة عبد الله قوية ثم أنه على طول الطريق لديه الحماة الأشداء من الأديغه، بل إنه وعليغوكة من حماته. وهما يجندان الرجال الأشداء الذين يمكن لهم التصرف باسم أسيادهم في حال تعرض التاجر لأي طارئ. والأهم من هذا وذاك، أن التاجر يمت بصلة قرابة مع عليغوت باشا الرهيب قائد الجند في القرم... ولا سمح الله أن يغضب الباشا فإن أذناه حادتان وعيناه مشاكستان وهوساعد الخان نفسه."
جلس الأطفال واجمين على حين بكت الفتيات. حاول البائع وشوجنوقة أن يلطفا الأجواء بحديثهما عن الحياة الأسطورية التي تنتظرهم في القرم، وفي تركيا. تحدثا عن الملابس الرائعة والرفاه وكل أنواع التسلية، وعن الغد المجيد الذي ينتظر الأطفال كمقاتلين أشداء يمتطون الخيول العربية، ويطيحون برؤوس أعدائهم بسيوفٍ من ذهب. أما بالنسبة للعبيد فما كان إطفاء قلقهم يشكل كبير عناء... رن صوت الذهب.

- فتيات رائعات - قال عبد الله - سوف أقدم إحداهن إلى قريبي عليغوت باشا. مع ذكر اسم قائد الجند، رفع عبد الله رأسه بكبرياء، على حين بدا النفور والانزعاج على محمد.
- إنك دائماً تردد هذا يا عبد الله، أعتقد أن قريبك سيمتلك من الحريم ما لم يكن عند سليمان بن داوود.
ظهر عدم الرضى على البائع.
- ليس من اللائق أن تسخر ممن يدفع لك كثيراً، أكثر مما يدفعه لك جميع الأمراء.
- حسناً كفى هراء - قال عليغوكه بلهجة عملية وهو يستحثهم على الإسراع - لقد آن أوان رحيل التاجر، ونحن أيضاً لن نقيم هنا لنلعب كالأطفال.
- حسناً إذا وجدتم شيئاً لي فاعلموا أنني سوف أتأخر عند تامبيوقه الذي يعيش عند نهر بالك - قال عبد الله بصوته المغرد.
أخذ شوجنوقه محمد جانباً حيث كان ضجيج النهر يغطي حديثهما، و روى له قصة الدرع الذي انتزعه توزار من بين يديه عنوة وبكل وقاحة.
- أرجو أن تنضم إلي أيها الطيب - قال عليغوكة - ستكون نصف الغنائم لك، لا بل ثلاثة أرباع الغنائم لك رغم أن عدد رجالك لا يشكلون ثلث عدد رجالي، ولكن عليك أن تنسى أمر الدرع.
لم يكن الأمر يحتاج إلى إقناع للحصول على موافقة محمد السريعة. أما بالنسبة للدرع فالواقع هو الذي سيفرض كلمته. من يدري ففي المعركة كل شيء ممكن. وشوجنوقه ليس بخالد، والدرع - انحرفت أفكار محمد - يرتبط شقيقه كروغوقه مع توزار بعلاقة طيبة، ثم إن كورغوقه لا ينظر إلى صفقاته التجارية بعين الرضى. وفي مثل هذه الأحوال كيف يبرر موقفه أمامه في حال تم تنفيذ الهجوم على توزاروقه؟ لكن هل يستحق هذا الأمر تصديع الرأس بهذه الأفكار السوداء؟ الأفضل أن يفكر بعد إنجاز العمل. وعلى العموم سيكون على عليغوكه تبرير

الهجوم، فهذا المشروع يخصه، وهو داهية مثل ثعلب، ويجيد اللف والدوران. عندما وصلت أفكار محمد إلى هذه النقطة اختلس نظرة إلى الأمير ولاحظ أنفه الحاد الوحشي، ورأى أسنانه القليلة المبعثرة في فمه، حتى وجهه كان يوحي بوجه ثعلب.

عندما وصل حاتاجوقه الصغير إلى هذا الاستنتاج ابتسم برضى. كان محمد رجلاً جميل الصورة. كان يتباهى بمنظره الخارجي، وعموماً كان الأخوة حاتاجوقه الثلاثة وسيمي الطلعة، والناظر إليهم سوف يؤكد " هذه هي الوجوه القبردينية الأصيلة " ولكن فيم يتلخص الوجه القبرديني؟

إن الخبير بالوجوه يجيب :

لا توجد أية علامة فارقة أو عيب في الوجه القبرديني. العيون واسعة بنية غامقة، مع تقاطيع متناسقة. عظام الوجنتين وما تحت الحاجبين يتقوسان دون بروز، لكن دون أن تكون غائرة أيضاً. الأنف مستقيم ومتوسط الطول. الشفاه ليست غليظة ولا هي رقيقة، والذقن متوسط التكوير، الحاجبان والشاربان كثيفان يضربان إلى السواد، لون الجلد أبيض مع بعض التورد. كل ما في الوجه لا تناقض فيه ولا ضخامة. ليس خشناً ولا ناعماً وكأن كل شيء وضع في مكانه بمقياس. ومن الطبيعي أن يكون هناك استثناء شاذ، وأكبر مثال على هذا عليغوكه نفسه (الرأس الأجرب) ويمكن أن نقول أن الإخوة حاتاجوقه وتوزار الأب والابن وايدار وكذلك ربيبه ابن بابوك شخصيات مثالية تحمل الملامح القبردينية الحقيقية.

من الطبيعي أن لا تجد وجهين متشابهين إلا عند التوائم الحقيقية عدا ذلك وهب الله كل وجه سماته الخاصة. تلك السمات التي ترسمها الحياة نفسها، والصفات الشخصية التي يتحلى بها الإنسان. هل تطغى جوانب الخير على الشر عنده أم العكس؟ وهل طرقه في الحياة سهلة معبدة، أم ملتوية وعرة؟ وهل يتحلى

بضمير حي ورهافة في الأحاسيس، أم أن الفراغ الروحي يتلاعب به؟
إن سمات الطيبة والرجولة والجدية تطالعك في وجه كورغوقه الأكبر، ونجد أن هذه السمات موجودة عند إسماعيل لكن يشوبها قلق مبهم وعدم استقرار. وعلى العكس تجد تعابير الأنانية والعجرفة والعناد والاستهتار بادية على وجه محمد.
عندما تذكر محمد أخاه الأكبر انتقل فكره إلى إسماعيل الذي كان يلقي عليه مواعظه التي ما كانت لتجد صدى في نفسه رغم تصنعه الإنصات والاهتمام.
اعتقد محمد في البداية أنه يتخيل ما يسمع، فلقد دوى صوت إسماعيل خلف ظهره.
- توقفوا، توقفوا أقول لكم.
- ماهذا؟ إنه الشيطان - تمتم محمد بكدر - ما إن فكرت به حتى ظهر أمامي كيف ذلك؟
توقف الجميع. لكن شوجنوقه أشار إلى حاغور بمواصلة الطريق مع المقاتلين.
- سوف نلحق بكم - قال الأمير - لا تستعجلوا.
عندما وصل إسماعيل، كان الفارس والفرس يلهثان بصعوبة، وكان هناك صبي في التاسعة من عمره أردفه إسماعيل على الجواد خلف ظهره. بعد التحية سأل إسماعيل بحدة:
- إلى أين تتوجهون؟ إلى توزاروقه أليس كذلك؟
تصنع عليغوكه الإبتسام مكشراً عن أسنانه.
- وهل علمك كتاب الله طرح مثل هذه الأسئلة؟
تحول شحوب إسماعيل إلى اصفرار وهو يجيب :
- لا القرآن الكريم ولا الأديغة خابزة تدعوان إلى السخرية، وخاصة عندما يكون محدثك أكبر سناً منك. ومن يطرح الأسئلة هنا إنما هو أمير القبردي الكبرى كورغوقه فهو الذي أرسلني.
- وكيف علم كورغوقه؟ - لم يستطع محمد صبراً -
ألقى إسماعيل نظرة ساخطة على أخيه.

- اخرس، سنتكلم لاحقاً. أما أنت أيها الأمير شوجنوقه فلقد أُمرت بأن أنقل إليك التالي : لاخصام ولا شجار مع توزاروقه. لقد كان العجوز قارالبي عندنا اليوم. وكورغوقة يعلم بقصة الدرع، هل فهمت؟

تلفت شوجنوقه حوله وقد عصفت برأسه الأفكار. كانت مجموعته قد توارت خلف المنعطف الذي تظلله الأشجار الكثيفة. وكان إسماعيل وحيداً هذا إذا أسقطنا الصبي من عين الإعتبار. تجنب عليغوكة الجواب وطرح سؤالاً:

- وهل أتيت وحدك؟

- نعم كان يجب أن الحق بكم.

- وهذا الشاب؟

أجاب إسماعيل بطيبةٍ وسذاجةٍ:

- هذا قوباتي بن كورغوقه. لقد تاه في الغابة. إنه بطل، لقد كان يطارد دباً وبيده خنجره الصغير وقوسه، لكنه فقد أثره وضل الطريق. لقد ذهب في الاتجاه المعاكس وأنا اصطدمت به، وسوف آخذه إلى مربيه وعلى فكرة شوجنوقه، إن أخانا يطلبك إليه، أين اختفى رجالك؟

- اسمع يا إسماعيل - قال شوجنوقه بصوت يشبه الهمس - أنت رجل طيب وذكي وإنني أحترمك، فهل يمكن أن نتكلم كرجال؟

- تكلم .

رفع إسماعيل كتفيه وهو لا يدرك المقصود.

- سوف أطلب منك خدمة واحدة، وهي خدمة بسيطة للغاية، أخبر أخاك أنك لم تلحق بنا ولم تجدنا.

- يا الله ماذا أسمع - عاد إسماعيل إلى انفعاله - متى أصبح الكذب رديفاً للرجولة؟ أنت تمزح.

احمر وجه عليغوكه ليس حياءاً وإنما غضباً.

- أنا لا أمزح - قال من خلال أسنانه - ألا ترغب بالحصول على هديةٍ قيمة.

- والآن تحاول رشوتي - صاح إسماعيل بذهول - قوباتي أغلق أذنيك حتى لا تسمع إلى أي حد يمكن أن ينحدر الرجال.
- اسمع يا أخي - تدخل محمد من جديد - ماذا يضيرك أن توافقنا؟
- ها أنت تعود إلى الحديث مجدداً أيها الخروف الضال، إن شرف الرجل عندك لا يساوي إبريقاً تأخذه إلى قضاء الحاجة.
- آه لم أسمع مثل هذه الإهانة من قبل.
قال عليغوكه لمحمد وهو يصب الزيت على النار.
لقد كان محمد مستعداً لأن يفقد رأسه إذا تشوشت الرؤية عنده. اقترب من أخيه وصاح :
- اخرس أنت يا من تمتلك روح النساء، وماذا تعرف عن شرف الرجال؟ إنك تبلل بنطالك عندما ترى دماً.
وبصوت يكاد يُسمع تمتم إسماعيل :
- سوف أخبر أخ...
صفر صوت السوط في الهواء قبل أن يقع على وجه محمد الجميل. لوح إسماعيل بالسوط للمرة الثانية، ولكن قبضة محمد الثقيلة المغطاة بالزرد كانت أسرع إليه. أصابته اللكمة على فك وجهه الأيسر. لم يشعر إسماعيل كيف طارمن على حصانه رأساً على عقب إلى الأرض. ولم يشعر كيف طقطقت فقرات عنقه. ولم يسمع قوباتي وهو يصرخ مثل دبٍ جريح.
أسرع محمد نحو أخيه مذهولاً وتجمد فوق رأسه، أراد منه أن يبتلع لعابه ولكن هذا ما لم يتمكن منه إسماعيل، لقد كان حلقه جافاً تماماً. وسرعان ما وصله صوت عليغوكة :
- إن إسماعيل لم يلحق بنا، لم يجدنا، ونحن لا نعرف عنه شيئاً.
- وماذا عنه؟ - قال محمد بصوت مكتوم مشيراً إلى ابن أخيه - أردف شوجنوقه الطفل المصدوم خلفه.
- خذ القتيل إلى الغابة - لم يحاول عليغوكه البحث عن كلمات رقيقة تواسي صديقه - لا تبتعد به كثيراً. عدة خطوات فقط، حتى يتم العثور على الجثة بسرعة، وأنا سوف أهتم بالصبي.

عندما عاد محمد إلى الطريق واعتلى صهوة جواده سأل مجدداً:
- وماذا عنه؟
أجاب شوجنوقه بهدوء:
- إن عبد الله سوف يتأخر عند تامبيوقه.
- نعم - هز محمد رأسه موافقاً - وبالنسبة....
- بالنسبة لإسماعيل كل شيءٍ واضح. لقد التقى إسماعيل بتوزار وطالبه بالدرع، تخاصما ولكن يبدو أن جانبولات ... لقد وصلنا إلى مكان الحادث متأخرين، وكان بإسماعيل بقيةٍ من رمق وهو الذي حدثنا بما جرى.
- هذا جيد ولكن !
- ولكن يجب التخلص من جانبولات، لا يجب أن نتركه حياً. أليس كذلك؟
- نعم إن سيف عزرائيل الآن فوق رأسه، وأنا هو هذا السيف.
كان محمد يتكلم بلهجة تعكس الشر الذي يغلي داخله. لقد بدأ يشعر بحقد عميق تجاه جانبولات البريء. ومثل كل أناني جبارعنيد ارتكب للتو جريمته البشعة، كان مستعداً لإلقاء ثقل جريمته على عاتق كائن من كان. على عائلة توزاروقه بأكملها، على عليغوكه، على عبد الله، وعلى الطفل قوباتي، وعلى الأجداد الراحلين، وعلى الأبناء الذين لم يولدوا بعد. لقد تغلغل عطش الشر إلى داخله كشعلة أفقدته بصيرته وبصره. لذلك وفي غمرة التمرد النهم الذي يعيشه، يجب أن يقتل ثم يقتل دون أن يتوقف، يجب أن يطعن وأن يطعن ويذبح ويريق دماً أكثر وأكثر. ولن يريحه الدم حتى يطغى دم جديد يغطي الدماء القديمة، ليتم نسيان القديم بحلول الجديد.
لقد أدرك عليغوكه بفطنته وضع صديقه وأسعده ما حدث. فمنذ اللحظة سوف يصبح حاتاجوقه الصغير كلب حراسته. إن مثل هذا الكلب لا يقدر بثمن ولكن التعامل مع شيطان بأنياب حادة يجب أن يتم بروية ودون تهور.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

استخدم توزار الأب عند عودته من عند الأمير كورغوقه، الطريق المتاخم للغابات، الذي يمتد على طول شاطئ النهر. كان قد أصبح قريباً من المخاضة المتاخمة لضيعته.
ارتفع قرص الشمس في منتصف النهار الخريفي مرسلاً أشعته بقوة لتغطي صفحة السماء الزرقاء لتسكب الدفء على النباتات الخضراء، والبرك المائية الصغيرة التي كانت تتنعم بالكرم الأخير للشمس في هذا العام. لقد عملت الأوراق العريضة لأشجار الغابة خلال الصيف كله بالمحافظة على الظل اللطيف. ولكن هاهي الأشجار في منتصف الخريف تنزع حلتها وترمي بالأوراق المصفرة لتفسح المجال أمام الدفء المحمول على أشعة الشمس بالوصول إلى كل غصن وجذر لكل شجرة في الغابة.
كانت هناك وفرة من طيور الدراج في الأحراش الممتدة قرب النهر، وسلاح قارالبي كان جاهزاً وها أحد الطيور بذيله الأحمر وصدره الأزرق يرفرف بضجيج ويمرق من بين حوافر جواده، ليرتفع إلى الأعلى ضارباً بجناحيه. اختفى الطائر قبل أن يتمكن قارالبي من أسناد بندقيته إلى كتفه. لم يكن قارالبي راضياً عن نفسه. كان يفكر في لقائه الأخير مع الأمير الأكبر كورغوقه الذي استقبله بكل ترحاب واستمع إليه باهتمام ورحابة صدر. لقد اتخذ الأمير قراره بأن لا يسمح بوقوع صدام دموي من أجل الدرع، حتى ولو كان هذا الدرع مصنوعاً من الذهب الخالص. فكر الأمير بإقامة احتفال بهيج يضم سباقاً ومباراة في الرمي وألعاب أخرى. ويستطيع كل شخص عرض مهاراته وأن ينافس في سبيل الحصول على المكافأة ، وسيكون الدرع من نصيب من يحتل الصدارة.
لم يكن قارالبي راضياً تماماً، لكنه وافق الأمير حاتاجوقه. فتوزار بطبعه لم يكن أنانياً ممن يطمحون في الوصول إلى

السلطة، أو الحصول على الأسلحة، ولكن ثقته كانت كبيرة بابنه إذ لا بد وأن جانبولات سوف يفوز. ويبدو أن الأمير حاتاجوقه كان يعول على أخيه الأصغر.
كان لا بد من إرسال إسماعيل إلى شوجنوقه ليتم تحديد موعد الإحتفال. ارتفع طائر آخر ولكن توزار لم يرفع هذه المرة بندقيته بل تابع الطائر السعيد بنظراته. فمن الواضح أن اليوم ليس يومه.
عندما وصل قارالبي إلى ساحة واسعة فيها بعض الشجيرات بالقرب من المخاضة ، رفع حاجبيه باستغراب. شاهد مجموعة كاملة من الفرسان المدججين بالسلاح تقطع على الجياد المنهكة طريقها. لم يكن من الصعب التعرف على هوية هؤلاء الفرسان، فهم أتباع شوجنوقه. وها هو الرأس الأجرب معهم وكذلك حاتاجوقه الصغير.
"ولكن أين إسماعيل؟ لماذا لم يلحق بهم؟ "
استعد قارالبي لحديث مزعج عن الدرع . كان يجب أن ينتهي بكل الأحوال بشكل سلمي وسيذهب شوجنوقه إلى الأمير الأكبر. لكن الذي حدث كان مغايراً تماماً لما كان يجب أن يحدث .
طار محمد على حصانه الأسود بوجهٍ احتقن غضباً باتجاه النبيل المحترم.
- أين هو ابنك؟ أجب ياجيفة الحمار .
لم يتلق قارالبي خلال حياته الطويلة مثل هذه الإهانة، بل لم يسمع في يوم من الأيام أن أحدهم تعرض لمثل هذه الإهانة العجيبة . أحس ببرودة مميتة في صدره، أراد أن يقول شيئاً لكن شفتاه تخدرتا وتشنج فكه.
" حقا إن جرح السيف يلتئم ، لكن جرح اللسان لا يلتئم أبدا " - هكذا فكر قارالبي في تلك اللحظة وهو يعب الهواء من خلال أسنانه .
لم ينتظر محمد جواباً على سؤاله ، لوح بسيفه ولكن جرح هذا السيف لم يكتب له أن يندمل . مس طرف السيف عنق قارالبي

العاري. تدفق الدم من حنجرته كالنبع. ومن ثم دوى طلق ناري من البندقية غير المصوبة التي كانت مع قارالبي لتصيب شظاياها جواداً صهل من الألم ... العيار الناري وصهيل الجواد كانتا إعلاناً لبدء المعركة . رأى أتباع توزاروقه سيدهم وهو يتهاوى ببطىء إلى الأرض . تصايحوا بحدة وهم يمتشقون سيوفهم. كانوا محاصرين من الجهات الثلاثة ووضعهم سيء. كان المكان ضيقاً لذلك لم يستطع المهاجمون استغلال تفوقهم العددي الذي وصل إلى ستة أضعاف . تمكن المدافعون في البداية من صد الهجوم الشرس .

- اضربوهم ، اضربوا.

علا صوت محمد وهو يندفع بجواده ضمن الصفوف الأولى للمهاجمين، بينما ظل عليغوكه محتفظاً بهدوئه وتماسكه. أخذ موقعه جانباً على الطريق المؤدية إلى المخاضة متسلحاً بقوسه، إذ لا ينبغي لأحد أن يخرج حياً من المعركة.

كان شوجنوقه قد سلم حاغور الطفل قوباتي بن حاتاجوقه له لكي يهتم به . لم يكن جرحه قد جف بعد، ومازال يشعر بالألم في وجهه. احتضن الطفل منقلبا على وجهه ولم يشارك في المعركة.

" ليس شرفا أن تشارك في هذه الملحمة " - ردد حاغور في نفسه .

لقد أدرك اليوم صباحاً أنه فقد احترامه لأميره. وهو يشعر بالحقد في نفسه على شوجنوقه وعلى نفسه أيضاً.

بقي ستة من أصل عشرة فرسان كانوا يشكلون حاشية قارالبي، ومازال صوت الصراخ ورنين اصطدام المعدن بالمعدن يعلو. قاتل المدافعون كما يجب أن يقاتلوا لآخر مرة في حياتهم . وانتقموا لسيدهم الذي اغتالوه بخسة، وكذلك انتقموا لموتهم الذي بات قريبا . فالصمود أمام هذه الكتلة الضخمة من الفرسان كان شيئاً متعذراً .

كان صاحب الشارب الأشقر شاوه جي الشبيه بالدب ينظر إلى مجريات الأمور بهدوء وكأنها عادية. وكان خلال المعركة

يسعى جاهداً لملاقاة محمد . الذي لم يكن أقل حماساً منه. لكن مجريات المعركة لم تسمح لهما بالإقتراب من بعضهما.
وقع أديشيم بالمصادفة بين محمد وشاوه جي . لوح العجوز بسيفه القصير فأصاب جواد محمد . قفز الجواد الجريح بحدة لتذهب ضربة محمد التي كان عليها أن تقطع أديشيم إلى نصفين لتقطع الهواء. سقط محمد على جانبه الأيمن فاقدا توازنه وسقط معه أديشيم بعد أن جذبه محمد من عنقه.
- ها... - صاح شاوه جي بمرح - لقد أوقعت البومة النسر العتيد في المصيدة .
قفز محمد على قدميه بعد أن قذف بأديشيم جانباً. ابتعد عدة خطوات ليخرج من حزامه غدارة صوبها إلى شاوه جي.
- انتظر - صاح شاوه جي وهو يترجل عن صهوة جواده - فلنجرب القتال بالسيوف راجلين.
ولكن الآخر أطلق طلقته. سعل الشاب الأشقر الهمام ، بينما ظهرعلى الصدر فوق القلب إلى اليسار قليلاً من زرد الدرع أثر جرح صبغ قماش لباسه الشركسي بلون أحمر داكن.
- أديشيم - صاح شاوه جي بحشرجة - اذهب بسرعة واخبر جانبولات، خذ حصاني، حاول أن تسرع، أخبر صديقي نارتشو..
ماذا كان شاوه جي يريد أن يخبر صديقه نارتشو، الذي تحمل منه كل نكاته وتعليقاته اللاذعة. لا أحد يعرف إذ عالجه محمد بالسيف، ثم ضربه ثانية وهو على الأرض. وضربه مرتين بعد أن تحول إلى جثة هامدة. وفات حاتاجوقه الصغير أن يلاحظ العجوز أديشيم وهو يمتطي حصان شاوه جي الضخم، مستغلاً فرصة انشغال الجميع في حصار بقية المقاتلين، لينسل من خلف الشجيرات وليختفي. كان عليغوكة له بالمرصاد لكن السهم الذي أطلقه قذف بأحد أتباعه من على صهوة جواده.
صاح الأمير بغضب :
- هيا انتهوا منهم. ماذا تحفرون هناك بمخالبكم كالقطط؟

ذهب صياحه أدراج الرياح. فآخر المقاتلين من فرسان توزار كانا لا يفكران بالإستسلام. ها قد سقط أحدهما أمام محمد أما الآخر فقد قذف بنفسه على فارس ليأخذه معه إلى مملكة الأموات. ليهدأ بعد ذلك كل شيء.
بدأ كل فرد على الأرجح يستعيد للحظة ما حدث في هذه البقعة المشمسة من الغابة المحروثة بسنابك الخيل، والمروية بمطرٍ من الدماء. لم يعط عليغوكه أتباعه فرصة للتفكير.
- لقد لعبتم طويلاً - صاح بانفعال - كم عدد قتلانا؟ تسعة عشر! أقسم بـ بسه تحه[١] لو كانت الانتصارات هكذا لما وجد هناك من يقتسم الغنيمة.
أنطلقت شهقات حزينة، وراح البعض منهم يندب أقربائه وأصدقائه ممن قضوا في المعركة. تفقد محمد جرح حصانه " ليس هناك ما يقلق الحمد لله " وعاد بسرعة.
- أغلقوا أفواهكم جميعاً، اصمتوا، لا تذرف الدموع على الرجال الذين قضوا نحبهم وهم يقاتلون.
- هذا صحيح - قال شوجنوقه - والآن وبسرعة ودون أحاديث جانبية، يجب دفن القتلى والتقدم إلى الأمام فمعركتنا لم تنته بعد، وهذه هي البداية فقط. لقد تخلصنا من الغراب العجوز، ويجب أن نلحق ابنه به قبل أن يعلم بما حدث ويستعد لنا.
- حسناً فلنؤجل الدفن - اقترح محمد .
- الأغلبية هنا وثنيون، يمكن حرقهم أو ... هناك طرقٌ عديدة. إن أسرع طرق الدفن هي الطريقة الإسلامية أليس كذلك؟ - سأل شوجنوقه .
- بالطبع دفنهم تحت التراب ثم الصلاة عليهم وهذا يكفي لمتابعة المسير.
لم يعد شوجنوقه يطيق صبراً للوصول إلى جانبولات. ارتفعت عدة أصوات معارضة، لكن عليغوكة استطاع أن يخمدها.

---

[١] - بسه تحه – ربة الروح والحياة في مجمع الآلهة القديم.

- إن الثياب الجديدة خير من الثياب القديمة، والدين الجديد أفضل من القديم. لقد قررت أنا أميركم أن أعتنق الإسلام. ومن لم يعجبه هذا فليرتدي ثيابه القديمة البالية لبقية عمره حتى تبلى عظامه. أما اليوم فإننا سوف نستمع إلى الأمير حاتاجوقه وسنعمل كما يأمر.

عندما تم ردم الحفرة التي احتضنت جثث مقاتلي عليغوكه، أخذ حاتاجوقه الصغير واجباته كرجل دين.

- أنا لا أعرف من سور القرآن. إلا اليسير ولكن ما أعرفه يكفي.

وبصعوبة متصنعة طبع على وجهه علامات الخشوع قائلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

نظر الفرسان بعضهم إلى بعض وهم يسمعون لغة غريبة، ولكن كان قد أُسقط من يدهم فسلموا أمرهم و أنصتوا.

- إنا أعطيناك الكوثر- هذا يعني - أشار محمد إلى القبر - إنهم سوف يحصلون على الكوثر وهذا شيء رائع فهو نهر في الجنة.

ثم دعا الله بأن يمحق الكافرين وأن لا يبقي منهم أثراً.

- آمين .

- هل انتهيت؟ - سأل شوجنوقه - حسناً لقد بدأت الشمس بالمغيب.

- وماذا عنهم؟ - سأل بابوك المتجهم - رجال توزار لا يجب أن نتركهم هكذا.

- لن نتركهم - ضحك عليغوكه - لقد فكر أن يبيدهم وأن لا يبقي أثر أحد منهم - ماذا تعتقد يا محمد؟ هل نرميهم في تيرتش لينتهي الأمر؟ أنا أجد هذا مناسباً. يمكنك أن تأمر الرجال بتنفيذ ذلك.

أرسلوا بعض الرجال إلى المنازل ومن بينهم ابن بابوك لمرافقة الخيول والأسلحة التي غنمها المقاتلون إلى منزل الأمير.

عندما بدأوا بالعبور إلى الضفة الأخرى، كان النهار قد انتهى وكان قرص الشمس الأرجواني ينعكس على صفحة النهر. وفي

نقطة ساكنة من النهر بدت وكأن ملابس مقاتلين مشبعة بالدماء قد رميت هناك.
فجأة دوى صوت صراخ بابوك، كذلك صوت الطفل قوباتي. توقف الجميع ليشاهدوا جواد بابوك وهو يحاول الوصول إلى الشاطئ، لكنه انحدر سريعاً ورأسه إلى الأسفل. كانت هناك أفعى مائية ضخمة سببت ذعر الحيوان. سبح الحصان إلى منتصف النهر، لكن التيار جرفه. ولم يعد يظهر لحاغور أو لقوباتي أي أثر.
- لقد غرقا.
قال شوجنوقه وهو يتنفس الصعداء ، أو ربما كان حزيناً من يدري؟
- فليكن لهم الكوثر - تمتم محمد .
لم يتفوه المحارب المجرب ايدار بأية كلمة، إنما راح يحدق بنظره عبر مجرى النهر. لوهلة خيل إليه أنه يرى خلف المنعطف رأساً. ربما لم يغرق الصبي. أما حاغور فلا مجال للشك، مع كل الأسلحة التي يحملها. من المؤسف أن يغرق حاغور رغم أنه كان فظاً ولا يستخدم رأسه إلا لارتداء قبعته فقط وليس للتفكير، إلا انه كان يحمل بعض المفاهيم النبيلة عن الشرف.
لكز ايدار حصانه بلطف ولحق بالمجموعة التي راحت تعبر تيرك.
" الكوثر .. الكوثر - أعادها لنفسه - الأفضل أن أبقى حياً على ضفاف تيرك من أن أكون ميتاً في الجنة على ضفاف الكوثر."

الخبر السادس

يقول :
إن الانـهيار الثلجي الكبير. كان سببه عصفور صغير.

- جانبولات! أين جانبولات؟ - صاح أديشيم وهو يندفع بحصان شاوه جي عبر البوابة - السيد .. أسرعوا وابحثوا عن السيد.
لم يسبق أن أحداً رأى أديشيم العجوز منفعلاً على هذه الصورة، لذلك انتقل الاضطراب بسرعة إلى الأشخاص المتواجدين في منزل توزار.
- ماذا حدث، أخبرنا ولا تعذب أرواحنا؟ - سألته إحداهن .
- أديشيم ماذا هناك؟ ماذا وراء لسانك؟ - سأل آخر .
- خبرٌ سيئ - أجاب الراعي بصوت حزين يشبه الهمس - إنه خبرٌ مثل الطاعون والحريق عندما يأتيان معاً. أين جانبولات؟ إن الحريق والطاعون في طريقهما إلينا. الحريق هو حاتاجوقه الصغير، الكلب المسعور. أما الطاعون فهو عليغوكه الرأس الأجرب.
صمت أديشيم قليلاً ليستطيع التنفس ثم صاح فجأة بصوت كله ألم..
- لقد قُتل قارالبي وكل من كانوا معه .. أين جانبولات؟
ساد الصمت في الساحة. صعق الجميع وتجمدوا، كأن أمراً صدر إليهم من قائدٍ ما بأن يحبسوا أنفاسهم. بكت امرأة وناحت بمرارة، لكنها توقفت تحت ثقل نظرات أديشيم.
قفز حامش ذلك الشاب الطويل الذي تسبب بفضوله غضب شاوه جي إلى صهوة جواده دون أن يسأل عن أي شيء. أسرع إلى خارج الدار. التفت نحو الراعي العجوز وبصوت هادئ واضح قال :

- جانبولات مع نارتشو، ذهبا إلى الصيد إنهما في الغابة عند أعلى النهر، سأعيدهما حالاً.
لكز حاميش حصانه وانطلق بأقصى سرعته.
كان في القرية عشرون مقاتلاً مسلحاً، أما الفلاحون الذين حملوا الخناجر دون أن يمتلكوا سيوفاً ولا رماحاً، فلم يكونوا في الحسبان، لم تكن هناك أية خطة لصد العدوان القادم، ولم يكن أحدٌ يشك في أنه قادم. لم يتناقش الرجال وإنما طرحوا الأسئلة. هل يجب عليهم الخروج للقاء العدو أم الانتظار حتى يأتي العدو إليهم؟ قرر الجميع البقاء لأن الجياد كانت تنقصهم.
أراد أديشيم أن يقترح على المقاتلين أن ينقسموا إلى مجموعتين وانتظار المهاجمين مختبئين خلف حظائر الخيول من جهة، وخلف المستودعات من جهة أخرى. فإذا ظهر شوجنوقه وأتباعه انقضوا عليهم و أوقعوهم بين فكي كماشة. ومن الأفضل أن يتسلق أربعة رجالٍ ممن لا يملكون جياداً أسطح المنازل، مع احتياطي جيد من السهام.
ابتسم أديشيم بمرارة:
"حساءٌ لذيذ في قدرك المسود من الدخان، لكن للأسف لن يتذوقه أحدٌ. هل سمع أحدٌ ما أن الديوك المقاتلة تعلمت الصراع عند البط؟ هل يختبئ المحارب خلف إسطبل؟ النساء فقط يمكن لهن تسلق أسقف المنازل ليتلقوا الدفيء من خلال منافذ المواقد مع القطط. أما الرجال فعليهم القيام بالعمل. الرجال لا يسألون عن عدد الأعداء، وإنما يسألون أين هو العدو؟ أوه أديشيم ... أديشيم حصانٌ مخصي أنت. العادة أن يتصارع النبلاء بشجاعة وتهور، بغباء وحماقة دونما سبب حقيقي. الكل سيظهر قدراته. والكل يعلم أنه سيقتل، لكن جرب أن تشير إشارة خفيفة، أو أن تتفوه بكلمة حكيمة، أو أن تقترح خطة تعمل بها، حيث يمكنك أن تصد الهجوم وأن تحافظ على حياة نصف المقاتلين على الأقل.
إن الرجولة والكبرياء المتغطرسة لا تستدعيان الشك في الشجاعة ولكن أن يبدي المرء حيزاً من الحذر فهنا يكمن الجبن.

وهو أشد من الموت، لذلك يتم التعامل مع الموت باستخفاف. لذا اصمت يا أديشيم والأفضل أن تستجمع قواك فلا شك أنك لا تريد الانسحاب والالتزام جانباً في هذا الصراع الجديد الذي لا معنى له"

أتى الغسق حاملاً رياحاً باردة هبت من جهة النهر. كانت تعلن للمرة الأولى عن نفسها أنها رياح الخريف، وهي تحمل في طياتها رائحة جديدة وأصواتاً جديدة.

رائحة الأشجار التي تخلت عن أوراقها حملتها الريح معها بتآلف مع برودة الثلج الذي تساقط مؤخراً على أعالي الجبال. ومعها حملت صوتاً بالكاد يسمع لسربٍ من طيور مالك الحزين يبدو أنه كان يطير على ارتفاعات عالية. وانساب صوت غزال أتى من الضفة الأخرى للنهر، حيث الغابة تعلن عن موسم التزاوج الخريفي، وبدء الصراع بين الذكور من أجل الفوز بالإناث.

ها هي غيمة كبيرة من العصافير تطير لتحط على الأرض وتقضي على محصول الحبوب.

هكذا تسير الأمور في الطبيعة. كلٌ له دوره، والأمور بين البشر أيضا تسير على هذا المنوال.

سمع الناس المجتمعين أمام بوابة توزار أصوات سنابك خيول. كان وقعها منتظماً أحس بها الجميع, ومن ثم شاهدوا أشباح الفرسان المقتربين. لم تكن المسافة حتى الشاطئ بعيدة. إنها لا تتجاوز مسافة طلقة بندقية واحدة. وبالمناسبة لم تكن هناك في نزل توزار إلا بندقية واحدة في تلك الليلة وهي لم تطلق النار إلا مرة واحدة.

قام بوت ابن عم توزار الرجل المهيب صاحب الأربعين ربيعاً وذو اللحية الكثيفة بتذخير البندقية اليتيمة. وضع كمية ضخمة من البارود وأسند السبطانة إلى جذع شجرة ثم سدد. اشتعل الفتيل ودوى صوت الطلق الناري لتفوح رائحة البارود والشعر المحترق. تحسس بوت شعر لحيته ورمى البندقية جانباً. اقترب

من جواده على حين كان أحد فرسان شوجنوقه يتداعى رويداً رويداً عن سرج حصانه إلى الأرض لينقلب إلى جانبه مفارقاً الحياة. وهكذا أراد القدر أن يتلقى صدر ايدار الطبيب تلك الرصاصة الطائرة.

لقد أراد ايدار هذا الصباح أن يؤثر على عليغوكه، وأن يجعله يصرف النظر عن عزمه ، لكنه كان أضعف من أن يُغضب الأمير أو أن يعكر له صفوه. كل ما فعله ايدار اليوم أنه استطاع أن يفكر بينما الروح تفارقه أنه الآن كوفئ كما يستحق.

بدأت عند بيت توزار مجزرة دموية. فلم يكن واضحاً من هو المهاجم ومن هو المدافع. تكاثر الرجال المتساقطون تحت سنابك الخيل وقد أصابتهم الجراح المميتة، مطلقين حشرجة الموت مع رنين ارتطام الحديد بالحديد ومع صهيل الجياد.

رمى محمد المسعور بنفسه كالإعصار الأسود في خضم المعركة وراح يضرب يميناً وشمالاً وهو يصيح بصوتٍ مرعب:

- أين جانبولات؟ أين الخروف التوزاري؟ اخرج لا تختبئ.

حاول بوت أن يواجه حاتاجوقه الأصغر ولكنه لم يحظ بشرف لقائه إلا بعد أن صرع اثنين من أتباع شوجنوقه بحسامه الطويل، ثم رأى أمامه مباشرة عيني محمد الكبيرتين اللامعتين.

خُيل لبوت أن عيني محمد المرعبتين توسعتا فجأة، وها هما الآن يتحولان إلى يقطينتين صفراوتين مثل حجر الرحى، وها هما يسدان الآن صفحة السماء. أصبحتا سوداوتين فاحمتين، ثم اختفتا تحت غطاء ضبابي وردي. سقط بوت على وجهه متنفساً دخاناً حاراً، وأحس أن جسده الضخم أصبح خفيفاً. كأنه يلبس فرواً، ثم طار إلى مكان ما. تحت عزف لحن فراغي.

تعامل محمد بقوة وسرعة، عبث سيفه بوجه بوت، فأصبح من العبث حتى استدعاء الطبيب.

تقلص عدد المدافعين التوزاريين إلى النصف بفضل حاتاجوقه وآخران من المقاتلين المهرة، ولم يظهر بعد جانبولات.

من غرائب وعجائب هذه الحياة أن يبقى أديشيم حياً حتى هذه اللحظة. ربما هو مدين بذلك إلى حصان شاوه جي الذي تميز بقدرته القتالية العالية. إذ كان يرفع قوائمه ويضرب بحوافره الجياد الأخرى. إلى أن اصطدم من دون أن يقصد ذلك مرة أخرى بحاتاجوقه ... ضرب حصان شاوه جي بصدره جانب الحصان الأصيل لمحمد فطرحهما معاً أرضاً.
أرسل محمد اللعنات الرهيبة وبصق الدم الذي نزف من لسانه. قفز على قدميه دون أن يمنع نفسه عن الهيجان. لم يمتط جواده من جديد، إنما ركض خلف العجوز الذي كان قد تجاوزه. أدركه بثلاث قفزات ليقتلعه عن سرجه كما تُقتلع النبتة من الأرض.
سقط سيف أديشيم القصير من يده.
- آخ أنت ثانية أيها الصعلوك - صك محمد بأسنانه - من؟ من؟ أي روث أهانني وأنا أمير، لقد صبرت على الإهانة مرتين.
هز حاتاجوقه الراعي وكأنه قطعة قماش.
- ستضطر إلى تحمل الإهانة للمرة الثالثة - قال أديشيم - وبصق في عين الأمير.
زعق حاتاجوقه وقذف العجوز بقوة إلى الأرض ... تدحرج أديشيم ثم هدأ. يبدو أنه سكن هذه المرة إلى الأبد. لوح الأمير بسيفه مندفعاً إليه، لكن فجأة، دوى شيءٌ ما في رأسه. انكفأ بعدها على ركبتيه وانطرح أرضاً.
لم يُحمل الرأس الأجرب نفسه عناء المشاركة في القتال، رغم أنه السبب الأول في مذابح اليوم. بل انتظر حتى بقي من التوزاريين خمسة يزحف الموت نحوهم رويداً رويداً، ليبدأ البحث عن الدرع .
"لا بد وأن النبيل الشاب ترك الدرع في المنزل، محمد سوف يتصرف هنا من دوني "
تخطى جثث رفاقه وأعدائه. لاحظ أن عدد جثث أتباعه كانت أكبر هذه المرة أيضاً، وجه حصانه إلى المضافة مباشرة. ما أن ترجل من على صهوة الجواد حتى فتح الباب واندفعت منه فتاة

طويلة، مرقت بجانبه دون أن تعيره اهتماماً، أسرعت خلف حاتاجوقه الذي رفع في تلك اللحظة سيفه فوق أديشيم الراقد دون حراك. بسرعة أخذت بندقية بوت الملقاة وقبضت عليه بقوة من السبطانة ضاربة بالأخمص رأس الأمير الذي تهاوى. رمت البندقية وانحنت جاثية على العجوز.

لأول مرة وخلال النهار كله لم يتملك الغضب ولا الرعب شوجنوقه، لم ينفعل حتى لتعرض شريكه للإهانة. بل تملكته سعادة غامضة، ونوع من الرضا على ما يحدث. لكن بالإضافة إلى هذا الشعور كان يسيطرعليه إحساس آخر. عطش لامتلاك ما لم يملكه ويمتلكه غيره. شعورٌ بالحسد. لذا أسرع للبحث عن الدرع.

عاد العجوز أديشيم إلى وعيه، فتح عينيه ليجد فتاة جميلة الوجه قد ارتمت عليه.

- استيقظ يا عمي - سمع صوتاً رقيقاً .

ابتسم أديشيم وقال شيئاً ما هامساً.

- ماذا قلت يا عمي؟ أية عربة؟

- العربة انقلبت وأنا كنت السبب في ذلك.

- لماذا؟ كيف؟ سبب ماذا؟

- من أنت؟ آ... نالجان.

- نعم ... نعم هذه أنا هل عرفتني؟

- عرفتك - تنفس العجوز - هل رأيت يا نالجان لقد سبب طيرٌ صغير في انهيار ثلجي كبير.

- عن أي طائر تتحدث؟

- إنه أنا، ذلك الطائر الصغير.

- لو أستطيع سحبك من هنا.

- توقفي نالجان، انحني أكثر - تكلم أديشيم بحزم - هل سمعت عن درع سيدك الجديد؟

- ومن لم يسمع عنه.

- يمكن أن أعتقد أن قارالبي كان يسارع إلى إخبار نسائه بكل جديد - ضحك العجوز .
- لا إنه لا يخبرنا - تكدرت نالجان - إننا نعلم بوسائلنا.
- وأين هو الدرع ؟ هل تعلمين؟
- وكيف لا؟ ألست المسؤولة عن نظافة المنزل؟
- إذاً هو في المنزل، سيجده عليغوكه الثعلب، سيجده.
- عن ماذا تثرثر أيها العجوز، أنت طفل - ارتبكت نالجان - هنا معركة تدور وأصحابنا قتلوا جميعاً تقريباً، هل تستطيع الوقوف؟
- لا أستطيع أن أتحرك، أشعر وكأن فارساً مر بفرسه فوقي.
بكت نالجان بمرارة، تأبطت أديشيم تحت ذراعها وسحبته إلى العنبر. سرى ألمٌ حاد في ظهر العجوز انتقل إلى صدره، انسدلت ستارة سوداء على عينيه، ولم يعد يحس بعدها بشيء.
جلس محمد حاتاجوقه على أربعته بصعوبة، هز رأسه وكأن هناك شلالٌ يدوي وأصوات سنابك تسعة خيول تدق في رأسه.
- ما كان هذا؟
زمجر حاتاجوقه بغضب. انتزع الخوذة عن رأسه، لاحظ تشوهاً بيضاوياً كأن حجراً سقط عليها من السماء. نهض على قدميه، تلفت حوله، عادت إليه قواه بسرعة، استعد للقتال من جديد. لكن المعركة كانت قد انتهت.
- أشعلوا النار - صاح محمد - لا أرى أي شيطان، لقد حل الظلام تماماً.
كان الفناء ممتلئاً بالجثث. سقط أتباع توزار حتى آخرهم. كذلك أكثر من نصف المهاجمين. تناول محمد مشعلاً من أحد الفرسان وأضرم النار بالسور " هكذا سنحصل على الإنارة " التهب خشب الجوز وانطلقت السنة اللهب منيرة المكان.
- أين شوجنوقه؟ أين النبيل عليغوكه؟ - سأل محمد .
وقبل أن يجد جواباً على سؤاله ظهر شوجنوقه واقفاً عند باب المضافة، وقد بدت على وجهه علامات الانزعاج.

- آ .. محمد أما زلت حياً؟ لم أجد الدرع في أي مكان، يجب البحث في مكان آخر من المنزل.
احتد حاتاجوقه بغضب.
- طبعاً ... لقد استحققت هذا الدرع بشرف وجدارة.
- وأنت يا صديقي استحققت ورماً في دماغك - أجابه شوجنوقه و السم يقطر مع كلماته وهو يقترب من محمد.
- ورم؟ - صرخ محمد - من المؤسف أنهم كلهم أموات، وإلا لطهوت من ضربني في خوذتي هذه وأطعمته للكلاب.
تسللت نالجان من العنبر تحت جناح الظلمة تريد أن تختفي عن الأنظار، لكن شوجنوقه لمحها. تبعها مسرعاً قاطعاً عليها الطريق. توقفت نالجان وهي تحدق مباشرة في وجه الأمير.
- أنا اعلم أنكم تقاتلون الشيوخ ويمكنكم أن تقاتلوا النساء. فالنساء يقاتلن النساء - قالت نالجان وهي تمتلئ غيظاً.
تحول لون شوجنوقه إلى الأرجواني وهو يشعر بالإهانة الموجهة، لكنه حاول أن لا يظهر تأثير كلمات المرأة عليه. التفت إلى حاتاجوقه وبطيبة استعراضية قال:
- هل تسمع بماذا يتهمنا البعض أيها الأمير العزيز؟ هل حقاً حاولنا إيذاء امرأة؟ لا إن هذا لم يحدث أبداً! إننى أقول الحقيقة أيها الأمير. لكن إحدى النساء تسببت في فلق رأس صديقي وأخي صاحب المقام السامي الذي يحمل كل شرف الإمارة. إذ أن هذا الرأس..
- انتظر - قاطعه محمد بفظاظة - ماذا تريد أن تقول؟
استمر شوجنوقه في حديثه :
- أرأيت ما أقدمت عليه يداك أيتها المرأة غير المؤدبة، ثم يجب التعامل مع السلاح بطريقة صحيحة، فهذا يطلقون منه النار ولا يستخدمونه كهراوة.. إن الأمير وعد بأن يصنع منك طعاماً.
اقترب محمد من نالجان، تفحصها باهتمام فاحش من رأسها حتى أخمص قدميها.

- هل هي التي ضربتني؟ - سأل حاتاجوقه المصفر من خلال أسنانه.
استقبلت نالجان نظرات الأمير المتعطشة للدماء بشجاعة.
-من المؤسف أنه لا توجد في يد المرأة قوة تشكل ضربة قاضية.
- يا لهذا الحديث - تدخل عليغوكه - لا بأس عليك أيتها الفتاة فقوتك الضعيفة هذه فعلت ما لم يستطع الرجال فعله، وأنا أقول هذا كصديق مخلص للأمير المبجل.
تمتم محمد بكلمات غير واضحة وهو يعض على شفتيه :
"هل اقبض على هذا الصديق المخلص من حنجرته وأدقه في الأرض "
استمر شوجنوقه في حديثه.
- لكنني أظن أن الأمير لن يجعل منك طعاماً إذا أخبرتنا أين أخفى سيدك درعه الجديد؟ تكلمي ولا تخجلي إذ أن قارالبي لن يحتاجه بعد اليوم. أليس كذلك يا محمد؟ ألا توافقني الرأي؟
أطلق محمد فجأة ضحكة مجلجلة إذ أن خاطراً مثيراً التقطه عقله فرفع ثوب نالجان حتى صدرها.
- ألا تخفي الدرع تحت ثيابها؟ يجب أن نتأكد.
احتضن المرأة بعنف ثم راح يدير جسدها الممتلئ. وهكذا كان قد انتقم منها انتقاماً حقيراً. ومع ذلك كانت هذه الطريقة الوحيدة ليعيد فيها اعتباره لنفسه أو هكذا خيل له.
تجمدت نالجان رعباً عندما سمعت تمزق القماش، لكنها عادت إلى نفسها بسرعة وأفلتت من بين ذراعي حاتاجوقه. ضربت عليغوكه في وجهه عندما حاول أن يعترض طريقها وجرت بكل طاقتها إلى المنزل القائم البعيد، حيث كانوا يستقبلون كبار الضيوف.
اهتز عليغوكه، بينما غرق محمد في الضحك وهو يرى أنف شريكه الطويل ينزف دماً.

- حسناً - قال شوجنوقه بانفعال - لن تهرب بعيداً. يجب أن نبحث عن الدرع. يجب أن نقلب كل شيء. يجب أن نحطم هذا البيت إلى آخر قطعة.
قلبوا كل شيء، لكنهم لم يجدوا الدرع. بحثوا في المنزل الكبير، وفي غرف النساء والرجال، وفي المضافة، وفي منازل النبلاء، وفي بيوت الفلاحين المحترقة. جمعوا كل ما يستطيعون جمعه مما غلا ثمنه. نقلوا أسلحة وسجاداً، آنية وصناديق ألبسة. نقلوا حمولة عربتين ولكن الدرع بقي مختفياً
اشتعلت النار في الإسطبل وانطلقت السنة اللهب لتحيل الظلام نهاراً. تداخلت الأصوات، بكاء النساء المفجوعات مع صهيل الجياد المرتعبة وصراخ الأولاد اليتامى الحاد.
"لابد وأن جانبولات يرتدي الدرع لأنه غير موجود في أي مكان - هذا ما فكر به الأمير- إن البقاء بين الجثث والدماء والحريق والدخان الكثيف، وانتظار جانبولات لن يكون قراراً صائباً ولكن كيف؟ لا بد أن يموت توزار الصغير بأي حال من الأحوال، فهناك في الغابة تتفسخ جثة إسماعيل، ولا بد أن يتحمل وزر قتلها رجلٌ ميت."
- سننسحب إلى مقربة من المخاضة إلى الطرف الآخر من النهر فننتظره هناك. وليبقى عشرة رجالٍ هنا لدفن الموتى أم هل نكتفي بحرقهم؟
عند المخاضة كان السكون سائداً رغم أن نحيب النساء كان يصلهم.
" لو أنهم يتخلصون من الأموات بسرعة. إذا عاد جانبولات مع ثلاثة أو أربعة من الرجال الأقوياء فإن نصفنا لن يبقى على حاله وفي هذه الحالة لا أدري ماذا سيحل بي "
سُمع صوت حوافر جياد وصفر في الهواء سهمان، أحدهما مرق من جانب رأس عليغوكه أما الثاني فقد استقر في عنق أحد أتباع حاتاجوقه.
- ارم المشعل في النهر .

صرخ عليغوكه على محاربه الواقف قرب العربة الممتلئة بالغنائم. لكن الأمر الأميري كان قد تأخر قليلاً، إذ شق الهواء سهمان آخران. اصطدم الأول بدرع أحد المقاتلين وذهب الثاني عميقاً في صدغ حامل المشعل. انطرح الرجل أرضاً، سقط المشعل متدحرجاً نحو العربة التي التقطت قبساً من النار. تحول المكان إلى أرض تسطع نوراً. ومما زاد الطين بلة بالنسبة لشوجنوقه ظهور ثلاثة فرسان متجهمين. لكن يبدو أن محمد كان الوحيد الذي لم يفقد توازنه.

- وأخيراً يبدو أننى سوف أصل إلى الحمل توزار - قال محمد وجواده يشب على قائمتيه الخلفيتين.

اصطدم جانبولات مع محمد وتلاقى سيفاهما. ورغم أنهما لم يتقابلا قبل الآن إلا أنهما أعداء. قفز أحدهم لمساندة الأمير إلا أن توزار عالجه بضربة سريعة خاطفة مثل البرق تلقاها المقاتل دون أن يراها أو يسمعها، فطار عن حصانه.

- لا تتدخلوا - صاح محمد - أنا بنفسي.. لقد قتلت أم الذئب وسأقتل ابنها..

كان محمد يضرب بسيفه، ومع كل ضربة كان يعتقد أنها الضربة القاضية. ولكن في كل مرة كان سيفه يصطدم بدرع صلب مرن يغطي صدر الفتى.

كان جانبولات يستقبل ضربات محمد بكل براعة. وهو يعلم أنه لا يجب تلقي ضربات محمد بقوة وإنما بمرونة. كان يزلق حسامه إلى الخلف قليلاً مخففاً بذلك من قوة سيف خصمه وإلا فإن السيف سينكسر، أو قد يطير من يده مهما كانت اليد التي تقبض على السيف قوية.

" ياله من ذئب بين الذئاب - فكر جانبولات - ومن يفكر الآن بالذئاب "

- اصمد أيها اللعين - زمجر حاتاجوقه - سوف أرسلك خلف والدك إلى قعر تيرتيش.

- إذاً أنت من قتل والدي - أدرك جانبولات الحقيقة في النهاية -

- وسوف أقتلك، ودرعك هذا لن ينقذك.
- أي محمد ... محمد - صاح عليغوكه فجأة - إنه لا يرتدي الدرع. أين اختفى الدرع؟
اجتاحت نفس جانبولات موجة حقد جديدة أكسبته قوة دون أن تفقده اتزانه. لقد كان حاتاجوقه يعتمد على استفزاز خصمه وهو يعترف بجريمته بوقاحة وصفاقة.
- لا لن تقتلني - قال جانبولات بهدوء - ولن تقتل أحداً بعد الآن، لأنك سوف تموت.
سكون غريب أحاط برأس جانبولات، هدوءٌ قاتل، ولم يكن مهتماً بتعليقات محمد..
" لن أتفوق على هذا الجاموس الساخط بالقوة - فكر جانبولات - ولا يوجد في عينيه أي أثر للخوف، لا توجد إلا نظرات مسعورة، وهذا الذي سوف يقتله "
- اصمد أيها الجرذ الأجرب - احتد حاتاجوقه.
- صامدٌ.. أنا صامد - رد عليه الفتى بابتسامة.
قلص حشيم ونارتشو عدد المقاتلين، بحيث انفرد كل منهما في نهاية المطاف بمقاتل، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار ذلك الشجاع شوجنوقه، الذي كان يختبئ لغاية في نفسه خلف العربة وقد أمسك بغدارة صوبها نحو المتقاتلين حاتاجوقه وجانبولات، دون أن يقرر إطلاق النار. يبدو أن الأمير كان ينتظر نهاية المعركة ثم التصرف بعد ذلك.
لم يتمكن محمد من التعامل مع توزار الابن مما رماه في حيرة كبيرة شعر فيها للمرة الأولى بخطر الموت.
ارتكب محمد تلك الهفوة الصغيرة التي كان الصياد ينتظرها في مكمنه. لوح محمد بسيفه الأميري وضرب بقوة، أدرك جانبولات أن محمد يعتقد أن السيفين سيتلاقيان وعلى هذا كان يضع كامل قوته ولكن إذا تجنب جانبولات الاصطدام في اللحظة الأخيرة بحركة خاطفة فستذهب تلك الضربة في الهواء.

رفع جانبولات سيفه كما كان يفترض لملاقاة سيف محمد ، ولكن قبل أن يلتقي السيفان أبعد توزار سيفه بمهارة ثم لوح به تلويحة قصيرة ليضرب خوذة محمد الأميرية ضربة عنيفة.
تجمد محمد على سرجه، جحظت عيناه وكأنهما تسعيان للخروج من محجريهما، أصبحتا فوراً لا تحملان أي معنى، وتحولتا إلى كرتين باهتتين. ضربه جانبولات ثانية. تصدعت الخوذة وانبثق الدم من عيني النبيل المسعور.
خرج عليغوكه من حالة الترقب. لقد آن أوان العمل سدد جيداً، فهذه ساعته، ولكن يشاء الحظ أن يخذله. فالجياد المشدودة إلى العربة التي استعرت فيها النيران بشده اهتاجت، ودب الذعر فيها، تقافزت لا تعرف لنفسها طريقاً إلا طريق حافة المنحدر.
قفز جواد شوجنوقه بدوره مذعوراً في اللحظة التي دوت فيها الطلقة التي ضاعت في الفضاء الرحب المظلم.
كان نارتشو في تلك اللحظة يقتلع خصمه من على سرجه بعد أن جرحه جرحاً بليغاً، ثم سارع إلى مساندة صديقه، لكنه تأخر قليلاً إذ استقر في صدر حمشه سيف خصمه الحاد. التحم نارتشو مع آخر المقاتلين بينما كان جانبولات يتقدم بجواده نحو شوجنوقه، عندها أقدم ذلك الداهية على خطوة لا يقدم عليها إلا جبانٌ مذعور.. التفت بجواده نحو منزل توزار حيث بقي عشرة من رجاله.. لكز شوجنوقه جواده وهو يعبر النهر. خارت قوى الجواد المسكين تماماً على الضفة الثانية حيث أدركه جانبولات عند طرف الغابة.
تبدد الشفق الصباحي، ورأى جانبولات عدوه وهو يحل حزاماً لامعاً . أعاد جانبولات سيفه إلى غمده وأخذ سوطاً ضرب به وجه شوجنوقه الأصفر. زعق شوجنوقه وهو يحني رأسه ويحميه بيده، أما حزامه اللامع فتحول إلى سيف فولاذي سقط على الأرض مصدراً رنيناً.
- أه، هكذا إذن.

- تمتم جانبولات ومال إلى الأرض دون أن يترجل عن جواده، اختطف السيف الدمشقي القديم.
- أية أسلحة تمتلك أيها الجبان الحقير.
- لا تقتلني - صاح شوجنوقه - أنا لم أقتل والدك. ولم أحرق البيت. إنه حاتاجوقه الصغير، لقد كان يسعى وراء الدرع.
- وأنت طبعاً لست مذنباً بشيء؟ - تبسم جانبولات بمرارة وهو يحني السيف الثمين ليحوله إلى حلقة .
- ليس هناك سبب أو ذنب يمكن أن يُقتل الأمير من أجله.
كان خده الأيسر ينزف.
- لو لم تكن جباناً يستحق الشفقة لما أخذت حياتك الأميرية بعين الاعتبار، ولتعاملت معك كما تعاملت مع شريكك المتعطش للدماء. والآن لنجرب هذا السيف، كيف يستخدم الفولاذ العربي.
أخذ جانبولات خوذة عليغوكه وقذفها إلى الأعلى. صفر السيف الدمشقي بهدوء لتسقط الخوذة على الأرض بعد أن تحولت إلى قطعتين متناظرتين. كانت ضربة جديدة وإهانة، شعر شوجنوقه بمرارة كمن تلقى ضربة سوطٍ جديدة.
- والآن اغرب عن وجهي، اذهب - صاح جانبولات - أسرع قبل أن أغير رأيي.
لم يكن شوجنوقه بحاجة إلى أي إقناع، لكز حصانه واختفى بلمح البصر داخل الغابة.
عاد جانبولات إلى ضفة النهر، وراح يحدق باتجاه الضفة الأخرى. كان النهر ينساب بسلاسة مخترقاً الضباب الصباحي الذي غطاه. كان يأمل أن يرى نارتشو حياً. ربما يعبر النهر الآن.. وخيل إليه أنه سمع صوت ما، فرح بذلك ولكن فرحه سرعان ما انطفأ حين أدرك خطأه.. رأى جانبولات أشباح تسعة فرسان. كان كل منهم يجر خلفه حصاناً أو اثنين محملين بالأثقال.
- لقد قاتل الشاب الأخير بشكل رائع - قال أحد الفرسان .

- نعم إن جميع القبردي في القبردي الصغرى يقاتلون جيداً - أجاب الآخر.
- لقد أحسنا صنعاً حين نقلنا هذه الغنائم من العربة وإلا لأخذها التيار.
- نعم ارتفع منسوب تيرتش - لاحظ أحدهم - لا بد وأنها هطلت ليلاً هناك في الجبال.
اقتربت بقايا كتيبة النبلاء، كانت كل كلمة تبدو واضحة ودقيقة وهي تنتقل فوق صفحة المياه الهادئة . توارى جانبولات خلف الأشجار.
- علينا أن نلحق بالأمير.
- الحق الأرنب في الغابة.
- لن أعمل في خدمة شوجنوقه - أعلن أحدهم بخزم .
- وأنا أيضا سأنتقل إلى أمير آخر، لقد اكتفيت ما حييت من وحشية هذا اليوم.
انتقل الفرسان إلى الضفة الأخرى، ومضوا في طريقهم.
" أعتقد أنه آن الأوان لأذهب أنا أيضا. ولكن إلى أين؟ إلى رماد بيت أبي؟ لم يعد لي هناك من عمل. ربما أستطيع أن أخفف من حزن العائلات المنكوبة ولكن من سيخفف عني؟ ثم هناك الأمير حاتاجوقه كورغوقه. سيعلم عن مقتل أخيه قريباً، عندها سوف يفقد بصيرته ولن يستمع إلى صوت العقل، ولن يحكم بالعدل.. لقد أصبح هناك دم وثأرٌ بيننا."
وجه جانبولات جواده نحو أول درب عشبي في الغابة، تاركاً العنان لجواده ليقوده حيث يشاء.
" أبي... كان من الممكن أن يعيش طويلاً، وأي أصدقاء كانوا نارتشو، شاوه جي يا للتعاسة ، يا للتعاسة .. أليس في صدري قلب؟ لا بد أن قلبي قد تحجر، لماذا لم ينزف دماً ويصمت إلى الأبد؟"

سار طويلاً دون أن يدرك ما حوله. بدأ ضوء الصباح يتسلل من بين أغصان الغابة التي كانت ترزح تحت زقزقة الطيور المرحة.
فجأة توقف الحصان وصهل بصوت خافت. أفاق جانبولات من تأملاته وكأنه يعود من حلم عميق. رفع رأسه فرأى على بعد خطوات قليلة منه، على جانب الدرب صبياً، جلس بالقرب من جسد رجل. أخبرته غريزة المحارب أن الرجل ميت. قفز الصبي واختطف خنجره.
ترجل جانبولات:
- لا داعي لذلك أيها الصديق - قال جانبولات وهو يقترب من الصبي - لن تحتاج الى خنجرك.
مسح جانبولات بكم ردائه دموع الصبي.
- من غير هذه الدموع، أنت مبلل على الآخر، المطر .. ولكن لم يهطل المطر على ما أعتقد، لا بد أنك تعرضت إلى مصيبة، هل هو والدك.
كانت شفتا الصبي المزرقة ترتجفان برداً.
- قل شيئاً، أنا اليوم فقدت أبي أيضاً.
- هذا عمي - أجاب الصبي أخيراً - هذا إسماعيل حاتاجوقه، شقيق أبي.
- وأبوك؟
- كورغوقه.
- هكذا إذن. ومن ضرب عمك على صدغه.
سكت الصبي، وبحذر نظر إلى جانبولات.
- لا تريد أن تتكلم أيها الصبي؟ أفهمك. أنت لا تعرف مع من تتكلم، مع عدو أم صديق ولكن لا تخف. إنني صديق لكل الأطفال.
- ومن تصادق أيضا شوجنوقه أم توزاروقه؟
احتار جانبولات.
- إنك تطرح الأسئلة مثل رجل بالغ ... كم عمرك؟

- تسعة.
- لست صغيراً ولا بد أنك تعرف أشياء كثيرة ... واسمك أتريد أن تخفي عني اسمك.
- لا لن أخفي اسمي، أنا قوباتي.
- اسم جميل، والآن يا قوباتي يجب عليك أن تجفف نفسك بسرعة أمام النار، وإلا فسوف تمرض. أما حديثنا فسوف نتممه لاحقاً. ولكن قبل كل شيء يجب أن نخرج عمك من الغابة.
رفع جانبولات جسد إسماعيل وخرج به إلى الطريق ووضع الجثة بين خطين تركتهما آثار عجلات عربة.
- سوف يجدونه ويأخذونه إلى المنزل قبل حلول منتصف النهار، أما بالنسبة لنا يا قوباتي فهذا المكان ليس مناسباً لنا.
امتطى جانبولات صهوة جواده وانحنى ليلتقط الطفل من حزامه ليجلسه أمامه على الجواد. ابتعد عن الطريق واختار روضة صغيرة كثيرة العشب ليرعى الجواد فيها، كانت هناك شجرة حور جافة متيبسة، كانت كافية. قطع جانبولات الشجرة بضربة واحدة من فأسه . لمح جانبولات بريق ألم في عيني الطفل عندها قذف بالفأس وراح يستخدم يديه العاريتين في تقطيع الأغصان معتمداً على ركبته، مما أثار إعجاب قوباتي. أحس جانبولات بنوع من الحياء غير أنه لسبب لم يدرك كنه أراد أن يترك شعوراً بالمرح والإعجاب عند الصبي. وأخيراً جلسا خلف النار التي اتقدت. نظر توزار إلى ابن أمير القبردي الكبرى.
" عينا الصبي ذكيتان، وعنيدتان - فكر جانبولات - ولكن يوجد بيننا دم "
- حسناً والآن من قتل عمك؟ أم أنك لا تعلم؟
- أعلم - أجاب قوباتي بحزن - محمد قتله عندما لكمه بقبضته.
- محمد؟ عمك الثاني؟ - تعجب توزار - أقسم بالرسول لم أنتظر ذلك.
- كان مع شوجنوقه ذاهباً لقتل توزار الصغير.

- انتظر أيها الفارس الصغير، هل رأيت محمد وهو يكسر رأس إسماعيل؟
- نعم والأمير شوجنوقه رآه أيضا.
- ولماذا قررا الإنتقام لإسماعيل من توزار.
- كانا سيقتلانه ثم سيدعيان أن توزار قتل إسماعيل..
- وشيئاً فشيئاً روى الفتى كل شيء. تذكر كل كلمة قالها الأميران وشرح بالتفصيل وقائع المذبحة التي جرت في فسحة الغابة. أدرك جانبولات الآن كيف تم قتل أبيه وكيف نهب المنزل... تكلم قوباتي عن عبوره لنهر تيرك وعن الثعبان المخيف الذي اعترض طريق الجواد وأرعبه، تحدث عن غرق حاغور وكيف سبح هو إلى الشاطئ. كيف هام على وجهه طوال الليل في الغابة ليصطدم صباحاً وبالصدفة بجسد عمه، عائداً إلى تلك النقطة حيث قتل إسماعيل.
- أعتقد أنهم يظنون أنني غرقت أيضاً - أنهى قوباتي حديثه - ولو أنني لم أغرق لا أدري ماذا كان ينتظرني. أظن أنهم كانوا يزعمون على إعطائي لعبد الله.
- نعم أيها الصبي يقولون أن الذئب التهم الجواد ولم يأبه للسرج الذي عليه .
- هل ستنقلني إلى المنزل؟
- الأفضل أن نذهب إلى الصيد، قد نجد إيلاً أو غزالاً نشويه على النار أنا أعلم أنك جائع جداً اعترف بذلك.
- موافق - نهض قوباتي على قدميه بسرعة.
- وهل جفت ملابسك؟
- منذ زمن.
حالفهم الحظ مرتين هذا اليوم. ففي البداية التقطوا جواداً مسرجاً.
- هذا حصان بابوك - فرح قوباتي - هذا يعني أنها سبحت.
- هذا رائع - قال جانبولات - امتطه، ولكن لا... انتظر حتى أشد عليه الأحزمة.

ثم رأوا غزالاً جميلاً يقطع الدرب بزهو. صوب جانبولات سهمه وأطلق. رغم المسافة الكبيرة، وقع السهم في عنق الغزال. ومن جديد أضرما ناراً، ومن جديد جلسا في ذلك المكان في الروضة حيث كانا. ومن جديد ربط جانبولات وقوباتي جواديهما. لقد كبرا اليوم عدة سنين، وجلسا لإتمام الحديث الذي انقطع.

- أخبرني لو كانت لديك القوة والسلطة كيف كنت لتتصرف مع محمد؟

- كنت سأقتله - قالها الطفل دون تفكير.

- ومع الرجل الذي قتل محمد في معركة ثنائية نظيفة؟

ابتلع قوباتي قطعة لحم لم تنضج بعد، فكر قليلاً ثم أجاب بشيء من عدم الثقة:

- بكل الأحوال سوف يكون بيننا دم.

- وإذا كان محمد قد أقدم على قتل والد من قتل محمد، وذبح جميع أقربائه وأصدقائه وأحرق وسرق منزلهم.

اتسعت عينا قوباتي رعباً.

- لا... لا أدري ورغم كل هذا سيبقى الدم بيننا فإذا لم أقتله سوف هو...

- لا أيها الصبي الذكي قوباتي. إنه لن يقتلك ولكنه إذا ذهب بك إلى أبيك فإن والدك سوف يقتله بالتأكيد حين يراه، هل فهمت الآن؟

- أنت جانبولات توزار.

- لقد أخبرتك، أنت لست أحمقاً، ولا أريد أن أكون عدواً لك. هل تعلم ماذا أريد.. أريد أن أريك البلاد البعيدة، والعجائب التي تقع خلف البحار. أريد أن أجعل منك رجلاً قوياً، سأعلمك الرماية بمهارة وكيف تكون فارساً يمتطي صهوة جواده ببراعة، وكيف تستخدم السيف أريدك أن تحصل على الكنوز والنفائس حتى ليحسدك الجميع، ومن ثم سوف أعيدك إلى بيت أبيك وسوف

أكون سعيداً. هذا إذا وافقت معي على ذلك. فكر وإلى أن تفكر سوف أقطع اللحم من أجل الطريق.
"هل يعلم الصبي - سأل جانبولات نفسه - معنى كلمة التربية مقابل الدم؟ "
نادى جانبولات قوباتي وسأله:
- شوجنوقه تكلم عن درع، هل استطاع أن يحصل عليه؟
- لا يا عرابي الدرع اختفى في مكان ما، لا أدري لماذا لم يعثروا عليه في المنزل إنه لغز.
- سوف أحدثك فيما بعد عن هذا الشيء المدهش.
- وأين هو شوجنوقه الآن؟ هل...
- هذا الثعلب مازال حياً. وأنا آسف لأنني لم .. الآن لا بد وأنه في بيت والدك يسوق أكاذيبه القذرة كالعادة على مسامع الأمير.

* *

التقى حاتاجوقه الكبير بالنبيل عليغوكه خارج المنزل ولم يعرض عليه الدخول. لقد علم الأمير الكبير بأحداث ضفاف تيرك ولكنه لم يعلم بمصير إسماعيل. كان يعض على شفتيه حتى لا ينطلق لسانه ويفحش في اللعنات. استمع بصمت إلى حديث عليغوكه الحقير.
- نعم .. نعم إنني أقول الحقيقة - علا صوت شوجنوقه - إسماعيل قتله جانبولات، لقد وجدناه وهو يسلم الروح وهو الذي حدثنا بما جرى. أما بالنسبة لغرق الطفل فلا يلام أحدٌ على ذلك.
وقف إلى جانب كورغوقه رجلان، كان أحدهم عراب الصبي قوباتي الذي قطع أذنه اليسرى واقتطع قبضة من شعر لحيته لشعوره بالمهانة التي وقع بها.
- أعرف من أنت أيها الداهية المتوحش - قال كورغوقه بجفاء - كل هذا بسبب غدرك وصفاقتك.

- لا تقل هذا أيها الأمير، سوف أقبض على توزار الوحش وأقوده إليك في قفص... أقسم بأجدادي أنني...
- دع الأجداد يرقدون بسلام، لقد أهنتهم بما يكفي ولطخت اسم العائلة. أما توزار فنحن سنتعامل معه بأنفسنا، ويمكنك أن لا تتعب نفسك - ارتفع صوت حاتاجوقه - ولا تقترب من حدود هذا المنزل أبداً. لا عمل لك في مجلس الأمراء. سوف نناقش هذا الموضوع ونقرر هل تستحق حمل لقب الإمارة أم لا والآن انصرف وبسرعة... أسمعت انصرف.
ضاقت عينا شوجنوقه وعادت شفته التي أدماها جانبولات بسوطه تنزف من جديد.
- حسناً أيها الأمير كورغوقه الطيب - همس من خلال أسنانه - شكراً على اللطف، قد نلتقي مرة أخرى.

كلمة المراقب المتأمل

ومن جديد جرت الدماء لتعقبها الدماء في كل مكان، عند كل منعطف وفي كل ساحة تسمح رحابتها بالمبارزة. جرت الدماء الطاهرة والأخرى القذرة، دماء أبطال ودماء جبناء، دماء بريئة وأخرى آثمة. ولكن أكثر الدماء التي تراق هي دماء الفلاحين البسطاء، الذين لا علاقة لهم لا من قريب ولا من بعيد بمشاحنات وصدام الأمراء والنبلاء. وهناك حيث تسقط على الأرض نقطة دم واحدة لنبيل، تراق دماء الفلاحين على الأثر بحيث لا يستوعبها قدر ضخم على مرجل.

لم يعط الفلاح الحق للتفكير في مشروعية حمل السلاح على الطريق، فحدود إدراكه لاتصل إلى هذا المدى. لقد وهب هذا الوضيع رأسه لكي يشغله بمهام أخرى ترضي أميره وتغني منزل الأمارة، وتلون فخامة ولائمه وموائده، وكذلك ليتواجد في الزمان وفي المكان حيث يطلب منه الأمير التواجد لخدمته.

الناس الذين ولدوا بسطاء، كانت تربيتهم الأخلاقية الرفيعة تمنعهم حياءاً أن يمدوا يد العون لأميرهم، الذي تلد في نفسه الرغبة في تدمير أو سلب قطعان أمير آخر. فعند النداء الأول كان هؤلاء يذهبون لتحطيم جماجم الناس الذين ولدوا مثلهم بسطاء، وكانت تربيتهم الأخلاقية رفيعة، وقطنوا الأراضي المجاورة.

دماء هؤلاء رخيصة، أما دماء الأمراء فلم تكن تقدر بثمن، لأنها دماء مقدسة. وقد كان معروفاً في القبردي أن المحارب البسيط الذي يبارز أميراً، لا يملك الحق في قتل الأمير حتى وإن جرى الأمر في سياق الدفاع عن النفس. لقد كان له حق اتقاء ضربات الأمير دون الرد عليها، فالأمير لا ينتمي إلى جنس البشر، إنما هو شيء إلهي.

أن تصبح متهماً بقتل أحد الأمراء أكثر هولاً من أن تموت أنت نفسك. فحتى نظرة غراب المقابر سوف تتجمد رعباً، من كمية الدم التي ستغطي حفرة القرية المشؤمة.
إن نظرة المتأمل هنا ليست عادلة، فهو يشاهد اثنان من الأمراء يلقون مصرعهم ومع ذلك لا تمتلئ الهوة المظلمة للقرية المشؤومة بالدم. لماذا؟ ربما لأنها لم تكن قريبة كفاية.
ولكن هناك حقيقة ... فالشائعات سرت بأن نهر تيريتش لم ينقل خلال الليل كله إلى خازاس البعيدة الماء وإنما دماء آل حاتاجوقة. هذه الشائعات لم تجد لها شهوداً في الواقع. ولكن سرعان ما انتشر خبر في القبردي الصغرى ثم في القبردي الكبرى، وإن جرى تناقله بحذر وهمس يفيد بأن الحية التي خدعت أديشيم سبحت إلى شاطئ تيرك وأغرقت أربعين مقاتلاً لا أكثر ولا أقل من مقاتلي شوجنوقة. وأنها وفي حمى المعركة التي دارت في دار توزار زحفت إلى المضافة لتسحب ذلك الدرع الذي لا يقدر بثمن، والذي سالت من أجله هذه الكمية من الدماء إلى قعر النهر. الأفضل أن يختفي الدرع دون أثر لأن الكثيرين سيصابون بالصداع لاحقاً بسببه. لقد ضاع الدرع مرة أخرى ولكن ليس لفترة طويلة. فقط لسبعة أعوام.

الخبر السابع

عاجلاً أم آجلاً كان على بسه تحه أن يبكي

غرس الربيع حلته مبكراً كضيف مرح بين نهري باقسان وتشيغم . فكانت الثلوج تذوب أمام الأنظار مباشرة، لتنساب جداول المياه من السهول القبردينية حتى القرى البلقرية، متغلغلة بين الصخور، ماسحة العشب.
قبل أن تجف التربة تتكلل سفوح الجبال برداءٍ أخضر طازج. وترتدي أغصان التفاح والأجاص، ثوب العرس الأبيض الضارب إلى التورد.
عندما تراقب العالم مع بداية الربيع المبكر يتراءى لك نظيفاً مرحاً، فتياً بريئاً. وعندما تنظر إليه من قمة جبل مافة غيرس تبدو صورته مقنعة مرضية . فغابات البلوط والجوز والدلب والزعرور لا تنتهي. والثمار تفيض عن حاجة الإنسان، والحيوان، والطيور. السفوح التي تفتح أحضانها للجبال، ترعى فيها الخيول، وهي تتزاحم لتملأ بطونها من أنواع العشب الذي لن تجد له مثيلاً لحيوان مجتر. ينابيع لا عدد لها، أنهار وشلالات جبلية هادرة تكفي لإرواء نصف العالم، ولتنظيف قذارة النصف الآخر. وأرض تستطيع أن تنجب خيرات لتطعم الجميع بحيث لا يبقى جائع. وشمس توزع قوتها بالتساوي على كل حي يُحس ويتنفس.
يصل إلى سفح جبل مافه غيرس عدة طرق ضيقة ملتوية. ومع كل ربيع عندما يحين موسم تزاوج الأغنام، يتوافد الفلاحون القادمون من القرى المختلفة. بعضهم يأتي فرادى من أقاصي بقاع القبردي، وبعضهم يصل مع عائلاتهم على عربات، أو ممتطين مختلف أصناف الدواب. والغالبية العظمى البسيطة تصل بالوسيلة الوحيدة المتاحة لهم ... الأقدام.

مافه غيرس جبل مقدس، تغطي الأشجار أحد جانبيه بينما تغطي الأعشاب الجانب الآخر. هنا كان أجدادنا يغنون ويبتهلون طالبين من آلهتهم المفضلة النجاح والتوفيق.
كانت تماثيل الآلهة الخشبية الجافة تنتصب على أعمدة خشبية تصل إلى ارتفاع قامة رجل، وهي تستمع بصمت إلى تضرعات وصلاة المؤمنين بها، والحقيقة أنها كانت نادراً ما تنفذ رغباتهم، وإن استجابت كانت استجابتها في غير موضعها، وما كانت رحمتها لتحسن الأوضاع المعيشية للفقراء الذين كانوا يضحون لأربابهم بسخاء، ويقدمون جزءاً من قوت عائلاتهم إليها، معلقين جلود الحيوانات على الأشجار، وساكبين الماخسمة على الأرض آملين بأن يحظى فقير بفرصة قد تلاحظه فيها الآلهة.
ما كان يجدر إغضاب أي من الآلهة العديدة رغم استحالة إرضائهم جميعاً. وأي منها سوف ترضي لترضي. الإله الأكبر تحه، رب السماء العظيم. أم بسه تحه رب الحياة الذي يعتقد أنه أعظم الآلهة على الإطلاق، رغم أن الجميع كان يعلم حتى الرضع، أن غضب شبله بصواعقه ورعده كان يدفع الإله تحه الأكبر إلى الهروب والتواري. ولم يكن من الحكمة إغضاب الآلهة سوزيريش آلهة المواقد المنزلية والأمراض وتحه غلج إله الخصب. أو زيكوتحه حامي عابري السبيل والمقاتلين الذين يخرجون إلى الغزو. وهل يمكن تناسي أميرة الآلهة خاته غواشه ربة البساتين والحدائق أو بسه خوغواشه ربة الأنهار والمسيطرة على الأمطار، وحاول ويا للمصيبة أن لا ترضي آلهة الماشية اميشا أو رب الحيوانات الكبيرة آخين الذي أُطلق اسمه على البحر الأسود.
وأرباب متعددة أخرى لكن، واحد منها تمتع بمكانة خاصة... مزتحه، الذي يتنقل ممتطياً خنزيراً متوحشاً بشعر ذهبي. مزتحه الملتهب رب الغابات والصيد الذي يعتبر رب النساء العاقرات. وهو الوحيد الذي يستطيع مساعدتهن في مصيبتهن.

لقد شهد المكان في هذا الربيع تواجداً شحيحاً للمؤمنين، فالحضور أقل من المعتاد. الرجال المتقدمون في السن يذكرون كيف كان المتأخرون في الوصول إلى جبل مافه غيرس يضطرون إلى الاصطفاف والانتظار أياماً عديدة لكي يصلوا ويبتهلوا. أما الآن فالمنحدر لا يشهد زحاماً وهو يتسع للجميع.

توزعت ثلاثون بقعة اشتعلت فيها النيران. نشرت جلود الحيوانات على الأعمدة وأغصان الأشجار القريبة، بينما كانت الدماء تقطر من أحشاء الحيوانات وهي تسقي الأرض. دوت ألحان الموسيقا حادة غير مألوفة في البداية، وحلقت أنغام المزامير في السماء، بينما تسللت أصوات الأوتار بهدوء، وخشخشت القطع الخشبية بإيقاع راقص على شرف الإله تحه الكبير. اقترب زوجان بخطوات راقصة منتظمة من نصب الآلهة الخشبي وانحنيا إجلالاً ثم انسحبا جانباً تاركين المجال لثنائي راقصٍ آخر.

قامت بعض النساء بأداء رقصة الساندراك مؤكدن بذلك إيمانهن العميق وطاعتهن الصادقة للإله الكبير. استمر التدفق الموسيقي دون انقطاعات طويلة من الصباح حتى منتصف النهار. خلال هذا كانت الأصوات المختلفة ترتفع وهي تبتهل إلى الأرباب، بينما دخل قسم من النساء والرجال إلى الغابة لتعليق القرابين على الأشجار. سهام قديمة، حدوات جياد، سيوف مثلومة، ملابس باليه، وأدوات منزلية، فليس هناك شيء يُحجب عن الإله المحبوب مزتحه.

ارتفعت عقيرة أحدهم بأغنية قديمة سرعان ما شارك الجميع في أدائها:

أوو يا إله الغابة
مزتحه يا صاحب اللقب
يا تحه أيها الرب
منظر شاربيك رهيبٌ

مثل شعلات حمراء تتوهج
تنحني نحو الأرض
مثل أغصان شجرة بلوط أبدية
مثل عشبة خضراء ملتوية
خطواتك الثقيلة
ترتجف لها الجبال
تتصدع لها الصخور
سهامك سيقان الأشجار الضخمة القديمة
صلبة
رائحة دماء الأضاحي
تفوح على شرفك
شراب الآلهة
يا تحه... لك
سبعة عنزات ذبحنا
صوفها مثل الثلج
هدايا قيمة
من نساء عاقرات
يرجون الشفاء
وأنت تعلم أن ما سيحملن في أحشائهن
فرسان المستقبل.

عندما خرج أتباع مزتحه من الغابة، شاهدوا رجلاً يمتطي جواداً. كان يصيح غاضباً. من الواضح أنه لم يكن ينوي مشاركتهم الدعاء والرقص وتقديم الأضاحي. إذ كيف يستطيع هذا أن يخرق قدسية المكان ويقترب من مزتحه ممتطياً حصانه. لم يحدث هذا أبداً من قبل.
تملكت الحيرة جموع الحجاج، التفتوا إلى الفارس غير المُنتظر.

- ألا تخجلون من أنفسكم - صاح الرجل وهو يرفع جسده فوق ركاب حصانه - كيف تبجلون قطع خشبية؟ كم مرة قيل لكم إن الإله هو الله وأن محمداً رسول الله؟ الله وحده هو الحق. أم تريدون أن تتعفنوا بين أوثانكم؟ لماذا لا تتبعون الشعوب العظيمة؟ تركيا مثلاً ... أو لماذا لا تتبعون تلك البلاد التي تسير على الصراط المستقيم؟ ألا تعلمون أن حساباً عسيراً ينتظر الكافرين. إنكم يا عبدة الأوثان على طريق الضلالة وإن لم تهتدوا إلى طريق الحق في الوقت المناسب فإن النار سوف تستقبلكم بعد موتكم، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم.
تنفس الفارس ثم مسح شفتيه المزرقتين، استجمع قوة جديدة وعاد إلى خطابه:
- عليكم أن تنسوا آلهتكم المضحكة هذه التي لا تصلح حتى لأن تكون أبطالاً في قصص الأطفال.
تقدم مسن عجوز حفرت وجهه التجاعيد وحمل لحية بيضاء وقد ارتدى ثياباً رثة بالية.
- انتظر يا بني - قال العجوز بصوت متقطع ولكنه واضح - لا بد وأنك مسرع في طريقك وإلا لترجلت عن جوادك وأنت تتحدث إلى الناس.
- أنا لم أترجل حتى يشاهدني الجميع - قال الفارس بانفعال.
- حسناً.. حسناً - قال العجوز مهدئاً - نحن على كل حال نراك ونسمعك جيداً. و أريد أن أسألك يا من تجلس على الجواد، رجل لديه على المائدة الملح والخبز واللحم ثم أراد أن يضيف إلى مائدته طبقاً جديداً لم يكن معروفاً من قبل، ولكن من أطايب الطعام. هل يجب على الرجل أن يتخلى عن كل ما عنده من أجل الطبق الجديد؟ إننا لسنا ضد إلهك. ونحن مستعدون لأن نشركه....
- توقف ... لا كلمة أخرى - قاطعه الفارسُ بحدة - أنت تشبه الحق القهار بالطعام، بالزاد والجبن... يا الله كم صبرك عليهم

عظيم، ولكنك تعلم أن الهرطقة تأتي من أناس بسطاء يسبحون في الجهل.
بدأ التذمر الحانق يرتفع بين الجمهور مع أولى كلمات الفارس الخطيب الذي ظهر دون موعد. ولاحظ الجمهور كيف بدأ الغضب يسيطر على الفارس وهو يستمع إلى العجوز.
- أيها الناس اسمعوني... اسمي عادل غيري، درست علوم الدين في بلاد القرم, ورغم أنني نلت مرتبة النبالة إلا أنني لن أدخل دائرة الألقاب, فأنا تقريباً مُلا[١]. ولن يتذمر أي أمير من الجلوس معي خلف المائدة.. أنا أعقد في مجلس كورغوقه حاتاجوقه دروساً وأعظ نبلاءه ورجاله.
كان الفارس حسن الهندام يرتدي رداءاً شركسياً أسود اللون، وقبعة طويلة من اللباد مع حاشية من الفرو. حذاؤه من النوع الممتاز، رغم أنه بالي. أما الخنجر والسيف فكانا رائعين رغم بساطتهما. وجهه يوحي بأنه في الثلاثين من العمر. أنفه مستقيم صغير، حواجبه شقراء. وعيناه طيبتان رغم تعابير الغضب التي تنعكس عليهما وتسيئان إلى تلك الطيبة.
خرج من بين الجموع رجلٌ في متوسط العمر، قصير القامة عريض المنكبين، يحمل بين يديه أحشاء أضحية كان قد ذبحها للتو.
- غير أنني لا أفهم - تكلم الرجل بنغمة قوية - لماذا يجب علي طرد ضيوفي من منزلي إذا قدم علي ضيفٌ جديد؟
ارتفعت أصوات استحسان بين صفوف الجمهور.
- لا تخلط العادات والأديغه خابزه[٢] بالأمر- كان وجه عادل غيري قد تحول إلى اللون الأحمر - نعم، الله بجلاله يذهب إليه ضيفاً... كيف لم تبتلع لسانك قبل أن تتفوه بهذا أيها المارق؟

---

[١] - مُلا - لقب يطلق على رجل الدين في القفقاس.
[٢] -الأديغه خابزه – مجموعة العادات والتقاليد والقيم والقوانين الناظمة للحياة الشركسية.

- لم يدعني أحدٌ بالمارق من قبل - رد الرجل بتأثر - ثم إنني لا أعرف ما هو الخطأ الذي ارتكبته حتى وجهت إلي كلامك القاسي. حتى وإن كنت نبيلاً كما تدعي.
- أنت .. أنت - شهق عادل غيري - مع من تتكلم؟
- بالحسنى يا عادل غيري إنك تسيء التصرف - ارتفع صوت وسط الحشد، اقترب من الفارس فلاحٌ عجوز - كان من الأفضل أن تعبر عن ما تريد بالحسنى.
كان المتكلم يشعر بالخجل وكانت نظراته تائهة لا تريد الالتقاء بأية نظرات أخرى.
- أي... عمي. أنت هنا؟
لم يكن واضحاً شعور الفارس هل أسعده هذا اللقاء أم أزعجه.
- نعم وكذلك عمتك أيضاً.
- عادل غيري، يا صغيري الطيب - تجرأت إحدى النساء وتدخلت في حديث الرجال - إننا جميعاً سعداء لأنك أصبحت رجلاً هاماً، ولكن ألا يمكن أن تبقى طيباً كما كنت في السابق.
- حبالا - كانت نظرة الفارس عابسة وبدا وكأنه يفوق عمه عمراً
- هل نسيت حديثنا الأخير؟ وأنت يا عمتي اهدئي الآن، هل نسيت يا عمي كيف وافقتني .. اصمتي يا امرأة...
انتشر شعور بالامتعاض بين الجمهور.
- انظروا أي ابن عم نرى !
- ويدعي أنه أصبح نبيلاً !
- وعالماً !
- يا له من فظ ... اقسم بأوشحه قان !
- كان من الأفضل لو حدثتنا عن هذا الدين التركي !
- نعم وعن ذلك الكتاب !
- هل نطرده من هنا؟
- رجل يغضب بسهولة !
لزم حبالا الصمت تجنباً لأي جديد ولكن ابن أخيه استعر واهتاج بشكل حقيقي .

- أيها القبردينيون في أي عار تتمرغون وأنتم ترقصون أمام الأوثان، والنساء يكشفن صدورهن أمام تفاهات خشبية، أمام هذا الذي يسمى بسه تحه.
- أي أيها الناس اسمعوا كيف يشتم دون حياء - صاح الرجل الذي يحمل الأحشاء بين يديه - لقد سكب ماء جبينه على الطريق قبل أن يصل إلى هنا.. لا تقترب من بسه تحه.
- وهل أنا دون شرف وعديم الضمير؟ - صاح عادل غيري بحنق - أما أنت فشريف؟ انظر ماذا أنا فاعل ببسه تحه. وبعدها سوف أصل إليك يا من أرضعتك الكلاب.
في خطوة غير متوقعة أقدم عادل غيري على امتشاق حسامه، لكز حصانه مقترباً من العمود الذي توضع عليه الوثن الخشبي. وبعدة ضربات قوية على قاعدة التمثال تطاير الخشب فتاتاً. ترنح التمثال ثم وبضربة موفقة أخيرة انطرح الإله التعيس بسه تحه ليتدحرج على الأرض الجافة. تجمد الجمهور رهبة.
- هل رأيتم ما حل بالوثن - قال عادل غيري وهو يستعرض نفسه - وهذا هو مصير باقي الآلهة.
الرجل الذي كان يحمل الأحشاء كان أول من استعاد وعيه، قام بالتلويح ببقايا الذبيحة صافعاً بها وجه عادل غيري بصوت دوى تاركاً عليه آثار القذارة المتجمعة في أحشاء تلك الذبيحة. وانهالت بعدها الكؤوس والأواني على عادل غيري. قام أحدهم بقذفه بأحشاء ماعز التف على عنق الجواد الذي شب على قائمتيه رعباً وانطلق إلى داخل الغابة لا يلوي على شيء.
اختفى عادل غيري ويبدو أنه آثر أن لا يعود إلى الجمع مرة أخرى.
لم يعد الفلاحون إلى رشدهم سريعاً، وبدا أن الاحتفال قد أُفسد. أصابهم الإحباط، ولم يعد أحدهم يدرك هل عليه الانصراف أم البقاء. هل يصلون ما انقطع من الرقص والموسيقا.

- لم أعتقد أنني سأعيش لأرى مثل هذا الحدث الشنيع - قال العجوز الذي تحدث مع عادل غيري أول مرة - لماذا لم يصبه البرق ويجمده في مكانه ... آ ...؟
بالكاد استطاع أحد الشباب أن يخفي تهكمه.
- ولكن قذارة المعي والأحشاء جمدته في مكانه.
التفت الرجال الغاضبون إلى الشاب المرح الذي سارع إلى الاختفاء خلف أترابه. كان الجميع يشعر بثقل الحدث.
- لقد وصمنا بالعار يا للمصيبة !
- لا تزعج نفسك يا حبالا.
- ولكن قد يكون في هذا الدين الجديد حقيقة ما؟
- يجب أن يجف لسانك قبل أن تنطق. سوف تجعلني أشعر بالأسف عليك.
- وأنا أستغرب كيف لم تجحظ عيناك أسفاً.
- اييييه... أنت... لا تبدأ الشجار، فمن دون ذلك هناك ما يجب التفكير به.
- وبأي شيء تريدنا أن نفكر؟ هل نلعب ونستمع إلى الموسيقى، بينما بسه تحه يبكي؟
- ايه... نعم... حبالا، رغم أنه ابن عمك !
- وهل نسيتم أمر بقرة آخين؟ فلننتظر ظهور حسناءنا السوداء.
- آه يا لهذا الغريب.
- فلننتظر قدوم..
- انتظروا، انتظروا... فقريباً سوف يكون في كل بيت قبرديني مثل هذا الغريب وعندها سيدفع بسه تحه الثمن.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

انطلق عادل غيري وهو لا يميز ما يرى أمامه من فرط انفعاله وشعوره بالذل حتى البكاء. تغلغل في الغابة تاركاً لجام جواده. كانت الأغصان تضرب وجهه بينما ثبت قبعته على رأسه

بإحدى يديه وبالأخرى غطى عينيه وكأنه يخفي شواهد إهانته. كان المسكين يرزح تحت ألم ثقيل. دنس شفتيه بوابل من الشتائم التتارية التي لم يجد لها في قاموس اللغة القبردينية مثيلاً يناسبها قوة.
الحقيقة أن عادل غيري كان رجلاً سريع الصفح رغم كونه سريع الاحتدام والغضب. وكان بشكل عام أقرب إلى المرح منه إلى العبوس. ورويداً رويداً كانت نفسه تصفو. أما حصانه الذي يبدو أنه أحس بتغير مزاج فارسه فقد خفف من اندفاعه، وراح يخبو، ثم تحول إلى الخطوات العادية.
ترجل عادل غيري عن صهوة جواده قرب النهر ليغمس صدره في الماء مباشرة. أدخل رأسه داخل المياه عدة مرات ثم التقط قبعته التي كادت أن تغرق، نهض ونفض القبعة ثم وضعها على صخرة تحت الشمس.
في تلك اللحظة لمح شخصين على الشاطئ إلى الأعلى قليلاً، كان أحدهما أصغر سناً منه، أما الثاني فكان صبياً بدأ الزغب للتو ينمو على شفتيه. لكن عندما نهض الفتى كان الإثنان متساويين في الطول، بل وتكوين جسديهما كان متشابهاً.
لا يمكن تجاهل قوامهما الرشيق ومنكبيهما العريضين. كان وجه الكبير مصفراً لوحته الشمس قليلاً. امتد عليه قوسان أسودان لحاجبين فوق عينين صافيتين رماديتين. وأطراف شاربين كثيفين انزلقا فوق فم ممتلىء. أما الرجل الفتى وهذا أفضل وصف له إذ لا يجب أن يؤخذ عمره بالحسبان. ففي وجهه نعومة عروس، وتورد على خديه، وفي عينيه اللتين تشبهان ثمرتين ناضجتين حبٌ للاستطلاع، وفضول طفولي يلتهب اندفاعاً لإكتشاف كل ما حوله من محيط. وهكذا استطاع الفتى بفضوله هذا أن يلاحظ تصرفات عادل غيري الغريبة. اضطرب شيخ المستقبل ونسي أن عليه أن يبدأ بالسلام. غير أن أكبر الرجلين لم يكن مؤدباً فقط بل ومنظماً إذ نهض وانحنى قليلاً مشيراً بحركة من يده بالترحاب.

- السلام عليك أيها المسافر.
" آخ لو كان عندي مثل صوته - أمنية راودت فكر عادل غيري بهدوء - إن بحة الدب هذه قادرة على إقناع أي حشد "
- وعليكم السلام أيها الطيبون.
اقترب عادل غيري أكثرعلى حين نهض الفتى وأخذ لجام الجواد من يده ليقتاد الدابة إلى الشجرة.
- خذ راحتك، اجلس - تكلم الغريب - أرجو أن لا ترفض مشاركتنا مائدتنا المتواضعة.
كانت هناك أقراص من الجبن المدخن وقطع من الباستا[1] وبضعة قطع من الحلوى في صحن نحاسي. كما كان هناك العسل والعصيدة. وعلى وتد خشبي عريض كانت هناك دجاجة مسلوقة مع الكثيرمن الثوم في علبٍ كبيرة.
- اللهم هب كل عابر طريق أن يجلس خلف مثل هذه المائدة المتواضعة.
أجاب عادل غيري الجائع بكياسة وجلس على الأرض قرب المائدة. جلس صاحب الدعوة أيضا بينما قام الفتى بتقسيم الدجاجة وقدم أفضل قطعها إلى الضيف ... الصدر والفخدين.
تناول غيري قطعة باستا وقال:
- اسمع يا فتى...
- اسمه باتي - أجاب الغريب - وانأ أدعى بوليت.
حسناً يا بوليت المحترم فليجلس باتي أيضاً، إننا هنا في غابة ولسنا في مضافة، إنها محطة استراحة.
- اجلس باتي - قال بوليت - إن ضيفنا آ آ...
- عادل غيري.
- نعم إن ضيفنا المحترم عادل غيري قد تكلم بالحق، لا يجب عليك هنا حمل أصناف الطعام والقيام بواجبات مليء أقداح الماخسمة. فالطريق هو الطريق وله حقه .

[1] - نوع من المأكولات الشركسية الشعبية.

جلس باتي أمام بولات وبتواضع تناول عنق الدجاجة.
- إنه لمن المفرح حقاً أن تلتقي في طريقك أناساً على دينك، مسلمين حقيقيين - هكذا ابتدأ عادل غيري حديثه - إذ أن سلامك لي يا بولات هو سلام الإسلام.
- إنها عادة على الأرجح - ابتسم بولات - إذ أنني وصاحبي باتي أقمنا سنوات عديدةٍ في القرم.
- أووو...
أصاب الفضول عادل غيري، أعاد اللقمة التي كاد أن يضعها في فمه.
- كم أرغب بالذهاب إلى هناك والعيش في تلك البلاد.
- الأمر لا يستحق ذلك - أجاب بولات.
- لا يستحق ! - تعجب عادل غيري - أن تحيا بين المؤمنين حيث لا ترى حولك وثنياً واحداً، ألا يستحق هذا؟ بلى من أجل هذا فقط يمكن أن تعيش هناك.
- لا تعتقد يا ابن بلدي الطيب أن تتار القرم رغم كونهم من المسلمين جميعاً، لا يقومون إلا بالصلاة والدعاء إلى الله تعالى وترديد الأحاديث الشريفة وعمل المعروف. إنهم من البشر كما نحن. الكثيرين أفسدته الزعامات والمشايخ.. نعم .. نعم ... المشايخ صدق هذا، فالعديد منهم يعمل على تكديس أموال العباد في جيبه. وهم ينهبون خيرات الشعوب الأخرى. كم سرقوا من الأديغه؟ كم رجلاً وامرأة يعيشون في القرم، وفي تركيا من الأديغه فاقدين حريتهم.
- ولكن رغم ذلك فهم يحملون مشعل الإسلام في بلادنا. وعندما يعتنق الجميع الإسلام سوف تتغير الأمور نحو الأفضل - بدأ الحماس يدب في عادل غيري- كيف يمكن أن تتحمل ونصف الناس الطيبين يجادلونك من خارج حدود الإيمان.
- ليس من السهل على الإنسان أن يرمي تقاليده وعاداته.

- إذن يجب أن نجبره على رميها - وضرب بيده على ركبته حتى آلمها وهو يكرر- يجب أن نجبره، يجب أن نجبره.
- لا، لا يجب ذلك إن القرآن الكريم ينهانا عن ذلك.
- ماذا؟ ينهانا؟- سأل عادل غيري وقد ضاع صوته - طبعاً أنا لم أصل إلى درجة رفيعة من العلم وقد لا أقرأ الكتاب الحكيم بنفسي، لكنني أعلم الكثير مما هو موجودٌ فيه، لقد تعلمت على يدي ثلاثة أئمة من علماء التتار بل إن أحدهم أقام خلال الشتاء في داري، وكنت أتلقى الدروس على يديه يومياً.
- لا أريد أن أبدو بحراً في العلوم - قال بولات - أعتقد أيها الصديق المتعلم أن العديد من المدعين يسيئون إلى الدين. أنا لست حاجاً، لكنني قرأت تفاسير القرآن الكريم بتعمق. صحيح أنني لم أقرأها بالأصل العربي بل باللغة التركية. وأنا أذكر جيداً من خلال مطالعاتي الآيات الكريمة التي تتحدث في هذا السياق.[1] وهذا ما جاء في الآية المائة من السورة العاشرة. لقد حفظت هذا الرقم بسهولة. إنه مستقيم وحاد كالسهم.
- لم يجب عادل غيري.
- أستطيع أن أحدثك عن شيء آخر من القرآن الكريم - أضاف بولات بنغمة مؤثرة - يقول الله تعالى " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها... " هل هذا صحيح يا باتي؟ - التفت فجأة إلى الفتى متسائلاً.
احمر وجه الفتى وهو يهز رأسه بالموافقة. حدق عادل غيري بالفتى حائراً بينما أردف بولات قائلاً للفتى وهو يتصنع عدم ملاحظته للحيرة التي اعتلت عادل غيري.
- إن حصاننا العجوز لا بد وأنه عطش، اذهب به ودعه يرتوي.
عندما ابتعد باتي، شرح بولات الأمر...

---

[1] - سمحنا لأنفسنا بأن نحذف الإستشهاد القرآني لعدم تطابق النص مع أرقام السورة والنص. الترجمة

- لقد درس الفتى في المدارس التركية وهو يحفظ القرآن عن ظهر قلب.
- أ، يا إلهي ! - شهق عادل غيري بحماس وحسد - ولكن رغم ذلك يا بولات، لا أستطيع أن أفهم شيئاً واحداً، كيف تستطيع و أنت المتعلم ذو الأصل النبيل، كما ألاحظ ذلك من لباسك وسلاحك أن تدافع عن الوثنيين.
- أنا أدافع عن أولئك الذين يأكلون ويلبسون بعرق جبينهم، ويطعمون حشداً من المتطفلين الذين يدعون الأصالة النبيلة.
- انتظر، رويدك - اهتزت لحية عادل غيري قليلاً من الحنق - أو تسمي أولئك السادة بالمتطفلين.
- نعم إنني أدعوهم كذلك، إنهم كالزبد في القدر الذي يغلي، ولكن لا يجب أن تحتد أستطيع أن أناقشك بهدوء.
ازداد عادل غيري انفعالاً.
- إن كلماتك هذه لن تعجب أميري.
- وأي أمير هو؟
- حاتاجوقه كورغوقه.
- آه آ آ...
فكر بولات طويلاً وكأنه يهيئ نفسه لخطوة حاسمة ثم قال بهدوء:
- حسناً سوف أهمس بكلمة تعجب أميرك. إن ابن كورغوقه لم يغرق قبل سبع سنين في تيريتش إنه حي، وبصحة جيدة.
قفز عادل غيري على قدميه وكان واضحاً من تعابير وجهه أنه يريد التفاصيل بشغف. وأن لديه عشرات الأسئلة التي بدأت تتوالد وتكاد أن تقفز من لسانه. لكن بولات أشار بيده محذراً.
- لا كلمة أخرى - قالها بحزم ثم أضاف - لم يحن الوقت بعد.
نهض بولات مشيراً إلى باتي الذي اختفى بسرعة في الغابة ليعلو صهيل جوادٍ رد عليه جواد عادل غيري بصهيل.
ظهر باتي من جديد وهو يقود حصاناً رائعاً أشقر اللون بذيل أسود وعفرة سوداء وخط أسود على ظهره. نظر عادل غيري

إلى الحصان الأصيل بتمعن، راحت أنفاسه تتلاحق بتسارع على حين علا صوت ضجيج قادم من البعيد، كانت الأصوات تأتي من الطريق المحاذي لطرف الغابة. علت صرخات ثم سمع صوت غناء.
نظف باتي المكان، سرج الحصان وخرج الثلاثة إلى الطريق. كان هناك حشدٌ من الناس قادمٌ من الاتجاه المعاكس، كان الفرح يغمره وهو يقود بقرة سوداء لا علامة عليها، ولا أية بقعة على جلدها.
- تفضلوا وانظروا من فضلكم - تبسم عادل غيري بتهكم - هذه تسمى بقرة آخين، وهم يقودنها الى مافه غيرس.
ظهرت على وجه بولات ابتسامة طيبة.
- إن هذه المسكينة آتية من جهة البحر.
- أي بحر - أجاب عادل غيري وهو يحرك ذراعيه - أنا واثق أنهم يستبدلونها في كل قرية ثم يدعون أن آخين بعث بها. وأنها مشت الدرب كله دون توقف. وهناك في مافه غيرس سوف يقدمون لها التحية ثم إلى الذبح وإلى الطعام، تفو...
لم يكن هناك شعور ديني يدفع حشد الرجال والنساء والأطفال الذين لحقوا بالبقرة، بل كان هناك فرحٌ احتفالي. كان بعض الموسيقيين يعزفون الألحان التي قاموا بتأليفها بأنفسهم. وضجت بعض الطبول الصغيرة، فجاءت الألحان رائعة راقصة، بينما كان الكثير من أتباع آخين يرقصون وهم يرددون بحماس.
- سيري، سيري يا جميلتنا الناعمة.
- سيري يا عزيزتي.
- لم يتبق إلا القليل.
- أي...افسحوا الطريق للبقرة المقدسة.
كان هناك خضوع واستسلام في عيني البقرة الواسعتين الجميلتين. كانت تحرك أردافها وهي تتقدم إلى الأمام بسلام وبخطوات عملية.

- اييبه سوف أريهم الآن - قال عادل غيري بحنق وهو يستعد لجولة جديدة، يدفعه الواجب الطوعي لنصرة دينه.
- انتظر قليلاً يا متعلم - قال بولات - استمع إلى آية أخرى من القرآن ...
- لقد انتظرت طويلاً.
ضغط بولات على كتف باتي.
- كما تعلم لقد آن الأوان لنستمر في الطريق، لا يجب أن أصبح شاهداً على أمور غريبة.

* *

سار جانبولات وقوباتي على طريق الغابة ساحبين خلفهم الفرس الشقراء الجميلة من لجامها.
- هكذا يا أخي - قال جانبولات - لقد عدنا إلى الوطن، فإلى أين نمضي، حتى الآن لا أدري، إننا نحتاج الآن إلى ثلاثة أشياء. إلى مأوى مؤقت. وحصان جيد لك مع كامل عدته، وأخيراً وهذه أصعبها، إلى وسيط راجح العقل يتوسط بيني وبين أمير القبردي الكبير، أي بيني وبين والدك. ثم إن هذا العادل غيري يبدو أنه نسي ما قلته له عن ابن كورغوقه. إنه مهووس... كان يكفيه أن يرى أولئك الناس مع البقرة حتى ليعتقد نفسه نبياً. من الخطورة أن تتخذ مثل هؤلاء الأشخاص كوسطاء ولكن عندما سيضربونه وهذا على الأرجح ما سوف يتم، سيبقى وحيداً ويهدأ. عندها سوف يذكر حديثنا بالتأكيد، وإذا قام بتحليل ما رآه جيداً، سوف يدرك أن باتي هو الفتى الغريق أما بولات فمن الصعب جداً أن يفكر بأنه رأى جانبولات توزاروقه الذي لم يقابله يوماً.
- ما اسم هذا المكان الذي نتواجد فيه الآن؟
سأل الفتى الذي كان مشتتا ومتحمساً.
" لن يعود الفتى إلى نفسه أبداً فهو ساهم منذ أن وطأت قدماه تلالنا الفسيحة ". هكذا فكر جانبولات . و بصوت جهوري قال:

- المنطقة بين نهري شيقم وبقسان تسمى مافه غيرس هل يعجبك المكان هنا؟
- إنه أفضل من القرم بمائة مرة.
كانت عيناه تلمعان من فرط التأثر.
- والغابة غابة حقيقية أما الصيد فأي صيد...
قال جانبولات متوقفاً غامزاً بعينه ومشيراً للشاب إلى أسفل أقدام الجياد، حيث كانت آثار مخالب دب واضحة على الأرض الرخوة.
- هل رأيت هذا؟
- أوو.. دب - تنفس قوباتي بعمق.
كان طريق الغابة يتلوى بين أشجار الدلب الهرمة، و يتجه نحو الأعلى صعوداً حيث توجت الصخور الغرانيتية الصفراء المنحدر. من الواضح أن معوج الساقين المتجول كان قد قطع هذا المنحدر بخط مستقيم من الأسفل إلى الأعلى، وأنه عبر الطريق منذ فترة وجيزة. وها هو الحصان يضطرب فجأة ويصهل معانداً.
- بولات هل أستطيع أن أتفرج؟
نظر قوباتي الى مربيه بتضرع. بالكاد استطاع توزاروقه أن يلجم ضحكته التي كان يمكن أن يُفهم منها أن الفتى ما زال صبياً بعد. فلقد توسعت حدقتا الفتى كما لو كان قطاً أحس بوجود فأر. أما شفتاه فقد انفرجتا عن رجاء يقول كيف يمكن أن لا تسمح؟
- حسناً اسرع - قال جانبولات - ولكن فقط للفرجة وليس أكثر، هذا إذا لم يكن الدب قد ابتعد عن تلك الصخور. هل فهمت؟ ولا تتسلل بين الصخور وإنما انتظرني هناك.
ومثل كلب صيد أُطلق من عقاله، انطلق قوباتي إلى أعلى المنحدر الصخري متتبعاً آثار الدب.
امتطى جانبولات جواده الذي هدأ سريعاً عندما أحس بالثقل الذي اعتاد عليه، وخبا بخطوات قصيرة سريعة على الممر المتعرج. لكن قبل أن يصل إلى حوض الصخور سمع جانبولات صوت

صراخ امرأة وثغاء عنزة، ومن ثم صوت وحش مرعب. كان ربيبه قد اختفى عن الأنظار.
قطع جانبولات المسافة المتبقية إلى الصخور بلحظات، وهو يشعر بالهلع، وهناك وعلى منبسط صغير في الطرف الآخر إنكشفت الصورة.
رأى إمرأة تقبض بصعوبة على حبلٍ شد إليه عنزة، وعلى بعد منهما كان الدب المزمجر، وكان قوباتي يضحك..
وضع توزاروقه يده على مقبض سيفه، لكنه سرعان ما أدرك أنه لا حاجة للسلاح، فإذا كان هناك من يحتاج إلى النجدة فإنه ليس قوباتي بالتأكيد، وإنما هو سيد الغابة... الدب.
كان قوباتي قد تعلق برقبة الدب القصيرة وراح يعبث بأصابعه بوبره الكثيف. بينما كان الوحش قد انتصب على قائمتيه وهو يصيح، كاد أن ينكفئ على وجهه بعد أن فقد توازنه. كان المسكين يزمجر غاضباً مرسلاً بين الفينة والفينة زعيقاً مرعباً.
لم يتمكن جانبولات من كتمان ضحكته التي أطلقها بكل جوارحه بعد أن أدرك ما يريده ربيبه. كان من الصعب أن يجد تسلية أفضل لهذا الفتى القوي، ولكن آن أوان الإنتهاء من اللعب. ثم أن المرأة كانت تصيح وتؤكد أنها لم تعد تحتمل عنزتها الملعونة أكثر وهي تطالب إما بقتل الدب بسرعة أو إطلاقه ليذهب بسلام.
- باتيا - صاح توزاروقه - كفى استهزاءاً بالحيوان المسكين، دعه في سلام.
ترك الفتى الوحش بعد أن ركله على مؤخرته. وما أن استقر الدب على أربعته حتى ولى الأدبار غير ملتفت ولا يلوي على شيء. دخل المدخل عنوة واختفى..
هدأت العنزة المرتعبة مباشرة وشملت جميع المتواجدين بنظرة متغطرسة وكأن شيئاً لم يكن وعادت إلى قضم العشب.
اقترب قوباتي من جانبولات وعيناه تلمعان سعادةً.

- مسرور؟ هل استطعت أن تعارك دباً نحيفاً نصف ميت؟ لقد كاد الدب أن يهلك وهو لم يستجمع قواه بعد رقاده الشتوي. من المعيب أن تغضب من هو أضعف منك.
احمر قوباتي، فهو لم يكن يعلم هل يمازحه مربيه أم انه جادٌ في حديثه. لقد كان من غير الممكن في مثل هذه الحالات التمييز بين المديح والتأنيب، وكان مربيه يتركه دائماً في حيرة من أمره.
فجأة صاحت المرأة، حتى أن جانبولات ارتعد.
- أليس هذا جانبولات؟
الآن فقط راح جانبولات يمعن النظر في المرأة التي تعرف عليها في الحال.
- نالجان؟ اوي ... طبعاً نالجان .
قفز من صهوة جواده واقترب منها. كانت نالجان من عمر جانبولات، وهي تعرف سيدها منذ عهد الطفولة حيث كانا يذهبان معاً للعب قرب تيرك. ارتمت نالجان عليه وعانقته وهي تبكي.
- لم أكن أحلم أن أراك ثانية في يومٍ من الأيام.
أخذها جانبولات من كتفيها. كان لها كتفان عريضتان لا تنتميان إلى الأنوثة. تجنب صدرها البارز بحياء، نظر إلى وجهها طويلاً. إلى جمالها الفظ الذي يبعد عنها الرجال أكثر مما يجذبهم. كانت أطول من جانبولات بنصف رأس وهي من عائلة نبيلة من نبلاء الدرجة الثالثة. لا أحد يعلم من تشبه، فلا أحد من أجدادها تميز بالقوة. وكأنهم وخلال الأجيال المتلاحقة كانوا يدخرون القوة ليودعوها في أحد الأبناء، وهذا الابن تبين أنها نالجان. رأى جانبولات في عينيها الكبيرتين الغامقتين قوةً وذكاءً، وكانتا تظهران طيبة لا متناهية وربما كانتا تعبران عن مشاعر أقوى وأعمق. وكانت هذه العيون تعطي انطباعاً بأنهما يمكن أن تتحولا إلى عينين مرعبتين، خاصة وأن حاجبان فاحمان يحلقان فوقهما. عند ابتسامتها تنفرج شفتاها القرمزيتان عن صفين من الأسنان البيضاء المنتظمة.

- انت لم تتغيري تقريباً يا نالجان - قال جانبولات - فقط أصبحت أجمل ومن الغريب أنك لم تقابلي الرجل الذي يستحقك حتى الآن.
كان توزاروقه قد لاحظ غطاء رأسها الذي ترتديه على طريقة الفتيات، تصنعت نالجان الإرتباك وقالت:
- أنت تنعم عليَّ باللطف يا سيدي الفتي، لكنني فتاة صعبة الإرضاء. كنت أحلم دائماً بالزواج من رجلٍ يشبهك ولكن لم يتقدم إلي أحد. ومع الوقت فقدت كل الفرص الأخرى، ويبدو أنني سوف أبقى عانساً طوال عمري في بيت أخي الأرمل.
- وأين يعيش أخوك؟
- هنا في شيقم في مزرعة والدنا الصغيرة. أنت تعلم أن أختي الكبرى كانت متزوجة من أحد نبلاء والدك. والداي توفيا باكراً وأختي أخذتني إليها لتربيني ضمن عائلتها ألا تذكر؟
- أذكرها قليلاً.
- إذاً يجب أن تذكر أن ابنتيها تزوجتا وأنها توفيت قبل تلك الحوادث المرعبة عندما والدك - سكتت نالجان -
- أذكر - أجاب جانبولات باختصار - وما مصير زوج أختك؟
- لقد قتل في ذلك اليوم مع المدافعين عن بيت توزاروقه، يا إلهي فلتسقط سبعة رعود وسبعة صواعق على رأس الأمير عليغوكه
- التمعت عينا نالجان حقداً واصفر خداها بعد تورد -
- إنه هو ابن الحية والثعلب، المسؤول عن كل ذلك. فلتذهب ذريته إلى ..
- انتظري يا نالجان الطيبة - قاطعها جانبولات برقة - سوف نتكلم عن هذا لاحقاً في وقت مناسب. أنا وربيبي عائدان للتو من رحلة طويلة وحتى نجد...
- لا كلمة، لا كلمة أخرى يا سيدي المبجل وإلا سوف يبدو الأمر وكأنني لم أبادر إلى دعوتك والتشرف بتواجدك في مضافة أخي، ولعدم فطنتي وإدراكي هذا، سوف يقطع أخي رأسي الغبي، وسوف يكون محقاً في فعلته. فلنذهب إليه بسرعة.

شدت نالجان الحبل حول قرني العنزة التي انطرحت أرضاً وراحت تصيح باستغاثة.
- من هنا عند الممر الضيق إلى الأسفل باتجاه النهر، يقع كوخنا المتواضع، إنه قريب جداً يبدو أن الله سوف يعاقبني على طول لساني وقصر تفكيري، ولكن عقاب أخي سوف يكون أشد.
في محاولة للجم ضحكته أعطى جانبولات اللجام إلى قوباتي الذي كان يستمع إلى حديث الأصدقاء القدامى بابتسامة طبعها على وجهه طوال الوقت.
كان المنحدر الجنوبي للهضبة التي تعلو جانب شاطئ تشيقم الأيسر أشد انحداراً من الجانب الشمالي، والغابة من تلك الجهة أكثف وأكثر تنوعاً. فإذا كانت أشجار الدلب العملاقة ترتفع على الجانب الظليل، فعلى الجانب المشمس كانت وفرة من الزعرور والأجاص البري، والورد البري الشائك، وقد أزهرت جميعها وطرحت عطرها.
كل زهرة، وكل ورقة خضراء تشع كوضوح الربيع بعد منتصف النهار. وعند إحدى المنعطفات، ظهر النهر صاخباً هائجاً، وعلا صوت التيار وهو يرتطم بالصخور الملاصقة العملاقة. وانحدر الطريق متجهاً إلى الماء مباشرة، ثم عاد إلى الإرتقاء إلى الأعلى من جديد.
في النهاية وصل المسافرون إلى هضبة منحدرة كثر العشب فيها، ونمت الشجيرات الصغيرة.
على مسافة ليست بالبعيدة ظهرت بيوت مزرعة. وإلى البعد قليلاً شوهدت قرية صغيرة. لكن أكثر ما جذب انتباههم، هو أولئك الفرسان الذين كانوا يتسلقون المنحدر إلى الأعلى حيث كان الشاطئان يكادان يلتقيان، حتى أنك تستطيع أن تقذف حجراً من شاطئ إلى آخر. كان واضحاً أن أكثر من نصف الفرسان من التتار أما أولئك الذين يتبعونهم فلقد كانوا بغالبيتهم من القبردي وعلى ما يبدو كانت بينهم شخصيات هامة.

امتطى أحد التتار صهوة جواد عربي أبيض وقد انتفخ من جراء معرفته لمقامه النبيل، كان يرتدي ملابس فاخرة، ومن خلفه تبعه فارس في رداء شركسي بنفسجي وقد ظهر على وجهه وحتى رقبته أثر جرح رفيع.

تجمد جانبولات للحظات وتوتر حتى بدا وكأنه يريد الإنقضاض.

- هل تريد أن تعرف من هم؟ - سألت نالجان بهمس -

- أعرف من هم - قالها جانبولات من بين أسنانه - عليغوت باشا ممثل خان القرم والأمير شوجنوقه الأجرب المتوحش. ولكن إلى أين يمضون؟ ولماذا..؟

- إنهم ليسوا للمرة الأولى هنا، إنهم ذاهبون إلى الصيد.

- آه هكذا إذن.

اختفت الكوكبة خلف المنعطف.

- لن أعيق ضيوفي الأعزاء وإلا فإن أخي على الأرجح سوف يبحث عني كما يبحث عن العنزة اللعينة. آه ماذا أقول ! إنها ليست لعينة أبداً إنها مباركة إذ لولا عنزتي اللطيفة لما التقيت بكم.

قطع المسافرون البقعة الخضراء حيث كان يمكن لحصان توزاروقه أن يتوقف بسعادة. اقتربوا من سور المزرعة الصغيرة.

الخبر الثامن

بماذا تختلف ماشية المسلم عن ماشية المسيحي؟

كان المنزل مبنياً على قواعد حجرية عالية، بحيث جاء تصميمه أقرب إلى تصاميم البيوت البلقرية القريبة من الضيعة. أعمدة طويلة من خشب الصنوبر، توضعت إلى جانب بعضها البعض وفرشت بغطاء من الحشائش شكلت السقف الذي استند إلى عمود ضخم من خشب البلوط. أما الجدران فقد بنيت من ألواح مضاعفة من خشب الجوز الذي طلي بالطين. طبعاً كانت هناك حظيرة مكشوفة في الفناء للماشية. ولكن، ما هذا البناء الصغير المبني من الحجر، الذي يقع في عمق البستان مطلاً على المنحدر الصخري؟ لم يتمكن جانبولات من تحديده فوراً. ولكن عندما حدق النظر إلى الدخان الأبيض المتصاعد من المدخنة الطويلة التي علت المبنى أدرك أنها ورشة للحدادة.

خرج من الورشة رجل طويل القامة نحيل، يقارب الخامسة والأربعين من العمر. مشى الرجل من غير استعجال باتجاه المنزل.

كانت كل حركة من حركاته توحي بالثقة وكأنه لا يريد أن يهدر قوته. كان يحمل لحية قصيرة سوداء تناثرت فيها بعض الشعيرات البيضاء، تحت شاربين خشنين وعيون داكنة رمادية، فوقهما حاجبان مقوسان لونا الوجه الأسمر للرجل بشيء من الحزن .. ألقى الرجل نظرة خاطفة على الرحالة، لكنها كانت نظرة منتبهة جداً بحيث ظهرت تقطيبة حادة بين حاجبيه ولمعت عيناه، ثم أخذ وجهه تعبيراً ترحيبياً هادئاً.

- أخي - بابتسامة سعيدة هتفت نالجان - لقد أحضرت معي ضيوفاً.

- حسناً فعلت يا أختي.

تكلم صاحب المنزل بصوتٍ هادئ ملتفتاً إلى جانبولات باحترامٍ كامل، مرحباً به.
- إن بيتي المتواضع تحت تصرف الضيوف. تفضلوا إلى المضافة فلا بد أن تستريحوا من عناء الطريق.
أخذت نالجان لجام جواد جانبولات واقتادته إلى الحظيرة، حيث تفوح رائحة العشب الطري. تبعها قوباتي ليحرر الجياد من ثقل ماتحمل.
- سانا.! - نادى الرجل بصوت جهوري - تعالي إلى هنا يا ابنتي.
من الباب الأيسر للمنزل خرجت صبية وهي تركض، كان لها عيون والدها. عندما اصطدمت بالضيوف توقفت بارتباك. فهي لم تتوقع تواجدهم. لكن الإنحناءة التي حيت بها هؤلاء الضيوف جاءت طبيعية دون أي تكلفٍ زائد.
- اذهبي ونادي على كوانتشه، ليترك كل شيء من يده وليسارع إلي فوراً - قال صاحب الدار - إنه هناك عند الغابة. لقد أحرق من الفحم ما يكفي حتى الصقيع القادم.
كانت غرفة الضيوف نظيفة ومريحة. فالأرضية الخشبية مغطاة بحصيرة ضفرت من أعواد القصب الدقيق. أما الموقد فقد بني من ألواح حجرية جميلة. وما عدا ذلك كانت غرفة الضيوف مثل أية مضافة أخرى. سرير مفروش باللباد. على الجدران تدلت بضعة سجادات. وقرب الموقد كانت هناك أكواب فخارية وصحون وقدر نحاسي مع إناء لغسل الأيدى. لكن أكثر ما أثار إعجاب قوباتي هي تلك الأسلحة. السيوف والخناجر التي زينت الجدران.
- الفارس الفتى يحل ضيفاً على حداد يصنع الأسلحة - قال صاحب المنزل مبتسماً - وهذا الحداد يدعى يموز. وإذا لم تعجبك صفة المضيف فيمكن أن تحل ضيفاً على نبيل من نبلاء الدرجة الثالثة من عائلة شوماخوه.

- حداد صانع أسلحة من الدرجة الأولى أقدر عندي من نبيل من الدرجة الأولى - أجاب جانبولات بهدوء وهو يخلع حزام سيفه ليعلقه على العمود الكبير.
رفع يموز حاجبيه وانحنى برأسه قليلاً ليرى الضيوف بشكل أفضل.
- حتى الآن لم أسمع أحداً ممن ينتعلون الأحذية الطويلة يرد بجوابك.
- هذا جواب علمني إياه والدي توزار قارالبي. وهو الذي علمني أن لا أفرق بين الناس. أختك تعرفه جيداً.
أصلح يموز وضعية قبعته بحركة بطيئة، سكت قليلاً ثم قال:
- لنجلس يا بن توزار، هنا قرب الموقد، سوف يحضرون الماء للأغتسال، ولتنفضوا عنكم غبار الطريق، ثم لا بد أن يطعمونا مما يتيسر.
لأول مرة منذ مدة طويلة، بل طويلة جداً يطغى على جانبولات إحساس بالطمأنينة يدخل السرور إلى قلبه. ولأول مرة يرغب بالاسترخاء وبأن ينسى كل شيء يكربه ويزعجه.
دخلت نالجان إلى الغرفة مع إبريق من الماء. وإلى أن غسل توزار يديه كانت نالجان قد رمقت أخاها بنظرة غريبة. عبس الأخير وتصنع عدم الفهم.
على الأثر دخلت سانا الجميلة الصغيرة وقد انتعلت قبقاباً احتراماً للضيوف، غضت من طرفها مسدلة رموشها الطويلة، وبانحناءة صامتة وضعت على المائدة ذات الثلاثة قوائم صحناً من الفطائر، مع بضعة كؤوس من شراب العسل.
- هذه ابنتي سانا - قال يموز لجانبولات ثم التفت إلى الفتاة آمراً.
- يمكنك الآن أن تذهبي.
كان صوته صارماً. ولكن لم يكن من الصعب أن تدرك أن هذه الصرامة إنما كانت مصطنعة . وهي لم تأخذ لها مكاناً في عيني الوالد. انحنت الفتاة مرة أخرى ودون أن تستدير تراجعت إلى الوراء متقهقرة حتى خرجت من باب المضافة.

- أختاه - صاح السيد وهو ينادي نالجان - ابنتي بالقبقاب، إنه بالطبع من تدبيرك، ألا تعلمين أنني لا أحب أن نتصنع ونجعل من أنفسنا أسياداً.
خافت نالجان حقيقة ولكنها مع ذلك وجدت في نفسها القوة لترد على أخيها.
- وماذا في ذلك؟ إننا لسنا أناساً بسطاء.
أخذت نالجان الصحن والإبريق وخرجت من الباب كما خرجت الصبية قبلها.
بعد قليل تناهى صوت ضحك شابين في فناء الدار. ثم دلف إلى الغرفة قوباتي يرافقه شابٌ يرتدى بذة شركسية متواضعة، ويعتمر قبعة غير منسقة من صوف الحملان الخشن، وينتعل حذاءاً من جلد الثيران. بدا أن الشابين لم يتعارفا فقط بل انسجم كل منهما مع الآخر.
حرك قوباتي الرماد الحار في الموقد وبدأ بنفخ الجمر لكي يتقد. أما رفيقه الشاب فوضع الحطب على الأرض ثم أخذ القدر المعلق بالسلسلة فوق الموقد وخرج.
- هذا معاوني الشاب - قال شوماخوه - اسمه كوانتشه. وهو بلقري، يعيش عندي منذ الخريف الماضي. إنه يتيم . كان تابعاً لأحد الأعيان، ولكنه لم يستطع تحمل الذل طويلاً فتجرأ على الهرب. بالكاد كانت قدماه تحملانه عندما وصل إلى هنا. وهو الآن يتعلم مهنة الحدادة عند الحداد الوحيد بين نبلاء القبردي والنبيل الوحيد بين حدادي القبردي.
- لابد أنه سيكون عاملاً ماهراً.
- لقد أصبح هذا المشاكس قريباً من قلبي.
تراقصت شعلات اللهب في الموقد، وضع قوباتي بعض الحطب الجاف في النار وهرع مسرعاً إلى الفناء. عند المدخل كاد أن يصطدم بكوانتشه الذي حمل قدراً امتلئ بالماء وسبحت على سطحه قطع لحم الغنم الطازج. علق القدر على النار ثم سأل:

- أيها السيد هناك في البستان نار مشتعلة هل أحضر الجالبور[1] البلقري.
- كان الفتى يتكلم القبردينية بشكل طليق لكن لكنته كانت تدل على كونه يمثل شعباً آخر.
- حسناً قم بذلك، يمكنك دعوة صديقك الشاب، وإذا بقي لنا شيء يمكنك أن تحضر لنا قطعتين.
تلون وجه الشاب بوجنتيه البارزتين وتورد، ورد معاتباً وهو يهز رأسه:
- هل يمكن أن تقول شيئاً كهذا؟
ضحك يموز بطيبة.
- حسناً اذهب.
راقب جانبولات مجرى الأمور العائلية التي بدت له حنونة فأحس بالرضا يتسلل إلى قلبه. وضعت نالجان إبريق الماخسمة أمام الرجال وانصرفت. لاحظ يموز أنهما بقيا وحدهما وأن البقية قد تركوا لهما الجو الهادئ. أدرك جانبولات أن شوماخوه يرغب في أن يستمع إلى قصة ضيفه المفاجئ.
- ماخسمة رائعة - امتدح توزار الشراب - لم أتذوق مثله منذ سبعة أعوام.
ملأ يموز الأقداح من جديد.
- يجب أن لا أخفي يا مضيفي العزيز ويا شقيق نالجان التي لم تكن غريبة في منزل توزار إسم مرافقي الفارس الذي يفتقد إلى الشارب. إنه قوباتي واسم أبيه هو كورغوقه حاتاجوقه.
سكت جانبولات وهو يراقب ردة فعل يموز ثم أردف.
- أنت أول شخص أطلعه على هذا السر، إذا أسقطنا من عين الإعتبار ذلك الرجل الذي التقيناه مصادفة وطلبت منه أن ينقل خبراً إلى حاتاجوقه يخبره فيه أن ابنه حي، دون أن أدخل معه في تفاصيل.

---

[1] - الجالبور – نوع من المأكولات البلقرية

سقط الكأس من يد يموز على المائدة دون أن ينقلب، تناوله ثم عب عدة جرعات متلاحقة.
- إذن قوباتي الصغير لم يغرق؟ وينتظر أميرنا الكبير فرحة كبرى.
- نعم هناك سعادة تنتظره، أما أنا فلا ادري.
- نعم .. نعم .. بالنسبة إلى مصيرك فهذا لا يعلم به الآن إلا الله وحده، ولكن كيف تصرفت مع الفتى.؟ أم أنه لا يعرف عن نسبه؟ أو أنه لا يعرف أنك قتلت أعمامه؟
- إنه يعرف كل شيء - قاطعه جانبولات - ولكن الآخرون لا يعرفون أننى أحمل دم أحد العمين فقط. محمد الذي قتل والدي. أما إسماعيل فقد قتله محمد عندما حاول أن يمنعه من المضي قدماً خلف ذلك الدرع الملعون. لقد قتل الأخ أخاه أمام ناظري الطفل. ثم أن هناك شاهداً آخر لعملية القتل، عليغوكه الرأس الأجرب.
- هذا خبر جديد حقاً، أقسم برب الحدادين تلبش ... آه فليغفر الله زلة لساني لقسمي هذا، لكن عليغوكه هذا الثعلب أغرقك بدم إسماعيل من رأسك حتى أخمص قدميك. والقبردي كلها صدقت مقالته.
- لقد توقعت هذا - قال جانبولات بحزن - لكنني أملت بأن الحقيقة لن تدفن إلى الأبد.
- لا بأس، لا عليك، سوف نحفر ونستخرج الحقيقة لنرميها في وجه الكذاب.
ران الصمت لوهلة بينما كان الماء في القدر يغلي. دخل كوانتشه دون أن يحدث أية جلبة وجرف الزبد المتشكل عن وجه الماء بخفة ثم وضع قطعة من الحطب في الموقد واختفى دون صوت.
- نعم... - ارتعش يموز شوماخوه - والآن يجب أن أتعامل مع ربيبك معاملة الأمراء. أليس كذلك؟
- لا - قالها توزار بحزم - إنه الآن ربيبي فقط. أنا لم أعلمه التباهي بألقاب الإمارة كما علمني والدي قارالبي. لقد علمته

قاعدة هامة، إذا كان ولا بد من الفخر فبالأعمال والرجولة الحقيقية لا بأصالة الدم والنسب النبيل.
- هناك من تكلم عن هذا الموضوع وهو من الأشخاص الذين يتمتعون باحترام كبير في القبردي - قال يموز منبهاً.
- ومن هو هذا الشخص؟ - سأل توزار.
- لاحقاً سوف أعرفك عليه والأرجح أنك لم تسمع به.
- أنا لم أقابل الكثير من الناس الطيبين.
- ولكنك قابلت جميع أصناف البشر على الأرجح.
- نعم، وسوف أحدثك عن كل شيء بالتفصيل، استمع إذن إلى قصتي.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

- بعد أن انتقمت من محمد المسعور لقتله والدي، وبعد أن تركت أثراً لا يمحى على وجه الثعلب شوجنوقه، وبعد أن أهنته حين جعلت من خوذته قطعتين، أدركت أنه لم يعد لي حياة في القبردي. اعتقدت أنني لن أرى أرض الوطن مرة أخرى، ولكن قيد لي أن ألتقي في الغابة مع طفل يرتجف خوفاً وبرداً. كانت المياه تبلله من رأسه حتى أخمص قدميه، فلقد كاد المسكين أن يغرق في تلك الليلة في تيريتش.
عندما علمت من يكون الصبي قررت أن أصطحبه معي إلى منفاي. وأن أجعل من ابن الأمير رجلاً مقاتلاً، بذلك أكون قد تصافيت مع كورغوقه وفكرت أن شهادة قوباتي حول موت إسماعيل سوف تنصب لمصلحتي، وسوف يدرك حاتاجوقه الحقيقة. وكم كنت سعيداً لأنني لم أضطر إلى استخدام العنف مع الصغير. شيءٌ واحدٌ ندمت عليه أشد الندم. ومازلت نادماً عليه حتى الآن. هو أنني تركت عليغوكه حياً، ولكن لم أكن أعلم حينها أنه الرأس المدبر لمقتل والدي، ولنهب ضيعتنا، لم أعلم

وقتها أنه المحرض الجبان، والوحش الطماع. أدركت كل هذا فيما بعد بمساعدة قوباتي.
خلال سنوات كنا نتفحص ونحلل وقائع الأحداث الدامية التي مرت، استعرضنا كل كلمة قيلت وكل حركة وكل نظرة ذات معنى حتى وصلنا إلى الحقيقة.
وصلنا إلى سوندجوك قاله دون أية صعوبات تذكر ومنها كان علينا التوجه إلى بلاد القرم. لم أكن أحمل معي أية نفائس أو أي غرض له القيمة. وهناك حيث يتسيد التتار، لا يمكنك أن تخطو خطوة واحدة دون نقود، وإلا سوف ينتهي بك الأمر إما إلى الموت جوعاً، أو إلى سوق النخاسة حيث يباع كل شيء، الأسلحة، الجياد، والعبيد. أجريت أول عملية تجارية في حياتي عندما بعت حصان بابوك، فالفتى بحاجة إلى ملابس دافئة، ونحتاج إلى أغطية نلتحف بها. عرض أحد التجار ثلاثين قطعة من الفضة التركية لقاء الحصان. كل قطعة ستكفينا ليومين في الخان. اشتريت كل ما هو ضروري للفتى واشتريت لنفسي عمامة ورداءاً واعتقدت أن ما تبقى من الأموال سيكفينا للوصول إلى القرم. ولكن جرت الأمور على عكس التوقعات فلقد ساءت الأحوال الجوية ولم تستطع أية سفينة من السفن المتزاحمة في الميناء أن ترفع شراعها للإبحار. واضطر فرسان البحر إلى انتظار انتهاء العواصف الخريفية.
كان تجار العبيد أكثر المتزمتين، فلقد كان لزاماً عليهم إطعام العبيد والحفاظ على حالتهم الجيدة حتى يتمكنوا من بيعهم. ومن يشتري قبل موعد الإبحار.
لقد كنا في ورطة ما كنا لنخرج منها لولا أن ابتسم لنا الحظ فجأة حين هاجمنا ثلاثة من قطاع الطرق على الشاطئ المهجور. وجدت مع أحد المهاجمين الذين صرعتهما محفظة متخمة بالنقود الفضية، أكثر قليلاً من سعر الحصان الذي بعته، وهكذا أصبح بوسعنا الانتظار بهدوء حتى يتغير الطقس.

أخيراً هدأ البحر، وارتفع لغط وضجيج في السوق .. ضجيج بلغ الذروة حين سارعت السفن إلى التزود بكل ما تحتاج إليه من احتياطي المياه النقية، إلى البضاعة الحية. صعدنا إلى سفينة يونانية قذرة جداً مع الحصان نالقوت. وكان على هذه السفينة أن تبحر بنا إلى كافا.
أبحرنا في طقس غائم منقبض مثل صدري، فلقد كان يحز على قلبي أن أرى الشاطئ يبتعد عني. كنت قلقاً على قوباتي خشيت أن ينخرط في البكاء. لكنه كان عكس ما توقعت. كان مرحاً، حياً، طرح عشرات الأسئلة، هل البحر عميق؟ هل تعيش فيه الثعابين؟ وهل يمكن للسفينة أن تركب الأمواج كما يفعل الحصان الجيد؟ ولماذا مياه آخين مالحة؟ من وضع فيها الملح؟ وهل يعيش اليعسب في قعر البحر؟ وإذا كان الجواب نعم كيف يستطيعون أن يوقدوا النار في مواقدهم؟ وإلى أين يطير هذا النورس؟ ومن أية جهة تهب الرياح؟
في اليوم التالي بعد أن استيقظنا من النوم، صعدنا إلى سطح المركب لنصاب بالدهشة الشديدة. كان الجو صافياً هادئاً لا يشبه طقس الأمس الكريه. الشمس مشرقة والسماء عالية تلتقي في البعيد مع تقعر البحر. لم يكن هناك بر في أي اتجاه. والصبي لم يندهش بل علق قائلاً:
- إذا ابتعدت عن الدار سوف يصغر الدار حتى يتسع له راحة يدك الممدودة، ثم يتسع له ظفر إصبعك الكبير، ثم يصبح أصغر من أصغر نملة. ونحن ابتعدنا عن الشاطئ بحيث أصبحت لا ترى.
عند المساء ظهرت أرض غريبة، لا تشبه أرضنا. راحت تكبر أمام أعيننا. في البداية شاهدنا صخور الشاطئ، ثم رأينا البيوت البيضاء المتناثرة. واختفى قرص الشمس في البحر حتى ظننت أن المياه سوف تبدأ بالغليان. وأخيراً لامس المركب رصيف الميناء. أدى جميع من على المتن صلاة المغرب وحمدوا الله على الوصول بالسلامة ثم تفرقوا، وها نحن في المنفى. ربما هذا

ما يشعر به المطارد حين تقوده قوائمه السريعة إلى أماكن مجهولة، فيتوجس الخطر، ويتلفت حذراً متسائلاً عن صيادين آخرين، أو وحوش جديدة. وإن لم يكن هناك ما يتهدده يبدأ التساؤل الجديد هل هناك مرعى؟ وهل المرعى فقير أم غني بالعشب؟

لم تكن هناك خطة مستقبلية فأنا لم أفكر بحياتي المقبلة وعن نوع العمل الذي يمكن أن أمارسه، ولم أقرر كيف ستؤول الأمور مع قوباتي. لقد آن أوان التمحيص والتفكير في كل هذه الأمور.

في أول يوم وطأت فيه قدماي أرض القرم شعرت بأنني فتىً غض تنقصه تجربة وحكمة الرجال البالغين. ويمكن القول باختصار أنه شعور بعدم الثقة خالطني، مثل الكلب الذي وجد نفسه فجأة في فناء دار غريب.

كنت كمثل من يتخبط في الظلام كاتماً قلقه. بحثت بيأس عن مخرج ولكنني لم التقط فكرة واحدة يمكن أن تساعدني.

كانت هناك ساقية مياه نظيفة تنحدر مع تعرجات الطريق الصاعد إلى القسم الأعلى من المدينة. وكانت الجدران الحجرية الصماء تبدو كلها متشابهة. ولا تشعرك بالترحاب . توقفت لأسقي حصاني الطيب نالقوت.

أفقت من شرودي على أصوات غريبة. كان اثنان من التتار يقفان على بعد خطوات مني. كان أحدهما جميل الشكل وفي سني تقريباً. كان يرتدي رداءاً نفيساً ويقف باعتزاز. أما الثاني فكان يرتدي ملابس أبسط بل هي أقرب إلى الفقيرة، ويبدو أنه كان خادمه.

- السلام عليك أيها الغريب - قال التتري الخادم باللغة القبردينية - إن سيدي الباشا من أقرباء الخان نفسه وهو يرحب بك، فليبارك الله أتباع بلادنا الساطعة.

- وعليكم السلام.

أجبت وأنا أنظر إلى الباشا. ورغم أنني لم أكن أتقن التتارية إلا أن ما أعرفه كان كافياً لكي أتحاور مع السيد دون وسيط.
- هكذا أفضل - ابتسم الباشا - لا يبدو عليك أنك من أصل وضيع أيها الشركسي الباسل.
- إن نظرتك الصائبة أيها الباشا لا تخدعك. إنني من نبلاء القبردي وهم يعرفونني في القبردي الكبرى والصغرى وحديثك مع رجل اسمه بوليت لن يحط من قدرك.
- اسمي أصلان - قدم الباشا الشاب نفسه ثم اتسعت عيناه الظريفتان السوداوتان مضيفاً - أرى أنك لا ترغب بالحديث. أنتم الشراكسة تحبون أن تحتفظوا بالأسرار لأنفسكم. خاصة بعد معارككم وخصوماتكم المتكررة فيما بينكم والتي هي على الأغلب سبب رحلاتكم إلى القرم هل أصبت؟
- يا للشيطان - فكرت دون أن أستطيع منع نفسي عن الضحك - لو أنني الآن أودعك لأعود أدراجي على سفينة إلى الوطن دون أن أقابل أحداً، لذكرت ما حييت ذلك الباشا التتري الذي يتمتع بعقل وبصيرة نافذة كسهم ماضٍ حاد.
ضحك الباشا :
- لا .. لا .. لست فريد نوعي. بيننا يوجد الكثير ممن ذكرت. قل لي هل تبيعني حصانك فأنا خرجت من داري من أجل هذا.
كان سقف الدار الذي خرج منه الباشا منحدراً ومغطى بالآجر الأحمر، خلف سور حجري مرتفع، وكانت الواجهة الأمامية للمنزل تطل على البحر والآخرى على الطريق العام. قسم من المبنى ارتفع لقامتين عن الأرض مطلاً على الطريق، وعلى الأغلب خرج الباشا المعجب بـنالقوت من هناك.
حاولت أن أجيبه بلطف.
- وهل يمكن أن يباع الصديق؟
- إذن يمكنك أن تلعب النرد على جوادك.
- هذه مشكلة جديدة فما هو حكم الدين في لعب القمار؟ - أجبته

محاولاً التملص- الأفضل أن نلعب على سلاحي، فلدي سيف رائع.
عبس الباشا.
- في القبردي يزينون الأسلحة بشكل جميل ولكن الأسلحة نفسها تركية.
- لا سلاحي إسباني.
- فلندخل إلى المنزل. لقد خيم الظلام - لمس الباشا كتفي - وإذا لم يكن هناك أصدقاء ينتظرونك عند المنعطف الأول، أرجو أن تبقى للمبيت عندي.
- عند المنعطف الأول لا ينتظرنا أحد.
- إذاً هيا بنا - أمر الباشا من غير استعجال.
- خليلي اهتم بالجواد.
وهكذا حالفنا الحظ في يومنا الأول من غربتنا. وإلا لما كنت ادري كيف سيكون موقفي أمام الصبي.
بعد قليل وجدنا أنفسنا نتربع على وسائد تناثرت على سجادة ناعمة في قاعة للضيوف أثثت بشكل رائع.
وضع خليلي بيني وبين أصلان آنية فضية عليها فواكه طازجة، وجوز مقشور، وآنية أخرى تصاعد البخار منها، كان الرز مع الزبيب والمشمش المجفف والخوخ. وامتلأت الأباريق المتلألئة ذات الفوهات الرفيعة الطويلة بشراب الرمان.
لم يكن حظ نالقوت بأسوأ منا إذ كان يقف في الحظيرة بارتياح وهو يلتهم البرسيم المخلوط بالبرسيم الإسكندراني.
قيم أصلان باشا بندقيتي عالياً ففولاذها مرصع بالذهب، ويزين الصدف خشب الأخمص. كانت مصنوعة كما قلت في إسبانيا حيث صنعها حرفيو مدينة توليدو. أعجب الباشا بسلاحي كثيراً حتى أنه نسي أمر نالقوت.
تهاوى كيس منتفخ ثقيل على السجادة الناعمة مصدراً رنيناً معدنياً. رنيناً يحظى في القرم على احترام كبير، أكثر مما هو

عليه في القبردي. فك أصلان عقدة الكيس ونثر النقود الفضية أمامي
- مائة بياستر بالضبط - قال أصلان - النقود كلها تركية عدا هذه القطع الكبيرة فإنها روسية وكل واحدة منها تساوي أربعة بياسترات. هل أنت موافق على هذه المعادلة؟ إنني لست طماعاً مثل الكثيرين من أبناء قومي.
- وأنا أيضاً لست طماعاً.
ناولني الباشا مكعبين من النرد. على كل وجه نقاط تشير إلى عدد غطى الوجوه الستة.
- ابدأ.
كيف يمكن هذا؟ أن تستقبل ضيفاً في منزلك ثم تقوم بالمقايضة معه والتجارة، أو أن تلعب معه القمار. هذا شيء لم أستوعبه ولكنني كنت أذكر نفسي أنني في بلادٍ غريبةٍ، حيث تختلف عاداتهم عن عاداتنا.
رميت بالنرد. توقف أحد المكعبين على الرقم اثنان والثاني على الرقم ثلاثة "هذه هي النهاية ، ويبدو أن اللعبة قد انتهت" هكذا قلت في نفسي غير أن أصلان الذي كان يضحك على سوء حظي كان أسوأ حظاً مني وجاءت رميته واحد وثلاثة.
- المال لك - قال أصلان بهدوء ووضع كمية مماثلة من النقود.
- الآن أنا سوف أرمي أولاً.
تدحرجت المكعبات ليستقر المكعب الأول على العدد ستة والثاني على أربعة.
- ها ... - صفق أصلان بيديه - هذا ليس سيئاً، الآن دورك بولات باشا.
يجب أن أعترف أن نشوة المقامرة لعبت برأسي، وشعرت باضطراب شديد إلى أن توقفت حركة المكعبين. في هذه المرة أيضاً كانت النتيجة إلى جانبي ستة وخمسة.. وهنا أفقت من غشاوتي وظهرت أمامي نظرات أبي الغاضبة. أحسست بالخجل من نفسي. اختلست نظرة إلى قوباتي، شعرت بارتياح عندما

ألفيته نائماً بعمق مطلقاً بعض التأوهات. ضحك الباشا بكل جوارحه وهو يستمع إلى نادرة رويتها وقال:
- إن يدك خفيفة أيها الشركسي الكريم ولكن لنجرب الحظ مرة أخرى.
- لا أيها العزيز أصلان باشا.. يكفي لقد رميت الرمية الثانية وهي الأخيرة ما حييت وما ربحته هذه المرة لن آخذه.
- كيف؟ - تعجب أصلان - لماذا؟
- لأنني أحسست بروح المقامرة تتملكني.
نظر أصلان في وجهي متفحصاً وفكر طويلاً.
- حسناً - قال أخيراً - ولكن المال سوف تأخذه على كل حال.
- لا .. لا أستطيع.
- لقد خسرت - غضب الباشا - وهذا المال لك.
- لقد كنا نمزح وسوف أكون سعيداً لو أنك قبلت مني سلاحي هدية لك، أعتقد أنه أعجبك.
- توقف.
- وتذكر أن خمسة مقادير من البارود تزن وزن هذه الطلقة الحقيقية.
- لكن أنا لا أفهم.
- وما هو غير المفهوم هنا؟ إذا تقيدت بنسبة البارود التي ذكرتها ستكون الطلقة محكمة وستصيب الهدف بلا شك.
- أنت رجل طيب - تكلم أصلان باشا - ليشملك الله برعايته. وبالمناسبة ما هو نوع البارود.
- هذا حديث رجال - سررت لأن السكينة عادت إلى نفسي - أعتقد أنه يجب أن يكون لديك احتياطي من مسحوق البارود الروسي، والأفضل منه المسحوق الإنكليزي، فهو لا يزعج أبداً. بالنسبة للتركي أنت بحاجة إلى كمية كبيرة للتلقيم فضلاً على أنه غير آمن.
- ها ... التركي - هز الباشا يده باستخفاف - إن مثل هذه البضاعة لا تليق بنا.

وزن الباشا الطلقة الجديده براحة يده ثم قال:
- تقريباً عشرة دراهم.
- وغداً صباحاً سوف أريك كمية البارود اللازمة للحشوة، وبأية قوة يجب أن تدقها.
- وهل يمكن إصابة رأس رجل صغير من على بعد مائة خطوة؟
- بل يمكن إصابة رأس هر صغير - صححت له.
- ممتاز سوف أتبارى مع أحد أصدقائي، وسوف أبدأ التمرين منذ الغد رغم أنني ذاهب إلى باختشيسراي.. بالمناسبة أليس طريقنا واحد أيها الصديق القادم من القفقاس، فلنذهب معاً وسنجد لأخيك الصغير حصاناً.
وبالتدريج شرحت لأصلان باشا أنني لا أعرف أحداً في القرم، وأنه ليس مهماً إلى أين ومع من أرحل، وأنني حتى تلك اللحظة لا توجد لدي أدنى فكرة عن كيفية بناء حياتي الجديدة. عندها قدم أصلان باشا اقتراحاً فكرت به. فهو يريد مني أن أدرب أطفال كبار القوم على استعمال القوس والتعامل مع الحصان والسيف. يجب تدريب عشرات الكسولين كما عبر الباشا. يجب صقل أرواحهم وأجسادهم. لقد كان لديهم معلم لكنه سقط مؤخراً عن جواده وحطم رأسه.
- سيكون مركزك مرموقاً ومحترماً - قال أصلان باشا - ولا شك أنني سأضغط على آباء هؤلاء الأطفال لكي يدفعوا لك بسخاء، مقابل الفنون التي سوف تلقنها لأطفالهم الرضع.
طبعاً لم أفكر بالمال وهذه الفكرة لم تطرأ على بالي فالهدف الأول كان أن أجعل من قوباتي رجلاً حقيقياً وقبردينياً جيداً. سألت أصلان:
- وهل أستطيع أن أدخل أخي ضمن التلاميذ الذين سوف أدربهم؟

عندما سمعت الموافقة لم أفاوضه على العرض. أنهينا حديثنا وذهب الباشا ليرتاح داخل بيته الهادىء، بينما قام خليلي بتحضير الفراش لي في قاعة الضيوف.
على هذا الشكل انتهى يومي الأول مع قوباتي بشكل غير سيئ في أرض القرم الغريبة. أما الأعوام التي مرت في باختشيساري فكانت رتيبة وربما كان هذا أفضل.
في البداية سارت الأمور بشكل جيد كما خطط لها أصلان باشا. قدمني إلى عدد من وجهاء التتار الذين يطمحون في أن يتسلم أولادهم المناصب القيادية. في البداية تعاملت مع وجيه واحد، ثم أتى الثاني يرافقه الأول إلى مكان التدريب. لم تكن هناك ثقة بالمدرب الشاب فكانوا يريدون التأكد من أن أولادهم لا يضيعون الوقت سدى. ولكن عندما كانوا يشاهدون أولادهم وهم يقطعون الأغصان بضربات سريعة وهم على صهوات خيولهم. وعندما يرون مهاراتهم في تلقي ضربات السيوف ومقدرتهم على البقاء كالتماثيل لوقت طويل، وهم يشدون أوتار أقواسهم بأيديهم اليسرى. كانوا يغادرون وعلامات الرضى والبشر تتألق على وجوههم.
بالنسبة لقوباتي كنت أضاعف له جرعة التدريب.
خلال العام الأول كان قد صلب بشكل ملحوظ وزاد من طوله.
كان بيتنا صغيراً مريحاً. غرفتان وحديقة نبتت فيها أشجار المشمش والخوخ، وساقية مياه صافية. لم يكن أجر المنزل قليلاً ثم أن الحطب كان غالي الثمن. لكن هذا لم يقلقني أبداً رغم أن تقديرات أصلان باشا حول سخاء وجهاء التتار لم تكن صائبة. كان المال يكفينا، فنحن لم نرفه أنفسنا وكنا ندخر النقود. نادراً ما كنا نرى أصلان باشا، فهو يسافر لفترات طويلة ويرافق دولت غيري. وقد نفذ بعض المهام في استانبول. الرجل لم يكن ينسانا. يحدث أن يرسل إلينا كبشاً أو صندوقاً من الفواكه، وكان يدعونا إلى منزله مرتين أو ثلاثة مرات في العام. وكان قوباتي ينتقل على حصانٍ أشعث كان أصلان قد أهداه له.

لن أتكلم كثيراً عن التدريب ولا عن أفكاري ومشاعري ولكنني جعلت من هؤلاء الأطفال فرساناً يتعاملون مع مختلف أصناف الأسلحة، ويجيدون الفنون القتالية. وأصبحوا ماهرين وذوي قدرة على الصبر. في الخامسة عشرة من أعمارهم كانوا يمتلكون أذرعاً كالرجال وأقداماً قوية. لكن غضاريفهم كانت لا تزال هشة. وليس عبثاً كنت أجبرهم على الركض اليومي حاملاً الواحد منهم الآخر على ظهره، أو مجلساً إياه على رقبته.
لقد أراقوا الكثير من العرق. لكن بالمقابل تزودوا بالقوة والعافية. وكان الآباء مسرورين بالنتائج.
عندما شارك تلاميذي أخيراً في سباق الخيل ومباريات الرماية وإظهار المهارات في ركوب الخيل، وقد حضر الخان بنفسه تلك المباريات، استطاع تلاميذي أن يفوزوا على أكثر الرجال المحاربين. وخلال الضجيج الهادر والصراخ الأصم للحشود والجمهور الكثيف، كان تلامذتي ينتزعون النصر من هذا وذاك.
لم يستطع الآباء الإلتزام بمقاعدهم. فلسعادتهم كانوا يتقافزون وهم يلوحون بأياديهم ويصيحون بمليء حناجرهم.
- انظروا هذا ابني رفعت.
- انظروا إلى عليم على الفرس الشقراء. إنه عليم ابني. هيا إلى الأمام يا بني. اضرب بالسوط جواد جارك.
- ها .. انظروا .. أي أي .. انظروا ماذا يفعل طفلي الطائش.
ما كان لأب من الآباء أن يسمح لنفسه بالإندفاع هكذا في القبردي. لم أشارك شخصياً في المباريات ولم أسمح لقوباتي بالمشاركة. صحيح أنه كان يتفوق على الجميع قوة ومهارة إلا أن جرح شعور التتار وإثارة غيرتهم، كان أمراً محفوفاً بالمخاطر. لقد كاد الشاب أن ينخرط في البكاء. رغم ذلك لم أسمح له بالمشاركة، فمن السهل جداً أن تثير عليك حفيظة هؤلاء التتار. وسوف أتلقى اللوم والنقد. الشركسي الدخيل قام بتدريب أخاه الصغير فقط، على حين أهمل الأطفال التتار بسوء نية.

لا... لم أكن أملك حق المخاطرة. كان لا بد لنا من الإقامة في باختشيسراي لمدة عامين آخرين، رغم ضجري من حياة المنفى.
لم يمر يوم، بل لم تمر ساعات دون أن أفكر بالأرض التي أطعمتني، شوق، شوق جارف كان يجيش في قلبي، عندما أتذكر غاباتنا وجبالنا الشامخة، ورائحة العشب في الشتاء، الأنهار الجارية والانهيارات الثلجية في الأوشحه مافه. لغتنا الأم، هل من السهل معايشة لغة غريبة حتى وإن كانت مفهومة؟ لقد كان الضوء الوحيد في حياتي هو قوباتي. ترعرع وتحول إلى فارسٍ من الصعب على أترابه قهره، وهو طيب القلب لطيف المعشر، وعقله راجح وذكاؤه حاد. واظب ولعدة سنوات على الذهاب إلى مدرسة حيث كان أحد المشايخ الأتراك يحاول جاهداً أن يدخل في رؤوس مجموعة من التلاميذ التتر قواعد اللغة التركية دون جدوى. إما لأن رؤوس هؤلاء كانت تسرح في مكان آخر، أو أن المعلم لم يكن على المستوى المطلوب. لقد كانت علوم القرآن بالنسبة لجميع التلاميذ مثل جبل شاهق ذو نتوءات يصعب تسلقه. حتى العصا الطويلة والرفيعة التي كانت تهبط على رؤوس التلاميذ الحليقة لم تساعد كثيراً.
ا ل ي ي ف ... لا اااام ... رااا... كان ضحايا الشيخ كمال يرددون خائفين، إذ كان يجبرهم على أن يرددوا خلفه، وعلى أن يحفظوا الأحرف غير المفهومة والآيات عن ظهر قلب. لقد ميز الشيخ من بين مجموعة التلاميذ هذه قوباتي الذي تفوق على أترابه بسهولة. فما أن مر عامان حتى كان قوباتي يقرأ باللغة التركية بيسر، بالإضافة إلى حفظه الكثير من سور القرآن عن ظهر قلب.
لقد كان الشيخ يقرب قوباتي منه ويجعله يقرأ للتلاميذ على حين كان على التلاميذ أن يرددوا خلفه. ولم تقتصر الأمور عند القراءة فقط بل كان قوباتي يشرح المعاني العظيمة لما يقرأ. وكان التلاميذ يستمعون بانتباه إلى ما يقوله زميلهم.

إن النجاح الذي أصابه قوباتي جعل الشيخ يفكر في أن يجعل منه أستاذاً. لقد كان فخوراً فهو الذي صنع هذا التلميذ الذي أحبه حباً حقيقياً. حتى أنه أهداه قرآناً مجلداً بجلدٍ فاخر وكان بعد كل درس يدس في جيوبه المشمش وقطع الحلوى والرمان.
في حديث للشيخ معي سأل مستفسراً:
- هل في القبردي الكثير من الأولاد الأذكياء؟
- بل هناك منهم الكثير الكثير – أجبته.
عندها قال الشيخ بحزن محركاً رأسه.
- ليتني أفتح مدرسة في بلادكم.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

في باختشيسراي تعرفنا على صديق طيب في حي الحرفيين المجاور للسوق. حيث وأمام أنظار العامة من المتفرجين يعمل الخياطون، والسراجون وعمال الخزف والحدادون السمكريون (مبيضوا الأواني بالقصدير)، الحذائون والنحاسون. كان الجميع من الأغراب إذ من النادر أن تلتقي بتتاري يصنع سكيناً تتارياً رائعاً.
هناك التقينا بعامل سك من القبردي. كان ابن بلادنا هذا عاملاً ماهراً في الفضيات. ما أن تم التعارف بيننا، حتى ترك كل أعماله وبادر إلى إغلاق دكانه، ليستضيفنا في مكان إقامته الصغير، حيث يقضي ما تبقى له من حياة الشقاء وحيداً.
يدعى هذا الرجل البسيط الطيب خيلار. وهو يقيم في القرم منذ أمدٍ بعيد. لقد كان في يومٍ من الأيام مقاتلاً ضمن قوات كاسبوت بن موسال. إنه ذلك الشخص الذي أطلق عليه الروس لقب الشركسي كما أطلقوه على أبيه. ومن المؤسف أن نفتقد اليوم إلى أميرٍ مثله يحترمه نصف العالم. لقد هابه التتار، وحذره الأتراك، أما الروس فلقد وثقوا به واعتمدوا عليه. وساعده زعيم القالمق أبوك، وكان كيزلباشي يشعر بمودة نحوه.

حدثنا خيلار مطولاً عن مآثر كاسبوت وكيف بقي لمدة ثلاثين عاماً ونيف يعمل على إبعاد الجحافل التتارية. وكيف استطاع وللمرة الأولى أن يحرر جميع الأسرى الروس من المعتقلات التترية.

حدثنا عن القبردي والروس الذين طاردوا الأتراك جنباً إلى جنب إلى ما بعد آزوف وتشغيرين. كيف قام كاسبوت بحماية الممر عبر الدينيبر بطلب من الأتمان[1] الأوكراني، ثم كيف قام بالمشاركة في المفاوضات السلمية التي جرت بين موسكو وتركيا. لقد تبادلت الدولتان العظيمتان الأوراق العريضة المزينة بالتواقيع والأختام، ساد بعدها الهدوء لبعض الوقت. صحيح أنه كان هدوءاً غير آمن، غير موثوق به، ولكنه كان هدوءاً على كل حال. ثم أن كاسبولات توفي، وكان موته مثل موت حصان في حلبة سباق محموم.

عندما عاد خيلار إلى أرض الوطن ألفى منزله خراباً، وقد توفي والداه، أما شقيقه فقد اختطفه التتار وساقوه إلى أرض الغربة حسب زعم الجيران. عندها توجه خيلار إلى القرم على أمل أن يجد أخاه. ولكن ظهر أن هذا الأمل كان عقيماً. ومنذ ذلك الوقت يعيش خيلار في باختشيسراي.

لقد أنقذته ساقه المصابة في المعارك والتي كان يعرج عليها بشكل واضح من أولئك الذين يتصيدون أنصاف العبيد، أنصاف المرتزقة لتعبئتهم في القوات السلطانية.

أما مهارة ذراعيه في تطويع الحديد والفضة فلقد ساعدته في البداية ليصبح العامل الوحيد في ورشةٍ بائسةٍ لعجوز تركي. ثم سرعان ما ورث المحل عن ذلك العجوز.

كان خيلار سباكاً ماهراً، فكانوا يحملون إليه الخناجر المثلومة والسيوف المحدبة والصفائح الفضية الرقيقة التي تزين الأعمدة، وكان خيلار يقوم بتزيينها بخيوط معقدة من الفضة.

---

[1] - الأتمان- لقب عند القاراق بنعنى زعيم

رأى قوباتي كل هذا وأحب أن يجربه وأن يختبر قوة المعدن القاسي الذي يحتاج إلى العين البصيرة والصبر الدؤوب. هذا عدا اليد القوية لتطويعه. وكذلك معرفة طرق معالجة الذهب والفضة. لقد قام خيلار بمساعدة الفتى في تعلم المهنة. و تمكن قوباتي من استيعاب وتعلم أسرار هذه الصنعة بسرعة من خيلار، الذي لم يكن يبدي أي إعجابٍ بالسرعة التي يتعلم بها الفتى، حتى أصبح ماهراً في السك دون عيوب، وفي تحرير الخيوط الدقيقة على المعدن المسكوك بصبر وأناة.
قبل مغادرة القرم بقليل، والأصح قبل هروبنا السريع من القرم أفضى لي خيلار قائلاً بأنه لم يعد يمتلك أي شيء يعلمه لقوباتي. لقد أدركت هذا بنفسي فأنا أحمل خنجراً خرجت قبضته المزخرفة بالخيوط القبردينية الأصلية من تحت أصابع ربيبي.. لقد استهلكت تلك الزخرفة العديد من القطع النقدية الفضية التي ادخرناها. لم يكن قوباتي يفكر بقيمة القطع النقدية حين يراها بل إلى ما يمكن أن تؤول إليه بعد صهرها، أو طرقها، شعار على حزام أو حبات زرد لقميص أو أغطية فضية.
لقد كانت الأمسيات التي قضيناها مع خيلار محطات استراحة ممتعة. فالعجوز يعرف الكثير من الحكايا والأغاني القديمة، بالإضافة إلى القصص. وكان يجيد إلقاء الملاحم ومآثر النارت. وكان يغني بروعة. كنت أشاركه الغناء بهدوء حتى لا يتناهى صوت غناءنا إلى الجيران. لقد تعلمت الغناء وكذلك أظهر ربيبي اهتمامه بهذا الجانب، فكان يحفظ الأغنية عن ظهر قلب عندما يسمعها من المرة الأولى.
أحياناً كانت فكرة أن كل ما يحصل عليه قوباتي يأتيه بسهولة ويسر تزعجني. فهو أقوى مني ويحمل حكمة القرآن ويعلم أسرار مهنة الحدادة، ويغني بطريقة تنسيك كل شيء عندما تسمعه. إنه لم يواجه الصعوبات فهل يمكن أن يدفع ثمناً باهظاً لقاء هذا.

أحياناً كانت تنتابني موجات من الشوق لا تقاوم إلى أرض الوطن. وكنت أحاول أن لا أظهر هذا الشعور أمام قوباتي. وكلما كان زمن العودة يقترب كلما كان صبري ينفذ. كنا قد قررنا أن نترك باختشيسراي مع بداية هذا الخريف، هذه المدينة الصاخبة والغنية بقصرها خان ساراي الرائع وبيوتها الحجرية، وصفوف دكاكينها وإغراءاتها الكثيرة، وبضائعها التي تُحمل إليها من أطراف الدنيا بقوافل تجارية ضخمة. لكن الوطن هو كل شيء، لقد أصبحت هذه المدينة لا تطاق. هواؤها خليط من التوابل والشحم المحترق والفضلات المتعفنة. وضمن هذا الهواء كان يمكن لك أن تتنشق رائحة الحرب المنتشرة في باختشيسراي المستهترة والتي تطلب المزيد من الثراء، المزيد من العبيد. مما دفع بالقرم من جديد أن يكشر عن أنيابه وأن يتلفت شمالاً وشرقاً.

لقد كان سر العسكر يحصل كل عام على ضريبة من الأديغة فرضت عليهم، ثلاثمائة فتى وفتاة. لكن هذا لم يعد يكفي. لقد أحسسنا أننا في خطر داهم وأننا إذا لم نأخذ جانب الحذر سنكون أول غنائم هذه الحرب التي لم تعلن بعد.

للأسف لم نعد نستطيع انتظار الدعم من صديقنا أصلان باشا، ففي إحدى مهامه المعتادة إلى استانبول وقع في معمعة إنقلاب أدى إلى خلع السلطان القديم، وتنصيب أحمد باشا المتهور على العرش، لكنه سرعان ما اصطدم بخيانة الانكشارية ذات الوجهين. كان يمكن التكهن أن الحملات العسكرية باتت قريبة. إذ أن الأصوات بدأت تعلو حول تطهير الدين من رجس الكفار.

- لقد آن الأوان لشد الرحال - قلت ونحن جلوس عند خيلار.

- إلى أين؟ فلتجلس قليلاً.

- لم يدرك العجوز ما أعنيه.

- إن التواجد في القرم أصبح خطراً يا صديقي خيلار.

- آه ... بصدد هذا أنت محق.

سكت قليلاً ثم تحول إلى قوباتي وسأله بصوت حزين :

- وأنت أيها الفتى أتريد العودة إلى المنزل، إلى الوطن؟
كانت حمرة الشفق تورد خدود الفتى.
- وكيف لا؟ إنني مستعد في التو واللحظة، مع أنني لا أفهم ماالذي نواجهه من خطر. نحن مسلمون مثل التتار والأتراك، وهم يريدون محاربة روسيا.
- مسلمون مثلنا - ابتسم خيلار - ليس تماماً إذا كانت الجياد ذات لون واحد هذا لا يعني أنها سوف تأخذ كلها بالعدو في اتجاه واحد. ثم أنه كلما كان الصراخ حول الدين أكثر صخباً، كانت الوقاحة الدنيئة المستترة تحت هذا الصراخ أشد... مؤمنون... ألم تقاتل تركيا فارس المؤمنة؟ ألم نر عبيداً مسلمين انحنت ظهورهم عند إخوانهم في الدين؟ ألم نر مسلمين يموتون من الجوع؟ وبين أولئك الذين يرزحون تحت الأصفاد في أسواق النخاسة ألا يوجد مسلمون؟ بلى هناك الأديغه والقالمق بل وحتى التتار. ما هو الفرق بين من تسرق ومن تستعبد؟ إن البقرة التي تترعرع في الحظيرة عند معلف رجل مسلم تعطي ذات الكمية من الحليب لبقرة المسيحي. لا.. الموضوع لا يتعلق بالدين هل تعلم يا صديقي من أين تبدأ الحروب ضد روسيا؟ من تلك النقطة حيث يرسل خانات القرم جيوشهم إلى القبردي ليعودوا من جديد مثل الجراد النهم الذي يفرغ الحقول والقرى، سوف يقتادون القطعان الهائلة من خيول الأديغه. لو أن القبردي قاتلت روسيا لكان الأمر مختلفاً، ولكن القبردي لن يقاتل ضد الروس، وإنما سوف يتحالف معها، ولن يسمح للأتراك بابتلاع القبردي. إن جانبولات على حق، لا يجب عليكم أن تبقوا هنا.
- في الواقع لا شيء يحولنا دون الرحيل الآن إلا رغبتنا في عدم فراقك يا خيلار.
ما أن خطرت لي هذه الفكرة حتى استحوذت علي، وتغلغلت في روحي، وراحت تلح علي كما يلح الصبي الصغير، وبدأ صبري ينفذ، بسرعة من هذه المدينة الكريهة، لا حياة لنا بعد الآن خارج أرض الوطن.

نهض خيلار بصمت وتوجه وهو يعرج إلى صندوق حيث يحتفظ بمدخراته الشخصية.
- انتظر يا خيلار لدينا من المال ما يكفينا - ولكن كلماتي لم يكن لها أي أثر.
- حسناً. سوف يبقى قوباتي هنا، وليقف نالقوت أمام الباب، سوف آخذ حصانك يا قوباتي وسوف أحمل عليه ما يمكن حمله، سأعود حالاً، والإنطلاق مع الفجر.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

أي ضيوف مزعجين كانوا بانتظاري في بيتنا في باختشيساري. ما أن دخلت الفناء حتى التفت الوحوش حولي. غافلني أحدهم من الخلف ليقع جسدٌ ثقيل على كتفي بينما هاجمني اثنان من الجانبين. ركلت أحدهما في بطنه، سمعت صراخه كما لو أن كبده تمزق. كان يتلوى من الألم وكأنه يفارق الحياة أوثقوا يدي وقدمي بشدة. ثم أشعل أحدهم مشعلاً أدناه من وجهي وقال:
- أيها الجاسوس الشركسي - همس وهو ينحني علي - أنت تركل بحوافرك جيداً وهذا سوف تدفع ثمنه أمام عليغوت باشا.
قذفوا بي مثل كيس على حصان ونقلوني إلى مكان ما على طريق تفوح منه روائح كريهة. كانت هناك وقفة صغيرة خلف بوابة ضيقة لجدار حجري مرتفع، ثم فناء مهجور مع بناء غير مسكون، وأخيراً انتهى المطاف بي في حفرة عميقة قذرة. استضافوني فيها بعد أن حلوا وثاقي. كان من الممكن أن أصاب بكسور من جراء السقوط في الحفرة التي أصبحت سجني. كنت أرى صفحة السماء و النجوم الساطعة البعيدة عندما غطى رأس أحدهم جانباً من فتحة الحفرة قائلاً بصوت حاول جاهداً أن يجعله لطيفاً:
- استرح حتى الصباح أيها الكلب الشركسي.

وسرعان ما اختفت الأصوات وصفق باب ما بقوة.تحسست الجدران الطينية الملساء للبئر لأدرك أنه لا يمكن الخروج. ماذا حدث لقوباتي، أخي الصغير؟ سوف يقع هو أيضاً في براثنهم. آه لماذا لم أقرر بالأمس ما قررته اليوم لقد صدق من قال من السهولة أن تقع في المصيدة ولكن الخروج منها صعب. إنني مستعد لأن أدفع حياتي ثمناً من أجل أن يصل قوباتي إلى منزله سالماً.

إلى أين اقتادني هؤلاء؟ من المؤكد أنه ليس سجن المدينة. المرجح أنه سجن عليغوت باشا حيث يحتجز من يعتقلهم ويعرضهم للبيع. من يشتريني.. لست بحاجة لأن أكون نبياً حتى أعلم ما ينتظرني. ففي الصباح سيتم استجوابي في ذلك المنزل على الأغلب، ومن ثم سوف يقدم لي عرض بأن أقاتل إلى جانب التتار، وطبعاً سوف يكون الموت نتيجة رفضي. يا الله... مر بعض الوقت وأنا أدور في حلقة من الأفكار الكئيبة عندما سمعت صوت ضربةٍ مكتومة واهتزاز شجرة، ثم صرخة يائسة واستمرت الضوضاء لفترة ثم سمعت لهاث أحدهم وغطى الفتحة من جديد رأس أحدهم.

- يا عمي هل أنت حي..

" الحمد لله... أيها العظيم الرحيم ...إنه قوباتي الفتى الشجاع، كيف وجدني هذا النارتي المتألق."

- إنني كامل الأعضاء.

- هل يمكنك الوصول إلى هذه العصا.

- أنزل قوباتي عصاً غليظة.

- لا إنها قصيرة. حتى لو قفزت مثل كلب لن أصل إليها.

- انتظر.

اختفى رأس الفتى، أدركت أنه يجر حملاً ثقيلاً إلى طرف الحفرة.

- التصق بالجدار.

طلب مني قوباتي ذلك ثم تداعى في الحفرة جسد الحارس وهو يرتطم بالجدران وقد قيدت يداه وكمم فمه.
- بولاط .. يا عمي اعتليه اصعد إلى كتفه. دع هذا الحيوان يقف كما يجب.
لقد سمح قوباتي لنفسه وللمرة الأولى بأن يتلفظ بكلمات قاسية. هززت الحارس.
- سوف ألوي عنقك بهذين الإصبعين، هل فهمت؟
نهض الحارس بسرعة ووقف منتصباً. ومن فوق كتفه كان الوصول إلى العصا سهلاً. وكان من السهل أيضاً على قوباتي أن يخرجني من الحفرة.
كان باب الفناء محطماً بشكل تام، وكان أحد الحراس يستند إلى الباب وقد تهشمت جمجمته. أعطاني قوباتي المدجج بالأسلحة حساماً وخنجري الذي نقشه لي.
- كيف وجدتني؟
- خليلي أخبرني.
- خادم أصلان باشا المسكين.
- هو بعينه لقد أراد أن يحذرنا من كل شيء ولكنه وصل متأخراً لقد وصل إلى خيلار عندما كانت الأمور قد انتهت.
- ماذا؟ ماذا؟
- لقد كانوا خمسة - قالها قوباتي بألم.
أسرع الفتى واقتادني من خلال الأزقة إلى مكان يعرفه.
- ماذا جرى لخيلار؟ - سألت بلهفة.
- لقد قاتلنا. ولم أستطع أن أدافع عنه. قاتل مثل أسد - سكت قوباتي وهو يلتقط أنفاسه ثم قال بنبرة رجل ناضج.
- فلينعم بسلام في قبره.
- آمين.. والخمسة؟
- لقد قتلوا جميعاً.

لم أطلب منه التفاصيل. كان خليلي ينتظرنا مع حصانين على الطريق المؤدية إلى الشاطئ. اضطرب نالقوت قليلاً عندما رأى سيده.
كان ظلام الليل قد انقشع وأخذ ضوء الصباح مكانه. في الخرج كان هناك احتياطي للطريق مع بارود ورصاص. وقد قام خليلي بتقليدي قوساً مع جعبة سهام. كان هذا القوس محبباً لدي ومن حسن الحظ أنني تركته عند خيلار ليزينه ويطعمه بالعاج. ودون أية كلمة قدم خليلي البندقية التي كنت قد أهديتها إلى أصلان باشا.
أردت أن أعبر لهذا التتري عن شكري ولكنه لم ينتظر، فلقد لوى عنق جواده وانطلق مسرعاً باتجاه المدينة.
نظرت إلى قوباتي ولم افهم ما جرى.
- خليلي هذا - قال قوباتي - عاش فترة في القبردي وعمل سائساً عند أبي، لقد تعرف علي منذ اليوم الأول الذي وصلنا فيه إلى كافا.
- ولماذا سكت طوال هذه المدة؟
- إنه يقول إن طول اللسان يقصر من طول العمر.
وصلنا إلى كافي دون أية صعوبات تذكر وهناك بعنا حصاناً وحاولنا أن نستقل أول سفينة تتجه بأنفها إلى جهة الشاطئ القفقاسي.
يونانيٌ ضخم طلب منا سعراً باهظاً أفقدني صوابي وبالكاد منعت نفسي عن خنجري. لم يكن لدينا خمس السعر الذي طلبه، وقضاء ساعة إضافية على الشاطئ يعني المخاطرة بحياتنا. ففي أية لحظة يمكن أن يظهر فيها قطيع كامل من الجنود المرسلين لملاحقتنا.
صعد البحار اليوناني إلى ظهر سفينته. كان يعطي أوامره بالإبحار عندما اقترب منه رجل متوسط القامة يرتدي بذة شركسية سوداء مع قبعة سوداء طويلة. كنت قد لاحظت أن هذا الرجل كان يراقب جدالنا مع الربان اليوناني السمين بفضول.

وها هو الآن يهمس في أذنه بشيء ما. التفت الربان الينا وأشار بيده.
ابتسم الشاب مرحباً.
- اصعدوا يا أبناء وطني واشكروا الله، لقد أقنعت الربان الشهم أن يقبل ما عرضتموه عليه من أجر.
لم تكن هناك فسحة للتفكير. صلينا صلاة العشاء في عرض البحر. لم يسألنا ذلك الشاب القبرديني عن أسمائنا وهو بدوره لم يخبرنا عن اسمه. لقد كان يبدو أصغر مني بسنة. قال أنه سافر إلى تركيا بدافع الفضول. تركنا الشاب في أنابا. يا له من شاب رائع له عينان ثاقبتان. كم أود الالتقاء به مرة أخرى. أعتقد أنه دفع عنا لذلك اليوناني. لقد توجه من أنابا إلى آزوف لمقابلة عمدة اسمه ابراكسين. أما نحن فلم نضع الوقت هدراً وإنما أسرعنا كدجاجتين يدعوهما صاحبهما إلى حدودنا الحبيبة وهذا كل شيء.

الخبر التاسع

يتحدث عن حكمة تقول :
إذا أكلت حبة الثوم فيمكنك أكل الرأس كله..لأن الرائحة واحدة.

استيقظ جانبولات مع الأشعة الأولى لشمس الصباح، صافي الذهن هادئ النفس . وعندما تذكر أمسية الأمس ابتسم. عدة أيام أخرى تطعمهم فيها نالجان، وسوف يكتنزون الشحم مثل ثور يُعَدُ لقربان العيد.
أسرع بارتداء ملابسه. سارع إلى باتي النائم بعمق في المضافة المتواضعة. ضحك بصمت ثم راح يغني:

ليلاي يا حياتي ليلاي
اكبر اكبر وترعرع
لتصبح يا ابني أروع
فهناك غنائم تنتظر
خيولاً، ثيراناً وقضايا أكبر
وعجوز رباك هناك
لا تنسى من رباك هناك
قاسمه الخير ولا تبخل
ليلاي يا حياتي ليلاي

فتح الفتى عينيه عند سماعه أول كلمات الأغنية، وعندما أدرك أن مربيه يُغني له أغنية للأطفال رماه بنظرة معاتبة ثم نهض لارتداء ملابسه.
بعد أن تناولا فطورهما البسيط من الحليب والجبن، قام الضيفان بجولة قصيرة في الغابة بمرافقة كوانتشه.

في حقل قامت الخنازير البرية بحراثته اختار جانبولات لنفسه عصاً غليظة من خشب الزعرور.
- خذ سيفك يا باتي وحاول أن تقطع عصاي، سوف أصد ضرباتك محاولاً تجنب شفرة السيف.
لمعت عينا قوباي بحماس طفولي، ولوح بالسيف فوق رأسه عدة مرات راسماً دائرة في الهواء ثم اندفع مهاجماً.
- واحد.
قطع السيف الفراغ. في اللحظة الأخيرة أقدم بولاط على حركة بمعصم يده فأزاح عصاه من لقاء الشفرة القاطعة . هجوم آخر يتمكن فيها باتي من ضرب العصا بسيفه، لكن جانبولات يمتص قوة الضربة بسهولة. وبضربة جانبية يتمكن من إصابة صفحة النصل.
وهكذا تكررت المحاولات تحت أنظار كوانتشه المتقد حماساً. تطايرت شظايا صغيرة من العصا، لكنها بقيت كما كانت عصاً طويلة. كان جانبولات يسبق دائماً ربيبه بلحظة.
- آه حسن ، هذا رائع - كان كوانتشه يصرخ.
أخيراً وبحركة مباغتة تمكن قوباتي من قص العصا من منتصفها تماماً.
- ها ... هذا حسن جداً.
صفق كوانتشه ضارباً فخذيه وقفز بشعور فيّاض من الرضى والفخر بصديقه.أما قوباتي فلقد أعاد السيف إلى غمده بامتعاض.
- لا... إنني بعيد عن مستواك القتالي يا معلم.
- ليس كثيراً - ضحك توازار بطيبة - هل تعلم أين يكمن خطأك؟ وبالمناسبة هو أكثر من خطأ . الأول أنت تقبض على مقبض السيف بصلابة، لذلك تضيع سرعة التلويحة. إن الإمساك بالمقبض بقوة ضروري فقط في اللحظة الأخيرة، لحظة اصطدام النصل مع الطرف المضاد. والخطأ الثاني، أنت تضع في كل حركة كامل قوتك، يجب أن تدرك أنه عندما تقطع غصناً لا يجب أن تضع فيها قوة تقتلع شجرة. ولا يجب أن تحتد بل أن

تهدأ بسرعة، فالمقاتل ذو الأعصاب الباردة يصل إلى هدفه قبل المتسرع.
- لقد فهمت كل شيء بولات - قال قوباتي وقد بدا عليه الإنشراح.
- وكيف لا تفهم مثل هذه النصائح الثمينة - قال كوانتشه بحرارة وهو مدرك أن هذا الدرس لم يكن موجهاً إلى قوباتي وحده، إنما له أيضاً.
فجأة انقض جانبولات وكوانتشه على قوباتي. حاولا أن يطرحاه أرضاً لكن محاولاتهما ذهبت أدراج الرياح ، ضحك جانبولات أخيراً - لا بد أنه كبر العمر - وفي محاولة لرد الاعتبار أجبر قوباتي على العودة إلى المنزل متخذاً وضعية الإوزة، بل وحاملاً كوانتشه الذي كان يقهقه بكل جوارحه على كتفيه.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

- تفضل ألا تريد زيارة ورشتي يا جانبولات؟ - قال يموز- لا تخف لن أجعلك معاوني.
- يُسعدني أن أستعمل المطرقة وأن أعمل تحت إمرة حرفي ماهر مثلك - ابتسم جانبولات محافظاً على روح النكتة التي بدأها الحداد.
عند الزاوية خلف الفرن وقفت نالجان تنفخ في الكير. بينما كان اللهب يتلاعب متألقاً أمام وجهها. اقترب يموز من جذع دلب ضخم حيث كان السندان مثبتاً عليه.
- هيا يا ابن توزار فلنحرك هذا الجذع قليلاً.
قام الرجلان بإزاحة الدلب الذي بلغ قطره ثلاثة أذرع لتظهر تحته حفرة أخرجت منها نالجان كيساً منتفخاً عليه آثار زيت.
- هنا كل ماتبقى من إرثكَ يا جانبولات - قالت وهي تحل عقدة الكيس.

سارع جانبولات ومد يده إلى داخل الكيس مضطرباً. لم يستوعب ما قالته نالجان حتى لامست يده سطحاً بارداً أملساً لجسم معدني. ها هو درع صلاح الدين المشهور يعود إلى النور من جديد. انتصبت أحداث اليوم الدامي التي جرت قبل سبعة أعوام حية أمام عيني جانبولات مثل ألسنة لهب استعرت مؤخراً في موقد خامد.

- كيف وصل إلى هنا؟ - قال توزار بصوت متهدج... وبتعب تهالك على المقعد واضعاً الدرع أمامه.

- سوف تروي لك أختي كل شيء.

نظر يموز إلى أخته وأشار لها برأسه ثم خرج من الورشة.

روت نالجان قصة المذبحة الدموية، والحريق الذي أتى على ضيعة توزار، واللقاء مع المسعورين عليغوكة و حاتاجوقة . ولم تنس بطولة العجوز أديشيم، الذي عاش حتى الربيع . أما نارتشو المرح فلقد شفي من جراحه والتحق بالجبال، وتحول إلى متمرد. روت كيف ضربت محمد وأدمت أنف عليغوكة، وكيف عاملها الأول بخسة وضيعة. ثم تحدثت عن الدرع وكيف أخرجته من المنزل. كيف قامت نالجان بارتداء الدرع ، هذا القميص المعدني المشؤوم ، وارتدت فوقه ثوبها. لقد أدركت أن هؤلاء النبلاء الدمويين ما ارتكبوا هذه الجرائم المرعبة، إلا من أجله. مما يعني أنه ثمين. وبما أن الأمر كذلك، فلا يجب عليهم أن يروا الدرع.

خلال الهرج المرعب، تمكنت نالجان من الفرار من غرفة نوم قارالبي دون أن ينتبه إليها أحد. وامتطت أول جواد صادفته، وانطلقت به إلى البراري. ومن ثم تذكرت أخاها فتوجهت إليه ولم تخلع الدرع إلا عنده في المنزل. قام يموز بإخفاء هذا الأثر الخطير في الورشة مقرراً التزام الصمت التام حوله، خوفاً من المفاجآت غير المنتظرة وفضلوا تناسي الموضوع برمته إلى أن يحين الوقت المناسب.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

- لم أجرح أبداً- قال جانبولات بهمس - لكنني اليوم ومع بداية قصتك أحسست بأن جرحاً قديماً قد انفتح. لكن كلماتك كانت هي الشافية.

- آخ، جانبولات ماذا أصاب عينيك... كيف؟ كيف تنظر إلى الأمور؟

- لا أدري كيف أنظر إلى الأمر يا نالجان، أنا أردد فقط ما أفكر به.

توقفت نالجان قليلاً عند باب الورشة.

- أحياناً ليس من السيئ أن تقوم المرأة بالتفكير. الآن مثلاً أفكر أنه آن أوان تحضير الطعام.

- طبعاً - ابتسم توزار - إن قطعة خبز من يد امرأة مثلك هي هدية من نبي.

اضطربت نالجان وهزت ذراعيها بارتباك ثم أسرعت إلى المطبخ الصيفي.

دخل يموز إلى الورشة وبلهجة عملية قال:

- دعنا نعيد هذا الجذع إلى مكانه.

- هيا نعيده - وافق جانبولات - أما الدرع - رفع توزار الكيس - دعه في المنزل فبالنسبة له لدي بعض الخطط.

- أنت أدرى - أجاب يموز - أما ما يتعلق بالشاب الذي تمنيت مقابلته مرة أخرى أعتقد أنني أستطيع إيصالك إليه.

رفع توزار حاجبيه بتعجب.

- تقصد ذلك النبيل الذي ساعدنا على ركوب السفينة؟

- نعم.

- وكيف تعرف من هو، إذا كنت أنا نفسي لا أعرف اسمه؟

- ليس من الصعب التكهن ببعض الأمور - قال يموز وهو يخفي ابتسامته خلف شاربه.

لم يحاول جانبولات التفكير بأي شيء أو استنتاج أي شيء. دار الحديث على العشاء عن صفات الحديد وطرق تصنيعه. وعن أفضلية نصل على نصل (كان الحديث يجري على مسمع من الشابين) وتطرق الحديث إلى الفولاذ الدمشقي الرائع. شرح يموز صفاته التي لا يكتسبها بطريقة الصنع والطرق فقط وإنما بالخلطة السرية للمعدن نفسه. لا يمكن أن يكتشف أحد هذا السر. حاول أن تكتشف سلفاً أية حبة سوف تلتقطها الدجاجة أولاً وأيتها الأخيرة.

حزن جانبولات على ضياع سيفه الدمشقي الذي كان يثمنه غالياً. كانوا قد أخذوه منه في تلك الليلة المشؤومة في باختشيسراي. أحس يموز بصدق جانبولات فراح يلهيه بالحديث عن الغابات الغنية، وانتهى الحديث إلى الاتفاق على رحلة إلى الطرف الآخر من نهر تشيغم حيث يمكن التنعم بالصيد، وتم تحديد موعد الرحلة في اليوم التالي قبل الفجر.

ـ كوانتشه سيكون مرافقاً مثالياً لكم ـ قال يموز ـ أما أنا فلن أستطيع الذهاب إذ لا يجب في مثل هذا الوقت العصيب أن ندع المنزل دون حماية رجل.

* *

خرج جانبولات إلى الحديقة، كان النوم قد جافاه. أراد أن يستطلع سبب تأخر قوباتي. إنه لن يستطيع مفارقة صديقه كوانتشه. لكن كوانتشه نائم في فراشه قرب الإسطبل أما نالجان فهي لوحدها في المطبخ، تحضر على نار الموقد الذي بدأت ناره تخبو الزاد لرحلة الصيد القادمة. أحس جانبولات بشعور غريب يتحرك في صدره. ودون أن تلحظه نالجان أسرع في الدوران حول المنزل. راح يستنشق عطر البستان الفواح بلذة لم يعهدها سابقاً في نفسه. ترى لماذا هذا الإضطراب؟ ولماذا يحس بدوار خفيف في رأسه؟ وقف أمام شجرة التفاح وعانقها ملصقاً

خده على ساقها الرطب البارد. شاهد من خلال الأغصان النجوم وهي تومض وكأنها تقول له، لا يوجد سر دفين يخفى عليها، حتى ولو كان السر في أغوار النفس الإنسانية. فجأة تناهى إليه همس يأتي من على بعد عدة خطوات.
- كم هي واضحة النجوم التي تشكل الإخوة السبعة هذا اليوم.
كان هذا صوت سانا.
- انظري إلى تلك، أشدها تألقاً وضياءاً، إنها تشبهك.
"ألا تخدعني أذاني؟ - فكر توزار- هكذا إذن يا باتي"
كان الشاب يجلس مسنداً ظهره إلى جدار المنزل تحت نافذة صغيرة فوق رأسه مباشرة. لم تكن الفتاة ظاهرة، هذا يعني أنها في الغرفة وتحاوره عبر النافذة.
- كيف يمكن أن أشبه النجمة؟ - سألت سانا بلهجة متهكمة - إذا كانوا إخوة. هل تفهم؟ إذا كانت النجوم إخوة؟
- لا .. فليكونوا أخوات - طرح قوباتي المسألة بجدية - والأفضل أخ والأخريات أخوات.
- طبعاً وتريد أن تكون أنت الأخ؟
- نعم
- يعني أن أكون أنا على طرف هذه القرية النجمية، وأنت على الطرف الآخر.
- لا - أجاب الفتى بشكل حازم - هذا بعيد جداً، أبعد من القرم إلى القفقاس. أنا أريد أن أكون إلى جانبك وأن لا أكون أخاً لك إنما..
- إنما ماذا؟ ماذا تريد أن تكون؟ - بلهجة من تفاجأ أجابت الفتاة
- أنا لا أفهمك.
شهق قوباتي
- سوف تفهمين إن أردت.
- أخبرني أية فتيات قابلت في باختشيسراي؟ لا بد أنهن جميلاتٍ ورشيقات ونحن لا نجاريهن.

لم يشأ جانبولات المكوث أكثر فهذا الحديث لم يخصص للتنصت عليه من آذان غريبة . بهدوء تسلل من الحديقة.
كان مندهشاً.
" هكذا هو الحال إذاً، إذا أردت سوف تفهمين، هل كبر هذا الفتى؟ - فجأة راوده شعور بالشفقة على نفسه، ربما كان يحسد تلك النجوم الأخوة - آه هكذا أنت يا جانبولات لا تستطيع أن تفتح حديثاً ببساطة مع النساء."
بسرعة وهدوء قطع جانبولات المسافة على طول الجدار دون أن تلاحظه نالجان التي كانت لا تزال في المطبخ، وتوارى خلف باب المنزل.. بعد فترة عاد قوباتي وهو يحبس أنفاسه وبهدوء حذر حاول أن يندس في فراشه.
- أنت ماذا تسرق؟ وكأنك جئت لاختطاف عروس.
علا صوت جانبولات مخترقاً السكون، تعثر الفتى من المفاجأة وكاد أن يقع.
- آ.. إنني .. ألم تنم بعد؟
- نم .. نم لم يعد هناك كثير من الوقت حتى الصباح.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان الظلام لايزال حالكاً عندما انزلقوا إلى القرية وعبروا النهر. مع حلول الفجر كانوا يرتقون إحدى السلاسل الجبلية المغطاة بالغابات. كان كوانتشه يسير في المقدمة قابضاً على لجام جواد سيده بجدية مفرطة، وبحماس شرح كوانتشه الخطوات اللاحقة هامساً.
- أمامنا الآن منخفض مثل راحة اليد المنقبضة. على جانبولات أن يتوجه إلى الجهة اليمنى وعليه أن ينتظر هناك، قبل النهاية بقليل. خلف الإجاصة القديمة ذات الساق الدائرية، هناك تنمو النباتات البرية. سوف تظهر الأيائل بالتأكيد وربما الغزلان وأحياناً الدببة. أما أنت يا باتي فاذهب إلى الطرف الأيسر وهناك

قبل النهاية سوف ترى صخرة كبيرة تشبه الكلب الراقد بعد وجبة طعام دسمة. انتظر هناك ولا تتحرك. أما أنا فسوف أنتظر قليلاً، ثم أهبط إلى الأسفل على الجواد، وسوف أفتعل ضجة. والملتقى عند مكان جانبولات عند الإجاصة، حسناً، جيد.؟
- لقد فهمناك جيداً أيها الزعيم - قال جانبولات مبتسماً.
- حسناً.. جيد؟ - قال قوباتي متصنعاً الجدية.
شد كوانتشه أذن قوباتي، أما الآخر فأخذ أنف كوانتشه بأصبعيه. لينتهي هذا المجلس الحربي ولتتجه القوات إلى أماكنها على حين بقي القائد في مكانه.
تقدم قوباتي بسرعة وحذر على العشب الذي بالكاد كان ظاهراً. لم تكن الغابة قد خلعت بعد أوراقها بالكامل. من بين الأوراق تراءى له عن بعد نهاية المنحدر. وظهر الحجر الرصاصي. كان حجمه كحجم دب صغير، وفي الواقع كان يشبه كلباً نائماً بشكل لا يصدق. كانت هناك آثار أقدام كثيرة، صغيرة وكبيرة فوق العشب حول الصخرة. على بعد عشرة خطوات كانت هناك شجرة دلب مستلقية. جلس قوباتي على جذع الشجرة ووضع سلاحه مسنداً سبطانته إلى الشجرة. لقد آثر جانبولات أن يأخذ قوسه والنبال وأعطى البندقية إلى ربيبه. أرهف الفتى السمع لعل أصوات جلبة الوحوش تنبعث من الأسفل ولكن كل شيء كان هادئاً، وما كان لشيء أن يخرق الصمت. التفت قوباتي مرسلاً أنظاره الشاردة باتجاه الجبال لتصيبه دهشة كادت أن تخنقه. لقد كانت الأشعة الأولى للشمس تمس القمة الأعلى للجبل، وبدا الثلج الأبدي لسلسلة الجبال القفقاسية، وكأنها ترسل شعلات ذهبية لطيفة. أصبحت السماء أكثر سطوعاً وشفافية. وتغير لونها في لحظة من رصاصية باهتة إلى زرقاء شاحبة. وتلونت الغابة تحت الفيض الشمسي بخضرة صافية. وأية غابة كانت؟ اختلف الهواء كلياً. أصبح معتدل البرودة، رطباً. وهو الآن يمتلئ بنضارة مرحة لا يدرك سببها. كان قوباتي يعب من هذه النضارة والقوة بجرعات كبيرة. أحس أنه لن يرتوي منها أبداً.

أحس أنه الآن في أحسن أحواله، وطغى عليه شعور رائع، شعور بالمرح وهو يدرك أن أمامه تنتصب أروع أرض في الدنيا. وهنا تذكر سانا. لا لقد أحس بها وبوجودها في كل مكان، إنها تحيط به. وهي هناك في السماء حيث اختفت الأخوات السبع. وكانت هنا ضمن لعبة الشمس مع الأوراق الخضراء الجديدة. وهي تأتي مع هبات النسيم العليل. وببساطة كل هذا كان يجب أن يكون متعلقاً بشكل ما بسانا، وإلا فلا معنى لهذا الوجود. قفز قوباتي بمرونة ليقف على قدميه. فتح ذراعيه إلى مداهما وراح يعب الهواء بعمق. أراد اعتلاء الصخرة حتى تستطيع عيناه التقاط أوسع صورة للأرض التي يعانقها للمرة الأولى في حياته. وتتحول وبغض النظر عن عظمتها إلى جزء من كيانه.
هكذا يجب أن تكون الأمور ، ولن تكون إلا هكذا.
اقترب من الصخرة الكلب، فجأة لاحظ شيئاً لم يكن قد رآه من قبل. كانت هناك أمام وجه الكلب وقرب رقبته دجاجة مسلوقة وقطعة جبن وبضعة أقراص باستا. لم يلحق قوباتي من التعجب حتى سمع أصوات أقدام تأتي من الغابة. قفز بمهارة قط إلى الشجرة، التقط سلاحه وقبع خلف جذر شجرة الدلب المخلوعة.
ظهر عند الحجر عجوز اعتمر قبعة شعثاء، ورداء من الصوف الطويل، يبدو له من العمر ما لعمر صاحبه. كان العجوز يمسك كيساً جلدياً بيد، وباليد الأخرى حمل عكازاً طويلاً. تلفت العجوز العجيب حوله بحذر. كانت عيناه غاضبتان وفيهما القليل من الخوف. اختطف الدجاجة والأشياء الأخرى لتختفي في الكيس الجلدي ثم أسرع مبتعداً عن المكان.
تبعه قوباتي بناظريه وهو في حيرة من أمره، كيف يفسر ما رأى؟ كان عليه الإختباء مرة أخرى عندما اقترب آخر من الصخرة الغريبة "إنه مكان مناسب جداً للصيد" فكر الصبي ثم ظهرت خلف الصخرة امرأة عجوز ترتدي ثياباً فقيرة لكنها نظيفة. صفقت العجوز بيديها فرحة وراحت تدعو وتقرأ بصوت مسموع:

- قبلتها ، قبلت حصتك يا أيتها الكلبة المقدسة ديغوليبخ السعيدة. لم ترفضي أضحيتنا الفقيرة يا حاميتنا.
انحنت العجوز باحترام وهي تمسح بيدها على الحجر الكلب.
عندما فهم قوباتي الأمر، بالكاد كتم ضحكته. لقد سمع في طفولته عن الحجر المقدس الذي يشبه الكلب، عن ديغوليبخ الذي تحترمه النساء خاصة. وهو صدى ذلك الزمن الغابر عندما كانت الكلاب والذئاب تعبد بصفتها آلهة الحيوان وراعية لهم.
في هذه اللحظة صدر صراخ مزدوج ، صراخ وصدى كوانتشه.
الآن وفي أي لحظة يمكن أن تظهر الطرائد. لقد ضجر الفتى من الإختباء، لذلك توجه مباشرة إلى حيث العجوز.
حيا قوباتي المرأة بحرارة وهو يتصنع التعجب وكأنه لم يكن ينتظر أن يرى أحداً هنا في مثل هذه الساعة المبكرة.
- جدتي هنا سوف يبدأ الصيد ، سوف يظهر على هذا الطريق دب أو خنزير.
- فهمت يا بني - لم ترتبك العجوز أبداً - سوف أختفي الآن هناك خلف الشجيرات وسوف أنتظر.
- تنتظرين؟
- وكيف لا؟ ألست شاباً أديغياً؟ ألا تعلم أنه عندما يقابل الصياد إمرأة في الغابة عليه أن يقدم لها أفضل جزء من غنيمته.
- أعلم ، أعلم - أجاب قوباتي متعجلاً.
- إذاً حاول أيها الفتى الهمام أن تسدد على خنزير سمين - قالت العجوز ما قالته وهي تتوجهة للاختباء خلف الشجيرات.
" عن أي خنزير تتحدَّث... - فكر قوباتي - أه ، نعم إنها ليست مسلمة. "
تردد صياح كوانتشه مرة أخرى. ثم لمرات عديدة، وأخيراً رفع عقيرته بأغنية بلقرية، كان صوته يصل مشوشاً وكأنه قادم من أغوار قبر عميق.

سمع قوباتي صوت خشخشة الأوراق المتساقطة تحت حوافر حيوان. وهناك وعلى طرف المنحدر قفز أيل وتوقف بحدة. رمق الصياد بنظرة رائعة مطمئنة.
صوب قوباتي باتجاه الحيوان عندما رأى أيلاً صغيراً يتبع أثر أمه على الدرب العشبي، وهو بالكاد يقف على أقدامه النحيلة المرتعشة. كان الأمر قد فات فالإصبع قد ضغط على الزناد، وبرعب أحس قوباتي أنه يرتكب عملاً مشيناً سوف يخجل منه ولا يمكن إصلاحه. كيف يمكن ارتكاب مثل هذه الغلطة، إنها أنثى والأدهى أنها مع رضيعها. لكن الطلقة لم تخرج من الماسورة. الحمد لله لقد نسي قوباتي أن يحرر مسمار الأمان. أنزل سلاحه، أما الأيل فقد ولى هارباً.
جلس قوباتي متحفزاً من جديد. هذه المرة لم ينس رفع المسمار، أطرق بسمعه، تناهى إليه صوت حفيف الأعشاب وحوافر عشرات الحيوانات. كانت المرة الأولى في حياة قوباتي التي يرى فيها هذا العدد من الخنازير المتدافعة، لم تكن تبدو عليهم العجلة وأثارت هذه الحيوانات الظريفة الضخمة فضول قوباتي بثقتها بنفسها حتى أنَه كاد أن يتأخر في إطلاق النار. وأخيراً سدد ثم أطلق لتستقر الطلقة تحت الأذن مباشرة حيث صوب تماماً. أما باقي القطيع فقد انطلق مضاعفاً من سرعته ، دون أن يعطي قوباتي الفرصة لشحن بندقيته من جديد.
اقترب الصياد من طريدته، كانت أول غنيمة حقيقية له، الغنيمة الأولى التي لا يحتاجها.
- قل لي بسرعة أيها الهمام ، أي جزء سوف تهديني؟
- أه ، نعم ، خذيه يا جدتي - تبسم قوباتي - ولكن ماذا ستفعلين به؟
- نعم ، أفهمك - أدركت العجوز - أنت من أولئك الذين أصبحوا يتجنبون لحم الخنزير الشهي أكثر من تجنبهم الكلاب المسعورة. أما بالنسبة لتقطيعه فلا تهتم، فهنا غير بعيد يعيش آخر شوجن في منطقتنا وهو لم يفارق عكازه بعد . سوف يساعدني، وسوف

أقتسم الخنزير معه . هو سوف يُحضر اللحم المدخن لي و له، ورغم أن إيوان يؤكد أن أحد الأرواح المقدسة يقدم له الطعام ولكنه لن يرفض ضيافتي له.
عندما انتهت العجوز من حديثها تذكر الفتى لحم الأضحية التي كانت عند ديغوليبخ فلم يستطع أن يكتم ضحكة صدرت من أعماقه.
- ابتسمت العجوز معاتبة :
- أيها الفتى، أنت طيب القلب ومرح، والحاجة العجوز تحب أمثالك ولكن لا يجوز أن تهزأ من أفكار غيرك ولا بأرباب الآخرين، حتى ولو كانوا من الوثنيين. إنني أفضل آلهتنا القديمة فلقد كان أجدادنا يعبدونها ولست أفهم أولئك الشبان أحفادنا الملتهبين الذين يجبرون حتى مزتحة على البكاء ، إذا كان إلهك الجديد عظيماً فبماذا تضره تلك الأصنام الخشبية المسكينة المهترئة. إن العظيم لا يقارن بعجوز شمطاء.
- لا..لا.. إنني لم أهزأ بأية عقيدة يا جدتي لقد كنت أضحك لسبب آخر تماماً - استطاع الفتى أن يصوغ عبارته أخيراً - أما الآن فوداعاً أيتها المرأة الطيبة فهناك من ينتظرني. أسرع قوباتي صعوداً.
- فليكن النجاح حليفك - صاحت العجوز خلفه.
دار قوباتي مسرعاً حول الوهدة ولاحت له من على البعد أغصان شجرة الأجاص البرية، بسرعة ودون أن يحيد عن الطريق اختصر المسافة إلى مكان اللقاء المتفق عليه.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان كوانتشه يقوم بتقطيع غزالٍ سمين فتي لم ينمو كامل قرنيه بعد، يغطيه زغب داكن أصفر كثيف.
- أوو جانبولات - قال قوباتي بتقدير.
- السهم في القلب تماماً - أردف كوانتشه.

- وأنت يا أخي الصغير ما هي مناسبة إشعالك البارود - سأل توزار - أين الغنيمة؟.
لقد أهديت صيدي لعجوز داهية ولآخر أشد دهاءاً منها يدعى إيوان، وعلى الأرجح هو آخر شوجن أراه في حياتي. كان الفتى مرحاً ومتحمساً. رفع جانبولات حاجبيه باهتمام وهو يستمع إلى تفاصيل الحدث من قوباتي، وراحت الضحكات والتعليقات اللاذعة تلاحق قوباتي للوضع الحرج الذي وجد نفسه فيه رغم إرادته. بدا توزار منشرحاً وهو يقول:
- لقد أصاب الخنزير خطر حقيقي، اذهب وساعد كوانتشه.
وضعوا لحم الغزال المقطع وجلده المملح في أكياس، وحملوه على الجواد. كان على كوانتشه أن يهرع إلى المنزل، فالوقت ضيق ولا بد من معالجة اللحم قبل أن يفسد. قرر جانبولات وقوباتي أن يتريثا على طريق عودتهما وأن يقضيا بعض الوقت في الغابة. خاصة وأن الطقس رائع، وهما يعرفان طريق العودة ولن يضلا الطريق.
إلى جانب النهر، كان ثمة درب يتجه إلى شمال السفوح الجبلية المغطاة بأشجار الدلب والبطم، على حين كانت زمجرة تشيغم تسمع من الغرب.
من هناك سمع أبطالنا أصوات حوافر تتسارع مقتربة. كانت أشبه بأصوات حوافر غزلان أو جياد. وتبين أنهما محقان في استنتاجهما الأول والثاني. ففي البداية ظهر بين شجرتين غزالان أشقران مبرقعان، ومن ثم ظهر الفرسان خلفهما.
- من هذا الذي يلعب لعبة الصياد مع الأيائل الصغيرة؟ - سأل جانبولات.
في مقدمة الفرسان امتطى رجل جواداً أسوداً. كان يرتدي لباساً لا يتناسب وملابس الصيادين. كان سميناً، عيناه جاحظتان كما الحصان المتعب، مع وجنتين لم يكن ظاهراً بينهما الأنف المفلطح القصير.

تعرف جانبولات على الرجل، ومن دون أن يفكر بالعواقب قفز بحدة ليقطع الطريق على جواد الرجل. قبض على لجام الحصان، جذبه باتجاهه بقوة. دار الجواد على نفسه، وبالكاد استطاع أن يحافظ على توازنه، لكن فارسه كان قد طار من على ظهر السرج ليقع مثل كيس ممتلئ على الأرض الطرية.
سارع الفارسان الآخران لمحاصرة جانبولات، امتشقا سيفيهما، كانا من نبلاء القبردي ومن الواضح أنهما يرافقان الضيف الكبير. ومن المؤكد أنهما على استعداد لمعاقبة من تطاول على ضيفهما المبجل بشدة، ولكنهما لم يدركا مع من يتعاملان.
في البدء هاجم الفارسان جانبولات دون أن يلحظا أو أنهما لم يأخذا الشاب الصغير على محمل الجد.
صد جانبولات ضربات سيفيهما ببرودة أعصاب، حاول النبيلان الإطباق عليه من الجانبين، لكن جانبولات وبحركة مفاجئة قفز ليستقر على ظهر أحد الجوادين، ثم وبضربة من يده التي تحمل السيف وجد الفارس نفسه مرمياً على الأرض. كان النبيل الثاني يتحرك بسرعة ليضرب ضربته القاضية عندما أحس فجأة بقوة لا تفسر تختطفه وتقتلعه من على ظهر جواده.
- ارم سلاحك - همس أحدهم في أذنيه - وإلا كسرته.
لم يدرك النبيل تماماً ماذا يقصد بكلمة كسرته، السيف أم فقرات ظهره، لذلك آثر أن يرمي السيف ليطلقه قوباتي ويصبح حراً على قدميه. التفت النبيل.
- صبي - فتح النبيل فمه وزفر بشدة - قوي وضخم لكنه صبي.
- سيفك رائع - قال قوباتي باختصار وفك حزام الفارس المقهور.
- الآن سوف يخدم هذا السيف الصبي، لأن الرجل لم يستطع المحافظة عليه أما خنجرك فهو يشبه خنجري ولكن لا بأس سوف أقدمه هدية لصبي آخر صديقي.
صدرت من حنجرة النبيل حشرجة متأسفة، ثم ركض إلى أقرب شجرة ورمى بقبعته ليضرب رأسه الأصلع بجذع الشجرة.

نظر قوباتي إلى جسد الرجل الذي تمدد تحت الشجرة والدماء تنزف من رأسه ثم التفت نحو جانبولات.
- لماذا فعل ذلك؟
- ألم تدرك بعد؟ عندما يجدونه مجروحاً فاقد الوعي لن يُسأل عن شيء - رفع جانبولات كتفيه باستخفاف - كلٌ يهرب من الإهانة على طريقته.
- وهذا ما به؟
- سوف يحيا رغم أنني مسحت على رأسه بقوة أكثر مما أردت.
دوى طلق ناري قريب جداً.
رفع قوباتي يده بحذر إلى أذنه اليمنى، أحس بالدماء بين أصابعه. اصفر وجه جانبولات وصرخ:
- باتي...
للمرة الأولى يرى حاتاجوقه قوباتي رعباً في عيني مربيه. لكن جانبولات استعاد رشده وبقفزتين كان خلف التتري السمين. كان الأخير جالساً على الأرض وقد ألقى جانباً بالبندقية التي استعملها للتو واستل غدارة. بركلة من قدم توزار أطاح بالغدارة من يده. وثب الباشا وصاح بالتترية بصوت ثاقب.
- سوف تدفعان حياتكما ثمناً لهذا.
كانت عيناه الخضراوان الجاحظتان تلمعان، وبالكاد بقيتا في محجريهما. أما خداه السمينان فكانا يرتجفان تأثراً.
- هل تعلمون من أنا؟ سوف ترتعدون رعباً عندما تسمعون باسمي.
- لن نموت - أوضح جانبولات - نعرف من تكون يا عليغوت باشا.
التفت توزار إلى باتي.
- كيف حالك يا فتى؟
- لاشيء - باستخفاف أشار بيده - أعتقد أن نصف أذني قد قطعت.
- الحمد لله.

- سوف تموتان بفظاعة، سوف تموتان هذا ما تستحقانه. لا تلمساني أنا سرعسكر الخان العظيم، نائبه في القفقاس.
- نعلم، نعلم ذلك - قال جانبولات بلهجة هادئة - وبما أننا استحققنا الموت القاسي على كل حال فإننا سنحطم لك ذراعيك يا باشا.
انتزع من التتاري قوساً رائعاً كان يتأرجح خلف ظهره، وكذلك حزاماً عريضاً ثُبت عليه خنجر وسيف.
- انظر يا أخي الصغير، إنه سيفي، لقد عاد إلي سيفي الدمشقي، عاد إلى صاحبه، انظر إلى أي حضيض انزلق هؤلاء الباختشيساريون اللصوص.
- نعم إنه ذاته - فرح قوباتي - ولكن الغمد جديد.
- طبعاً، وهل تظن أن ذكر الخنزير هذا قادر على أن يتحزم بمثل هذا السيف فوق كرشه. ثم انظر إلى هذا الخنجر وسوف تعلم من قام بزخرفته.
- أوه المسكين خيلار - قال قوباتي - وكيف لا أميز عمله؟
- اللعنة والموت ستحلان عليكما.
عاد عليغوت باشا إلى إطلاق تهديداته من جديد، لكن جانبولات لم يدعه يسترسل.
- إن لم تخرس، سوف أغلق فمك الباختشيساري بحذائي، هل فهمت؟
ثم أنه دس يده إلى داخل ثوب الباشا المصنوع من الديباج وأخرج من هناك محفظة نقوده. تنهد عليغوت باشا بألم.
- اسمع يا أخي الصغير - توجه توزار إلى قوباتي - إنه يبكي وكأننا انتزعنا منه روحه لا نقوده.
- ربما كانت تلك النقود هي روحه؟ - سأل الفتى ببساطة - حتى إنه لا يرغب بمفارقتها بسهولة.
- يبدو ذلك. اجلب الجياد. من الغريب أن هذا التركي الأصل لم يمتط حصانه الأبيض الأصيل. ربما يحتفظ به للرحلات الاستعراضية.

- إن غاباتكم المتوحشة ليست مخصصة لمثل تلك الجياد الكريمة إن هذا الحصان أهداني إياه الأمير عليغوكه، ويجب أن تحذروا غضبه الآن.
- سبع سنوات مرت ونحن نخاف من غضبه - ابتسم جانبولات - إذا كنت تهددنا بالموت يا باشا لأنك طرت من على سرجك، فهل علينا أن نخاف أشياء أخرى. إنك إذا أكلت حبة ثوم واحدة لا تتوقف، والتهم رأس الثوم كله لأن رائحة الحبة ورائحة الرأس واحدة، لا فرق .
- وعلى هذا نستطيع الآن قتلك.
- ولكنك مسلم، وتتكلم التترية وكأنها لغتك الأم - راح الباشا ينتحب - إن غضب الله سوف يقع على رأسك من أجل هذه الجريمة المروعة.
- بما أن اللعنة حلت على رأسك أنت يا باشا فالله إلى جانبنا.
وقبل أن يمتطي جانبولات وقوباتي جواديهما دفعوا بالتتاري البدين إلى المنحدر الشديد لكسب بعض الوقت ليبتعدوا. وتركوا الحصان الثالث دون مطاردته.
في طريق العودة فكر جانبولات أنه أصاب هدفين من ثلاثة كان قد ناقشهما مع قوباتي، الأول أنهما وجدا مكاناً للإقامة المؤقتة، ما كانا ليجدا أفضل منه. والثاني لقد حصل الربيب على كسوة فارس حقيقي، حصان أسود رائع (فعليغوكه لن يجرؤ على أخذه من ابن كورغوقه) وخنجران رائعان مع سيف وغدارة وقوس محترم، وأسلحة قيمة أخرى. وأخيراً هناك المال اللازم لشراء ثياب نفيسة له ولربيبه. ولا بد في النهاية أن تتبقى بعض القطع النقدية حتى يروح الفتى عن نفسه فيسكب النقود ويجعل منها حلية مبتكرة يزين بها لجام جواده. وهذا ما تم. لكن لقوباتي خطط موازيه. أقنع مربيه ان يأخذ قطع النقود وأن يعطيه بالمقابل البندقية التي سوف يحتفظ بها كذكرى عزيزة على قلبه مدى الحياة. ثم أنه أراد أن يتنازل عن الغدارة ليموز وأراد أن يهدي كوانتشه سيفاً وخنجر.

وجدوا بعض الحجارة الكريمة في محفظة عليغوت. قام الفتى بتزيين حزامي سانا ونالجان بحجرين كريمين وصنع للصبية حلية رائعة مزينة بأربع حبات من الفيروز.
يبقى الهدف الثالث - فكر توزار - أن يعد العدة للقاء معتبر مع الأمير حاتاجوقه ليطهر نفسه من الافتراءات القذرة. ولينظر إلى القبردي بثقة. أما بالنسبة للنبيل عليغوكه فهذا أمر خاص بينهما وقد يخص الأمير حاتاجوقه.
لم يهتم جانبولات بموضوع عليغوت باشا فالأمر بالنسبة له سيان لأن الحرب إن لم تبدأ اليوم فغداً، وهذا أمر يعلمه جيداً. أما اليوم فلقد انتهى جانبولات من إعداد قوباتي الذي أصبح شاباً رائعاً طيباً وذكياً، أصبح قبردينياً متفانياً. ويمكنك يا توزار أن تفخر به فلماذا أنت حزين؟

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

استقبل يموز جانبولات ورفيقه عند البوابة مصفقاً بيديه.
- هنيئاً لكم صيدكم الموفق أيها الأصدقاء، أرى أن طريدتكم كانت تتارية.
خرج كوانتشه من الدار راكضاً وبالكاد تجنب الوقوع من فرط التأثر.
- جيد، حسناً - قال قوباتي غامزاً.
هزت نالجان رأسها بعتاب رغم سعادتها الواضحة. أما سانا فقد ألقت نظرة خاطفة من باب غرفتها على قوباتي وسرعان ما أسدلت رمشيها وأطرقت برأسها.
- ادخل إلى الدار يا أخي جانبولات - قال يموز باستعجال - عندنا اليوم ضيوف.
دخل جانبولات غرفة الضيوف. تلكأ قليلاً عندما نهض لاستقباله ذلك الرجل صاحب الرداء الشركسي الأسود الذي صحبهما على ظهر السفينة التي أبحرت بهما من القرم.

- لقد أصبح اسمك مشهوراً بما فيه الكفاية يا ابن قارالبي توزار- قال الرجل بهدوء - أعلم أن حياتك لم تكن سهلة، أما إسمي فقازانوقه جباغي.
" هذا افضل - ابتسم جانبولات - هذا يعني كلامٌ اقل واستماعٌ أكثر "
تحدث الرجال الثلاثة حول أمور كثيرة. جرى الحديث هادئاً شارك فيه قوباتي. لقد أراد جباغي أن يسمع من فم الفتى قصة اللقاء العاصف الذي جرى بين إسماعيل حاتاجوقه وأخيه القاتل وعليغوكه.
- إذاً هذا هو المسؤول الحقيقي عن الحوادث المشينة - قال جباغي - إن تحريض عليغوكه المستتر كان أحد من نار ومن خنجر.
- لقد أدركت ذلك متأخراً - تمتم جانبولات بعبوس.
- ألن ينال هذا الآثم في النهاية ما يستحقه نتيجة لأعماله؟ - سأل يموز بسخط متوجهاً إلى جباغي.
- يجب أن يلقى جزاءه، ولكن يصعب التكهن بالطريقة، فرغم أنه لا يتمتع بشعبية ولا بتأييد باقي الأمراء، ورغم أن حاتاجوقه بعد أن يفتح عينيه سوف يكرهه أكثر، إلا أن عقابه ليس سهلاً فهو الصديق الأول لسرعسكر الخان المتغطرس الفارغ عليغوت باشا.
- أنا أعلم الطريقة التي سوف يعاقب بها - ابتسم توزار بخبث - وبكل الأحوال لن يغمض لعليغوكه جفن طالما أنا على قيد الحياة. أما بالنسبة لعليغوت باشا ذلك السمين فإنه يتمنى لو يرى رأسي منفصلاً عن جسدي. لهذا يجب أن أسارع إلى النيل من عليغوكه قبل أن يسرع هو إلى السرعسكر.
غرز قازانوقه جباغي سكينه في قطعة لحم الغزال الممتلئة وبشرود قال:

- هنا يا صديقي لا أستطيع أن أساعدك. لقد تمكنت حتى الآن أن أقارب بين الكثيرين ممن بينهم ثأر ودم. وعلى ماذا اختلفت مع عليغوت باشا؟
- لقد اصطدمنا به مرتين. الأولى في باختشيسراي عندما تقاسم عليغوت باشا مع رجاله كل ممتلكاتنا وأرادوا تقطيع أجسادنا. والثانية هذا الصباح، لكن الأمور هذه المرة جرت حسب ما نشتهي. فعتاد عليغوت باشا وسلاحه ومتاع رجاله، كانت غنائم لنا، هكذا نكون قد انتقمنا من عليغوت باشا.
- انظروا جلد أي خروف سلخ - قال يموز وهو ينظر إلى جانبولات - وهل قتل؟
- لا .. لماذا؟ لقد أبقيتهم أحياءاً. لم أستطع قتل الباشا لأنه لم يستطع القتال مثل باقي الرجال. ربما قتلته لو أنه جرح ربيبي جرحاً حقيقياً لا أن يمسه بخدش. ولكن هذا الجبان ولله الحمد على ذلك تبين أنه ليس رجلاً. ولكن أعترف أن أسلحته رائعة.
شرب يموز كأس الماخسمة دفعة واحدة ثم مسح شاربيه بكفه.
- وأنا الذي ظننت أنه جرح نفسه بغصن شجرة.
سكت يموز قليلاً ثم قال متسائلاً.
- ألن يصعد السرعسكر الآن من استفزازه وآثامه؟
- نعم سوف يذهب إلى هذا - قال جباغي - ولكن ليس لأنه تعرض اليوم إلى اعتداء. إنني على علم أن خان القرم إن لم يكن اليوم فغداً سوف يزيد الجزية القديمة المفروضة على الأديغه إلى عشرة أضعافها.
- عشرة أضعاف!! - بهت يموز - ولكن هذا مستحيل إننا من دون هذا نكاد أن نموت من الفاقه.
- نعم مستحيل وهذا سبب يكفي لنشوب الحرب - أتم توزار حديث جباغي - إنني أشم رائحة الحرب مثل كلب يحس بفريسته التي يفصله عنها خمسين خطوة. لا تنسوا أنني عائد للتو من القرم.

ـ وأنا عائد للتو من تركيا ـ قال قازانوقه ـ إن حرب السلطان ضد قيصر روسيا لا مفر منها. رغم أن سفيره الروسي في استانبول لا يبخل بالأموال التي يوزعها على موظفي السلطان لكي يؤخر بداية الحرب. لقد قابلت ذلك السفير. لقد أخفى في جيوبه كما يشاع عنه في السفارة نصف المائتي ألف ذهبية المخصصة لتأجيل الحرب. أما السلطان أحمد الثالث فلم يتعبه استعراض قدرة قواته. وهو يقوم كل يوم برفقة مجموعة من السفراء الأجانب مع حشد من الجماهير بالخروج إلى خارج المدينة، ويدهش الجميع وهو يرمي بالنبال، هذا من أجل رفع الروح المعنوية . يقولون لا أحد غيره في هذا العالم استطاع إطلاق السهم لمسافة تبعد عن الألف قدم. إنه مثل ذئب ناغوي متوحش. ولكن هذا ليس حديثنا. المهم هو التحضير لملاقاة الهجوم التتري المرتقب. هذا هو عملنا اليوم .
ـ إذاً فالجزية المعهودة لم تعد تكفيهم ـ قال يموز بتفكر.
ضرب توزار ركبته وقال :
ـ لماذا عليهم أن يأكلوا قطعة من القرص في كل عام. إذا كانوا قادرين على التهام القرص كله دفعة واحدة.
أخذ يموز من المنضدة قرصاً سليماً وبدأ يتفحصه.
ـ ألن يغصوا؟
ـ نعم سوف نسحقهم ـ قال جباغي ـ وخاصة إذا قام الروس بمساعدتنا كما حصل أكثر من مرة.
دخلت نالجان الغرفة حاملة المنضدة ذات الأرجل الثلاثة وقد توضع عليها لحم عنزة فتية يتصاعد منها البخار، ومن خلفها سانا ومن ثم قوباتي. كانت أذنه مضمدة بقطعة من القماش الأبيض المشبع بالعسل.
سارع الفتى بمساعدة الفتاة إلى جمع بقايا لحم الغزال، ثم اختفيا خارجاً ليدخل كوانتشه جالباً المياه العذبة وشراب المارماجيه القوي. لينتهي بذلك الفاصل الصامت القصير الذي رافقته

ملاحظات ودعابات الرجال، وابتسامات وضحكات النساء الخجلى. ليعود الرجال الثلاثة لوحدهم من جديد.
- أخي جانبولات اسأل عزيزنا جباغي بماذا تذكره هذه العنزة - ابتسم يموز بطيبة - اسأله فربما تسمع منه شيئاً ممتعاً.
- وهل يستحق أن نتكلم عن هذا يا عزيزي يموز - أشاح جباغي بيده بخجل.
- ولكن ما هو الأمر؟ - عاد النشاط إلى جانبولات.
- لا، ليس من المستحب أن أتكلم عن هذا - قال جباغي بتواضع.
- إذاً سوف أروي القصة بنفسي - قال يموز - أنت تعلم أي رأس يحمله ضيفنا، وها هو الآن ينهره متبرماً. وهو يخدمه حتى في تلك الأمور التي قد تبدو مضحكة، علاوة على الأمور الخطيرة. ومن هذه الحوادث التي لها علاقة بالعنزة، نعم عنزة ولكنها حية وليست عنزة مطبوخة.
كان لدى أربعة فلاحين عدة مناحل وعنزة يتشاركون في امتلاكها. وبانتظار ترعرعها حتى يتم ذبحها وتقاسمها، قرر الفلاحون أن يختص كل واحد منهم بجزء منها. وهكذا وزعوا العنزة بحيث نال أحدهم قدمها اليسرى الأمامية، والثاني قدمها اليمنى الأمامية، وحصل الآخران على الأقدام الخلفية. ومرت الأيام إلى أن أصاب قدم العنزة الخلفية اليسرى جرح أقعدها. فقام صاحب تلك القدم بتضميدها . لتعود العنزة إلى لهوها قافزة على أقدامها السليمة الثلاثة. لكن حدث ولسوء الحظ أن اقتربت في إحدى الأمسيات من موقد نار، ليصل اللهب إلى قماش الضماد. اشتعلت النار. قفزت العنزة المسكينة وهي تصيح من الألم في أرض المنحلة لتنتقل النار إلى العلب الخشبية. وهكذا احترقت جميع المناحل. وهنا قام الفلاحون أصحاب الأقدام السليمة للعنزة بالقاء اللوم على الفلاح الرابع صاحب قدم العنزة المصابة، وحملوه مسؤولية الدمار الحاصل، وطالبوا بتعويض خسائرهم. كان حكم القاضي العادل وريدادا ينصب في مصلحة المدعين، جرى نقاش حاد بين أفراد القرية، بين من يرى رأي

القاضي وبين من يستهجنه، إلى أن ظهر جباغي. طلب القاضي من جباغي إبداء رأيه في هذه المسألة . قال جباغي:
"لقد حملت الأقدام السليمة النار ولم تشارك القدم المصابة في نقل النار مما يعني أن المسؤولية تقع على أصحاب الأقدام السليمة وعليهم أن يعوضوا خسارة زميلهم".
وافق أهل القرية بالإجماع على حكم قازانوقه الحكيم.
ضحك جانبولات بكل جوارحه.
- إن مثل هذا الحكم كمثل من أطلق سهماً على قطيع كامل ليقع السهم على طائر يطير.
- هذا كثير يا بن توزار الطيب - قال جباغي معاتباً بلطافة.
غير أن الملاحظ يرى أن كلمات المديح الصريحة وإن لم يتقبلها عقل جباغي إلا أنها وجدت لنفسها طريقاً إلى قلبه.
عند الصباح ودع قازانوقه يموز وسكان منزله، وطلب من جانبولات انتظار أخبار منه، وهي على الأرجح ستكون أخباراً سارة. واستعد جباغي للتوجه فوراً إلى الأمير كورغوقه.
وهكذا سوف يصبح وضع توزار جلياً خلال عدة أيام

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

مرت أيام عدة ولم يظهر رسول جباغي. تفتحت الأوراق وأزهر التفاح في حديقة يموز وكذلك الخوخ، وأصبحت الشمس أشد توهجاً. وتحولت المنحدرات القريبة من السفوح إلى امتدادٍ أخضر لأشجار البطم والدلب والحور. وكان نهر تشيغيم عاصفاً في مجراه وكأنه يزمجر غاضباً، مما يعني أن الثلوج في أعالي الجبال بدأت بالذوبان، وها هي السماء تجتاحها طبقة من الغيوم تغطيها لينهمر وابل من المطر.
لقد بدأت المخاضة تضيق، فالمياه الغزيرة تكاد أن تقتلع الجسر المنتصب عبر النهر. وهو غير مستقر أصلاً. لقد كان صوت

النهر مدوياً وخاصة في الليل، حيث يضج جارفاً في قعره المتعرج الصخور الملساء.
قضى قوباتي الكثير من وقته في ورشة يموز فهو إما يساعده في عمله أو يقوم بصناعة أدواته. كان يتنزه مع جانبولات في الغابة يومياً، حيث كانا يمارسان الرماية. وكانا يكثران من صعود التل حيث التقيا بنالجان. لم يكن جانبولات ثرثاراً ولكنه الآن أصبح صموتاً وكذلك قوباتي ويبدو أن فكرة واحدة كانت تشغلهما .. إلى أي شكل ستتحول علاقتهما. وبأية نظرة سوف ينظر أحدهما إلى الآخر.
لم يكن هناك من جديد بين نالجان وسانا. يبدو على سانا كأنها تريد الإستفسار من عمتها عن شيء ما ولكنها تحجم عن ذلك. من الواضح أنها لم تكن تجد الكلمات المناسبة لذلك. آه لو أن عمتها تحدس بما يدور في ذهنها وتجيبها ليس بالكلمات وإنما بعيونها. ولكن في عيون نالجان الق غير معهود، وأحيانا يومض شرود يائس في عينيها للحظات. لكن في أغلب الأحيان نرى في عينيها قسوة عنيدة لا تتلاءم وشخصيتها.
لقد كانت الفتاة سانا مرحة وتتعايش مع الحياة بيسر واستمتاع. فهي تشرب السعادة مع شمس الصباح الباكر دون أن تفكر بما تحمله الظهيرة، أو ما يمكن أن يتهددها في المساء. ولأنها هكذا فإن سانا سعيدة فوق حدود السعادة، خاصة عندما ترقد في المساء قابضة وبسرية تامة على خاتم بأربعة فصوص كريمة قام بصناعتها باتي بنفسه. آه لو أن أحدهم شاهد يديها المرتجفتين عندما أراد باتي أن يضع الخاتم في إصبعها. لقد أخذ يدها وقال شيئاً لم تستوعبه ورمى الخاتم في راحة يدها واختفى بسرعة في الحديقة. ومنذ ذلك اليوم تحمل سانا في قبضتها ذلك الخاتم. وإذا ما احتاج أمر إلى استخدام يديها الإثنتين كانت تخفي الخاتم في فمها ولم تكن مستعدة لأن تبوح بسرها إلى أحد.
في تلك الفترة كانت نالجان ما زالت واقعة تحت تأثير حديث الأمس مع جانبولات.

اقترب جانبولات من المطبخ بهدوء، أحست نالجان به. التفتت لتراه واقفاً يراقبها. لم تدرك كم من الوقت بقي هناك ينظر إليها. اضطربت بل يبدو أنها اصفرت. وكانت هناك تعابير على وجهه، أية تعابير كانت على وجهه؟
أخيراً ابتسم جانبولات برقة وكأنه مذنب ثم أرخى قبعته على جبينه حتى لامست حاجبيه.
- اخبريني نالجان! إذا كانت وضعية القبعة على رأسي هكذا هل هذا أفضل؟
- لقد بلغت يا توزار عمراً يجعلك تضع القبعة بحيث تمس حاجبيك - أجابت نالجان - بعد أن فكرت قليلاً.
- وأنا أيضا أعتقد ذلك يا نالجان - قال جانبولات.
أعاد جانبولات قبعته على رأسه كما كانت وخرج من المنزل، تاركاً في صدر نالجان شعوراً ملتهباً.
وهذا هو كل الخبر .....

كلمة المراقب المتأمل

١ – منذ القدم لوحظ أن الأرض الطيبة لاتعجب مالكها فقط.
٢ – ولوحظ أيضاً أنه عادة ماكانت تلك الأرض تحت يد مالك سيئ.
٣ – ولوحظ أيضاً أن هذا المالك لا بد وأن يخاصم جاره لسبب ما.

فهما بالتأكيد لن يغنيا ذات الأغنية، ولن يسرجا حصانيهما بالطريقة نفسها، وسيحزنان في أوقات متخالفة ويفرحان في أوقات غير متناسبة. لا بد من تعليم مالك الأرض، ولا بد له من الدفع مقابل تعليمه.

هؤلاء الملاك عادة لا يريدون أن يتجادلوا مع جيرانهم الأقوياء.

- حسناً.. حسناً إن حديثك هو الأصح والأعقل، ودينك ليس أفضل دين فقط، بل هو الدين الوحيد الحق والقويم، كل ماتقوله سليم وأنا موافق معه.

- ولكن كيف هم هؤلاء الذين يمتلكون المروج بالمئات، والغابات الغنية، والحدائق الغناء التي تجري من تحتها جداول المياه الصافية، هل هم مؤمنون معنا؟ أتعتقدون أنهم تقبلوا الدين القيم برحابة صدر في بيوتهم؟ أين الخشوع؟ وأين هو الخوف من الإله؟ لا إنهم ليسوا كما يفترض أن يكونوا. لا بد من تعليمهم، هل هم مستعدون لدفع المبلغ المحدد؟ إذاً لا بد وأن المبلغ قليل. هل وافقوا على دفع أكثر؟ إذاً لا بد وأنهم أغنياء جداً وليسوا كما يدعون.

وفي حال قام مالك الأرض الطيبة بغناء الأغنية غير المناسبة، أو قام بسرج حصانه بشكل مختلف...

- حسناً لقد نفذ الصبر في النهاية. وعلى كل حال هل يستحق هؤلاء الأرض التي يعيشون عليها؟ وهل يجب على أياديهم أن تمتلكها؟ حسناً فليثبتوا لنا ذلك، وليكونوا طلائعنا في محاربة

الجار الشمالي الكافر معوج الساقين. وليخرج كل من يستطيع وضع قدمه في الركاب، ولتستنفر خيولهم كاحتياطي في قوافلنا بعدتها وعتادها، ولتقبع فتياتهم في مرابع حريمنا، و...و...و... ماذا؟ لم يوافقوا وهناك من ضحك مقهقهاً بصوت عال ومفضوح. لا... إنها إهانة لا يمكن أن تمر دون عقاب.
في حالتنا هذه كانت القهقهة تعود لجانبولات توزار. وفي وجه من؟ في وجه سرعسكر الخان. حتى عليغوت باشا وبغض النظر عن غطرسته وشعوره بعظم قدره، لم يعتقد أن الحرب يمكن أن تنشب لهذا السبب، بل إنه لم يفكر بأن يتم تقديم الهجوم يوماً واحداً.
إن أصحاب الأرض الطيبة غالباً ما يرتكبون الآثام عندما يصبح الجار قوياً كفاية وجاهزاً لبدء عدوان مفتوح.
المهم أن الحملة اللصوصية هذه أصبحت مقدرة. ولكن قبل الحملة هناك حوادث مهمة (خاصة بالنسبة لأبطالنا) وستكون هناك أحداث دامية تتعلق بالدرع.

الخبر العاشر

أن تحكم نفسك، خيرٌ من أن تحكم قلعة.

لم يلتق جباغي بالأمير كورغوقه، إذ توجه الأخير مع مجموعة صغيرة من رجاله للالتقاء بعليغوت باشا، الذي أقام مخيمه في مكان ما وسط مجرى نهر بقسان. قرر جباغي عدم اللحاق بالأمير، فذلك مكان لا يتناسب والموضوع الذي سيطرحه. من الأفضل انتظار عودته.

* *

لم يكن الأمير كورغوقه ينتظر أية نتائج إيجابية في لقائه مع السرعسكر. لابد وأن الباشا سيعود مجدداً إلى اللوم والتهديد والمطالبة بالجزية. وسوف يضطر كورغوقه إلى مهادنته وتهدئته. لهذا ساق رجال حاتاجوقه أمامهم قطيعاً من الماشية، وعدة ثيران مع بضعة جياد، من أجل إطعام الباشا ومركبه. كان خروجهم بالأمس متأخراً لذلك اضطروا إلى المبيت على الطريق. عند الصباح الباكر استأنفوا مسيرتهم.
كان عليهم الإلتقاء بالباشا عند منتصف النهار، عند نهاية المراعي على الضفة اليسرى لنهر بقسان. وغير بعيد عن ذلك المكان حيث يصخب النهر متحرراً من ركام الصخور باتجاه السهل.
لم يكن كورغوقه يفكر في لقائه المنتظر وغير السعيد على الأغلب مع عليغوت باشا. بل كان ثمة أمر يشغله. ذلك النبأ الذي هزه عندما سمعه من عادل غيري ومازال يتساءل عن صحته. هل يمكن أن تكون هذه دعابة قاسية أطلقها أحدهم؟ عادل غيري شخص صادق ولكنه لم يستطع أن يصف بدقة المجهولين الذين

التقى بهما في الغابة. ولم يستطع أن يروي أية تفاصيل. لقد كان كورغوقه يخشى أن يتعلق بالأمل وأن يصدق صحة الخبر عن ابنه. إذ أن فقدان الأمل من جديد سيكون ضربة موجعة. ومع ذلك كان الشعور بهذا الأمل يتغلغل إلى ذاته رغماً عنه، ليسكن قلبه ويطغى عليه كما تسكن زوجة في منزل زوجها.

ارتفع قرص الشمس إلى أقصى مداه خلال رحلته النهارية، وراح يشتعل ويرسل حرارته وكأنه يوم صيفي. وأرسلت حوافر الجياد خلفها الغبار الذي جف بعد أمطار ليلة الأمس.

قبل أن يصل إلى ملتقى مياه غوندولين الكريستالية الشفافة مع بقسان المزبد الصاخب، رأى الأمير كورغوقه من على بعد عدة خيوط لأعمدة دخانية كانت تدل على موقع السرعسكر مع حاشيته. ورغم أن مواقد النيران كلها قد أضرمت، إلا أن نصب الخيام كان قد تأخر إذ أن الأوتاد كانت ترفض أن تتشبث بالأرض الصخرية. تربع الخان على أريكته، تحيط به حاشيته، وبالقرب وقف عليغوكه باكتئاب ساكن وقد غض بصره، وإحدودب ظهره، ومد رأسه وكتفيه إلى الأمام بتذلل أمام عليغوت باشا. غير بعيد كان المكان يعج بضجيج مضطرب وتصايح وتبادل شتائم بين أفراد مجموعة السرعسكر. إن هؤلاء المقاتلين البواسل ما كانوا ليتصرفوا بهدوء حتى بحضور الأنبياء.

قبل خمسين خطوة من الباشا ضاعف الأمير كورغوقه من سرعته مقترباً، أحنى رأسه وجمع قبضته اليمنى إلى صدره محيياً.

- فليكن طريق المجد طريقك أيها المبجل عليغوت باشا.

تحرك السرعسكر على وسادته وراح يخرخر بأنفه مصطنعاً رغبة في الوقوف لرد التحية..

- ولتكن كل خطوة تخطوها في القبردي هي رديف سعادتكم وتوفيقكم - أردف كورغوقه.

هنا فقط علم كورغوقه بآخر الأخبار المستجدة. إذ جرت همهمة خافته بين حشد المقربين والمتزلفين أمثال عليغوكه، أما الباشا

القرمي فقد قفز من مكانه، وراح يدق الأرض بقدميه بشكل لا يليق بباشا.
- تقول سعادة؟ وفي كل خطوة توفيق تقول؟ أما أن يتم الإعتداء على السرعسكر الذي حصل على منصبه بمرسوم يحمل ختم الخان نفسه، وسرقته تحت أنفك فهذا أيضاً توفيق، ولكن توفيق لمن؟ طبعاً ليس توفيقاً لصديقك المبجل، إنما لأولئك العابرين الوقحين الذين لا يستحقان أن يشما الزبل من تحت حصاني - احتد عليغوت باشا غيظاً حتى تحول زعيقه إلى ولولة نسائية - كيف سمح الأمير الأكبر، أمير القبردي الكبرى بمثل هذه الدناءة والسفالة؟ أو ... ربما حدثت بموافقته وبمباركته .. آ ..؟
غص الوجيه التتاري بلعابه، وهوى على وسادته اللبادية متهالكاً، ثم أشار إلى عليغوكه بإصبعه ومن ثم وجه إصبعه باتجاه كورغوقه. فهم عليغوكه أن عليه سرد الحوادث المؤسفة على حاتاجوقه.
تقدم عليغوكه شوجنوقه إلى الأمام مسافة نصف خطوة وهو يتحاشى النظر في عيني كورغوقه الثاقبتين وبصوت هادئ حزين بدأ حديثه.
- لو أن يدي اليمنى قد قطعت لكان ذلك أهون علي من أن أقف اليوم في هذا الموقف، وأسرد تلك الوقائع المؤلمة التي جرت في غابة تشيغم - تنفس عليغوكه بعمق - إن مشاعري المتألمة لا تستطيع أن تصبر، وإنها المرة الأولى التي أخجل فيها أن أكون أديغياً - هز عليغوكه رأسه بمذلة - بالأمس عندما كان سيدنا المبجل يطارد غزالاً في الغابة وكان قد هم بصرعه بضربة من يده الجبارة التي لا تخطئ أبداً. هجم عليه اثنان من السفلة في كمين نصبوه له، ثم جردوه من سلاحه وسرقوه. حدث الأمر بسرعة، حتى أن باشانا الكبير لم يستطع أن يرى عيون اللصوص. وإلا لسمرهم في أماكنهم بنظراته النارية الحادة. ولكن ما جرى كان قد جرى بسرعة.
" حسناً، حسناً أنظر أية أغنية تعلمتها"

خلال الأعوام السبعة الأخيرة التقى الأمير كورغوقه بـ عليغوكه لمرتين أو ثلاثة، وكانت هذه المقابلات تأتي بالمصادفة وللحظات دون أن يكون فيها أي تبادل للحديث.
- وعندما عاد الباشا إلى نفسه، كان اللصوص الجبناء قد اختفوا
- أنهى النبيل عليغوكه سرد حكايته.
أما أن السرعسكر لم يكن وحيداً في الغابة فهذا الذي لم يتطرق إليه شوجنوقه بالكلام . ولقد لاحظ كورغوقه أن حديث شوجنوقه كان مرضياً للباشا، بحيث أن هذا الوجيه القرمي الغاضب والمحتد هدأ. ثم أنه عبر عن رغبته في تدخين التبغ التركي النفيس ليطفئ ما تبقى من غضبه.
وعد الأمير حاتاجوقه بتقديم المذنبين إلى السلطات القرمية حالما يتم إيجادهم والتعرف عليهم. ومن المؤسف أنهم لا يعرفون من هم. فقط لو أنه عرف أوصافهم.
عاد عليغوت باشا إلى إطلاق لعناته من جديد. وأمام دهشة الأمير قام عليغوت بكل دقة ووضوح في وصف اللصوص، لباسهم، أعمارهم، قسمات وجوههم دون أن ينسى خسائره، لقد ذكر كل شيء حتى آخر قطعة نقدية أُخذت منه. وذكر أنه رأى الأكبر سناً في باختشيسراي عند زيارته الأخيرة للخان.
- كم أنا آسف لأننى لم أتعرف يومها على إسمه ولقبه. وأين.؟ هناك في القرم كنت قد سحقته كبقة - قال الباشا .
إن القسم الأول من هذا التصريح صحيح، فعليغوت عندها لم يكن يهتم بأسماء الأديغة الذين يعيشون في القرم وإنما بممتلكاتهم. أما القسم الثاني من تصريحه فنحن نعلم أنه ذهب بعيداً عن الواقع. إذ أنه حاول أن يسحق جانبولات ولكن الأخير لم يكن بقة.
أما كورغوقه الذي فقد آخر احترام يكنه للقرمي المتغطرس فقد كان يفكر.

" إذاً أنت لم تلق نظرة على اللصوص؟ من أين جاءت هذه التفصيلات الدقيقة عن أوصافهم؟ ثم هل جرت الأمور كما ترويها حقاً؟"

وبصوت جهوري قال:

- كل الخسارة التي تعرض لها الباشا المعظم سوف نعوضها بل وسوف نزيد عليها، هذا بغض النظر عن إلقاء القبض على المجرمين.

- لن يكون من السهل تعويض الخسارة - تمتم عليغوكه بلهجة متذلفة.

وانتهى الحديث عن رحلة الصيد المشؤومة. تنفس حاتاجوقه الصعداء. في هذه اللحظة وصل قطيع الماشية ورجال الأمير. وزاد الهرج والمرج بين حاشية السرعسكر. حتى أن عليغوت باشا تفضل بالإرتفاع عن مجلسه لإلقاء نظرة على القطيع ليقومه. ولحسن الحظ ولله الحمد حظي القطيع على إعجاب الباشا.

كان من المفترض أن تقام مأدبة فاخرة على شرف عليغوت وخلال الوليمة كان على الباشا أن يشرح سبب زيارته إلى القبردي. ولكن الحديث جرى خلافاً لما هو متوقع وخارج الوليمة وبشكل سافر وحقير.

- الماشية والحيوانات - قال الباشا - بالطبع نحن بحاجة إليها ولكن أيها الأمير - قام بوخزه ببز النارجيلة - يجب أن تفكر بكيفية مضاعفة الضريبة من الشبان الأقوياء والفتيات الحسان، هل فهمت؟

- يا طيب القلب، أيها السرعسكر المتألق لا بد وأنك تمزح - ابتسم كورغوقه بطيبة - ثلاثمائة فتى وفتاة كل عام هذا بالنسبة لنا كثير، لقد أردنا أن نطلب من الخان...

- هنا، أنا الخان - صاح عليغوت - وهو يتكلم بواسطة فمي، المطلوب ثلاثة آلاف نفس فتية وليس ثلاثمائة. وسوف يتم إرسالها إلى القرم منذ الآن. لماذا تنظر إلي وكأنك فقدت النطق؟

يجب على الشراكسة أن يبتهجوا لأن فتيانهم المتهورين سوف يتحولون إلى مماليك حقيقيين يقدرهم السلطان المتوهج كالشمس، الحاكم بأمر الله فليطل الله من عمره، هو سعادة المؤمنين وشقاء الكافرين. أما فتياتكم فيجب أن تحسدوهن على السعادة والنعمة التي سيرفلن بها. وستلدن أطفالاً لأزواج ذوي مقامات رفيعة من قواد وضباط أتراك وتتار، أو موظفين وأعيان هم الجدار الداعم لسلطة الخان والسلطان.

أخذ عليغوت نفساً عميقاً ثم نفخ الدخان مطلقاً غيمه كثيفة دون أن يحرجه أن الغمامة لفحت وجه الأمير مباشرة. الرجل الأكبر سناً منه، والأعرق نسباً.

" لو أبصق على وجهك المتعجرف المكتنز - فكر كورغوقه بأسى - ولكن لا يجب أن أقدم على هذا، يجب أن أضبط أعصابي وأتماسك حتى النهاية. لكن كيف أقنعك بعدم منطقية هذه المطالب العجيبة بالنسبة للقبردي الكبرى والصغرى"

لطالما أحنت المثالية الخيرة المحبة للعدالة الإنسانية رأسها أمام عاصفة الطغيان المدمرة. هكذا كانت الأمور تسير على مد العصور فكلما كان العدوان أعتى كان لابد من زيادة القدرة على المناورة.

- لا، عليغوت باشا الغالي - أعرب حاتاجوقه بلطافة - لا تستطيع القبردي الإقدام على مثل هذه التضحية، فحتى الشجرة الفتية التي تقص أغصانها الفتية تهرم قبل الأوان وتتيبس من جذورها.

- أنتم القفقاسيون تجيدون الكلام المنمق - قال عليغوت متعالياً - وما هي الكلمات الجميلة هذه؟ إنها ثرثرة فارغة! كل شيء سوف يتم كما أسلفت.

عندما قال عليغوت ثرثرة، اضطرب كورغوقه وكأن أحدهم غرس خنجراً فيه فجأة.

- حسناً - بهدوء وصرامة قال حاتاجوقة - ربما كان الأفضل أن أصمت ولكن فلتلطف توسلاتنا إليكم من مطالبكم القاسية تجاه

القبردي المعذب. إنني أركع على ركبتي حاسراً قبعتي عن رأسي متوسلاً من أجل الوطن القبرديني.
خلع الأمير قبعته وجلس على ركبة واحدة أمام السرعسكر. غير أن هذه الوضعية التي حملت نبلاً كريماً، وفخراً أبعد عن الذل أعطت عليغوت باشا شعوراً بالإهانة.
لم يكن هناك مجالاً للمقارنة بينه بجسده الضخم وحركاته الخرقاء، وبين الأمير الجميل الذي استطاع حتى على أبواب الكبر أن يحافظ على تصرفاته الرزينة وهيئته الرجولية الفخورة.
اضطرب الباشا وتراقص خداه المضطربان على وجهه، بينما زفيره وشهيقه راحا يصدران صفيراً يكاد يقتلع أنفه. أبعد الباشا قصبة الغليون عن فمه ونكس الصفوة على رأس كورغوقه الحليق. كان الرماد حاراً وهو يلامس رأس الأمير.
- جواباً على كلماتك المنمقة - قال عليغوت بصوت أقرب إلى الهمس - هذا هو جوابي، هذه هي كلماتي الرائعة التي أرد بها عليك واعتبرها هدية.
عاد عليغوت إلى نفض الرماد على رأس الأمير.
- وهذا ما ينتظر القبردي.
نهض كورغوقه بحذر وكأنه يخشى أن يتساقط الرماد من على رأسه. وقف بكامل قامته. هل يأخذ هذا الحيوان بيد واحدة من حنجرته، ويزرع باليد الأخرى خنجره في كرشه. ولكن كورغوقه لن يستطيع أن يمس خنجره، فعلى الجانبين يقف رماة السهام، ففي لحظة واحدة يمكن أن يتحول إلى وسادة تغرس فيها الدبابيس. حسناً إن عليغوت يمتلك القلعة، ولكن كورغوقه يمتلك نفسه وسوف نرى في النهاية من هو الأعلى. ولكن لابد من الصبر. فاصبر أيها الأمير لكي تخطط للإنتقام وإلا رميت نفسك في التو واللحظة على العدو لتصبح جثة لا حياة فيها.
لم ينبس حاتاجوقه ببنت شفة بل وضع القبعة على رأسه واستدار بهدوء، ثم خطا إلى جواده دونما استعجال. مر خلال سيره أمام

حاشية عليغوكه المتزلف، نظر فيهم بصمت شارد ثم اقترب من رجاله وأشار إليهم ليمتطوا جيادهم ثم طار دون أن يمس الركاب، ليستقر على سرجه، أخذ اللجام وانطلق.. لم تستطع حاشية الأمير الصغيرة من إدراكه لبعض الوقت.
عند المساء التحق عليغوكه بحاشية حاتاجوقه. ولم يفعل ذلك على رغبة منه. فعليغوت باشا رغم أنه بعيد عن الذكاء والفطنة إلا أن حياة الدسائس خصته ببعض الخبرة. لقد أحس بذهاب حاتاجوقه بأن هناك عاصفة ستهب لذلك أمر الباشا عليغوكه.
- أسرع والحق به، إنني بحاجة إليك هناك خلف كورغوقه أكثر من حاجتي إليك هنا. اذهب وسوف أنتظر مبعوثك عند الصباح، هل فهمت؟ عند الصباح.

* *

أدرك عليغوكه كل شيء، وهو أكثر المشاركين بالأحداث معرفة بما يجري.. فبالأمس عندما وجد رجلين من النبلاء كانا قد استفاقا للتوعائدين إلى رشدهما، وعندما شاهد الباشا يتسلق الوادي كالهرة ملتصقاً بالأرض ومعفراً وجهه بالتراب. لم يطرح أي نوع من الأسئلة قبل أن يتفحص المكان جيداً.. التقطت عيناه الثعلبيتان الضيقتان على الفور آثار جوادين، واستنتج من قوة العلامات عن وجود فارسين فقط فلقد كانت العلامات واضحة على الأرض الرطبة وحدوات أحد الجياد جديدة كما هي عند حصانه الأميري الأدهم الذي كان قد تنازل عنه للباشا.
لقد كان الباشا يصرخ محتداً من الغيظ، لاعناً تلك العصابة الكبيرة التي داهمته وتسببت بما هو عليه. وقد كان يذكر أوصاف اثنين من أفراد تلك العصابة بل إن زعيم العصابة كان منذ فترة في القرم، "اللهم املأ جسده بالجرب وحرم على أصابعه أظافرها.." دعا الباشا دونما خجل، والسيف السيف الدمشقي الذي عاد إلى صاحبه. لقد سمع الباشا يقول أن المهاجم

أدعى أن السيف الدمشقي عاد إلى صاحبه الحقيقي. هنا بالذات اضطرب عليغوكه وبدأ قلبه بالخفقان رعباً وتعطشاً للإنتقام وهو يحس بغنيمة كبيرة في الجوار.. لقد أدرك أن توزار جانبولات قد ظهر في الأفق.
فمن يستطيع أن يبارز ثلاثة رجال مجهزين ومن دون مساعدة إلا من ذلك الفتى الغر الذي لا خبرة له، ويجردهم من كامل أسلحتهم وأن يتلاعب بهم دون أن يقتلهم؟ لقد كان عليغوكه يعرف رجلاً واحداً يستطيع الإقدام على هذه المأثرة في القبردي. ثم من كان يستطيع أن يعلن عن نفسه أنه صاحب الحسام الدمشقي فخر الأجيال المتعاقبة لعائلة شوجنوقه.
نعم إنه بالذات الشخص نفسه. لابد وأن توزار هنا. وإذا كان قد تنزه في الغابة فهذا يعني أنه مقيم بالجوار وقد يكون قريباً جداً.
لعدة سنوات كان عليغوكه خادماً للسرعسكر حتى أصبح من خواصه ورجلاً يعتمد عليه كثيراً. ومع ذلك فإنه لم يطرق معه موضوع توزار. لقد أخفى أمر علاقته معه ببساطة، كما سكت في ذلك اليوم عندما رأى الباشا يتمنطق بالسيف الشوجني. عندما استفهم بحذر من رجال السرعسكر عن الحسام، قيل له إن الحسام أُخذ من أحد مجرمي باختشيسراي الشراكسة الذي تمكن بطريقة تستعصي على الفهم والإدراك النجاة والهرب. لقد كان عليغوكه يعتقد أن عدم الكشف عن حسن إدراكه لحقائق الأمور أضمن له وأسلم. ثم إنه سوف يقوم بملاحقة توزار بنفسه. سينصب له الشراك في طريقه من دون مساعدة السرعسكر له.
يجب أن يبدأ بالعمل، بل يجب البدء فوراً لاستعادة السيف الدمشقي الذي يخصه هو لا ذلك الباشا السمين. ويجب أن يسترجع الدرع الرائع وينهي هذه المسألة المشينة. وأخيراً اقترب اليوم الذي سيصبح فيه شوجنوقه أميراً على الشراكسة.
باشر عليغوكه ببعض الترتيبات العملية أرسل أربعة من رجاله إلى أسفل مجرى نهر تشيغم ليتشمموا الأخبار في كل قرية ضمن محيط سير يومين على الأقدام. وهو الآن ينتظر عودتهم.

ولكن الأهم الذي لا بد من إنجازه الآن، هو الوصول إلى حاتاجوقه ومعرفة خططه وإعلام السرعسكر. لقد كانت الدسائس، والنميمة، والتجسس، والهمس الدنيء في الآذان، هي الشغل الشاغل والمحبب الذي يعشقه عليغوكه بكل جوارحه. لقد اعتقد عليغوكه أن الأمور تسير في مصلحته وأن القوة إلى جانبه بامتلاكه المعلومات. ولكن المسكين كان يجهل أهم جزء، وهو أن حاتاجوقه الصغير ما زال حياً يرزق ويتمتع بصحة جيدة، ومن الممكن أن يلتقي بأبيه اليوم أو غداً. إن هذه المعلومة كانت لتصدم شوجنوقه وتصيبه بالرعب وتفقده الشعور بالثقة والقوة. فليس هناك عند توزار أية أسرار يخفيها وحاتاجوقه سوف يعرف الحقيقة.. ولغياب هذه المعلومة عنه كان عليغوكه مطمئناً بل كان يعتقد أن الضربة التي سيوجهها إلى عدوه ستكون القاضية، إذ لن يلحق في التحضير للتصدي لها.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

تقدم الأمير كورغوقه فصيلته الصغيرة منطلقاً بشكل عشوائي إلى أن دخل غابة صغيرة وسط الهضبة، ليصادف قرية لم يكن يعرفها من قبل. كانت القرية على الجانب الآخر من الطريق الذي سلكه حاتاجوقه خلال مسيرته إلى السرعسكر. دلف كورغوقه بحصانه المتصبب عرقاً إلى أول منزل صادفه. أسرع صاحب المنزل المتأثر بشرف زيارة الأمير الأكبر بنفسه له لاستقباله.

تمكن من دون تذلف أو تذلل ودون أن يفقد اعتزازه بنفسه أن يقود الأمير إلى مضافته المتواضعة جداً، ولكن النظيفة جداً. دخل بعض المقربين من الأمير المضافة مع كورغوقه بينما قام الشبان بالإهتمام بالخيول (كان يجب أن ينتظروا حتى تلتقط الجياد أنفاسها بعد هذا الجري المحموم لمدة ساعتين. يجب

تهدئتها ومن ثم تقديم الطعام والشراب لها) وزاد النشاط في المنزل عندما آن أوان التفكير في تحضير الطعام.
هل يذبح حنفي آخر بقرة عنده؟ لا بد من ذلك. رغم أنها ولدت عجلين منذ فترة. ولكن لم يطل التفكير فللرجل الطيب جيران طيبون مثله.
اقتاد لوط الأعرج خروفاً من قرنه، بينما حمل الملتحي شت على كتفيه الضخمتين خروفاً آخر. أما النساء فقدمن وهن يحملن في أياديهن الدجاج والكثير من الجبنة المدخنة والمأكولات المطبوخة، أو تلك المخزنة لمتطلبات العائلة. أما أولئك الذين كانت حالتهم ضيقة فقد أحضروا الحطب الجاف. والإخوة حزيشه، حقواشه، حناشخوه أولاد المرحوم حابالا جروا خلفهم ثوراً وقاموا بأنفسهم بأداء الواجب في تلك المناسبة. ولم يتناقص العلف في مرابط الخيول.
كان حنفي ينتقل في أرجاء الباحة حيث أوقدت النيران وهو يوزع الضحكات على النساء.
- أعلم، أعلم ماذا تريدون .. تريدون إطعام ضيوفي حتى الموت بالتخمة - وكان يشكر الرجال مداعباً - أنقذوني اليوم، وغداً لكم روحي. والأفضل أن تنتظروا حتى تستضيفوا أنتم ضيوفاً، عندها سوف أخدمكم .
في باحة المنزل ظهر النبيل الوحيد الذي يعيش في القرية الصغيرة. كان يترنح من فرط التأثر. إذ لماذا تجاوزه الأمير كورغوقه ولم يحل ضيفاً عليه؟ لقد كان حنفي سعيداً ومرتبكاً في آن واحد، فالأمير كورغوقه مصفر وحانق، وعيناه تلمعان. وذلك الجرح في رأسه العاري ترك عند الفلاحين شعوراً بالقلق والاضطراب. وهاتان اليدان والأصابع التي تضغط على القبعة بقوة حتى ابيضت الأظافر، دفعت الرجل إلى التساؤل بصدق عما جرى هذا اليوم. لقد قيض له أن يعلم كل شيء، دون أن يضطر إلى دفع شيء، إذ اقترب منه أحد مرافقي الأمير ودعاه

بطلب من كورغوقه إلى الدخول لمشاركتهم الحديث حول مسألة ملحة.
" إنه يوم رائع، يوم حقيقي، الحمد لزيقوه تحه، رب الطرب والمسافرين، سوف أذكر هذا اليوم ما حييت أقسم بهذه الشمس التي بدأت تغرب لن أنسى هذا اليوم "
عندما دخل حنفي إلى المضافة كان الأمير ينهي حديثه مع نبيل القرية.
- أنا لم أتجنبك لأسيء إلى نبالة إسمك - كان صوت حاتاجوقه يدوي بصرامة ولكن بمسحة ملاطفة - يجب أن تلاحظ أنني لم أختر المنزل الذي دخلته. بل ولجت أول منزل صادفني، وأعتقد أن أي عابر سبيل كان سيتقيد بهذا التصرف إن كان يحترم العادات الأديغية .. هل هذا مفهوم؟.
غض النبيل النظر بحياء، إلا أنه تنفس الصعداء بارتياح.
كان حاتاجوقه مايزال مصفراً وعاري الرأس، وقد جلس بجانب النار الساطعة بشدة خلف المنضدة الثلاثية الدعائم، التي توضع عليها دورق ممتلئ بالماخسمة والجبن والباسته المملحة. انتبه الأمير إلى صاحب الدار فقال له ببساطة ودون أي تكلف أو اصطناع للطيبة.
- ابق هنا واستمع بانتباه، وبعدها سوف نطلب رأيك، ففي مثل هذه الأمور، كلمة الفلاح يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.
في هذا الوقت بالذات وصل إلى باحة الدار عليغوكه لاهثاً صاخباً، وكان يمكن الإعتقاد أنه لم يصل ممتطياً صهوة جواده، إنما جواده كان يمتطيه.
- وأنت أيضاً هنا؟ - تفاجئ حاتاجوقه - لم أعتقد ولم أظن ..
- وأين يجب أن أكون؟ - سأل شوجنوقه بلهجة حادة متأثرة ثم أضاف بشكل طبيعي.
- لقد فقدت أثركم، ووجدت صعوبة في العثور عليكم.
- حسناً - قال كورغوقه ضارباً بيديه على ركبتيه - لن نضيع الوقت... إذا كنتم تفكرون بما أفكر به، وأثبتم أنكم أصدقاء، وإذا

أراد أهل هذه القرية المشاركة دون إكراه في مساعدتي اليوم. عندها وقبل منتصف الليل علينا أن نمتطي صهوات جيادنا من جديد. أنتم ترون أنني حاسر الرأس ولا أرتدي القلبق على رأسي الذي تلقى هدية من التتار. وليعلم آخر رجل في القبردي كيف أهان السرعسكر الأمير حاتاجوقه. وكيف نفض رماد غليونه على رأس كورغوقه. وليعلم الجميع أن حاتاجوقه لن يرتدي قلبقه قبل أن ينتقم من ذلك التتري القذر دون رحمة. واللعنة على تلك اللحظة المهينة التي ضعفت فيها حتى خلعت القلبق لأخفف عن القبردي الألم ولو قليلاً. ولكن من الواضح الآن أنه لن يكون هناك تخفيف إنما على العكس، فقريباً سوف يباشرون كالكلاب المسعورة بالنهب واسترقاق الناس بطريقة لم يعهدها الأديغة أبداً. لذلك سوف نهاجم هذه الليلة مجموعة التتار، ولن نبقي على أحد منهم حياً. وأرجو أن لا يمس السرعسكر أحد. فأنا أريد تصفية حسابي معه بنفسي، وهذا ضروري بالنسبة لي حتى أشعر أنني عدت رجلاً من جديد. وأن أكون أميركم حقاً وأن أعود إلى ارتداء القلبق. هذا ضروري لكل شعبنا الذي أُهين بشكل فظيع عندما أُهين أميرهم وقائدهم. لقد قلت كل شيء والكلمة الآن لكم. ولكن اختصروا.

أعلن الجميع استعدادهم للمشاركة في الهجوم القريب دون أن يتجرأ أحدهم على الاعتراض. على حين توقفت عينا حاتاجوقه الحزينتان عند صاحب الدار.

كان حنفي طوال الوقت يستمع بحماس إلى الأمير حتى أن ظهره تخشب ولم يهتز للحظة.

عندما انتهى الأمير من كلامه التفت حنفي وقال شيئاً ما للفتى بغوش الذي اختفى بسرعة.

- لا توقظ الدب النائم، والرجل الطيب لا تغضبه .. - بدأ حنفي بالكلام، كان صوته مرتعشاً من فرط التأثر، سعل ثم مسح قطرات العرق الكبيرة من جبينه وأكمل - جرح رأس أميرنا سوف نعمل على أن يلتئم و بسرعة. رجال كورغوقه عشرون

ومن قريتنا مثلهم، ولكن هذا لا يكفي أما في القرية المجاورة فيمكن أن نجمع حوالي ستين مقاتلاً وربما سبعين. والمعذرة أيها الأمير العظيم لأنني أرسلت للتو إلى هناك تابعي. ولن تلحق الدجاجات على النار أن تنضج حتى يكون المقاتلون هنا.
ضحك النبلاء بتحفظ أما كورغوقه فقد أشرقت في عينيه طيف ابتسامة. حنفي رجل في الأربعين من العمر. متوسط القامة، نشيط جداً وله علاقات حميمة مع جيرانه والناس عموماً. فهو لم يزعج أحداً في حياته. يمتلك روح الدعابة، بسيط وعفوي. وعلى هذا قال وبشكل طبيعي لحاتاجوقه.
- اسمح لي بكلمة ثانية أيها المحترم كورغوقه. وهذه تتعلق بموضوع آخر. مهما حدث أنت الآن في ضيافتي فمن أجل أحفادي الذين سوف أحدثهم عن هذه الزيارة، أرجو أن تتناول من الشبس باسته خاصتي إنني ألاحظ أنك لم تتناول منه شيئاً. طبعاً إننا الآن جميعاً نشحذ أسناننا من أجل عليغوت باشا ولكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع قبل التوجه إلى المهمة أن نأكل قطعة من اللحم وأن نشرب جرعة من الماخسمة.
هذه المرة ضحك النبلاء دون تحفظ. وابتسم كورغوقه ابتسامة حقيقية.
- حسناً يا صديقي سوف يكون لك ذلك فلا تلومني.
اقتطع حاتاجوقه قطعة خبز مضغها وشرب جرعة ماء.
- هذا كل شيء، اليوم لا أستطيع أكثر من هذا. أما أن تهتموا لأمر حاتاجوقه أكثر من اهتمام حاتاجوقه بنفسه فهذا الأمر لن أنساه. ولكن اخبروا الفلاحين أن كورغوقة لا يأمرهم بالخروج فهذا أمر طوعي.
هز حنفي رأسه بعتاب.
- لماذا هذه الكلمات التي لا داعي لها؟ إن رجالنا يدركون ذلك جيداً.

أدخلت إلى المضافة أعواد الجوز وقد غرزت فيها قطع اللحم الدسمة، ذلك الطبق المفضل عند التتار والذي يسمى باللغة التركية شاشليك.
- أيها الأعزاء، أيها المحترمون، امنحوني السعادة وتفضلوا - بصوت يطفح رجاءً قال حنفي - كلوا ما دامت ساخنة أما أنا فاعذروني، سوف أترككم لبعض الوقت إذ يجب أن استقبل رجال القرية المجاورة العاطلين عن العمل، فإنني أسمع وقع حوافر خيولهم.
بعد برهة من خروج حنفي نهض حاتاجوقه.
- لقد آن الأوان - كانت هناك تقطيبة عميقة بين حاجبيه - لقد أعطيتم عهداً أنكم سوف تكونون إلى جانبي حتى النهاية. ومن يقف جانباً سوف لن يرتدي القبعة وإنما سوف يرتدي قلنسوة سوداء على رأسه كالجبناء هل أنتم موافقون؟
وكيف يمكن لهم أن لا يوافقوا.

* *

كانت ليلة هادئة مطمئنة، سطعت فيها النجوم واستدار القمر. سلك فرسان حاتاجوقه على خيولهم المسرعة أقصر الدروب إلى معسكر السرعسكر. وعندما تقلصت المسافة أمر كورغوقه جميع رجاله بالترجل حتى يقتربوا من معسكر الباشا إلى أدنى مسافة، دون أن يصدروا ضجيجاً.
طوال الوقت كان شوجنوقه يقلب الأمر بأسى إذ كيف يمكنه أن يتصرف. لقد تعذر عليه إرسال رسول إلى عليغوت باشا وهو في القرية. فكل رجل يخرج ممتطياً جواده سوف يبعث على الشك. أما الآن فإن الوضع يتطلب حلاً سريعاً. لم يكن من طبع شوجنوقه الإقدام على أية خطوة متهورة غير محسوبة. لكنه عندما رأى نيران مخيم التتار شعر ببرودة الخوف فلكز حصانه

وانطلق مثل كلب مسعور، شاهراً سلاحه إلى حيث نصبت خيمة عليغوت باشا. راح يطلق الرصاص محذراً وهو يصيح:
- عليغوت، عليغوت. إلى الجياد، أسرعوا إلى الجياد.
انطلقت المجموعة بكاملها إثر عليغوكه وهي تلعنه وتتوعده بالعقاب. ومع ذلك جاء تحذير عليغوكه متأخراً جداً، إذ لم يتمكن القرميون من التحضير لصد الهجوم. فهم بعد العشاء الدسم داعب النعاس أجفانهم، ولم يكن بالإمكان صد الفرسان المندفعين.
زحف المهاجمون إلى قلب المعسكر حتى غطوا كل جوانبه دون أن يحظى التتار بفرصة الوصول إلى صهوات جيادهم. والمقاومة الجادة كانت عند خيمة السرعسكر فقط، حيث استبسل الحرس الشخصي الشجاع والقوي، واستطاع الصمود أمام ضغط فرسان حاتاجوقه العنيف. عليغوت باشا وبرشاقة مدهشة طار من خيمته ليعتلي سرج جواده خلال لحظة. فليس عبثاً كان أمام خيمته دائماً جواد من جياده جاهزاً للانطلاق في أية لحظة.
عندما رأى الأمير كورغوقه السرعسكر انشرحت أساريره وحمد الله، ففي نهاية المطاف سوف تتلاقى الأسلحة. ولكن لعليغوت خططاً أخرى غير القتال. ألهب السرعسكر حصانه بالسوط وانطلق بجواده الأسود الكميت الذي يشبه ليلة لا قمر فيها، إلى الجهة التي لم يطوقها الفرسان ليختفي في الظلام. لحقه عليغوكه بعد أن استبدل حصانه المتعب.
استل الأمير سلاحه الثقيل وصوبه منطلقاً خلف الهاربين. ولكن آخر المدافعين أعاقه ولم يفسح له المجال. وإذا مرت لحظات أخرى سوف تصبح المطاردة عديمة الجدوى.
فليأكل القمل رأس عليغوكه، لقد تمكن في اللحظة الحرجة إنقاذ سيده المحبوب من ضربة سيف عزرائيل ملك الموت. أما مجموعة السرعسكر فكانت نهايتهم مفجعة. إذ لم يساعدهم الصراخ ولا التضرع والابتهال إلى الله، ولا طلب الرحمة ولا حتى أسلحتهم. أما أتباع شوجنوقه فقد لحقوا بسيدهم الهارب. عدا

اثنان شاركا فرسان حاتاجوقه في القتال ضد التتار. وهما يشكران السماء ويحمدان الله واشحه قان لأنهما سلكا طريق الحقيقة والصواب. قتل جميع القرميون إلا من حالفه الحظ وهرب مع عليغوت..
هؤلاء الرجال ومنذ أيام شبابهم المبكر لم يفكروا إلا بالسلب والنهب. وكانت سعادتهم في اختطاف النساء خلال الغارات والطعام الدسم خلف الموائد. لم يفكروا يوماً بالمآثر والبطولات ولم يدركوا أن الدولة التي تريد أن تعتاش على حساب الدول الأخرى عاجلاً أم آجلاً سوف تدفع ثمناً مراً.
كانت خسائر حاتاجوقه بعض الجرحى وقتيل واحد. تم توزيع جميع الغنائم من خيول وأسلحة، كذلك القطيع الذي اقتاده حاتاجوقه بالأمس بأمر من الأمير على الفلاحين الذين شاركوا في المعركة. ولم يكن كورغوقه راضياً عن النتيجة، لقد هرب من سبب هذه المعركة غير أن النبلاء والفلاحين أقنعوا الأمير بالعودة إلى ارتداء قلبقه من جديد. فالصفعة التي تلقاها الباشا المعتد بنفسه قوية، وخسارته كبيرة، إضافة إلى هروبه المشين إلى حيث يمتد البصر. أخرج كورغوقه قلبقه بكدر من تحت طية رداءه، وببطيء وضعه على رأسه ملامساً به حدود حاجبيه.
لقد كان من الغريب أن احداً لم يأت على ذكر عليغوكه بل نظروا إلى الأمير دون أن يطرحوا أية أسئلة، وصمت هو بدوره إما لأنه لم يدرك سبب تصرف عليغوكه. أو لأنه ببساطة لم يرد أن يعكر مزاجه بذكر اسمه.
توجه الأمير عائداً إلى دياره بعد أن أعطى أمراً لبعض النبلاء بدفن قتلى التتار.

* *

في الصباح كان كورغوقه قد ابتعد عن المكان الملعون، وعند منتصف النهار تم إقناعه بالتوقف. لم يكن ليتوقف أو يفكر بذلك

لولا أن جواده سقط من تحته من التعب. أسرع حاتاجوقه إلى النبع الصغير، قام برشق الماء على وجهه المحموم ثم وقف منتصباً، وبشعور عميق بالارتياح عدل من وضعية كتفيه ثم نظر حوله وهو يجرب شعوراً غريباً وكأنه وللمرة الاولى في حياته يكتشف كم هي جميلة أرض بلاده.

امتدت السهول المتماوجة كوشاح عشبي ندي باتجاه مشرق الشمس بعيداً. تخللتها بعض الجزر للتربة السمراء التي بدت كبساط من اللباد المحروث. وإلى الجنوب حيث تبدأ المرتفعات والمراعي التي اعترضتها الغابات المكتظة، بدت تلك المرتفعات كأم ترويها من ثديها.. وفوقها تربعت شمس منتصف النهار اللاهبة وهي تغازل بقرصها الدائري قمم جبال الثلج الأبدي. كانت تلك قمم سلسلة جبال القفقاس الرئيسية، الحدود الطبيعية للقبردي مع جورجيا. الحدود الباردة والقاسية كانت طيور الإوز البري تحلق كل ربيع فوق الجدران الغرانيتية الشامخة الممتدة من آخين إلى حازاس.

وإلى تلك الطيور تنتسب القفقاس. حيث أن صوت الإوز هو قاو (باللغة الشركسية) والإوز هو القاز واجتماعهما هو القاوقاز – القفقاس.

تعتبر الأراضي الموازية لخط الجبال بالنسبة للإنسان وحتى لكل أنواع الطيور والحيوانات أروع وأفضل منطقة في العالم. النسيم العليل يحمل معه عطر العشب البري، ورائحة ثمار الأحراج التي تختلط مع الذرات المتطايرة لمجاري المياه الجبلية، مع التنفس غير المسموع للأرض المعطاءة دون حدود. والتي تستقبل قبلات الحياة الجديدة دائماً.

ها هم الفلاحون يجرون محراثاً ثقيلاً على عجلتين جانبيتين. لقد كانت العادة أن يقرن إلى مثل هذا المحراث ثلاثة أو أربعة من الثيران التي يمكن أن تستبدل بالجياد.

" إنه موسم الحراثة والوقت مناسب - فكر كورغوقه - لابد وأن الفلاحين عندي قد باشروا بدورهم في حراثة الأرض. آه ...

وكيف يمكن أن لا نعيش على مثل هذه الأرض. ولكنهم لا يتركون لنا الاستمرار في الحياة عليها، وأحياناً لا نسمح نحن لأنفسنا بالحياة عليها كما ينبغي للإنسان أن يحيا."
أحس النبيل كورغوقه حاكم القبردي بالحسد تجاه أولئك المزارعين، الذين انطلقوا بعد طول انتظار إلى ممارسة الأعمال الربيعية بحماسة، وهم يطلقون الأغاني بسعادة. وتناهت اليه بعض مقاطع الغناء، وكذلك ضحكات كانت تدوي من بعيد. هكذا ودون أي قلق يضحك الفلاح الأديغي ولا يوجد سبب يمنعه عن الضحك. فهنا ثور فتي يعاند ويرفض أن يدس رأسه في النير، وخلال هذا يقوم احدهم بالضغط على ذيل الثور الذي يخور من الألم، ليرفس بقائمه صاحبه. وليحلق الغراب في الجو مرتعباً. لم يكن السبب الحقيقي لجو المرح هذا يعود إلى مثل هذه الصغائر ولكنها تلك الشمس التي تسطع، والتي تتغلغل حرارتها إلى أعماق النفس البشرية. تلك الأرض التي تعد برائحة خبز الغد، والتي تبشر الرجل بمستقبل مشرق، أفضل مما هو في العادة.
هنا وكما في كل بلاد القبردي يقوم الفلاحون بحراثة الأرض بشكل جماعي، كرجل واحد. منتقلين من قطعة إلى أخرى. تخيل كورغوقه ذلك الفلاح الذي حرث أرضه وهو ينطلق لتحضير القباق، حيث تتصالب قطعتان خشبيتان طويلتان تتدلى منهما أنواع مختلفة من الهدايا التي يقوم الفرسان باطلاق النار عليها وهم على صهوات جيادهم المنطلقة، في محاولة لإيقاع لعبة أو هدية، ليتخاطفها الأطفال المجتمعون تحت القباق، وهم يتصارعون فيما بينهم حتى تنزف الدماء من أنوفهم. سوف يستمر هذا الصخب المرح إلى وقت متأخر، رغم أن البعض سوف يتدخل محاولاً إفساد هذا الاحتفال ناعتاً إياه بالفاحشة، وأنه مثل القافة والوج وألعاب الأجقافة التي يؤديها المتنكرون بجلود العنزات ذات القرون واللحى من شعر ذيول الخيل. وأنها كلها تنتمي إلى الوثنية والشعائر المناهضة لروح الدين الحنيف.

لقد كانت هناك هموم أخرى تشغل كورغوقه الآن فعليه أن يجمع الأمراء ليتحاور معهم حول التهديد الجدي الذي ترزح تحته البلاد. يجب أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بمنع أولئك الذين يحضرون أنفسهم للغزو أو للصيد. يجب على كل المتخاصمين أن لا يتنازعوا في هذا الوقت العصيب. يجب على كل الأمراء والنبلاء رجالاً وسلاحاً وخيلاً الوقوف صفاً واحداً من أجل القبردي. وأول شيء يجب القيام به، إرسال المراقبين والحراس إلى الحدود الشمالية لاستطلاع الوضع والمراقبة المستمرة.

- اسمح لي أيها النبيل المحترم أن أقاطع تفكيرك - قال أحد المقربين وهو يمس كورغوقه - لقد آن الأوان لتستريح وكل شيء جاهز.

- حسناً أنا قادم.

أراد كورغوقه أن يستدير ولكن شيئاً ما أثار انتباهه.

- انظروا هناك فارس يتجه نحونا فلننتظره.

كان الجواد يسير بخطوات وئيدة ولكن عندما لاحظ الفارس الجمع استعجل جواده.

- هذا قازانوقه - قال الأمير - هذا هو الشخص الذي أحب أن التقي به الآن.

- أرى أن حدثاً قد وقع... ماذا؟ ألم تتفقوا مع التتار المتكبرين.؟ سأل جباغي بعد أن سارع إلى الأمير محيياً إياه بمحبة.

- ألم نتفق؟ هذه ليست العبارة المناسبة - ضحك كورغوقه.

- إذاً لقد تخاصمتم - قال قازانوقه متأكداً.

- تعال يا جباغي لنجلس إلى جانب النار.

وقبل بداية الحديث أمعن الأمير النظر في عيني الشاب الحكيم الهادئتين والواضحتين.

- قل لي أيها الصديق من أخبرك عن تخاصمنا؟ فأنت قادم من الاتجاه المعاكس.

انفرجت شفتا جباغي الجافتين عن ابتسامة.

- أعتقد أن عليغوت المدهش أغمد سكينه بكل قوة خلال رحلة صيده في الثور المقتول.
- إنك شخص مدهش يا قازانوقه - هز الأمير رأسه - لو أنني لم أعرفك لاعتقدت أن ذخيرة السرعسكر وسلاحه أصبحتا من غنائمك، ماذا تعرف أيضاً؟
- أعرف القليل، وأعرف الكثير. ولكن حول هذا سوف نتكلم لاحقاً فالوقت غير مناسب، لكن ما أود معرفته هو كيف انتهى لقاؤك يا أميري الطيب مع التتار.
- وماذا في ذلك اسمع - تنفس كورغوقه بعمق - اسمع ثم احكم.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

فكر جباغي قليلاً قبل أن يجيب كان يحمل عوداً عليه قطع من اللحم وأمامه أقداح الشراب الفضية التي لم تمس بعد.
- لا أيها الأمير - رفع قازانوقه رأسه - لن أحكم عليك وكيف لي أن أحاكمك؟ فلو كنت مكانك ما تصرفت إلا بطريقتك. وإن كنت ألومك فعلى شيء واحد فقط. اعتمادك وثقتك بقوة تأثيرك على الخان وموظفيه من أجل الوصول إلى العدالة والتسامح. واعذرني على هذه المصارحة.
- إنني لا أنتظر منك إلا الصراحة - أجاب كورغوقه - تكلم كما يحلو لك ولا تخشى شيئاً من طرفي.
- اليوم يجب أن نفكر ونتحدث في مستقبل أرضنا، والأصح عن حاضر أرضنا، عن المستقبل القريب جداً.
- وهذا ما يصدع رأسي. لقد دقه عليغوكه بغليونه بشدة فانفجرت فيه أفكار جديدة.
- دعك من هذه الأفكار أيها الأمير.
- سوف أحاول - تناول كورغوقه من جباغي العود وراح يقلب بنفسه النار التي بدأت تخمد - هل تعلم يا صديقي هناك خبر آخر أحمله معي مثل ألم الأسنان لا يفارقني منذ عدة أيام.

روى كورغوقه لجباغي قصة لقاء عادل غيري مع الغرباء، وكيف أن أحدهم طلب منه أن ينقل إليه خبراً يفيد بأن قوباتي ابنه مازال حياً يرزق وهو بصحة جيدة.
ضحك جباغي بهدوء.
- يبدو يا عزيزي كورغوقه أننا نحمل نفس الخبر.
- أنت .. أنت وهذا .. - تلعثم الأمير.
- في أن قوباتي حي يرزق يستطيع صديقك الباشا عليغوكه أن يشهد على ذلك - قال الحكيم برصانة - وأنه بصحة جيدة فلقد تأكد من ذلك اثنان من حراس شوجنوقه المرافقين للسرعسكر في الغابة.
تحجر وجه الأمير، كان من الواضح أنه يريد أن يطرح سؤالاً ولكنه لا يستطيع.
- نعم، إنه خبر صحيح - بهمس فرح تكلم قازانوقه - هنا لا يوجد مكان للمزاح أو الكلام الفارغ. لقد رأيته بنفسي، رأيت قوباتي فارساً، وأي فارس . تكلمت معه. ذكي ترعرع بشكل لائق. ليس كل والد يمكن أن يحظى بمثل هذه السعادة.
- جباغي - سأل حاتاجوقه بتأثر - آ .. مع الفتى من هو الرجل؟
- سوف نتحدث عن هذا أيضا، أتذكر أيها الأمير المبجل حديثك عن ضرورة تكاتف الأمراء والنبلاء والتوفيق بين أصحاب الثأر. لقد طلبت مساعدتي أتذكر، إنني مستعد لتقديم هذه المساعدة وسوف أقوم بكل ما تستطيعه قوتي المتواضعة. ولكن يجب أن أنوه أيها الأمير أنني سوف أبدأ بك. نعم.. نعم أنت لم تخطئ السمع. فالرجل الذي قام بتربية ابنك خلال أعوام سبعة مرت وكأنها يوم واحد، وهو يتقاسم معه الطعام والمأوى ويعلمه كل شيء كان يعرفه ويجيده ... ما هو إلا جانبولات توزار.
- قاتل إخوتي - كانت كلمات كورغوقه هامسة وبالكاد تسمع - يا إلهي ساعدني وامنحني القوة.
- لم تجر الأمور على الشكل الذي تعرفه - تنهد جباغي بحزن - ولست من سيخبرك بالحقيقة المرة، يجب مقابلة جانبولات

وقوباتي. والابن ليس رهينة ولا تعتقد هذا. قوباتي يظن أنه عليك أن تصالح توزار. وهو لا يعتبر مذنباً بأي حال. لقد سمعت الرواية من فم عليغوكه والكل يعرف نظافة وشرف الرجل.

سكت حاتاجوقه طويلاً ثم رمى بالعود في النار وقال بحزم:

- الآن لا أستطيع التكلم عن الصلح ولكن اللقاء الذي تقترحه ضروري.

- وأنا سوف انظم هذا اللقاء.

الخبر الحادي عشر

يفيد بأن من لم يختبر المخاطر لن يدرك معنى الأمن.

- يا صغيرتي تذكري أنه ابن أمير؟ - طرحت نالجان المسألة مباشرة.
- تضرجت خدود سانا بحمرة وردية متألقة، واشتعلت عيناها ببريق لامع.
- ماذا قلت جان؟ - سألت الفتاة بشرود - أي شيء يجب أن لا أنسى؟
- تذكري أنني وأنت لسنا من الأمراء؟ - قالت نالجان وهي تحاول كتم شهقتها، والتفتت مبتعدة.

انطفأت الابتسامة عن شفتي سانا الممتلئتين ببطء، ونكست رموشها الطويلة بحزن. ودون أن تتفوه بكلمة واحدة تناولت الإبريق النحاسي واتخذت طريقها باتجاه النهر. على الطريق تذكرت أن قوباتي كان قد ذهب إلى هناك، فلقد اصطدما ببعضهما وجهاً لوجه بشكل مضحك عند شجرة الجوز، وللحظة تبادلت العيون نظرات الشوق والهيام التي سرعان ما اختزنتها القلوب. لكنهما و بسرعة أسدلا على وجهيهما قناع اللامبالاة وعدم الاكتراث، رغم أنهما لم يوفقا تماماً بذلك. ضحكا وتفرقا كل في اتجاه.

لا .. إنها لم تتعمد الذهاب إلى النهر. هذا ما كانت سانا تقنع نفسها به. فهي عندما أخذت الإبريق لم تكن تعلم أنها يمكن أن تلتقي بقوباتي هناك في الأسفل عند الشاطىء. لكن يجب الإعتراف بأنها أحست بالضيق، وبشعور قوي، بل وبشوق لرؤيته بعد كلمات عمتها. لقد كانت رؤيتها له ضرورية الآن. لماذا؟ هي نفسها لا تدري ربما لكي تحدد مستقبل علاقتهما.

لم يكن قوباتي عند الضفة. أصيبت الفتاة بخيبة أمل. تحركت في صدرها كتلة متوترة وخازة أليمة. ملأت إبريقها وجلست على

صخرة مطرقة متفكرة، فهي حتى الآن لم تكن قد فكرت بأي انعطاف في حياتها. أما ما يتعلق بالفتى الجميل والقوي، فهي لم تستعرض مستقبلها معه لأكثر من يومها الذي تعيشه.
طقطق الحصا تحت وقع أقدام مقتربة لشخص. ثم ارتفع صوت مألوف:
- إنك تشبهين حورية الماء بسخه غواشه - قال قوباتي وهو يخرج من خلف الصخرة.
نظرت سانا إلى الفتى بتوتر وقالت وهي تحمل كلماتها معاني كثيرة، وكأن انتمائها إلى الطبقة النبيلة شيء مخجل.
- أنا لست غواشه ورغم أنك أيها الشاب ابن أمير، إلا أن فتاة فقيرة بسيطة مثلي لا يعجبها أن يختلس أحد النظرات اليها.
- ولماذا تقحمين الإمارة هنا؟ - تمتم قوباتي - لا يوجد على وجه الارض مقاماً أعلى أو أنبل من عينيك و...
- وفر كلماتك هذه لواحدة من طبقتك - قالت سانا بحزم وهي تختطف الإبريق وتنهض.
- ليس لدي ما أقوله لأخرى غيرك.
قطع قوباتي الطريق عليها.
- افسح الطريق .. أيها الأمير المرح، ولا تهدر وقتك بالحديث مع من هي أدنى مقاماً منك.
اصفر وجه قوباتي وتنحى جانباً، مرقت الفتاة مسرعة إلى الأعلى، تبعها قوباتي بنظراته وهو يقول متمتماً متحاشياً أن تسمعه.
- جرعة ماء من يدك أثمن عندي من الإمارة كلها ..
سمعته سانا ولكنها تجاهلته ومضت غير ملتفتة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

جلس يموز وجانبولات أمام الموقد الذي بدأت ناره تستعر للتو. من فتحة الباب كان يمكن أن ترى الضوء الأرجواني اللطيف لما قبل الغروب وهو يصبغ السماء شفافية، ويلقي تألقه على القمة الجبلية المسننة كحد السيف. ورغم أن الظلام بدأ ينتشر في

المضافة إلا أن أحداً من الرجلين لم تكن لديه رغبة في إشعال القنديل.
كان كوانتشه يقف مسنداً ظهره إلى العمود الداعم وهو يروي حكايته :
- وهكذا عندما نبح كلبي المحبب أكباش على السيد، أمر هذا الرجل المتوحش بإعدام كلبي وبضربي بالعصا .. هذا الملعون كلمات جابوي، أرجو أن تتساقط جميع أسنانه وأن يتبقى في فمه سن وحيدة تؤلمه دائماً ... آخ، كيف ضربني المتذلفون. أعتقد أنني كدت أن أموت، ولماذا؟ فقط لأنني لم أكن أصرخ. هذا ما جعل جابوي يستشيط غضباً، حتى أنه قام بضربي بنفسه إلى أن تصبب منه العرق. ثم أمر صاحب المؤخرة الضخمة هذا بنقلي الى باحة الدار، وبطرحي على الأرض معلناً أنه سيعود الى ضربي مجدداً بعد أن يرتاح قليلاً ويأكل. لقد قرر أن يجعل من هذا السعيد [1] تعيساً وسوف يجبره على الصراخ والبكاء.
عند المساء عاد إلى ضربي بعصاه القاسية. حاولت أن أعض قدمه لكنني لم أصل إليه، غير أنني بصقت على هذه القملة دماً. عندها صرخ السيد :
- سوف أجعلك تلحسها بلسانك.
بعد قليل تحول الضوء الأبيض في عيني إلى الأسود. وضاع كل شيء، وضعت أنا. ليلاً مال الطقس إلى البرودة، فانتعشت قليلاً، حاولت التحرك لكنني كدت أن أصرخ ألماً. ومع كل ذلك بقيت عظامي سليمة. عندها رحت أفكر. غداً سوف يعودون إلى ضربي من جديد ولن يدافع عني أحد، فليس بمقدور أحد أن يقف في وجه السيد من أجل يتيم تافه مثلي، عبد (بشه لىء) كما يسميه القبردي او (يا ساكتشي) كما نسميه نحن، وحتى إذا لم يقتلونني فإنهم سيتركونني مشوهاً، وسأعيش حياتي عبداً وحيواناً . لا لم أرد هذا. والهروب دون الإنتقام لم يكن وارداً

[1] - كوانتشه باللغة البلقرية تعني السعادة

عندي. لذا تسللت إلى نزل جابوي. كان الظلام يسدل أستاره على المكان وقنديل الزيت يوشك على الإنطفاء. في الموقد كان الفحم ما زال يتأجج احمراراً. اعتادت عيناي على الرؤية، فميزت كلمات على سريره الخشبي وهو يشخر نائماً. كانت تفوح منه رائحة حامضة اختلطت مع رائحة عرقه. لقد أكل بشراهة قبل النوم وكان هناك قدح من اللبن العيران خلفه، شربته ثم أخرجت سكيني ووقفت مفكراً. لا لن أستطيع قتله أعدت السكين إلى جرابه، وبدأ رأسي يدور حتى وقعت على جابوي ولكنه تململ مثل خنزير دون أن يستيقظ. نظرت إلى الموقد فشاهدت قدراً امتلأ بالحساء، كان لا يزال ساخناً. ملأت قدحاً وشربته فأحسست بالروح ترتد إلي من جديد. أردت قتله ولكنني لم أتمكن لا لأنني خفت، بل كنت شجاعاً عندها. قمت بمزج الرماد مع زيت القنديل ودهنت وجه جابوي ثم أخذت بنطاله وقذفت به في حساء القدر، وخرجت من الباب. كان أصعب ما في الموضوع هو سرج الحصان بهدوء دون إيقاظ أحد. حملت السرج إلى الطريق. لقد نال الوجع مني وآلمني ظهري. أما كيف استطعت شد حزام السرج فهذا ما لا أعرفه أنا نفسي، امتطيت الجواد وجعلته يخطو ببطء حتى تعب ومن ثم تركته ولم أرغب بتعذيبه، مع أن الشركسي يقول "امتط حصان الغريب بالقدر الذي تريده، فلن يؤلمك ركوبه" ولكن تعذيب الحيوان عمل غير لائق وهو عمل غير إنساني.

وهكذا أنهى كوانتشه حكايته ثم نظر إلى جانبولات مسدلاً قبعته على عينيه تقريباً منتظراً ما سيقول.

- مؤسف - قال جانبولات.

- ما هو الشيء المؤسف؟ - تعجب كوانتشه - كلمات أم بنطاله؟

تأوه توزار بأسى:

- بل الحساء.

قهقه كوانتشه بمرح.

- آخ حسناً، آخ جيد جداً. أقسم أنك رجل رائع حقاً يا جانبولات.

- اسمع أيها السيد حسناً - قال يموز وهو يتصنع الصرامة ويخفي ابتسامته خلف شاربه - إن ابنتنا المتهورة، ذهبت للبحث عن إوزة متهورة مثلها تماماً اختفت في الغابة مرة أخرى، اذهب أيها الشاب وابحث عنها فلقد تأخرت عن العودة. لا بد وأنها تتفحص أعشاش الطيور كالعادة أو أنها تقتطف الأزهار. ولتعيدها إلى المنزل مع الإوزة أو دونها. فلقد بدأ الظلام يحل.
- حالاً.
ركض كوانتشه وخرج من البوابة .استوقفته نالجان.
- أي يا صديقي - صاحت به نالجان وهي تحمل عدة طيور للطبخ - هل تعلم أين تجد ابنة أخي.
- أعلم، أعلم ... - قاطعها كوانتشه - أنا مسرع لأعيدها الى المنزل أين باتي؟
- أخذ الخيول لكي تشرب.
- حسناً أنا ذاهب.

* *

- تبين أن سانا لم تكن قد ابتعدت كثيراً. التقى بها كوانتشه في ذلك الجزء من الغابة المتاخم للمزرعة من جهة المنحدر. كانت تمشي متثاقلة على الدرب وهي تضم أرنباً صغيراً الى صدرها، وتترنم بأغنية للأطفال. من خلفها كانت الإوزة تتهادى كالمخبولة مستغربة عدم إجبارها على السير.
- أي... أنت أيتها الجميلة - صاح كوانتشه - هل طاردت هذا الوحش لمدة طويلة؟ إن الضيوف ينادونك إلى عشاء دسم.
- أنت أحمق أيها الفتى كوانتشه كيف تستطيع المزاح بهذه الطريقة؟ تصور أن الأرنب يعي ما تقول، إذاً لمات من الرعب. عندها من يحمل وزر موته.
فجأة تغير وجه كوانتشه واختفت الابتسامة الرقيقة.
- انتظري هل تسمعين؟

ارتفع صوت صراخ يائس أتى من جهة الجسر الواقع بين القرية ومنزل يموز، ثم سمع صوت دوي.
- آه أخاف حقاً أن تحمل نفسي وزر مقتل أحدهم.
اطلق ساقيه مسرعاً باتجاه الجسر. على الطريق التقى بحشد مسلح من سكان القرية وهم يركضون إلى مكان الحادثة.
- لقد هاجموا يموز! - صاح صوت ما.
- اسرعوا ها هم.
- لقد أحرقوا الجسر، ياللعنة.
شاهد كوانتشه ثلاثة أجساد ارتمت على الأرض دون حراك، وتعرف على أقرب هذه الجثث. كان جسد يموز. ثم رأى أربعة فرسان. كان اثنان منهما يسندان فارساً ثالثاً من الجانبين، وكان رأس الأخير يتأرجح بسهولة، كانوا على الضفة الأخرى ويرتقون الطريق إلى الأعلى.. عاند جواد الفارس الرابع رافضاً القفز فوق النار التي اشتعلت عند نهاية الجسر... طار رمح من فوق رأس كوانتشه، وانغرس بين أضلاع الجواد الذي هوى على الأرض مع فارسه. قفز كوانتشه إلى حيث الرجل الذي حاول النهوض، ليغرس خنجره بقوة في حنجرته. أحس كوانتشه بالشماته والحقد عندما تعرف على المقتول. كان أحد أعوان كلمات المقربين، وكان قد شارك في حفلة ضربه سابقاً.
وقف كوانتشه على قدميه وكاد أن يتعثر بالدرع الذي سقط من على ظهر الجواد، كان يعلم من قوباتي أنه لا يثمن.
إذاً من أجل هذا حضر هؤلاء الضيوف المزعجون. ولكن أين جانبولات وقوباتي؟ يموز هنا وها هو مضطجع، انحنى الفتى على الرجل الذي أصبح قريباً له. لقد بقي وجه يموز حتى وهو ميت هادئاً وصارماً كما في حياته.
عندما رفع كوانتشه رأسه كانت أنظار الحشد قد انتقلت منه باتجاه المنزل.. انتقل كوانتشه ببصره الى هناك، كانت أخت الحداد تحمل بين يديها حملاً كبيراً، كانت تقترب بخطوات واسعة. وكان جسد جانبولات يبدو صغيراً بين ذراعيها. لم يكن

يبدو أنها تعاني من ثقل حملها الذي حمل في صدره إلى اليسار وأسفل عظم الترقوة سهماً طويلاً انغرس هناك.
توقفت نالجان خلف يموز.
- ضيفك - قالتها بصوت بدا لطيفاً بشكل غير طبيعي - لقد دافعت عنه حتى النهاية.
- اخبريني - تمتم كوانتشه بصوت متهدج - باتي أين هو هل ..؟
أشارت نالجان إلى الجانب الآخر من النهر بعينيها.
- لقد حملوه معهم مقيداً، إنه عليغوكه الأجرب، أرجو أن يلقى موتاً رهيباً.
في هذه اللحظة وصلت سانا وهي بالكاد تقف على قدميها، ما أن رأت أباها مرفوعاً على لوح خشبي، حتى ضغطت على شفتيها براحة يدها بينما اليد الأخرى كانت لا تزال تحتضن الأرنب. خارت قواها وتراخت على ركبتيها. وبعيون غزالٍ جريح نظرت إلى عمتها. كانت نظرات نالجان تعبر عن شجن وقوة صلبة صارمة، إذ ليس من المعتاد عند الأديغه النواح على الفرسان الذين يقتلون ببطولة في المعارك.
أراد بعض الفتية أن يأخذوا جسد ضيف يموز الغامض جانبولات توزار من بين ذراعي نالجان ولكنها لم تسمح لهم بذلك.
- سوف أنقله بنفسي.
أما أن لاتعود المرأتان اليتيمتان الى المنزل في الوقت الحالي، بل تتوجهان إلى أي منزل آخر في القرية فهذا ما وافقت عليه نالجان.
نفض كوانتشه رأسه وكأنه يستفيق من حلم عميق وأعلن بشكل حاسم.
- يجب أن الحق بالقتلة، أنا ذاهب.
رفع كوانتشه الدرع ببطء واقترب من الجسر.
- توقف يا فتى، أفق.

لم يستمع إلى أحد وإنما وضع رأسه في فتحة الدرع ثم انحنى قافزاً بشكل أعمى عبر النار. تساقطت عدة شعلات ملتهبة في النهر بينما اختفى كوانتشه.

- لا بد أنه احترق.

أسف الفلاحون عليه.

- لا - أعرب أحدهم - لقد سقط في شيقم مع تلك القطعة الحديدية، إن هذا صحيح، أقسم بالرمح الذي أودى بذلك الفارس.

لم تقل نالجان أي شيء وإنما خطت بخطوات واسعة نحو بيوت القرية حيث نقل جثمان يموز إلى هناك أيضاً. سارت سانا بالقرب من جثة أبيها دون أن تفارق الجسد الصغير المغطى بالفرو والذي يتدفأ في صدرها.

* *

استعاد قوباتي وعيه ليجد نفسه مستلقياً على ظهره، مقيد اليدين والقدمين. وبدا له أن الأرض تميد تحته. لم يدرك فوراً أن ما يهتز تحته ليست الأرض، وإنما العربة ذات العجلتين التي يقودها جوادان قويان ربطا إليها بإحكام. شاهد قوباتي السماء السوداء وقد تناثرت فيها على غير العادة النجوم الكبيرة المتلألئة، وسمع صوت قرقعة لا تهدأ، كانت تتقاطع مع هتافات الحوذي الضجرة، ووقع حوافر الجياد على الأرض المغطاة بالحصى. حاول أن يتلفت برأسه، لكن الألم الذي عصف به جعلت عيناه تسبحان في دوائر خضراء. عض الفتى على شفتيه. شعر بأن هناك جرح في قمة رأسه التصق بقبعته اللبادية. من الجيد أن القبعة لم تسقط بعد أن تلقى الضربة لأنها ساعدت على إيقاف النزف الدموي.

أصبح الضجيج في أذنيه أكثر صخباً، وبالتدريج تحول إلى هدير ودوي. فجأة ضاقت السماء أمام أنفه مباشرة، وكأن أحدهم قام باغلاق مصراعي بوابة سوداء، أشد اسوداداً من سواد الليل

نفسه، ولم يتبق من فتحة الباب إلا شق ضيق بحواف غير متجانسة. أدرك قوباتي أنهم يعبرون الآن أضيق وأخطر نقطة في تشيغم حيث ترتفع الجدران الغرانيتية ارتفاعاً يصيب بالدوارمن يعبره. وما هذا الزئير الهادر إلا صوت الشلالات المشهورة التي حدثه عنها كوانتشه.
عمل رذاذ الماء الآتي من تيار الشلالات على انعاش قوباتي، فحاول أن يفتح فمه الجاف ليشعر ببعض السكينة . العطش لم يعد يعذبه. حتى أن الألم الذي سببه الجرح كان قد سكن. لكن انفتح جرح آخر في نفسه، جرح الخجل والحنق على ما جرى. تذكر أن اثنان هاجماه وهو يسقي الخيول. كانا غريبين شرسين، وعندما قام قوباتي بقذف أحدهما في التيار المندفع للنهر. تلقى ضربة على قمة رأسه من شخص ثالث.
تكاثرت الأسئلة. هل كان هناك هجوم على المنزل؟ وإذا كان الهجوم قد حصل فكيف انتهى؟ قد يكون الأمر قد انتهى باختطافه هو، فإذا كان الأمر كذلك كيف حملوه وعبروا به الجسر دون أن يلاحظهم أحد؟ أربكت هذه الألغاز والأحاسيس المؤلمة قوباتي، حتى أنه لم يلحظ كيف بدا هدير الشلالات يتلاشى، وكيف بدأت فتحة السماء عبر الصخور الشاهقة تتوسع. كانت قمة أحد جانبي الصخور تسطع بوضوح على ضوء القمر. وعلى غير انتظار هبت الريح لتسوق غيوماً كثيفة سرعان ما التهمت جميع النجوم، ليصبح الليل مظلماً، أسوداً، دامساً. ثم هطل وابل غزير من المطر لا يمكن أن تصادفه إلا في الجبال وفي بداية الصيف.
كانت هناك أصوات تعلو وصياح طوال الوقت، ويبدو أن الرجال المندفعين إلى الأمام كان هناك من يقودهم. بدأت العربة تهتز وتتأرجح بشكل عنيف. ثم أنها رسمت منعطفاً حاداً مبتعدة عن ضفة النهر وراحت تتسلق ببطء إلى الأعلى على طريق وعرة منحدرة. وسرعان ما تناهى إلى السمع نباح كلاب الرعيان، ثم وبعد فترة توقفت العربة لتحتد أمامها ثلاثة أو أربعة

كلاب تم إبعادها عن المكان بصعوبة. صارت الأصوات أوضح وراح قوباتي يميز الكلمات بشكل تام.
- إن رائحة الكلاب تفوح من سرداقكم هذا - قال أحدهم باللغة التتارية.
لم تكن لهجة الرجل الغاضبة والمعاتبة غريبة على قوباتي إطلاقاً.
- ربما هناك براغيث أيضاً.
حسناً لا بد وأن يتعرف قوباتي على صاحب هذا الصوت ولكن الآن لا يستطيع تذكره.
- نحن مجبرون على استخدام مثل هذه الخيم يا صاحب النيافة عليغوت باشا - أجابه أحدهم بلهجة بلقرية واضحة - سوف ننصب لكم خيمة جديدة حالاً.
" هل يمكن أن تكون هذه نهايتي؟ - فكر قوباتي - بين أية براثن وقعت أيها المسكين يا فاقد الرأس"
رمى أحدهم غطاءاً على قوباتي.
" أخيراً هناك شخص طيب"
وعندما شعر بالدفء غط في نوم عميق.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

انقطع هطول المطرعند الصباح، لكن الطقس كان لا يزال غائماً وبارداً. ولم تخرج ماشية كلمات إلى المرعى بل بقيت متجمعة وقد تدلت رؤوسها. جلبت أخشاب البتولا الفتية وأشعلت النار أخيراً خلف الخيمة الكبيرة. كان جابوي كلمات ناقماً على الراعي العجوز لتأخره في إيقاد النار في الحطب الرطب. وعلى مقربة من المكان عمل راعيان فتيان على تقطيع خروف. بالقرب من موقد تأججت ناره، خرج عليغوكه شوجنوقه من خيمته بوجهه المتغضن المنتفخ وقد بدت عليه علامات الإشمئزاز. لم تكن الإقامة هي السبب، ولا حالة الطقس السيئة.

لقد بدا العالم كله له الآن عدائياً. جلس الأمير أمام النار وقد التف بعباءته. أطلق يده تحت قبعته بحذر، حيث ظهرت على رأسه بضع دمامل متقيحة. لاحظ كيف يراقبه اثنان من النبلاء. عندما لحظهم حول أحدهم نظراته وراح يهمس للآخر بشيء ما. لقد كان عليغوكه مستعداً لأن يقسم بأن الهمس كان يتناوله، وتذكر المثل القائل " على الرأس الأجرب نبتت الدمامل " ولكن لا بأس، فلهم يومهم ولن يغفر الأمير عليغوكه لهم ذلك. أما الآن فيجب التذرع بالصبر وإلا فسوف يفقد آخر أنصاره. عليه انتظار الإعصار الأسود الذي سيبثه خان القرم على القبردي. وبعدها سوف يناصره كل من سيبقي حياً بعد الإعصار. كورغوقه ميت لا محالة أما خلفه وهنا ظهرت على شفتي الأمير الرقيقتين ظل ابتسامة، أيضاً ميت. لا بل أفضل... عبد في دهليز تركي. إنهم يدفعون الكثير لقاء هذا الغبي. حقاً لقد أظهر غباءه عندما رفض القتال إلى جانب التتار. كان من الممكن له أن يصل إلى السلطة والغنى. كان كل شيء سيغدو رائعاً بالنسبة للجميع، هذا إذا استثنينا الدمامل.
لم تكن الغزوة موفقة رغم أنه اختطف ابن حاتاجوقه، ولا بد أن توزار قتل إلا أن الهدف الرئيسي بقي بعيد المنال، الدرع الثمين، لم يقع الدرع بين يديه هذه المرة أيضاً. لم يكن توزار يرتديه فأين اختفى؟ قد يعلم مكانه هذا الصعلوك الكورغوقي، لا... لابد أنه يعلم، ولكنه لن يتكلم. إنه عنيد كأبيه. لكن لا بد من سؤاله على كل حال. ولكن بماذا يثرثر هذا السمين جابوي.
عاد شوجنوقه من أحلامه إلى واقعه. نظر إلى جابوي وأدرك أن هذا يحاول أن يؤكد له شيئاً ما منذ مدة.
- .... ستة أزواج من الثيران. هل فهمت؟ وقطعة سلاح جيدة وزوج من السيوف...
- انتظر، توقف - أوقفه عليغوكه - عن أي شيء تتحدث؟

- ماذا ألم تكن تستمع إلي؟ - ذهل جابوي - لقد قلت، لكل قتيل من رجالي يجب أن تعوضني هل فهمت؟ يجب أن تقدم خمسين من الماشية وستة أزواج و ..

- انتظر جابوي أريد أن أسألك. ألا تريد فوق كل ما ذكرت ملابس؟ هل فهمت؟

- فهمت يمكنك إضافة ذلك - وافق كلمات.

- سوف أهديك بنطالاً عوضاً عن ذلك الذي فقدته في الحساء.

- احتد جابوي غضباً.

- أنت تهزأ مني أيها النبيل المقدام؟ تريد أن تعوضني بسخريتك؟ وهنا جاء دور عليغوكه ليخرج عن طوره.

- إلى ماذا تغمز؟ ماذا تقصد بكلمة مقدام؟ - فح شوجنوقه وقد ظهر الزبد الأصفر بين شدقيه - في البداية قام غبيك بإفساد العملية كلها عندما سقط في الماء وراح يزعق مثل حمل، ففقدنا فرصة الهجوم المباغت، ثم أنك اختبأت خلف ظهر غيرك عندما قام رجالي بتصفية الحداد المسعور.

- رغم ذلك أنا، رغم ذلك أنا - لهث جابوي بصعوبة ثم قال بصوت متشنج - ألست أنا من رفعك عن الأرض عندما التقيت بتلك المرأة على انفراد فالقتك من سرج حصانك؟

لم يكن شوجنوقه مستعداً في التفكير بهذا الموضوع، ناهيك أن يتكلم عنه. أغمض عينيه الضيقتين الماكرتين، لتستيقظ أمامه صورة الماضي القريب. ها هم يقتحمون بوابة المنزل وها هو توزار يخرج، ولكنه يتوقف بعد أن يستقر سهم في صدره فيقع مستلقياً على ظهره. ثلاثة من أتباع كلمات يهرعون إلى المضافة وهم يظنون أنه آن أوان النهب ولكنهم يفاجئون بالحداد يعترض طريقهم. يصطدم أحدهم بشفرة سيف الحداد فيقع على الأرض ميتاً. يطلق يموز النار من المسدس بيده اليسرى. أما اليوزباشي المسلح بالقوس والذي نجا قبل ثلاثة ايام من موت محقق فها هو يخسر الرأس الوحيد الذي يحمله إلى الأبد.

يلمح شوجنوقه نالجان فتدفعه نشوة السعادة المفرطة بالإسراع إلى الغنيمة السهلة التي وقعت في فخه . لم تفكر نالجان في إنقاذ نفسها ولم تحاول أن تمهل شوجنوقه بل أمسكت بقدمه وجذبته عن سرجه بقوة و .. لم ير عليغوكه أو يسمع بعدها شيئاً .. عندما استفاق من غيبوبته كان اثنان من النبلاء يسندانه وقد عبرا به الجسر.
- اسكت كلمات، اصمت - صرخ عليغوكه - لم تكن أنت الذي أصيب بالصمم بعد وقوعك عن الحصان فلماذا لم تخرج الغنيمة الثمينة من المنزل؟
- كان يجب أن نسرع للخروج أحياء من هناك، أقسم بأجيالي السبعة من أجدادي لو أننا انتظرنا قليلاً لواجهنا جيشاً من الرجال الذين هبوا لمساعدتهم. لقد كان عددهم يربو عن المائة، أو ربما المائتين. إننا لم نتمكن من اقتياد الجياد. لقد شاهدت أحد رجالي يقفز إلى داخل المنزل ولم أره يخرج ربما قتلوه.
- إذاً لا يحق لك المطالبة بتعويض، لقد عانيت أنا أيضاً من هذا الأمر.
- إذاً دع عليغوت باشا يحكم علينا. إنه منذ الأمس ممتعض منك، ولا يميل إليك، فأنت لم تسترجع أمواله، وفوق هذا وذاك طار رأس اليوزباشي هناك.
لقد كان جابوي على حق بالنسبة لغضب الباشا ولكن عليغوكه أجاب بلهجة حانقة.
- فليكن كلمات، اذهب إليه وليحكم بيننا، ولكن فلتعلم أنك ستبقى دون ماشية بل إنه سيأخذ آخر بنطال لديك.
حرك جابوي عينيه الجاحظتين بسخط، أراد أن يجيب بشيء ما، لكن الكلمات لم تسعفه. ولو أن المهاترة استمرت قليلاً لأخرج أولئك الصناديد خناجرهم، ولكن صوتاً أجشاً أو كأنه صوت شخص مصاب بالزكام أوقفهم. كان هذا صوت السرعسكر القرمي.
- ها ... أنتم على أي شيء تختلفون؟ هل تتقاسمون العظمة؟

التفت جابوي وعليغوكه نحو مصدر الصوت. كان الباشا قد خرج من الخيمة. كان واضحاً أن ظهره يؤلمه وأنه في أسوأ حالاته النفسية والجسدية.
- فلتنعم صباحاً أيها الباشا العظيم - هتف جابوي.
التفت عليغوت بعبوس إلى جابوي المنحوس، ثم وجه جل اهتمامه إلى شوجنوقه. كانت نظراته الشاردة تحدق النظر إلى الأمير أو ربما إلى شيء ما قرب الأمير. وقف شوجنوقه الذي يحتقر من أعماقه السرعسكر وقد ألقى على نفسه مظهر الذليل المذنب. لقد أعطى انطباعاً للقرمي بأن اللوم الذي لم يوجه إليه كان قد أحس به ووصل الى أعماقه حتى مس قلبه. نعم لقد كان هدراً للوقت أن يقوم عليغوكه بإقناع الباشا بتلك الغزوة، وكانت مخاطرة لا طائل لها بالأرواح. لقد كان الأجدر أن يسرع نحو البحر، إلى سونجوك قاله أو إلى تامان، ومن هناك مباشرة إلى القرم، للوقوف في حضرة قبلان غيري. ثم وبقليل من التباكي والدموع في العيون، مع أنين يمزق الفؤاد، يمكن نقل صورة الأحداث الدموية و المفجعة التي ارتكبها القبردينيون المتعنتون. أما هنا فماذا كسبوا من غزوة الأمس؟ قتلوا اثنين واختطفوا واحداً. ولكنهم بالمقابل فقدوا خمسة، ومن بينهم اليوزباشي المحارب القرمي المتهور. وكذلك الجياد. أما الأسلحة والذهب والحجارة الكريمة التي نهبها هؤلاء الوقحون هل استردوها؟
لا لم يسترجعوا شيئاً. لقد هربوا وكأنهم يهربون من نار محرقة. أرعبتهم حفنة من العبيد. لقد رأى عليغوت كل شيء من الشاطىء الآخر. كان عليه أن يقود الهجوم بنفسه، إذاً لسارت الأمور بطريقة أخرى. أراد شوجنوقه أن يبدد السحب التي تراكمت فوق رأس الباشا، وإلا قريباً بل وقريباً جداً سوف ترعد وتبرق الصواعق.
- أليس من المفيد أيها الباشا المعظم أن تتعرفوا عن قرب على الشاب الذي - وهنا تردد عليغوكه - الذي شوهد منذ مدة في غابة مجاورة وليس بعيداً عن المكان الذي نتواجد فيه الآن.

- أحضروه إلى هنا - انتعش عليغوت قليلاً - ولا تنسوا تجهيز اللحم قريباً.
أشار شوجنوقه إلى رجاله ودنا معهم من العربة. انتزعوا الغطاء البالي عن جسد الأسير وقذفوا به إلى الأرض. كان قوباتي قد استيقظ قبل فترة. تعلقت نظراته بوجه عليغوكه مباشرة. كان الأخير يكشر عن أسنانه الصفراء الحادة بابتسامة شريرة. تعرف قوباتي على عليغوكه فوراً. لقد كان كما يتذكره خلال الأعوام الماضية. انحنى الأمير على الفتى وهمس في أذنه.
- لماذا لم تغرق في تيرتش أيها الذئب الصغير؟
- أردت أن التقي بك مرة أخرى أيها الأمير - أجاب الفتى بهدوء تام بل وبطيبة.
- وها قد التقينا، فهل أنت سعيد؟
-لا يمكن أن تتصور سعادتي - ابتسم الفتى حاتاجوقه.
انحنى عليغوكه مرة أخرى وقال بصوت بالكاد يسمع:
- أخبرني أين الدرع؟
- أي درع؟ - تفاجأ قوباتي.
- ذلك الدرع، أنت تعرف أي درع.
- آه .. ذلك الدرع - مط قوباتي كلماته - ولماذا تريده؟ - ظهر استغراب حقيقي على وجه الفتى.
اصطكت أسنان عليغوكه ولكنه تماسك:
- حسناً وقتي الآن ضيق، ولكن حديثنا الرئيسي لم يحن وقته بعد، أما الآن فأنت مدعو لتجاذب الحديث مع عليغوت باشا.
بعدما حلوا وثاق قدميه اقترب من عليغوت مشاكساً وسلم عليه وكأن شيئاً لم يكن.
- السلام عليكم...
- وعليكم ..... - كاد عليغوت أن يرد السلام بشكل عفوي - آخ أنت أيها الوقح المتوحش، يا عديم الضمير! هل فطمتك أمك منذ فترة طويلة، سوف آمرهم بأن يضربوك حتى حافة الموت ومن ثم، ومن ثم، حسناً ومن ثم سوف أفكر بما يمكن ان أفعله بك.

- فليعذرني السرعسكر العظيم، من الممكن أنني أسأت الفهم، ولكن بدا لي أنك تتهمني بذنب ما؟ - سأل قوباتي بصوت مستكين.
- بهت عليغوت حتى أنه قفز من مكانه:
- يا للوقاحة! - قال بدهشة - ألم تتعرف علي؟ أم أنك تتصنع ذلك؟ أم أن سرقة ونهب نائب الخان ليس ذنباً تعاقب عليه؟
- كيف يمكن أن أنسى مثل هذه الشخصية المتألقة - أجاب قوباتي - ولكن السرقة عملية شريفة تماماً، وعليها يعتمد العالم كله. حتى أن هناك من يسرق نفسه ويخون أصدقائه، وهناك من يسرق خيرات الشعوب الأخرى.
حملق عليغوت بغباء في قوباتي وهو يحاول التقاط معاني كلماته.
- أي أي... بماذا تثرثر؟ كل شيء في هذا العالم يسير بمشيئة الله
- فكر عليغوت قليلاً ثم أضاف بثقة تامة - حتى الشعرة لا تسقط من رأس الرجل دون مشيئة الله.
- هذا صحيح - وافق قوباتي - هذا يعني أيها الباشا المبجل أنك تعترف أن لقاءنا قبل أيام في الغابة المجاورة كان بمشيئة الله وليس لي ذنب فيه.
- وكيف ذلك؟ - صرخ عليغوت الذي لم يكن قادراً على ربط تسلسل هذا النقاش - وحجارتي الكريمة؟ أجبني أين ذهبت بها؟ أين أخفيتها؟ قل وإلا اقتلعت لسانك.
- دون لساني لن أستطيع أن أخبرك شيئاً.
أعرب قوباتي بهدوء، كانت كلماته محبوكة باحكام، لقد كان الفتى يريد أن يصل إلى بعض ما جرى من حوادث بالأمس.
- آ ... إذاً أخفاهم صديقك ذلك الذي اسمه توز.. - التفت الباشا ألى عليغوكه - توز...
- توزار - أجاب شوجنوقه - ذلك الذي كان يقطع الطرقات في باختشي ساراي.

اقترب شوجنوقه من عليغوت بتمهل ثم انحنى هامساً في أذنه.
- لا يجب أن نحدث هذا الغر عن أولئك الأموات وإلا سيعض على لجامه ولن نستخلص منه شيئاً. لقد اختطفناه وحده، وهذا كل شيء.
استمع الباشا بانتباه ثم أزاح الأمير بيده بضجر.
- أنا أدرك هذا، فلم تلدني أمي بالأمس.
ومن جديد حاول عليغوكه تبديد السحاب الذي بدأ يتكاثف مرة أخرى. صفق بيده وأمر.
- أحضروا اللحم، ألم يجهز حتى الآن؟
انفرجت أسارير الباشا قليلاً عندما اختطف جابوي عود الجوز الذي توضع عليه فخذ خروف كامل من يد النبيل وقدمه إلى الباشا بانحناءة واحترام. كانت الاضلاع قد توردت على الفحم، أما اللحم فقد بدا أنه مازال قاسياً. ولم يشأ عليغوت أن يعيد اللحم ليشوى من جديد. بل راح يقتطع منه بأسنانه باذلاً في ذلك جهداً.
- هكذا... كل شيء يتم بشكل عشوائي - قالها بفم امتلأ باللحم - إنني لم أجلس في حياتي خلف مائدة لا تليق بمركزي.
انتزع قطعة أكبر باذلاً جهداً أكبر وابتلعها. كان العرق يتجمع على جبين الباشا بينما كان الدهن الساخن يسيل على ذقنه.
- أقسم بأن الباشا يأكل مثل مزارع حقيقي - أعلن جابوي بحماسة وهو يبتلع لعابه - إن الجبلي لا يخطىء حين يقول " ما كان حاراً ليس نيئاً "
أراد جابوي أن يضيف شيءاً آخر غير أنه تلعثم تحت نظرات الباشا الساخطة، الذي لم يستطع أن يقيم حديث الجبلي المازح.
بعدما أسكت عليغوت باشا جوعه مبدئياً. أعرب بلطف عن كرمه السخي:
- وأنت أيضاً، اجلس وتناول شيئاً. ماذا هناك أيضاً؟ لحم مسلوق؟ وما هذا؟ الكبد المحشو بالدهن كيف تسمونه؟
- جالباور - صاح جابوي بسرور - سيجهز حالاً.

انحنى شوجنوقه مرة أخرى هامساً في أذن الباشا مشيراً برأسه نحو الأسير وبصوت نصف مسموع قال :
- وماذا نفعل به؟ الأفضل أن نتريث في تقرير مصيره، لنأخذه معنا فالطريق حتى البحر طويل وهناك محطات عديدة.
- وعلى الطريق سوف ينقذنا من الملل.
قال عليغوت مقاطعاً الأمير بصوت جهوري، ثم ضحك مقهقهاً، كانت ضحكة مرعبة خسيسة جعلت قوباتي يهتز لها من الداخل. لقد كان من السهل التكهن عن أي نوع من التسلية يفكر به مساعد الخان القذر هذا. إنه لن يقضي عليه فوراً بل سوف يتلاعب به تلاعب القط المتخم بفأر اصطاده. ضحك جابوي متملقاً ومعبراً عن ولائه الحماسي. أما عليغوكه فقد ابتسم باقتضاب وحدق في وجه السرعسكر معبراً بعيونه عن إخلاصه الكامل. شملت نظراته وجه قوباتي الذي كان مستعداً لأن يقسم بأنه لمح في نظرته الخاطفة تلك نظرة تفاوضية بينه هو ابن كورغوقه وشوجنوقه. راح قوباتي يقلب الأمر بشكل جدي. إنه في كل الأحوال لن يهدر شرفه حتى لو اقتضى الأمر إلى تقطيعه وتعريضه للنار، غير أنه لن يدخل رأسه في طعام العملاق إذا كان الوضع لا يحتاج إلى ذلك. يجب عدم التسرع في مثل هذه الأمور. ولن يلومه أحد في العالم الآخر لوصوله متأخراً.
كان من الأنسب الآن أن يكسب بعض الوقت فمن يدري لعل جانبولات انطلق في أثره. ثم على الطريق قد تحدث مفاجآت كثيرة.
قُدمت أفضل قطع اللحم المسلوق إلى عليغوت (هذه المرة كانت مطبوخة جيداً).
وبعد فترة قُدمت أشهى قطعة لحم ضأن على الإطلاق، لحم حمل أسود.. بعد أن لاك طعامه تحسن وضعه واسترجع قليلاً من أنفاسه وأصبح مزاجه لطيفاً بشكل غير اعتيادي. حتى عليغوت

تعجب من هذا الانقلاب في مزاجه بعد كل ما كابده خلال الأيام الاخيرة. وها هو الآن يراوده شعور صغير بالطيبة.
- إذاً أيها الصغير، أخبرني من أية قبيلةٍ أنت، ومن أي عائلة - وأشار بإصبعه الثخينة الملطخة بالدهن المتجمد إلى قوباتي - أو انتظر قليلاً لا تجب... أرى أنك لست وضيع الأصل. والأغلب أنك من أصل قبرديني نبيل، هل أصبت؟
أحس قوباتي بنظرات عليغوكه العنيدة مسلطة عليه، ولاحظ أن الأمير سوف يحاول تلقينه الأجوبة، ولكن عبثاً يفعل، فالفتى حاتاجوقه لن يخطئ وإن لم يضطر فلن يفصح عن اسم عائلته. اصطنع قوباتي الدهشة وكأنه يتعجب من فطنة عليغوت فأكد بكل ثقة :
- لقد أصبت أيها المبجل، أصبت.
- ها.. ها ..ها.. - أصدر الباشا صوتاً مثل خنزير ثم أمر راضياً - فكوا وثاق يديه واعطوه ليأكل - انتظروا أيها الأغبياء - صاح بالنبلاء الذين تدافعوا لتنفيذ أمره - أتريدون أن يقذف بكم كما تقذف الحملان التي توسخت مؤخراتها. أولاً شدوا وثاق قدمه الأيمن إلى يده اليمنى، هل تريدون أن أعلمكم.
سارع اثنان من هؤلاء الحمقى إلى تنفيذ أوامر الباشا على حين كان الباشا قد نكس رأسه وقد غلبه النعاس، وأخيراً تمدد وراح يصدر شخيراً بينما جلس جابوي إلى جانبه طارداً الذباب عنه .
زحف قوباتي جاراً الجذع الذي ربط إليه حتى وصل إلى حيث الراعي. مد يده إلى النار. ابتسم له الراعي البلقري الذي ارتدى ملابس مزرية ممزقة، وقدم للفتى قدحاً من اللبن العيران. ارتشف قوباتي ببطء وبلذة مشروب حليب البقر المتخمر وراح يتفحص المكان بنظراته.
تدرج انحدار المرعى ثم ارتفع بحدة متحولاً إلى سلسلة صخور وتدية حاولت أن تلتصق بشدة بالسحاب، وعبر فجوات الغيوم بدت السماء صافية زرقاء ساطعة. إلى الأسفل كان الوادي حيث نظم جانبولات وقوباتي رحلة صيد موفقة فيه قبل أربعة

أيام فقط. أما الجهة المقابلة من الوادي فكانت أشد انحداراً وأكثر غنى بالنباتات البرية المختلفة. في مكان قريب من هنا كان هناك جسر يخترق النهر وغير بعيد عنه لابد من وجود مضيق يؤدي إلى وادي بقسان.

راح قوباتي يستعرض الأمر، كيف سيتصرف أحدهم لو أنه وجد نفسه مكانه، شعر بنوع من الراحة عندما قرر أن لا يسمح للأعداء بتحطيم روحه المعنوية، فمن يدري قد تكون أعين أصدقائه في هذه اللحظة تراقبه وتتحين الفرصة المناسبة والمكان المناسب لنصب كمين.

- مع هذه الزينة في قدميك لن تذهب بعيداً إن حاولت الهرب.

جاء صوت عليغوكة هامساً في أذن الفتى ، التفت قوباتي فرأى وجه شوجنوقة يميل إليه وقد فاحت من فمه رائحة كريهة.

- إنه لمن المبكر الآن الهرب - أجاب قوباتي بهدوء - لا بد في البداية أن نأكل.

وضع قدح اللبن الخشبي ، ليلتقط ضلع خروف. قذف عليغوكه الراعي العجوز بنظرة نارية فآثر الأخير الانسحاب والابتعاد عن موقد النار ليخلو المكان للفتى و شوجنوقه. أخذ الأمير مكاناً إلى جانب الفتى وجلس.

- فكر ألا تساوي حياتك أكثر من قطعة من الحديد وبضعة قطع من الحجارة اللماعة.

- إذا فكرت قليلاً فإن كل شخص يثمن حياته بأغلى من ذلك بكثير، أما حياة الآخرين...

- وماذا عن حياة الآخرين؟ - سأل عليغوكة مهتماً.

- يمكن أن تثمن حياة الآخرين بقطعة العظم هذه - مد قوباتي العظم العاري إلى شوجنوقه ثم رماه بعيداً.

- حسناً وماذا ينتج عن ذلك؟

- ينتج أنه بعد الدفع يحدث أن يطاح برأس الذي دفع ، خاصة إذا كان هذا الرأس غبياً وميالاً إلى الثقة.

- يبدو أن رأسك ليس غبياً بل إنه داهية وأكبر من عمره - قال شوجنوقه بصراحة متملقة - وهل يبقى أي شك إذا أعطى الأمير كلمة.
- المشكلة تتلخص في هذه النقطة ، فأنت لا تملك إلا كلمتك ، ومركزك كأمير يتلاشى . الأفضل لو كانت لك كلمة إنسان بسيط.
- ولكن أنت نفسك أمير - همس عليغوكه- ولا تعتقد أنني سوف أبيع هذا الحيوان القرمي ....
- أنظر إليه، لقد استيقظ.
نهض شوجنوقه وأسرع إلى السرعسكر .
كان كل شيء قد أعد من أجل الرحلة الطويلة . عدة خرفان وضعها جابوي في العربة بعد أن ألقى عليها نظرة حزينة . ورموا قوباتي على ظهر جواد بعد أن أوثقوه بحزام شد إلى سرج أحد رجال شوجنوقه.
قبل أن يعتلي السرعسكر جواده، التهم قطعة من اللحم وشرب قدحين من العيران دون أن يلتفت إلى قوباتي ، كان يريد الإسراع في الابتعاد عن هذا المكان الملعون قدر الإمكان. وراح الطابور الطويل يتجه نزولاً إلى النهر. عند عبور الجسر المتداعي بدأ عليغوت يطلق الشتائم وقد اصفر وجهه رعباً، وراح يؤكد أن عبور الصراط المستقيم لهو أيسر من عبور هذا الجسر. عند المضيق المؤدي إلى بقسان، اضطر الجمع إلى التخلي عن العربة لضيق المكان. فصلوا الجياد عن العربة وحملوها كل العتاد .
هبط المساء على المسافرين وهم بالقرب من ضفاف نهر بيديك حيث كان عليه أن يصب في بقسان . كان هدير المياه في هذا المكان صاخباً وفاق ضجيجه صخب مياه المحطة السابقة حيث قضى فرسان عليغوت النهمين استراحتهم. مازال طريقهم طويلاً وشاقاً، إذ عليهم أن يرتقوا الوادي ثم الإنزلاق إلى نهر تيزيل ، ومن ثم عبور نهري بالك وبسج.

" إنهم خائفون - قال قوباتي لنفسه - ينتظرون في أية لحظة أن يقعوا في كمين أو أن يلحق بهم أحد. إنهم يتحضرون للمبيت، فهل ستكون ليلتهم هادئة؟ هاهم رجال شوجنوقه يقطعون الأغصان بهدوء حذر، وتعابير اليقظة والغضب البادية على وجوه الأمير والباشا مضحكة، أما ذلك السمين ، فيبدو عليه أنه مسكين وحزين حتى تحسب أنه ابتلع سهواً شيءً عجيباً، والنبيل الآخر لا يمكن تمييز شيء فيه غير ضخامته وقوته. من الممتع التصارع معه، رغم.... ولكن ألم يكن هو ذلك الذي ضرب رأسه بالشجرة؟ بلى إنه هو نفس الشخص، إن ما يبدو في عينيه من ذكاء وإحساس إنساني ليس أكثر مما عند ثور من ثيران الناغوي."

جر قوباتي نفسه مع الأغلال إلى الماء، مسح وجهه ثم شرب حتى ارتوى، واضطجع على العشب.

قام الضخم ظريف بالتخفيف من حمولة الجياد، أما جابوي فقد وضع على النار المستعرة قدراً مملوءاً بالماء، بينما قام أحد الشباب البلقر بتقطيع خروف بمهارة. لم يبق أحد دون عمل إلا الأمير والباشا، كانا ينتظران أن تفرش المائدة بالحساء واللحم والجبن المجفف. حتى كلمات كان لا بد له من العمل ، وعلى العموم، تقع مسؤولية الوضع الراهن على عاتقه، فهو الذي قال أن مجموعة من الفرسان الأبطال سوف تنضم إليهم، غير أن أحداً لم يظهر بعد. يبدو أنهم سمعوا بالخلاف بين حاتاجوقة وعليغوت باشا فقاموا بوزن الأمور وخافوا من عواقب هذا الخصام فأحجموا عن المساعدة.

مر أحدهم جالباً الأغصان بالقرب من قوباتي، وتوقف ليسترد أنفاسه أمام الأسير، وقال هامساً بتحسر وكأنه يحدث نفسه :

- أووه كم هي قاسية حياتنا.

أجابه قوباتي دون أن يلتفت :

- لا بأس فمن لا يجرب العسر لن يفهم اليسر.

- وما العمل إذاً؟

كان قوباتي مازال يتأمل انعكاس أشعة الشمس التي بدأت بالمغيب على الصخور، وراح يغني بصوت بالكاد أن يسمع :

الدروب القذرة ليست لنا
بل تنجذب إليها الكلاب الشاردة

ثم أردف:
- أهرب من هنا قبل أن يقع الفأس في الرأس، ويمكنك الاعتماد على التسامح، فالقبردينيون طيبون أكثر من اللازم أحياناً.
" فتى يريد أن يلقنني درساً " أراد النبيل قول هذه الجملة بلهجة كبير في السن، لكن صوته خانه. بدا شعوره بالضياع وحنقه من نفسه واضحاً.
على قمة الصخور رن صوت معدني ، ورأى قوباتي الدرع الذي يعرفه جيداً يلمع وقد ظهر وجه الأسد المزمجر من على البعد بوضوح.
انتفض عليغوت باشا برعب على الصوت الغير مألوف وبيد مرتجفة أشار إلى الأعلى وقال:
- هذا ...تعالوا... ما هذا؟
- إنه - صاح عليغوكه - إنه..إنه درعي.

الخبر الثاني عشر

ليس من شك في صحة المثل الشعبي القائل :
نقول أن الأعرج تعيس، لكن الأعمى يخالفنا الرأي.

" - آه أيتها المخلوقات الصغيرة الشريرة، لماذا فتحتم ثقباً في صدري؟ لماذا تسربتم إلى داخلي؟ وعن أي شيء تبحثون بين أضلاعي؟
- لا تزعجنا ولا تشتمنا، نحن بكل الأحوال سوف نجد ما نبحث عنه.
- أيها المزعجون الملاعين ، الآن سوف أمزق صدري بيدي وأدوسكم جميعاً، ولن أبقي على أحد من قبيلتكم الوقحة، أنا أعلم أن القبيلة كلها تجمعت هنا في صدري.
هدأ الأشرار الصغار لبعض الوقت، لا بد أنهم تشاوروا في الأمر، ثم عادوا من جديد إلى ضوضائهم ولكن بصورة أعنف.
- سوف نجد الزمردة الثمينة نالقوت، إننا نعلم أنك تخفيها هنا في صدرك، سوف نجدها ومن ثم نرحل.
- أي شقي هذا الذي أخبركم أنني أخفي نالقوت في صدري؟
- أخبرتنا تلك الساحرة الحكيمة جشتيوه، العجوز التي تفترس ضحاياها في الليالي وتشرب من دمائهم.
- أية مخلوقات غبية أنت، وأية مغفلة جشتيوه تلك. إن نالقوت هو حصاني وليس حجراً كريماً.
- هل صحيح ما تقول؟
توقف الضجيج من جديد.
- إنها حقيقة كحقيقة أن إسمي جانبولات.
- إذاً سوف نقدم لك الماخسمة المغلية من الدخن النابت على الصخور الغرانيتية والذي جففناه على حبل ممدود، وأضفنا إليه العسل الذي جلبناه من قمة أحمد غوره.
تضاحكت المخلوقات بحدة ثم اندفعت إلى الرقص.

- الآن سوف أفجر صدري.
- لا حاجة إلى ذلك - قال كبيرهم - ها قد وصلت شفيعتك الجميلة أمش ما أن تلمس بأصابعها صدرك حتى نغادر إلى بلادنا تحت الأرض.
- لا تعودوا أبداً- صاح جانبولات ورائهم - لا أثر لأي نالقوت في صدري."
فتح توزار عينيه فرأى امرأة جميلة وأحس بيديها الكبيرتين تتحسسان صدره بلطف ورقة.
- أهذه أنت شفيعتي أمش؟ - سأل جانبولات بصوت يسمع بالكاد
- تلك المخلوقات الصغيرة لقد هربت بالفعل. أليس كذلك؟
- أية مخلوقات؟ - تسائلت نالجان بدهشة.
- مخلوقات صغيرة وقحة - تمتم جانبولات بهمس متقطع - لقد كانوا يبحثون عن حجارة كريمة في صدري.
ضربت نالجان كفاً بكف، ثم لطمت خديها المتعبين من قلة النوم، وانقلبت الدهشة والارتباك إلى سعادة غامرة هزتها حتى الأعماق . لقد أدركت أن الجريح الذي يرقد على حافة الموت قد تجاوز الخطر وأنه يعود إلى رشده.
- آه يا لغبائي ! لم أدرك فوراً.
تحركت شفتا جانبولات الخاليتان من الحياة، انحنت نالجان تريد التقاط الهمس.
- أنت لماذا تبكين؟
- لا ..لا .. أنا لا أبكي ، أنا لن أبكي ثانية - سارعت نالجان إلى مسح دموعها - هل تعرفني؟ تعرفني؟
لقد كانت عينا جانبولات الغائرتين تنظران إليها ببراءة طفل لا حامي له وخيل إليها أنهما اشتعلتا للحظة قبل أن تنطفئا.
- سوف أنام قليلاً - قال جانبولات وهو يغمض عينيه.
تبين أن نالجان كانت ممرضة ممتازة، فما كان لأحد أن يستطيع انتشال جانبولات من عتمة عالم الأموات الغامض سواها ، ذلك العالم الذي يتكلم عنه الأحياء كثيراً، و عليهم عبور بوابته يوماً.

ولكن ماذا بعد عبور بوابة الموت؟ لا أحد يدري، إذ لم يعد أحد من هناك ليخبرنا.
أقدمت نالجان بنفسها على انتزاع السهم الذي نفذ عميقاً في صدر جانبولات. ثم طهرت الجرح بالنباتات الطبية والمراهم التي حضرتها من مختلف أنواع النباتات التي جمعتها العجوز اللاذعة اللسان، تلك التي قدم لها قوباتي صيده.
بقي جانبولات فاقداً الوعي لعدة أيام، وبقيت نالجان إلى جانبه ترعاه ، كما أن سانا قدمت خلال هذه الفترة كل ما تستطيع.
أما كيف كان يمكن للنسوة التعامل مع موت الأب والأخ لو لم يمتص الجريح آلامهما، فهذا ما لم يكن من السهل التكهن به.
قام أحد المزارعين باستضافتهما، وقدم الجيران كل المساعدة اللازمة. وعندما انتشر خبر تعافي ضيف يموز بين سكان القرية، راحوا يتجمعون أمام مدخل البيت يستطلعون الأخبار. الفتيان ينتظرون أمام السياج أما كبار السن فكانوا يجلسون بوقار على المقاعد، كما حاول قسم الدخول إلى غرفة توزار إلا أن أخت يموز منعتهم من ذلك.
- دعوه ينام، دعوه يستجمع قوته.
لم يجادلها أحد ، فنالجان كانت تتمتع باحترام كبير. ولكن إحدى النساء قالت لها بتهكم خفي، إن الضجيج يضر بصحة المريض. ورغم ما حمله كلام المرأة من تلميحات، إلا أن نالجان كانت مؤمنة بذلك، خارجة بذلك عن المألوف . فالاعتقاد السائد في تلك الأيام كان يدعو إلى عدم إعطاء المريض فرصة للنوم لأن ذلك يسارع من عملية شفائه. ومع ذلك وفي يوم من الأيام انطلقت أنغام الشتشه بشنه[١] وصاحبها صوت مزمار قصبي. انطلقت الرقصات البهيجة لفترة. ولكن سرعان ما بدأ المرح بالانحسار إذ يبدوا أن الرجال تذكروا أن التربة على قبر يموز لم تجف بعد. ورأى أحد المعمرين أنه من اللائق الإشادة

[١] - الشتشه بشنه – آلة وترية موسيقية.

بمآثر الفقيد من خلال أغنية قديمة، فراح يغني بينما كان الجمع يردد اللازمة على أثره. ثم طبع الحزن غنائهم وهم يتحدثون عن ظلم الأمراء الدموي.
(تحدثت الأغنية عن الغزوة الرهيبة التي نظمها قرشاي الابن المدلل لتلستانوف الذي عاش وهو يلتحف الحرير. كانت بندقيته ذات الحزام الأحمر تصيب أهدافها بدقة. ولكن من هو غريمه؟ الفلاح الذي يقاتل عاري اليدين بقميص ممزق دون درع يحميه. المسحوق الذي يعيش في ثقب في الأرض. وتتكلم الأغنية عن البطل تاشوقه ماشا . صحيح أنه شجاع ، وأن شارباه يحملان حزم الحطب، وأن زنده مثل جذع شجرة، وقلبه قلب الأسد ، ولكن رصاصة حاقدة من يد الأمير المدلل أردته ، وقدر على الفلاحين المسالمين أن يفقدوا بيوتهم وكل المتاع الذي جمعوه خلال حياتهم بساعة واحدة. وهذه المصيبة من صنع قرشاي الابن المدلل للأمير تولستان).

* *

استيقظ جانبولات كما يستيقظ الرجل من نومه دون أن تكون هناك مخلوقات صغيرة تزعجه. وتناهت الكلمات الأخيرة من الأغنية إلى مسامعه. كانت الغرفة مظلمة ولم يكن هناك من ضوء إلا ما تنشره جمرات الموقد الملتهبة. علت أصوات رجال ونساء غير مفهومة ثم هدأ كل شيء. لا بد وأن الناس تفرقوا إلى بيوتهم. كان جانبولات يدرك أنه بكامل وعيه. وحاول أن يعيد صور الأحداث وأن يقيم الوضع.
لقد رآهم وهم يصوبون السهم إليه، إذاً لا بد وأن السهم ذهب عميقاً في صدره، وإلا لما سقط كالقتيل. من النادر أن يشفى الرجل من مثل هذه الإصابة. العادة أن يموت المصاب عندما يخرجون السهم من جسمه، فإذا قدر له أن يعيش سيبقى فاقداً الوعي لعدة أيام، وفي أغلب الحالات كان المصاب يموت في

النهاية, لكن يبدو أن توزار قيض له أن يعيش، وهذا بفضل نالجان . حسناً لم يعد صدره يؤلمه ولكن لا يجدر به أن يضغط عليه كثيراً بالكلام. والأمور أصبحت واضحة، لكن ماذا عن قوباتي؟ وأين يموز؟ . لو أن نالجان تأتي بسرعة. حتى أكثر الرجال صبراً يتحولون عند إصابتهم بمرض ما إلى أطفال. لقد بدأ الوقت يمر ثقيلاً و نالجان تتأخر عن القدوم، لكن هناك صوت نسائي قادم من خلف الباب الموصد بإحكام. ميز جانبولات صوت نالجان القوي الدافئ والمفعم بالحنان، وتداخل الصوت مع صوت آخر حاد مرتج، ويبدو أن صاحبته عجوز.

- لقد أحضرت المرهم - ارتفع صوت العجوز- إنه يساعد على التئام الجرح، لقد جاء في حينه.

- أطال الله عمرك بعدد الخطوات التي خطوتها وأنت قادمة إلى هنا - شكرتها نالجان بحرارة.

- هل يمكن تحقيق ذلك؟

لم تدر نالجان هل يحمل سؤال العجوز خبثاً مُقنعاً؟ أم جاء بسذاجة عن طيبة قلب. رجح جانبولات الاحتمال الأول، غير أن نالجان أجابت مؤكدة:

- إن الله على كل شيء قدير.

- نعم إنه قادر ، وأنا أدعو واشخوه وبستحه وكل الآلهة الأخرى لكي تمجد إلهك.

لم يميز جانبولات جواب نالجان على تهكم العجوز غير أنه أدرك أنها احتدت.

- يكفي أيتها الفتاة القاسية ، اهدئي ! ماذا قلت لإثارة هذه الزوبعة؟ اطمئني لن يغضب إلهك. هل تريدين أن أعطيك الدواء الأحمر الذي صنعته من جذور الشكايلا؟ فقد توردين به وجنتيك، وبهذا سوف تجذبين إليك الفرسان ... اووووو أنت من دون الشكايلا أصبحت حمراء.

تجهم جانبولات .

"فارس !! عن أي فارس تتحدث؟ وكيف يمكن في هذه المنطقة المنسية أن يظهر فارس يستحق أن تحمر له خدود نالجان. قد يكون هذا الفارس هو جباغي، ولكنه لن يصل بقامته إلى كتفها. لا إنه ليس قازانوقه. إذاً من هو؟؟؟ "
تبلبلت أفكار جانبولات وزحف الصداع غازياً رأسه. أحس بإعياء شديد ودون أن يشعر راح في سبات عميق لم يستيقظ منه حتى الصباح. بل إنه لم يشعر بنالجان وسانا وهما تدهنان مكان إصابته بذلك المرهم المصنوع من الشكايلا.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كانت النافذة صغيرة، ولكنها كانت كافية لكي تنقل إلى الداخل تنفس العالم الخارجي في مثل هذا اليوم الصافي. لم يكن النهار صيفياً حارقاً، وبدا لتوزار أنه يرى ويسمع بكل جوارحه رحابة وجمال هذا اليوم الذي استوعب روح الغابات الجبلية، وتألق أنهار الثلج، والزقزقة السعيدة لأنواع الطيور المختلفة المرحة، وطنين النحل اللاهي، والنسيم المنعش الذي يحيط بالمكان ويجمع أخبار النباتات النامية والأزهار المتفتحة، ومكان كل موقد فيه شعلة نار. لقد ضم الصباح إلى نفسه كل الكون بسحره المتسلط، ليقتحم غرفة المصاب من النافذة الصغيرة، لتضخ فيه دفقاً من القوة الجديدة، والنشاط والأمل المشرق. تذكر أفكاره التي زارته بالأمس، فضحك جهاراً. لقد كان على يقين أن الفارس الذي ضايقه بالأمس ما هو إلا، هو نفسه. لقد أربكته هذه الحقيقة كثيراً وحاول أن يتخلص منها. ولكن الفكرة ألحت عليه وسكنت رأسه؟
"هذا أنا .. أنا ذلك الفارس.. من الطبيعي أن أكون أنا ذلك الفارس ، ومن غيري؟؟؟؟ "
كان سابحاً في أفكاره عندما دخلت عليه نالجان. حدق جانبولات فيها، اضطربت نالجان إلا أنها قالت بهدوء:

- أنت تحدق مثل رجل معافى، ألم يعد الجرح يؤلمك؟
- أيتها السيدة - ابتسم جانبولات - إنني لن أرفض قطعة صغيرة من اللحم.
- ماذا تقول!!! - صفقت نالجان براحتيها - إذاً إن أمورنا تسير بسرعة نحو الأفضل، حسناً.
نهضت و أسرعت نحو الباب.

- آي.. أيتها القاسية- أوقفها هو - انتظري قليلاً.

تجمدت نالجان
- كيف هذا - تمتمت بتلعثم – لابد وأن أصوات ثرثرتنا بالأمس كانت مرتفعة حتى أيقظنا حبي....
وبسرعة أغلقت ناجان فمها بيدها العريضة، لقد كادت أن تنطق بكلمة لطيفة تعبر فيها عن تلك الأفكار التي تراود جانبولات.
- وماذا في ذلك؟ ليست مصيبة أن أستمع إلى حديثكم، فأنتم لم تخفوا أية أسرار خطيرة.
لم يطمئنها جانبولات. كان منظرها يوحي بأن أعمق أسرارها أصبح مكشوفاً للعامة. على حين اجتاحت موجة من السعادة الغامرة جانبولات، لأن نالجان كشفت سرها اليوم وليس بالأمس إذ أنها لم تذكر اسمه البارحة ، وهو لم ير رأس العجوز وهي تومئ باتجاه غرفته الموصدة. ثم زلة لسانها التي كادت فيها أن تصفه بالحبيب، لقد بدا الأمر بالنسبة إليه رائعاً. ولكنه تصنع الجهل وكأنه لم يلتقط تلك الهفوة منها، مما سمح لنالجان بأن تطمئن وتعود إلى اعتقادها بأن سرها مازال في طي الكتمان. وتنفست الصعداء.
- ماذا كنت تريد أن تقول يا ابن توزار؟
- أردت أن أسأل عن يموز، أين هو؟ أين قوباتي؟ أين كوانتشه؟
لم يكن السؤال مفاجئاً فهي تنتظره لذلك كان الجواب حاضراً. تكلمت نالجان عن كل شيء دون مواربة ، دون دموع أو نواح، حتى أنها لم تلعن عليغوكه سوى مرتين فقط.

اصفر توزار مثل ميت. سكت طويلاً، ثم أخذ يد نالجان وضغط عليها بلطف وقال بهدوء:
لا يجب أن أبقى راقداً لفترة طويلة. هل تظنين أيتها الروح الطيبة أنني أستطيع امتطاء صهوة جوادي قريباً...أوه لقد نسيت تماماً نالقوت، يبدو أنني كنت أخشى أن أسأل عنه.
- حصانك ينتظرك ويحن إليك - ابتسمت نالجان بمرارة - قريباً سوف تلتقي به، أما الآن فإن سانا تتنزه معه، لقد أصبحا صديقين. المسكينة لقد أصبحت دون أب وأعتقد جازمة أنها تعاني من أجل قوباتي أيضاً، يا لها من مصيبة.
- قد يبدو الأمر غريباً ولكنني لست قلقاً بخصوص قوباتي. إنه ذكي وسريع البديهة وعند اللزوم سوف يلجم توقد الشباب لديه، طبعاً هو الآن مهدد بخطر كبير غير أنه وبكل الأحوال سوف يجد مخرجاً، أنا واثق من ذلك. سوف يستغل مناسبة ليقول فيها كش شاه.... مات.
- أي شاه؟ وأي مات؟ هل يلعب طفلنا الصغير لعبة تركية ما.
- نعم ، ولكنها ليست لعبة تركية.
- بالنسبة لي لا يهم أن تكون تركية أم تتارية أم أرمنية، لست مطمئنة وصدري منقبض.
- سوف نتجاوز هذه المحنة.
- هل تتذكر كلمات قازانوقه جباغي ، يمكن أن تحتمل أحزان الأمس، ويمكن أن تحتمل أهوال الغد ، ولكن.. كيف تحتمل آلام اليوم.
- ولكن الرجل نفسه قال: إن أحزان اليوم، غداً سوف تصبح من الماضي.
- لو أن هذا الغد يأتي سريعاً.

* *

راحت العجوز خاديجة تتمتم من بين أسنانها وأحياناً كانت تطلق لحناً وهي تعاين باهتمام جذور النباتات، على حين كانت سانا تقوم بسحق هذه الجذور.
- خاديجة تعلم الكثير عن النباتات الطبية - راحت العجوز تكلم نفسها - خاديجة نشيطة، وماهرة، ونظرتها صائبة لا تخطئ. إنها مثل الدجاجة التي تنقب الأرض بأقدامها، تجد دائماً حبة شهية تبتلعها. تجدين عند خاديجة كل أنواع المراهم والمطهرات التي تعالج أي داء، أما الآن أيتها الصغيرة فأنت لا تحتاجين إلى شيء. صحتك جيدة وناعمة مثل عنزة ترعرعت في أفضل مرعى، طبعاً يحدث أن تتمنى الفتاة الشابة فارساً ينجذب إليها ويوقف خفقان قلبها بعد أن يشعله، في هذه الأحوال..
- لا يا جدتي لست بحاجة إلى هذا الفارس - قالت سانا بحزن - أحتاج فقط إلى رؤيته سليماً ولو لمرة واحدة ، وهذا يكفي.
- انتظري، هل يمكن - قاطعتها العجوز - هل تعنين ذلك .. اوو .. نعم كان يجب أن أدرك ذلك من قبل. ولكن لماذا يكفي أن ترينه فقط؟ هل يتجاهل جمالك النادر؟
رفعت سانا رأسه وأجابت:
- لا إنه يهتم بي..
- لقد اعتقدت دائماً أن الشاب الذي قابلته وأهداني الطريدة التي اصطادها لا يشبه أحداً من أولئك المغفلين، أليست رغبتك أن تكوني مع مثل هذا الفارس؟
كانت خاديجة تداعب سانا وقد لكزتها بإصبعها عندما وجهت إليها السؤال.
- لا يا جدتي ، إن مثل هذه السعادة ليست لي - سقطت دمعتان من بين رموشها الطويلة - لقد أصبحت يتيمة وقوباتي ...
- اسكتي، اسكتي أيتها الغبية - غضبت خاديجة - لسنا بالتعساء إلى هذا الحد، حتى الأعمى يرى ذلك، إن الآباء يرحلون قبل الأبناء، وهذه حقيقة، أما بالنسبة إليك فالمستقبل واعد، الشباب،

الجمال، الحب، أولاد المستقبل. إن صيادك سوف يعود بالتأكيد وعندها..

- حتى وإن عاد فإنه ليس لي، سوف يجد لنفسه عروساً تليق بلقبه كأمير.

- آخ هكذا الأمر إذاً - احتدت العجوز كديك - أنت تعتقدين أنك لا تناسبينه، أما أنا فأقول: هل يستحق قوباتي هذه الفتاة المتكاملة؟ هل فهمت؟

- لم أفهم شيئاً - هزت سانا رأسها نفياً.

- أما أنا فلن أضيف شيئاً إلى ما قلته، والذي قلته كثير ولن أشرح شيئاً - قالت العجوز ذلك وكأنها تلقي لغزاً.

مخطوطة

وُجدت هذه الرسالة المخطوطة في حقيبة أحد الفرسان الشراكسة، الذين لاقوا حتفهم المبكر إثر التحام جسدي . ومع المخطوطة وجدت ساعة من طراز بيضة نيورنبيرغ وعلبة تبغ فضية حملت نقش شعار مدينة ليدين.
كانت المخطوطة مترجمة من لغة أجنبية، وقد قام مترجمها بوضع ملاحظاته عليها. ورغم أنها تحتوي على الكثير من المغالطات، إلا أنها تعكس وبدرجة لا يستهان بها وجهات النظر الأوروبية، ونظرتهم إلى شعوب شمال القفقاس.
أما كيف وقعت هذه المخطوطة وتلك الأشياء المشار إليها، والتي تعود بالتأكيد إلى صاحب المخطوطة في يد فارسنا الهمام، فهذه ستبقى إحدى الألغاز التي لم يحلها التاريخ بعد.

وهكذا هذه هي الرسالة أمامكم:

إلى الصديق المحترم ، بوك ايرونيموس،
يبعث إليك هذه الرسالة في صيف ١٧٠٢ حبيب العلم والترحال، النبيل كلاوس بفيفركوبف .
قبل كل شيء يا عزيز الدراسة، علي أن أشرح سبب غيابي الطويل وعدم كشفي عن أي خبر يدل عني. إذ من المؤسف جداً أن يقوم البعض بنشر الأكاذيب الرخيصة والافتراءات الشائنة عني. ولعدم رغبتي في غرس سيفي في أحشائهم القذرة آثرت الرحيل دون إضاعة للوقت، ودون أن أودع أحداً، وتوجهت إلى السويد. لقد ظننت بأن الرد على هذه الأقاويل يحط من مركزي.
قيل بأنني هربت من المدينين بعد أن تراكمت ديوني، وقيل بأنني قمت باستغلال إحدى سيدات المجتمع الراقي وابتززت

منها أشياء ثمينة لعينة، وأنني قمت برهنها. إن أسوأ ما في الأمر أن هذه الأكاذيب أطلقها أصحابنا رفاق الكأس، الذين أطلقوا لألسنتهم القذرة العنان وقاموا بتشويه سمعتي.
سوف أوضح لك كيف جرت الأمور ....(تشويه في الرسالة)
...... وبعد كل ما ذكرت أستطيع أن أتمم رسالتي وأن أكتب عن آخر أخباري.
في السويد درست الطب في جامعة وبسالا العريقة لمدة عامين، ثم درست الفلسفة والحقوق. و كان من الممكن أن أنجح في ميدان العلم لولا الحوادث المؤسفة التي أجبرتني على ترك تلك المدينة.......(تشوه) .... سكران، صحيح أنني شاركتهم الشراب قليلاً إلا أنني لم أقم بتهشيم رأس ذلك الأشقر الفارغ بكوب البيرة، حتى أن ....(تشوه).... ويبقى الاعتماد الدائم على سيدنا المسيح ، فليتمجد اسمه إلى أبد الآبدين .
لقد ساعدتني سيدة فاضلة من علية القوم في استوكهولم على العمل سكرتيراً للملك كارل السابع في روسيا ومن ثم في إيران. لكنني سرعان ما سئمت الحياة بين الفرس وبعض شعوب القفقاس التي تدعى (كيزلباشي). أو أنها لم تعد تشد اهتمامي. وحدث أن فقد مبلغ كبير من المال في السفارة، ولما كان من الممكن الاشتباه بي فقد جمعت متاعي و......(تشوه في النص)
.... كان علي أن أعمل لعدة سنوات كجراح على متن سفينة هولندية تحمل على ظهرها التوابل لصالح شركة اوست الهندية، وأطلب من الرب الغفران إن أهملت المرضى، وعلى كلٍ أعتقد أنهم في الجنة بوضع أفضل. هكذا هي الأمور . إن تقلبات القدر وأهواء الدهر الذي يعصف بالشعوب على مر العصور جعلتني مرة أخرى في خدمة السويد. أنا الآن عميل للملك في خانية القرم وفي شمال القفقاس. انتظر... لا تتسرع في الحكم علي أيها الباكالوري أو ربما الماجيستيري لوقوفي إلى جانب الأعداء الحاليين لصاحب فخامة فيترلاند . نعم إن وطنيتي تفرض علي الوقوف إلى جانب تحالف الدول التي تقاتل ضد الملك كارل

السابع، ولكن وللأسف الشديد، تبين أن هذا التحالف يقف إلى جانب روسيا التي تحاول فرض هيمنتها على القفقاس، وأن توسع حدود نفوذها إلى الأبعد.

فكر قليلاً بما سوف يحدث بعد ذلك إذا ما تعرض بطرس الروسي لهزيمة ساحقة. سوف يستسلم فريديريك الدانمركي، أما زعيم سكسونيا اغوسطوس فإنه أكثر بأساً في مخادع النساء منه في ميادين الصراع. وعاجلاً أو آجلاً سوف توقف أوروبا دعمها للدب الروسي. وعندها سوف يضيق كارل عليه الخناق بحيث لن يتمكن من الخروج لمدة مائة عام قادمة، ولن تستطيع موسكو من الوصول إلى الأقاليم الجنوبية، بحيث سيتشكل فراغ. وأحد ما يجب أن يملأ هذا الفراغ المتشكل.

لماذا لا تكون دولتنا من المستفيدين. إن اللقمة كبيرة على أسنان السويديين، ثم إنهم بعيدون جداً عن تلك المائدة المفتوحة. والآن بعد هذا الشرح أتمنى أن تكون واضحاً في تعاملك مع وطنيتك، كما يليق بسليل أسرة نبيلة، وكما يليق بكاثوليكي. أما الطيبة الكاثوليكية التي تتكلم عن التواضع ، الصدق ..(تشوه)..إلى وصف تلك الأرض التي فاقت كل تخيلاتي.

يسكن هذه البلاد الشراكسة القبردين والأديغة، والناغوي، والتتار ، وكلهم يسمون أنفسهم أديغه. الأرض جميلة للغاية ، تفيض بالهضاب والجبال ، بالغابات الرائعة التي تنهض على جوانب الأنهار، و من المؤسف أن لا أسماك فيها . يحد البحر الأسود وبحيرة ميؤتسك الأديغة من الشمال الغربي، ومن الشرق يحدهم بحر قزوين، وإلى الشمال تحدهم السهول التي يرتع فيها الناغوي والذين يدعون أيضاً بالقازاق، أما إلى الجنوب فترتفع الجبال الشامخة ونهر الدون الذي يغسل جورجيا.

الأديغة شعب أنيق وجميل، وخاصة نسائهم. وهم يتطلعون إلى الغرباء بفضول وطيبة . وهم عموماً اجتماعيون ومستقيمون.. التربة خصبة إلا أن الشراكسة لا يستغلونها فهم لا يزرعون

الجودار ولا الشوفان ويزرعون الدخن والشعير بكميات قليلة. والبلاد غنية بالفضة الخام.
الغالبية العظمى من السكان كانت إلى عهد قريب تتبع عبادة الأوثان، رغم إيمانهم بالمسيحية الإغريقية. أما اليوم فلقد انتشر الإسلام في هذه الأصقاع ولكن ليس بتلك الصرامة التركية، وبشكل عام الشراكسة غير متزمتين دينياً، وهم يتمسكون بعاداتهم القديمة.
أغلى ما يقيمه الرجال الخيل والسلاح، وهم ماهرون في امتطاء الأول واستخدام الثاني، غير أنهم غير قادرين على الدخول في حرب حقيقية لأنهم لا يعرفون نظام التشكيلات العسكرية.
نبلاء الأديغة لا يمارسون عملاً ولا يهتمون بالشؤون المعيشية ولا التجارية، إنما يتجمعون في الليالي على شكل عصابات تتوجه إلى الغزو من أجل السلب والنهب . وهم لا يكتفون بغزو الأقاليم المجاورة فقط، إنما ينهبون أنفسهم في مقاطعاتهم حيث يتم الاستيلاء على كل شيء. المتوحشون يختطفون حتى أطفال حلفائهم ويبيعونهم كعبيد للأتراك والفرس. وأريد أن أضيف أن الشراكسة لا يعرفون قيمة النقود الذهبية والفضية .....
(تشوه في النص)...... أستطيع أن أسرد حوادث مماثلة ، مثلاً عندما أخرجت ساعتي لأتفقد الوقت التف حولي المرافقون وراحوا يحدقون بذهول في هذا الشيء العجيب بنظرهم. إن أكثر ما أثارهم هي تكات الساعة، لقد تعامل السكان مع بيضة نيورنبرغ على أنها مخلوق حي وسألوني بأية لغة تتحدث، ثم أنهم سألوني إن كانت في بلادنا حيث ولدت يسطع القمر أو تشرق الشمس. وكان أكثر ما اهتم به السكان هو شعري المستعار الأبيض بضفائره المجعدة، حتى أنهم كانوا يعتقدون أنهم ينتزعون شعري ويعيدونه وهكذا.
كان فراشي أنيقاً، أعد وخيط من جلود الخرفان، ومد على الأريكة المحشوة بالأعشاب الجافة العطرية. والأغطية كذلك تمت خياطتها من جلود الخرفان، وخيطت الوسائد من الجلد

الناعم المدعم بالصوف، ومما أثار تعجبي أنهم كانوا يستبدلون غطاء الوسادة الكتاني كل يوم. ما أن أنهض صباحاً حتى يسارعون إلى الفراش ويأخذونه إلى الفناء ويعلقونه تحت الشمس لتجفيفه كما يفعل الصباغون عندنا.
لقد تجمع السكان قبل الفجر أمام مكان إقامتي، إذ أراد بعضهم ببساطة أن يلقي نظرة علي . وحاول آخرون لمس سترتي محاولاً بطريقة غير ملحوظة أن يقتلع زراً منها. والكثير منهم دعاني إلى ضيافته بحركات إيمائية متلهفة. وكان الأولاد يشيرون إلى قبعتي المثلثية ويتدحرجون من الضحك. كان الكبار يصرخون عليهم ويرمون أولئك العفاريت الهاربين بقبضات من الروث الجاف. وما أن يبدأ أحدهم بالمقايضة حتى تعلم أنه لا مجال للتراجع. وعلى فكرة لقد قدم أحد السكان فرساً رائعة مقابل منظار بصري صغير مع قطعتين نقديتين من الكوبيكات الموسكوفية. أما الخنجر القبرديني الذائع الصيت، بغمده المفضض الأسود فقد قايضت عليه مقابل كوب من القصدير العادي الذي تجده في مدينتنا كالإجاص. بالنسبة إليهم يبدوا الزجاج ....
إن تشركيسيا وقبردا مهتمة بالحصول على سبطانات للأسلحة، وكل مستلزمات الخيول ، لجام، نعال مع المسامير، ركاب، سروج، رغم أنهم يصنعون هنا كل هذه الأشياء وبشكل جيد إلا أنهم يعانون من قلتها، لعدم توفر المواد الخام الجيدة. وكذلك هم يشترون أو الأصح أنهم يقايضون على القسي والسهام، البارود والحديد المسبوك والمجلوخ، وكل أنواع الأقمشة الممكنة من المنسوجات الفارسية والشاش والأغطية النسائية والجدائل المقصبة. يبقى أن تأخذ بعين الاعتبار الكميات الهائلة من المستلزمات الصغيرة، مثل الدبابيس والأمشاط، والتوابل، والبن، والعنب المجفف، والزيت. ولا أنسى الصابون، إنهم يستعملون الصابون المصنوع من دهن الخرفان والثيران، الذي يصنعه التتار. صحيح أنه صابون جيد لغسل الثياب، إلا أنه

يترك رائحة نفاذة، لذلك لا يبخلون بشيء للحصول على صابون حقيقي.
وماذا سوف يقدم الأديغة مقابل هذه البضائع؟ الصوف بجودته العالية، آلاف القطع من جلود الثيران، خمسة آلاف مكيال من العسل، وكميات ضخمة من الشمع، ربع مليون قطعة من جلد السنسار، الثعالب، الذئاب، الدببة. هذا ثراء حقيقي. نصف مليون قطعة من جلود الأغنام كل عام. وهذا أيضاً يشكل كيساً ذهبياً. ولن نغفل عن مئات الآلاف من قرون الثيران، وأخيراً الخيول القبردينيه الأصيلة والتي تقدر عالياً، أحياناً تتم مقايضة ثمانية عبيد مقابل حصان واحد، والعبيد كما كتبت......(تشوه).....
والآن سوف آتي إلى القسم الأخير من رسالتي والذي لا يقل أهمية عن ما سبق. وكما يقول البريطانيون المتعجرفون الأخير ليس آخراً.
أعود إلى ما كتبته وأؤكد إن الراعي الحقيقي الذي سيسبق الآخرين إلى هذه الأرض الطيبة سوف ينال حصة الأسد، أما الآخرون فالفتات . ومنذ الآن، علينا التفكير باؤلئك الأشخاص الذين سيحملون على كاهلهم عبئ مسؤوليات قيادة العمليات والوساطة التجارية، يجب العمل على أن يشغل منصب المحافظ في آزوف أوروبي حكيم وخبير، لا باشا.
صديقي العزيز ايرونيموس إن واجبك الآن يحتم عليك إيصال أفكاري إلى الحكام وأصحاب النفوذ من التجار والقادة العسكريين في بلادنا، وإلى حبرنا الأعظم. وآمل أن يدرك هؤلاء مدى أهمية الجهد المتواصل الذي بذلته بحيث أكافئ بما أستحق. كنت أتمنى لنفسي.....
(أعيد فتح الرسالة المختومة بالشمع الأحمر)
والآن أضيف بضعة أسطر، وذلك لتوقفي المفاجئ على طريقي إلى شاطئ البحر. والرب فقط هو الأعلم بعدد الساعات أو الأيام التي سألازم فيها هذه البقعة الضيقة الرطبة من الأرض في الأدغال، والتي لا يمكن حتى للسحالي اختراقها. واحد فقط من

مجموع عشرة مرافقين بقي معي، لقد قام بقطع النباتات الشائكة وفتح درباً إلى هذه الرقعة، ثم وللتمويه أعاد النباتات المقطوعة إلى أماكنها، وهذا ما يسميه المحليون حماية الدرب. إن القصة المهولة التي انزلقت إليها مثل نحلة تسقط في الدبس المغلي هو أمر طبيعي جداً بالنسبة للسكان المحليين. فعندما كنا نجتاز هضبة ندرة أشجارها عند شاطئ أحد الأنهار، اصطدمنا بعصابة أخرى من الفرسان قاطعي الرؤوس الذين فاقونا عدداً. والمرعب في الموضوع أن زعيم تلك العصابة كان له ثأر دم شخصي مع قائد مجموعتنا الهمام الذي كان يتمتع بحيوية كبيرة. لقد تمكن صاحبي من إطلاق الرصاصة الأولى وبذلك خلص عدوه من حياته المبتذلة إلى الأبد. ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ أوووو... أيتها العذراء المقدسة مريم، ماذا حصل بعد ذلك؟ لم يتباه الرجل بمصرع عدوه لأكثر من دقائق. لقد أخذوا رأسه ببساطة، جرى الأمر بسرعة ومهارة، حتى أنه لم يلحظ ذلك. خطا جواده أربعين خطوة قبل أن يسقط. كان يمتطي جواده دون رأسه الذي ذهبت به شفرة السيف بوحشية ودون رحمة. ثم تساقط القتلى بين الجانبين، وعندما حوصرنا اضطررنا إلى اقتحام النهر. كانت المياه مندفعة وتصل حتى خواصر الجياد. لم يثن ذلك من عزم أعدائنا إذ خاضت مجموعة منهم النهر وهم يلوحون بسيوفهم، يريدون إعاقتنا من الوصول إلى الضفة الأخرى للنهر. واختلط الصراخ المرعب مع دوي الرصاص ليسقط العديد من الفرسان من الجانبين جثثاً جديدة. تمكنت من الوصول إلى الشاطئ الآخر أولاً، وهناك لم أرحم جوادي المنهك بل أجبرته على الانطلاق، ومن ثم وفي وقت متأخر لحق بي فارس عجوز، كان الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من مجموعتنا. كان منظر هذا العجوز مرعباً فبالإضافة إلى طبعه الشرير والمحتال، كانت هناك العشرات من الخدوش التي تركت المعارك آثارها عليه. لا بد وأن هذا الشيطان بقي حياً لهذا السبب، فمن المدهش أنه لم يذبح حتى الآن. وهكذا ها نحن

نجلس وسط الدغل ونخاف أن نتحرك، إنهم يبحثون عنا. إننا نسمع أصوات هؤلاء الملاعين ونسمع أصوات صهيل خيولهم.
لقد التزمت جيادنا الهدوء التام فهي خبيرة وتحس بما يريده صاحبها. إنها خيول عصابات حقيقية. الطقس غائم ربيعي، وأنا مبلل تماماً بالماء، لقد بقيت فردة حذائي في النهر. يبدوا أنه قد أصابني الرشح. الوضع سيئ بالفعل، حتى أننا لا نستطيع إشعال النار. من هذه الأكمة نرى الغيوم ورؤوس الأشجار فقط. على بعد ثلاثمائة خطوة من مخبئنا هناك صخرة ضخمة لها رأس مستو، ويبدو أنها ذات الصخرة التي مررنا بالقرب منها قبل دقيقتين من الصدام الدموي .
لقد أصبح المطاردون بالقرب منا، إننا لا نسمع أصوات حوافر جيادهم وحسب، إنما تنفسها أيضاً. من الواضح أن هؤلاء غير مهتمين بنهب أسلحة مرافقي، إنما هم يريدون شخصي المتواضع. إنهم مقتنعون بأنني طريدة دسمة.
يا إلهي متى سيصيبهم الملل ويكفون عن البحث عنا. إن العثور علينا صعب حقاً، فنحن مثل فأر اختفى في جدار. المهم هو أن لا نخرج أنوفنا. طين وبرد والحبر يكاد أن ينفذ من محبرتي البرونزية القديمة، وعلي أن أغمس ريشتي بعد كل كلمة تقريباً.
ما هذا؟؟؟ أيتها الآلهة السماوية ، لا تتركي عبدك المخلص دون حماية. أحد أولئك الرجال يقف على ظهر الصخرة ويشير الينا.

الخبر الثالث عشر

الشعيرات البيضاء العالقة بك، تشهد أنك امتطيت حصاناً أبيضاً

أسقط النبيل المرابط خلف قوباتي حزمة الحطب، وجلس على الحصى النهري مفكراً، بينما خاض ظريف ذيل شوجنوقة، الذي خصه الله بقوة جبارة في الماء، قاطعاً النهر بسرعة. راح يتسلق المنحدر الصخري، لكن جهوده ذهبت هباءاً، عندما انزلق إلى الأسفل. أما كلمات فإنه ركض جيئة وذهاباً دون أن يقرر عبور النهر.

زاد عليغوت باشا من حدة شتائمه الفاحشة وهو يصدر المزيد من الأوامر. وراح شوجنوقه يعض على أصابعه ندماً لعدم سيطرته على نفسه منذ البداية. لقد حاول جاهداً إخماد الرعشة الخفيفة التي انتابته، مسلطاً نظراته القاسية الصفراء على النبيل الذي افترش الأرض، آمراً إياه بالتوجه نحو الصخرة. لكن الآخر هز رأسه برعب رافضاً تنفيذ الأمر وحاول زاحفاً على أربعته أن يبتعد عن الأمير ما أمكن. استل عليغوكه مسدسه فقفز النبيل الذي افترش الحصى على قدميه وراح يجري على طول النهر، لم يتوقف حتى عندما دوت طلقة المسدس خلفه واختفى بين مجموعة من الشجيرات الشوكية دون أن يتبعه أحد. وما كان لأحد أن يتبعه.

- سوف تدفع ثمن ذلك أيها الخائن - صاح شوجنوقة - كل عائلتك سو.....

وهنا انفجر عليغوت باشا على الأمير.

- أية حيوانات هم رجالك؟ الأول يهرب، والثاني لا يستطيع تسلق الصخرة، وأنت ماذا تفعل؟ - صرخ الباشا في وجه

كلمات- اسمعني أيها الحيوان، تحرك إلى الضفة الأخرى من النهر وتسلق الصخرة مع ذلك الأخرق، هيا.
ومثل جبلي ولد من جديد، حدد جابوي الجهة التي يمكن التسلق منها إلى القمة، لكن اتضح له أن العملية لن تكون سهلة، فهو ثقيل وأخرق. بدأ عملية الصعود متجاوزاً الطين المتراكم ومتجنباً الصخور التي اعتقد أنها قد تنهار. أما ظريف فبعد آخر انزلاق له آثر أن يتبع كلمات.
هبطت الشمس إلى أسفل الحافة الصخرية مرسلة آخر شعاع توهج على الدرع مودعاً وانطفأ. لم يبد قوباتي قلقه بل راح يتابع تسلق جابوي وظريف. كانا قد قطعا نصف المسافة وبقي عليهما أن يرتقيا ثلاثين أو أربعين خطوة عندما تحركت قطعة صخرية بحجم رأس حصان وتدحرجت إلى الأسفل، يتبعها وابل من الحجارة الأصغر حجماً. زعق جابوي برعب، وتجنب السيل المنهمر منحرفاً جانباً، إلا أنه سقط في الوحل الطري لينزلق إلى الأسفل بسرعة ولكن بسلام. أما ظريف فلم تسعفه بديهته، وأصابت إحدى الكتل الصخرية ركبته وألقته جانباً، إلا أنه قفز على قدميه محتملاً آلامه، وركض بخطوات واسعة ولم يتوقف إلا في الماء. وقع منبسطاً على وجهه في أكثر الأماكن صخباً حيث التيار القوي، ليلفه الماء من رأسه حتى أخمص قدميه. وليحصل عليغوت باشا الذي تواجد بالقرب من مكان سقوط تعيس الحظ على نصيبه من البلل.
- فلتلعنك عفاريت المياه، أيتها الخنفسة - قال عليغوت بحنق وحدة - سوف أصب عليك الماء كل يوم ولن أعطيك فرصة لتجف.
أخفى حاتاجوقه الصغير ضحكه، بينما تجمدت نظرات شوجنوقه محملقة في جابوي المرتعب. كان قد تلمس في سرواله شقاً لا يستهان به. الوحيد بين هذه المجموعة الذي لم يفقد اتزانه الروحي هو ظريف. نهض ثانية وقطع النهر وهو يعرج على قدمه، وعاد إلى مزاولة تسلقه المجيد.

- أقسم بهذا الحديد - استل سيفه من غمده ونظر نظرة رهيبة إلى الأعلى، لكنه تعثر..
صوب الباقون نظراتهم إلى أعلى القمة بحيرة، لقد اختفى كل أثر للدرع. خرج عليغوكه شوجنوقة من دهشته وهجم على قوباتي:
- أين الدرع؟ أنت تعرف أين هو... تعرف، تكلم.
- درع !!! - تعجب الفتى..
- نعم، نعم الدرع - فح شوجنوقه - أين اختفى؟
- إذاً لماذا تسلقتم الصخرة؟
- ما الذي كان هناك؟
- أنا لم أر شيئاً هناك - أجاب قوباتي بهدوء - لا درع ولا سلاسل.
- توقف بمن تهزأ؟
اقترب أو الأصح تكرم نائب الخان بالإقتراب دون أن يخفي فضوله.
- من هنا الذي يهزأ؟ ومن الذي لم ير شيئاً؟ - بدأ عليغوت الاستجواب مهدداً.
- إننا هنا نبحث في سر اختفاء الدرع يا فخامة الباشا - أجاب عليغوكه وهو يخفي سر علاقته مع حاتاجوقة الصغير - كيف ظهر على الصخرة؟ وأين اختفى؟
- ألست أنت الأجدر بالإجابة على هذه الأسئلة يا أمير؟ - تقلصت عينا عليغوت - من صاح بأعلى صوته درعي إنه درعي، لماذا سكتت؟ تكلم.
في ذلك الوقت كان ظريف وجابوي قد أشعلا ناراً وجلسا إليها يجففان ملابسهما، التي بدأ البخار بالتصاعد منها. راحت الشعلات الأورانجية المتمايلة تمزق الظلام الذي حل، وبدا وجه عليغوت المنتفخ أكثر شراً في الليل منه في النهار.
- استغرب أن درعي القديم- تمتم شوجنوقه..

لكن عليغوت لم يدعه يتم كلامه، فرغم أن الحكمة تنقصه إلا أنه تعلم أن لا يثق بحاشيته المخادعة.
- إن المياه في نبعك قذرة يا أمير.
- لماذا؟ إنني لم أزعجك.
- حسناً، سوف نتكلم عن هذا لاحقاً، ومن يدري فقد يظهر الدرع غداً - التفت الباشا فجأة نحو قوباتي - وأنت ماذا تعتقد أيها الفتى الحاذق؟ هل سيظهر الدرع غداً؟
- إذا كانت تلك إرادة الله - أجاب قوباتي بتواضع.
حملق عليغوت في وجه الفتى بحيرة، فهو حتى الآن لم يتمكن من فهمه.
- حسناً - قال الباشا بعد تفكير - إذا استعجل النبيل عليغوكة رجاله الطفيليين فربما نستطيع في النهاية أن نخمد جوعنا.
تناولوا طعامهم بصمت دون أية مضاعفات، ثم تداعوا إلى النوم في الخيمة التي نصبت على عجل. قيد ظريف قوباتي إلى جانبه، واستلقى على العباءة سابحاً في سبات عميق. غزته الأحلام اللطيفة حتى أنه ابتسم، إذ تراءى له في المنام أنه ينتزع الغنائم العديدة من أعدائه المجندلين ويضعها في عربات اصطفت على شكل رتل طويل. وضع في العربة الأولى القسي التي صنعت من أفخم أنواع الخشب والعظام المزينة بزخارف صدفية. والعربة الثانية ملأها بالسيوف ذات الأنصال التي صنعت في دمشق أو التي جلبت من مكان ما من بلاد الرومان، سيوف أغمدتها الفضية المائلة إلى السواد بنقوشها الذهبية الرائعة. في العربة الثالثة، بنادق وطبنجات ومسدسات. الرابعة.......وحملت العربات الأخرى الذخيرة والبارود والملابس الفاخرة. بالإضافة إلى كل ذلك، أقتاد قطيع جياد بأكمله إلى ضفاف كوركوجين. وفي النهاية أصبح غنياً، بل أغنى من شوجنوقه نفسه.
أما السرعسكر الباسل فقد حلم أنه يزحف عبر دهاليز ضيقة طويلة في قصر الخان في باختشيسراي. لقد أعياه التعب و

تفككت عظام عموده الفقري، لكن كيف السبيل إلى التوقف وأحد المردة يلكزه في مؤخرته بعناد يجبره على التقدم بسرعة، الباشا يعلم أن الخان الرهيب ينتظره فيزيد من سرعته، العرق يتصبب منه، وهو يلهث بشدة ولكن الردهات والأروقة والسلالم تتحول إلى متاهة غير منطقية، فلا نهاية للطريق والوخز يصبح أشد إيلاماً.

لربما أكثر الأحلام غرابة تلك التي ظهرت لدجابوي. رأى نفسه عارياً تماماً، لكنه كان مغطى بوبر خروف، لذلك كان يشعر بالدفء والراحة، لكن عليغوت يظهر فجأة ومعه مقص في يده.

- رغم أنك ملاك إلا أنه عليك التخلي عن وبرك.

- لا لزوم لذلك - صاح جابوي -إذا فعلت ذلك سوف أتجمد من البرد.

- لا بأس إن الخرفان لا تتجمد، لذلك لن تتجمد أنت. ولا تقلق سوف ينمو الصوف من جديد، وسأعود إلى قصه ثانية.

حاول جابوي الفرار لكن قدماه كانتا مثبتتين إلى الأرض.

أما شوجنوقة فقد عاش في حلمه بين الحريم. كانت الفتيات جميلات وكأنهن حوريات الجنة. لم يستسلمن له، وكلما حاول الإمساك بإحداهن كانت تنزلق من بين يديه لتتحول إلى سراب وتذوب في الهواء. كن يعزفن على الآلات الموسيقية ويضحكن بنعومة ويغنين له:

عليغوكه أوه يا دنيا...
ليس في العالم من هو أوقح منك.

أما قوباتي فلم يغمض له جفن حتى منتصف الليل، لكنه أخيراً نام حتى الصباح من غير أحلام.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان وقت عليغوت باشا ثميناً، فهو يدرك بأنه الآن مطارد، ومع ذلك لم يكن اليوم عجولاً، كان يؤمن بشكل أو بآخر أن الدرع العجيب سوف يظهر ثانية. لقد خيل إليه أن الدرع لا بد وأنه من الروائع، وإلا ما تفسير سلوك شوجنوقة المحير. أما شوجنوقة فهو يتخبط في حيرة شديدة، ويجد نفسه عاجزاً، تخونه أحاسيسه ومخيلته، لقد زرع في حياته الكثير من الرعب، وجابه الأمراض والآلام، ووقف أمام الوحوش الكاسرة، لكنه لم يختبر حتى اليوم مثل هذه الوساوس والأفكار التي تنبض بين جوانبه. بكل الأحوال كيف يمكن تفسير الظهور المفاجئ للدرع؟ طبعاً هناك يد إنسان ما خلف هذه القصة، ولكن كيف؟ وما الغاية من ذلك؟ و ماذا إذا لم يكن خلف الدرع هذا إنسان ما؟ هل يعقل أن المعجزات تعيش خارج حدود الحكايات؟ لقد شك عليغوكة بالفتى اللامبالي الذي جلس جانباً مقيد القدمين. لا بد وأن جواب هذا اللغز عنده، لكنه يحتفظ به خلف أسنانه. كيف يمكن التقرب منه وإغرائه؟ وأين ينصب له فخه؟ لم يهتد شوجنوقة إلى حل. قد تكون قوى الظلام والشر، أو التعاويذ السحرية تحاول النيل منه. يا للهول كم هو مرعب هذا الوضع.

بعد تناول الإفطار انتظروا طويلاً وهم يحدقون في قمة الصخرة، منتظرين ظهور الدرع مرة أخرى. عند منتصف النهار، أدركوا أنه من العبث الانتظار أكثر. تسلق ظريف الصخرة وبحث هناك في الأعلى بين أكوام الشوك، وتحت كل حجر دون طائل، ليهبط صفر اليدين. عندها بدأت الاستعدادات المحمومة للانطلاق قدماً، جُمع المتاع بسرعة واستعجال. داخلتهم ريبة قاتلة وظهر لديهم شعور قاهر بالحاجة الدائمة للتلفت والإصغاء لكل صوت يمكن أن يكون مصدر شك.

وكما تبدو الطبيعة اليوم، كانت في ذلك الزمن غير قادرة على احتواء أي مظهر عدواني. فالصباح الصيفي اللطيف أنجب السعادة من جديد عند الوحوش والطير وبني البشر، بل عند كل ما هو موجود على ظهر البسيطة. و تحت القبة السماوية المشعة

تنفست النباتات الخضراء الكثيفة والغابات والمروج بحرية، وبدت الجداول الجبلية صافية بشكل لا يصدق، حتى الحجارة والجلاميد الصخرية أتخمت بكرم ضوء الشمس. أراد أن يلتصق بمحبة مع الصخرة القريبة، وأراد أن يمسح بكفه سطحها الخشن، وتمنى لو يدفن وجهه في العشب المفلوح وأن يوقف حركة الزمن، وأن يخلع حذائه ليتسكع دونما هدف، وأن يزحف على ركبتيه في النهر حتى تتخدر قدماه تحت تأثير برودة الجليد الذائب في الماء. هكذا استقبل قوباتي صباح اليوم، رغم أنه كان من المفترض أن يعيد النظر بتقلبات الأمس والظروف التي آلت إليها الأمور، و أن لا ينسى أن القيود مازالت تشل حركته. لا أن ينساق وراء جمال الطبيعة الآسر. لقد بدا قوباتي هادئاً، فهو لم يعد يفكر كثيراً بجانبولات، بل اتجهت أفكار قلبه نحو سانا، أما الدرع فلم يحفل به كثيراً، بعد أن حل لغزه بالأمس. لقد بدا له واضحاً أن جانبولات لم يكن في الجوار، وإلا لتعامل مع هذه العصابة البائسة بسهولة حيث يمكن لظريف الأحمق أن يشكل بعض الخطورة. هناك شخص آخر وراء قصة الدرع يحاول كسب الوقت.

ما أن اكتملت الاستعدادات للمسير، وألقي قوباتي على ظهر جواد، حتى رن من جديد صوت المعدن آتيا من أعلى الصخرة.

فقدت المجموعة اتزانها وراحت الحناجر المتأثرة تلقي شتائم ولعنات تتارية، ثم ذهبت تتضرع إلى الله. كان قوباتي الوحيد الذي لزم الصمت وهو يخفي ابتسامة مدركة. لكن شوجنوقة المضطرب استطاع أن يلتقط نظرته المستهزئة، أما عليغوت باشا فلقد التفت إلى الأسير متمتما ومطالباً ربما بتفسير ما، إلا أنه أحجم فجأة وكأن النجوم قد كشفت له حقيقة ما يجري. اختفى جابوي في مكان ما، ربما بين الشجيرات وهو ميت حي. أما ظريف فعاد يتسلق الصخرة بعد أن اكتسب الذكاء وعلمته تجربة الأمس أن يجد المكان المناسب للتسلق إلى جانب الوحل، لكي يأمن انهيار الكتل الصخرية. نظر إلى الدرع الذي أضحى قريباً

على بعد قامتين أو ثلاثة. انعكست أشعة الشمس عليه فاشتعل ضياءاً حتى راح يخطف الأبصار. تدحرجت بعض الحجارة الصغيرة ومرت بالقرب منه لكنها زادت من إصراره على إنهاء الأمر . وبدا كالكلب الذي يزداد شراسة فيهاجم الهراوة التي تضربه. بقيت دفعة صغيرة ويصبح الدرع بين يديه، إلا أن حجراً اصطدم برأس ظريف، انقلب على ظهره وراح يتدحرج نزولاً إلى أن انتهى منكباً على وجهه في الماء، وراحت قبعته تطوف مسرعة وهي تبتعد مع مجرى الماء.
عاد ظريف إلى وعيه في الوقت المناسب قبل أن يغرق، جلس متلمساً الورم الذي جاور جرحاً قديماً في رأسه، رفع قبضته مهدداً:
- أقسم بهذا السيف - هز السيف الذي كان في يده منذ البداية - أقسم أنك لن تهرب مني إلى أي مكان.
نهض متخبطاً في الماء ليلتقط قبعته. في ذلك الوقت مال الدرع إلى الخلف واختفى من جديد. ساد الصمت على شاطئ النهر، لكن جابوي اندفع من بين الشجيرات وهو يصيح كأرنب دب فيه الذعر:
- علينا أن نرحل حالاً، فليُحرم علي شم رائحة الحساء إلى أبد الآبدين، ولكن علينا أن نتحرك بسرعة... بسرعة ماذا تنتظرون؟؟؟
جلس الراعي الشاب المختبئ خلف الشاة المربوطة يبكي وهو يهتز بشدة من فرط التأثر.
- الله أ..ا..أكبر - تمتم عليغوت باشا.
أما شوجنوقة فكان يفكر بتوتر في حلٍ ما، صرخ عاضاً على شفتيه، ملتفتاً إلى جابوي:
- اصمت يا من خرجت من تحت ذيل خنزير.
لم يصمت جابوي بل ازداد الأمر سوءاً، إذ راح يقفز لاطماً نفسه بيديه. لم يحتمل عليغوت المشهد، استل مسدسه الثقيل

وأطلق النار فوق رأس جابوي الذي انهار إلى الأرض وقد شله الرعب، سد أذنيه، وأغلق فمه.
لمعت عينا عليغوكة فجأة وقد وسوس له شيطانه بحلٍ ما. لقد كان إغراء الدرع يفوق الخوف.
- يجب أن نتسلق إلى الأعلى وننتظر هناك - قال عليغوكة موجهاً الكلام من بين أسنانه للسرعسكر- وإن اقتضى الأمر علينا أن نقضي ليلتنا في الأعلى.
- نعم، لقد أصبت، هيا اصعد إلى الأعلى وخذ معك ذلك الغبي - وأشار بإصبعه نحو ظريف.
- حسناً سوف أتسلق الصخرة، ولكن عليك يا فخامة الباشا أن تنتبه للأسير، إذ لا يمكن الاعتماد على راعي الغنم. أما الآخر فلا أمل منه. لم يبق هنا أحد من الرجال سوانا، أنا وأنت.
- صدقت مرة أخرى - وافق الباشا - إنه لن يغيب عن بصري.
وللمرة الثانية حررت الأحمال ومتاع الجياد، وأشعلت النيران من جديد، وأعيد ملئ القدر بالماء. لم يكن هناك داع لذبح شاة أخرى إذ أن اللحم المتبقي من ليلة الأمس يسد الحاجة.
بعد استراحة الغذاء أحس ظريف أنه قادر على القيام ببطولات جديدة. لذلك تبع سيده المكفهر ولكن الهادئ. قطع شوجنوقة النهر وراح يتسلق الصخرة، بينما ظريف يتبعه وهو ينفخ مثل حصان.
ودون أية صعوبات قهرا الصخرة، وبدءا باستكشاف المكان، التفتا إلى الأسفل ولوحا للباشا، ثم اتجها إلى الداخل وغابا عن الأنظار، شيع عليغوت ورفاقه الصيادين اللذين انطلقا خلف الدرع بأبصارهم. تنفس عليغوت الصعداء ثم راح يحدق بجابوي بإمعان كقط يراقب فأراً ويتساءل، "هل يلتهمه الآن أم ينتظر قليلاً؟ "
- احكم رباط الشاب واجلبه إلى هنا، بالقرب مني.
سارع جابوي لتنفيذ الأمر.
- سوف نتحادث - قال عليغوت بتسامح.

- أوه يا لله إنني كلي آذان صاغية.
- اسمع أنا لا أحتاج إلى أذنيك وإنما إلى لسانك ليجيب على أسئلتي.
- سوف أجيب - قال قوباتي موافقاً، ثم أضاف بخضوع- سوف أجيب بإذن الله.
- عدنا مرة أخرى إلى التلاعب، الأفضل أن تخبرني ابن من تكون؟
- أنا ابن أبي، وهو مسلم مثلك تماماً يا جناب الباشا.
- أليس له اسم؟
- وهل يجوز أن يسأل المضيف ضيفه عن اسمه قبل مرور ثلاثة أيام على تقاسمهم الخبز والملح.
- إنك تتملص من الإجابة كسمكة يتم اصطيادها بيد عارية، هل تظن حقاً أنك ضيفي؟
- إننا جميعا ضيوف على هذه الأرض.
- كفى ثرثرة لا طائل منها وأخبرني أين حجارتي الكريمة؟ وما قصة هذا الدرع الشيطاني؟ أرى في عينيك أنك تعرف، أظن أنه ثمين وإلا لما زعق عليغوكة مثل ثعلب عندما رآه.
- كل هذه الأسئلة ويداي مقيدتان؟
- اسمع أيها الحمل إنك لن تجيب بواسطة ذراعك، أليس كذلك؟
- إن الأيادي تساعد اللسان على الإجابة خاصة إذا كثرت الأسئلة.
- لا تتحايل ، فلم تلدني أمي بالأمس، لا بد وأن للدرع قيمة لا مثيل لها.
- لقد خلق الله الأرض وجعل فيها مغريات ليمتحن الناس، وأقربهم إلى الله أكثرهم تقوى.
- سوف ألقنك درساً أيها الوقح، إن حياتك بين يدي.
- بين يدي الله - أجاب قوباتي بهدوء.
- لا فائدة من الحديث معك، سوف نتكلم لاحقاً - ثم تمتم الباشا يخاطب نفسه - " لقد هبط علي أحد الأئمة ويريد أن يعلمني."

أمعن عليغوت النظر في السماء، كانت الشمس قد آذنت بالمغيب، إنه وقت الصلاة .
- جابوي، هيه إنني أتكلم معك، حل وثاق الفتى ودعه يؤدي صلاة المغرب، ثم أعد وثاقه من جديد.
تكاثرت النجوم في السماء، وهبت رياح باردة من جهة الجبال. ومن مكان ما غير معروف، زحف صوت نعيق بومة متواصل.
اقترب الراعي الشاب من جابوي وهمس في أذنه:
- بومة تنعق، سوف يموت أحدهم.

* *

لم ينم قوباتي في تلك الليلة، على حين نام عليغوت إلى الجانب الآخر من الخيمة ممزقاً سكون الليل بشخيره.
تهامس جابوي وراعيه الشاب لفترة ليست بالقصيرة، ثم خمدت أصواتهما فجأة، اضطجعا طويلاً دون أن تصدر عنهما أية حركة. لكنهما نهضا بحذر شديد. وضعا جميع متاعهما على ظهر جواد، وبدورهما امتطيا حصانين وغادرا المكان دون جلبة. كان قوباتي يرى ويسمع لكنه آثر الصمت وتصنع النوم. وهكذا رحل جابوي مع اتباعه على ثلاثة جياد واقتادوا جميع الماشية، حتى اللحم المتبقي من طعام المساء أخذوه، وكذلك عباءة وفراش اللباد ولم ينسوا القدر النحاسي. وأغرب ما في الأمر، أنه بعد رحيل كلمات وبعد أن ذاب في عتمة الليل وتلاشت أصوات وقع حوافر الجياد على الدرب، غط قوباتي في نوم عميق هادئ وكأنه ينام بأمان في بيت يموز.
في وقت متأخر من النهار أيقظه الباشا بنفسه، كان مرتبكاً وخائفاً.
- آيييي.. أنت - هز الباشا قوباتي من كتفيه - أين هم؟ إلى أين؟ لماذا؟

مد حاتاجوقة الصغير ذراعيه المقيدتين نحو الباشا الذي استل سكينه بعفوية وقطع قيود قوباتي. عاين قوباتي المكان بنظره وسأل:
- أين جابوي المحترم؟ هل يمكن أن تكون حوادث الأمس قد أخافته فهرب؟ يبدو أنه اقتاد الماشية أيضاً.
- يستحق جابويك أن يخنق - صرخ السرعسكر - لقد سرقونا ورحلوا... حتى القدر أخذوه معهم.
وبدأ عليغوت باشا بإطلاق سيل من الشتائم التي ما كان ليحتملها أي عبد، ولم تقتصر الشتائم على اللغة التتارية فقط، وإنما استخدم التركية والروسية واليونانية واليهودية. وعندما هدأ التفت إلى قوباتي معاتباً.
- وأنت أين كنت عندما رحلوا؟
- يمكن الظن بأنني الحارس هنا ولست الأسير- ضحك قوباتي ضحكة صادقة طويلة - أقدام من هي المقيدة وأيدي من المربوطة؟
- وماذا سنأكل الآن؟ - سأل الباشا بمرارة.
- ما قد يرسله الله.
أجاب الفتى دون اكتراث . ابتسم عليغوت، لقد أضحى معجباً بالفتى، ولم يكن يستطيع أن يقاوم شعوره بالطيبة المتنامية تجاهه، ومع هذا فهو لم يظهر له هذا الشعور, فالفتى الشيطان في النهاية سلبه متاعه وجواهره.
- الأمر لله، ولكننا لسنا وحدنا مخلوقات الله. فهل يلحظ أن في هذه الغابات الجبلية اللعينة تمت سرقة بعض المسافرين الذين يتضورون جوعاً. هل يرسل الله لنا طعاماً؟
- هذه ليست مهمتنا أيها الباشا المبجل، فلا تصدع رأسك بالأفكار السوداء.
- مهمة من إذاً؟
- وماذا يفعل عليغوكة هنا؟ أليس هو من أقنع السرعسكر بالتجول في هضاب شيغم؟

- نعم إنه هو، أقسم بأحشاء الجمل أنه هو، وهو من جرني إلى هذا المكان، وماذا عندك أيضاً؟
- حسناً دعه يفكر بنفسه، إنه بكل الأحوال يحك رأسه المقمل من الخارج، دعه يحكه من الداخل قليلاً.
- مقمل الرأس!! هاهاهاها- ضحك عليغوت بخبث فهذه المرة الأولى التي يذكر فيها أمامه هذه الصفة - دعه يفكر، إن ما تقوله صحيح دعه يحك رأسه من الداخل. هاهاهاها.
ارتفعت الشمس عالياً ووصلت أشعتها إلى مضيق وادي بيديك،. بدأ الباشا يفقد صبره.
- ماذا يفعلان هناك؟ هل أطلقا النار على بعضهما أم أنهما قابعان مثل أحمقين في جلد حمار، لم يظهر الدرع حتى الآن، إذاً هو لن يظهر ولن نجلس و..
اهتزت الشجيرات عند سفح الصخرة وظهر شوجنوقه، الذي اتجه إلى النهر ومن خلفه تبعه ظريف. استلقيا على ضفة النهر وشربا الماء بنهم شديد.
- أيها المبجل.
بدأ عليغوكة الكلام، لكن الباشا لم يمهله.
- اصمت لا أريد أية كلمة. أرى بعيني أنه لا أثر لأي درع ، ولن يكون، ولا أثر لأي احتياطي من الطعام أيضاً، الحمد لله الذي تكرم علينا فأبقى لنا جابوي على الخيول.
- ماذا؟؟؟ - صرخ شوجنوقه - هل هرب هو أيضاً؟ حسناً سوف أجعله كدهن الخنزير، سوف أقتلع أنيابه وأجعله يزحف أمامي دون سروال أمام الملأ.
- توقف ... هل نسيت أنك السبب في كل ما يجري، وعن هذا سوف يكون لنا حديث، أما الآن فتجهزوا للرحيل دون إبطاء، وماذا بقي لنا على أية حال؟ بفضل فخامتك ورجاحة عقلك أيها الأمير بقينا الآن دون قطعة لحم، فكر بما سنأكله على الطريق ..اسكت - لم يسمح للأمير بالتفوه بكلمة - أستطيع أن أصبر حتى منتصف النهار أما بعد ذلك.....

عندما انتصف النهار كانوا يجتازون مخاضة على نهر بقسان ، حيث كان بالقرب قطيع من الماشية يرعى، لم يكلف شوجنوقه وظريف نفسيهما عناء السؤال لمن يعود القطيع، اقتطعا منه خمسة عشر رأساً اقتادوهم إلى أعلى الوادي، لم يجرؤ الراعي العجوز على الاعتراض، أما كلبه المشعث الذي لم يعرف المفاوضة فقد تلقى رصاصة من مسدس الأمير.
بعد مسيرة طويلة توقف الجمع عند نبع ماء غزير. وعلى وجه السرعة ذبح ظريف شاة ونظفها، أشعل النار، وخلال لحظات تم شواء الرئة والكبد والكلى. وأخيراً حصل السرعسكر الذي كاد أن ينهار جوعاً على حصة الأسد، أكل عليغوكة وظريف وتبقى للأسير ما يكفيه.
عند المساء كانوا قد وصلوا إلى المناطق الحراجية في المكان الذي يتفرع منه بقسان وتيزل. انحدروا إلى الأسفل وهم يتجنبون الطرقات المطروقة، توغلوا في الغابات وهناك قرروا قضاء الليل. لقد بدأت الآن مخاوفهم الجدية من لقاء غير سار محتمل مع بعض مجموعات تابعة للأمير حاتاجوقة التي تجوب المناطق الشمالية للقبردي الكبرى، ثم أن السياحة في المناطق الأديغية المعادية لا تبشر بأي خير. كان عليهم أن يقطعوا مسافة ثلاثة أو أربعة أيام حتى يدخلوا إلى المنطقة الآمنة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ما أن بدأت أولى خيوط الفجر، وآل لمعان النجوم إلى الإنطفاء حتى استيقظ قوباتي على شخص يفك قيوده، متنفساً بسرعة، نافخاً في وجهه مباشرة.
- هسسسس، اهدأ - قال الشخص هامساً- هذا أنا كوانتشه.
- جيد جدا، حسناً- كتم قوباتي سروره- أين جانبولات؟
- اصمت ، فيما بعد، ما هذا الذي على قدمك؟

فجأة رن صوت القيد الحديدي الذي كان يقيد أقدام قوباتي، انتفض ظريف النائم على مقربة كالوحش الذي يستيقظ من ثباته صافي الذهن، ولكن جاءت أسئلته غبية.
- أنت!! لماذا تفعل ذلك؟ من طلب منك فك قيوده؟
انقض على كوانتشه ورفعه فوق رأسه، ورغم الألم الشديد استطاع كوانتشه أن يختطف مسدس ظريف من حزامه وأطلق النار، لكنه أخطأ الهدف وذهبت الطلقة في الأرض. استيقظ شوجنوقة والسرعسكر مذعورين، لم يقررا التدخل لمساعدة ظريف خوفاً من أن يكلفهما ذلك غالياً. لكن ظريف استطاع أن يتعامل مع الأمر بقوته الوحشية. فما أن أدرك أن قوباتي يحاول التحرر من قيوده، حتى أفقد كوانتشه وعيه بضربة على رأسه وأسرع ليعيد وثاق قوباتي ثانية. ومن ثم وبتمهل قيد كوانتشه ورماه إلى جانب قوباتي.
ضرب النبيل صدره بقبضة يده بتفاخر مقسماً:
- لن يضيع خروف واحد، أقسم بهذه الحد...
- عض على لسانك أيها الذئب - فح عليغوت في وجه ظريف - ما هذه الضجة التي افتعلتها؟ لا تستطيع إلا أن تزهو بنفسك ليست الشاة التي كان يمكن لها أن تضيع وإنما السرعسكر عليغوت باشا. لقد كان يمكن أن أقتل هنا أمام ناظريك، على كل سوف نتحاسب على ضياع المجوهرات وعلى الإستخفاف وإقلاق الراحة.
يجب على كل حال أن نقيم عليغوت باشا، فهو مندوب الخان، وخاض تجارب عديدة. وقف على قيد أنملة من الموت، ثم أنه فقد ثروته. ومع ذلك أظهر تسامحاً وصبراً أكثر مما كان يمكن أن ينتظر من شخصية تتارية كبيرة مرت بمثل هذه الظروف. إنه لم يرفع سوطاً ليعاقب أحداً، لولا أن أخرجه ذلك الغبي عن طوره. إنه لم يقتل قوباتي في مكانه ولم يعذبه أيضاً مما يجعلنا نقدر له هذا. إن هذا السلوك يمكن تفسيره فقط بالشك والخوف وعدم الثقة بالآخرين وبالنفس، طبعاً لم يكن ظريف بقادر على

فهم هذه التفاصيل، ولكن نبالته في نهاية الأمر تحتم عليه رفض واقعه، لذلك بدأت عائلة من الشعور بالإهانة، والمذلة، وعدم احترام الذات بالتكاثر في نفسه. ومما زاد الطين بلة أن الأمير ومن خلال أسنانه قال:

- اغرب عن عيوني أيتها الحية.

اختفى ظريف ولكنه كان يفكر بالانتقام.

" حاذر أن تلسعك الحية في يوم ما."

لم يلحق عليغوت وعليغوكة من تبادل بضعة كلمات حتى سمعا أصوات حوافر الخيل تأتيهم من كل جانب. اهتزت الأغصان واعتقدوا أن الموت قادم إليهم.

- هذا ما حصلنا عليه من الحيوان ظريف بضجيجه.

- أيبيي... هنا ثلاثة فقط وربما أربعة - صاح أحدهم بالتتارية وبلهجة قرمية صافية.

- دعهم يخرجون من تلقاء أنفسهم- رد عليه أحدهم.

- أيبيبي... الأفضل لكم أن تخرجوا وإلا..

- من أنتم؟ - صاح عليغوت باشا وهو يحاول إخفاء فرحه تحت لهجته القاسية.

- فرسان الخان ونحن هنا كثر... - سكت صاحب الصوت قليلاً ثم أردف- أو يا الله هل تخونني أذناي أم أن عيناي سوف تحظيان بشرف رؤية فخامة عليغوت باشا.

- أنت لم تخطئ أيها المحارب - أجاب السرعسكر - هيا إلى هنا مع رجالك إذ لدينا أسرى.

الأمل الذي كان يتعلق به الفتى حاتاجوقة بدأ يخبو رويداً رويداً كما تخبو النجوم وتختفي دون أثر في أعماق زرقة السماء.

استعاد كوانتشه رشده وانتبه، كانت كتيبة من المقاتلين التتار مدججة بالسلاح حتى الأسنان تتقدم في الدغل.

* *

في سونج قاله حظي قوباتي بشرف النظر إلى قبلان غيري الذي اعتلا العرش في ذلك العام. كان الخان معسكراً على الشاطئ القفقاسي عندما بلغه خبر مصرع المئات من مقاتلي عليغوت باشا. أمر الخان جنوده بالبحث عن السرعسكر، ليمثل بين يديه في أسرع وقت.
على طول الطريق، كانت أسنان عليغوت باشا تصطك، وقد أظلمت الدنيا في عينيه وعذبه ألم في البطن لم يتوقف. إن مثل هذه الأعراض كانت تصاحب أولئك الذين يستدعون إلى منصة الإعدام. غير أنه وعلى غير انتظار استقبل الخان عليغوت بلطافة. لم يخنقه بحبل حريري، ولم يعدمه على الخازوق، ولم يرسله إلى باختشيسراي لتبييض السكاكين. لقد أبدا الخان طيبة قلب كبيرة معه، جل ما قام به أنه قام بقرع الباشا الراكع عند قدميه ثلاثة مرات بيده المباركة، لينتهي الأمر عند هذا الحد. أبقاه الخان في منصبه الرفيع وسمح له بتقبيل حذائه، وما كان للباشا أن يحلم بمثل هذا التكريم أبداً.
حالف الحظ شوجنوقة أيضاً عندما قرر الخان أن يستمع من فم شاهد حي عن خيانة وغدر أمير القبردي.
استغل عليغوكة الفرصة حين لمعت في ذهنه الفكرة، إذ من المناسب أن يقدم شوجنوقة هدية متواضعة للخان، ابن الأمير كورغوقة ، الفتى النادر الجمال وصاحب القوة الهائلة. و يبدو أن شوجنوقة أصاب الهدف إذ أعرب الخان عن اهتمامه بخلف الأمير كورغوقة وأمر بمثوله بين يديه. أسرع شوجنوقة بنفسه لتنفيذ الرغبة الملكية. عندما خرج من القمرة المزينة بزخارف خرافية - كانت الأحداث تجري على السفينة التي كانت تستعد للإبحار إلى القرم في الصباح - اصطدمت عينا عليغوكة بنظرات عليغوت باشا المعاتبتين، ولم يكن في تلك النظرات ما يشير إلى أي شيء إيجابي، فكيف تجرأ شوجنوقة وأخفى عن السرعسكر شخصية الأسير.

" حسناً، حسناً يا جاحظ العينين - فكر عليغوكة - سوف نتفق فيما بعد بشكل ما "

هكذا وبسرعة استبدلوا الفتى القذر، الملطخ بالدماء بآخر، استطاعوا أن يلبسوا الفتى رداءاً شركسياً جديداً. وحذاءاً، حلقوا له شعره وألبسوه قلبقاً، واقتادوه إلى قمرة الخان دون أن يلمحوا له بشيء. رأى قوباتي رجلاً في منتصف العمر يتوشح ثياباً مذهبة. بأدب ضم قبضته اليمنى إلى صدره وانحنى، وبطرف عينه شاهد السرعسكر عليغوت باشا وقد تقوس ظهره بشكل ملحوظ وبدت على وجهه إمارات الخضوع، بينما أحس بأنفاس عليغوكة الحارة تأتيه من الجانب الخلفي، وعلى جانبي الخان اصطف رجال على الأغلب كانوا مشهورين والنفاق باد على وجوههم اليقظة، وبدوا كأنهم ينتظرون شيئاً ما.

اهتزت الشعرات القليلة في لحية الخان وقال بطيبة:

- فخور، نعم إن جميع النبلاء الشراكسة هكذا هم، ويشهد الله على ذلك، تلاحظ فوراً أنه نبيل فملامح الإمارة بادية عليه من رأسه حتى أخمص قدميه، هل لاحظتم ذلك؟ لقد انحنى كما ينحني أي رجل نبيل راشد.

- يمكن أن نصقله ونحسن تربيته.

تدخل رجل طويل القامة، أكثر أبهة من الآخرين. كان رئيس الحرس والمقرب من الخان لذلك كان أكثر جرأة من الآخرين. لكن الخان صوب إليه نظراته الباهتة التي لا توحي عن شيء، ليصمت الوجيه الواثق من نفسه وليخفي رأسه بين كتفيه.

- حسناً سوف يخدمنا ، وسوف يصبح مؤدباً مثل - وأشار برأسه إلى شوجنوقة.

هز قوباتي رأسه سلباً معبراً عن رفضه للفكرة.

- إننا لا نسألك الآن الموافقة - قال الخان بشيء من الحدة - سوف تبقى على ظهر هذه السفينة حتى الخريف القادم، إنك تملك الوقت للتفكير.... هل لاحظتم أننا قد أضعنا على هذا الفتى الجبلي كلمات كثيرة.

اقتيد قوباتي خارجاً، بينما أغدق الخان على عليغوكة بالعطاء، كان سرور الأمير كبيراً فهو لم يتوقع أن يعود الفتى عليه بمثل هذا النفع. ومن يدري فقد ينتزع منه سر الدرع، رغم اعتقاده أن الفتى لا يعلم شيئاً عن هذا الموضوع. هناك جانب واحد يزعجه ويكربه، إذ كيف سيقضي الصيف كله هنا في هذا المكان العفن. لقد قرر الخان تأجيل تحريك القوات إلى القبردي إلى ما بعد الحصاد، فهو يريد أن يستفيد من محاصيل القبردي لتموين الحملة ضد موسكو. أما بالنسبة لشعور عليغوت بالإساءة فهذا الأمر لم يشغله تماما.

" لا بأس يا جاحظ العينين سوف نتفق بطريقة ما، وهذه ليست المرة الأولى التي يخونك عقلك الراجح فيها. وبكل الأحوال سوف تركب عربتي أنا، وسوف تغني أغنيتي أنا."

* *

كان ظهر السفينة نتناً وخانقاً، توزع المجدفون على أربعة صفوف، ضاعوا في ظلمات الحجرات السفلية. أجلسوا قوباتي أمام كوة قرب المدخل حيث ينقصهم مجدف، إلى يمينه كانت هناك فتحة لإدخال مجداف ثقيل، وبالكاد كتم صرخة، لقد كان كوانتشه جالساً وهو يبتسم له بمرارة.
لقد فرقوهم صباح هذا اليوم ، وعلى هذا فإن شوجنوقة لم يضع الوقت هدراً. أمامهما مباشرة جلس رجل أشعث ملتح في الخمسين من عمره، عيناه زرقاوان فضوليتان، وأنفه أفطس، عندما تلفت إليهما تطايرت خصلات شعره الملبد الأشقر قليلاً ليلاحظ قوباتي أن الرجل تنقصه أذن، بينما شق بليغ زين خده الأيسر. خلف كل مجداف جلس أربعة مجدفين، توضعوا أزواجاً يقابل وجه كل منهم وجه آخر. كانت حلقات معدنية قد ثبتت إلى الأرض ارتبطت بها سلاسل فولاذية تتصل مع حزام يحيط

بالمجدف، وكان الطوق الواصل بينهما يتألف من قطعتين متناصفتين تغلقان بواسطة مفتاح.
أجلسوا قوباتي على مقعد مشاركاً الآخرين. على هذا المقعد سوف يأكل وينام ويعمل متعرقاً . فإذا هبت الرياح ومخرت السفينة رافعة أشرعتها، عندها فقط يمكن لهم أن يرتاحوا.
كان الحارس ضخماً مثل ذكر خنزير، وكانت أصوات المفاتيح تقرقع على حزامه الذي دس فيه أيضاً سوط طويل.
من الطابق العلوي رمى أحدهم خبزاً من الشعير، كان الخبز ما يزال عجيناً، التقطه المراقب وتوجه إلى الجانب الآخر من المركب ليوزع الطعام.
- وأديغه؟- سأل الرجل أزرق العينين قوباتي- لقد ظننت ذلك، التقيت بالكثيرين هنا وتعلمت الثرثرة بلغات عديدة منها الشركسية. اسمي جيخار، روسي أنا- ثم أشار بإصبعه إلى كوانتشه - مالقار؟ هذا واضح من أين أنت في القبردي؟ آ.. حسناً مفهوم.
كان الحارس قد وصل إليهم ، مد جيخار يده وتلقف العجينة.
- امسك أنت.
صاح الرجل في أذن قوباتي بصوته الغليظ. اشتم قوباتي رائحة العرق وأحس برائحة الثوم تنبعث من فمه عندما سقطت قطعة العجين على فخذه. لم يخطط قوباتي، وهو إلى لحظة مضت لم تكن قد تطرقت إلى ذهنه أية فكرة عما يمكن أن يفعله. اختطف عجينة الشعير وطمس بها عيون الحارس بقوة ثم نهض بسرعة وقبض بيسراه على رقبته مجبراً إياه على الانحناء. أمسك بيمناه فك الحارس و... صدرت قرقعة تحطم عظام ارتمى على أثرها ذكر الخنزير بكامل ثقله على الأرض ممدداً أمام الممر. لم يكتف جيخار بالتفرج بل كانت مجموعة المفاتيح في يده، ويبدو أنه حصل عليها حتى قبل أن يسقط المراقب على الأرض. فتح جيخار قفله وحرر قوباتي كوانتشه ثم رمى المفتاح في الممر، لتمتد أذرع عديدة تحاول الوصول إليه.

قفز الثلاثة إلى ظهر السفينة دون احتراس أو ترقب ، كانوا مثل ثلاثة من الجن خرجوا للتو من قمقمهم. في هذه المرة حالفهم الحظ إذ لم يكن هناك أحد من الحراس على هذا الجانب من السفينة. توجه قوباتي بخطوات واسعة صامتة نحو السلالم، وما أن هبط إلى المرسى حتى تبين له أن المكان يعج بالجنود، ثلاثين جندياً لا أقل. بعضهم كان يغط في النوم وقد أسند رأسه إلى الأكياس الممتلئة. ثلاثة كانوا يلعبون البرسيس أمام نار صغيرة، وهم الأقرب إلى سلالم السفينة. وخلف كوم من النفايات وعلى ضوء نور القمر الساطع ارتفعت خيوط دخانية زرقاء، من الواضح أن أصحابها كانوا يدخنون الحشيش. لم يكن التفكير بالتراجع أمراً وارداً. أشار قوباتي إلى أصدقائه، وبهدوء الرجل الواثق المدرك من أين وإلى أين ولماذا يمضي خطا ماراً بجانب النار. ترنح جيخار كالسكران عندما وطأت قدماه الأرض الصلبة وكاد أن يسقط أرضاً لولا أن كوانتشه سارع إلى الإمساك به. انتبه أحد الحراس وتوجه إليهم.

- آ... إلى أين؟

تحرك جنود آخرون، لكن كوانتشه أنقذ الموقف بسرعة بديهته، أجاب ببساطة وعفوية وكأن الجواب كان معداً سلفاً.

- لقد ظهرت على هذا الرجل علامات الطاعون - وأشار إلى جيخار المترنح- ونحن نتبع الطبيب - نظر إلى قوباتي المتأنق- إننا ننقله قبل أن ينقل العدوى إلى جميع العنابر.

- أوه يا الله.

همس الحارس وانحنى جانباً أما أصدقاؤه قرب النار فزحفوا مبتعدين في الظلام رافعين مؤخراتهم عالياً. الحقيقة أن جيخار كان مقنعاً تماماً فهو نصف عاري، يغطيه الشعر، نظراته غائرة، وقدماه بعد قضاء ثمانية سنوات على ظهر المركب لم تكونا واثقتين على الأرض الصلبة، ثم أن جيخار لعب دوره جيداً عندما أدرك اللعبة فقد قلب جفنيه فلم يظهر من عينيه سوى

البياض، وأعطت انعكاسات النار التي مر قربها على وجهه مصداقية مرضه.
بعد أن قطع الهاربون الحراسَ، ارتفع اللغط على ظهر السفينة وتراءت لهم أنوار المشاعل. سمعوا أصوات طلقات دلت على أن اشتباك يجري على ظهر السفينة، لا بد وأن المجدفين المحكومين بالأشغال الشاقة قد وصلوا الآن إلى السطح.
مرة أخرى يبتسم الحظ في وجه الهاربين، ففي نهاية إحدى الطرق المظلمة قيدت عدة خيول إلى معلفها وقد غفا راعيها متوسداً سرجاً، قيدوا المسكين بسرعة واختطفوا اللجام من بين يديه، اختصوا جيخار الذي لم يألف الوقوف على الأرض الصلبة بعد بحصان مسرج.
انطلقوا دون توقف لا يلوون على شيء حتى الصباح. وحتى لا ينهكوا الخيول كانوا يترجلون عنها ويسيرون لفترات. عند الفجر انحرفوا عن الدرب إلى داخل الغابة ، متوغلين فيها عبر طرق ملتوية لتفادي المطاردة المحتملة.
عندما سطعت الشمس، توقفوا عند منطقة كثيفة الأشجار بالقرب من نبع ماء صغير. تركوا الجياد المتعرقة حتى تسترد أنفاسها ثم سمحوا لها بالشرب وربطوها.
ارتمى كوانتشه على الأرض وراح فوراً يغط في نوم عميق، أما جيخار فلقد امتلأ بالسعادة وراح يقفز كالأطفال، ويركض في الماء حافي القدمين، دس رأسه في الماء الصافي ثم جلس ينثر الرذاذ، فما جرى معه كان أشبه بحلم لا يريد الاستيقاظ منه. وجد شجرة توت بري راح يلتهم ثمارها بنهم وحش جائع. جمع بعضاً من الثمار لقوباتي الذي تناول بعضها متفكراً. وفجأة ، بدا أن جيخار قد عاد إلى رشده وراح يبكي.

* *

في صيف ١٦٦٢ ميلادية هاج الرعاع في أنحاء موسكو عندما انتشرت أخبار تزعُم أن رجال القيصر اتفقوا مع الألمان على بيع موسكو، ثار البسطاء وتظاهروا ضد الخونة. هاجموا الكرملين مطالبين الأب القيصر بتسليمهم الخونة. لكن القيصر المعظم والأمير الجليل ألكسندر ميخائيلوفيتش مع أقطاب روسيا الكبرى والصغرى والبيضاء والشرقية والغربية والشمالية والجنوبية، آباءً وأمهاتً وأحفاداً، سادة ونبلاء ، سارعوا إلى قرية كولومينسك، وتحصنوا في قصرها.
عشرة آلاف ثائر توجهوا إلى هناك، سقط نصفهم تقريباً مضرجين بدمائهم بعد أن حصدتهم سيوف ورصاص الألمان. أما البقية الباقية منهم فقد رسفت في الحديد. لتصدر أحكاماً قاسية قضت بإعدام ألفين منهم شنقاً، وحصل من بقي حياً على رحمة القيصر، ولكن قطعت آذانهم وتم وشمهم بالحرف الأول من كلمة خائن على خدودهم اليسرى، وتم نفيهم إلى سيبيريا مع عائلاتهم. لم يستثنوا الصغار فالأطفال من سن ١٢ وحتى ١٤ قطعت لهم أذن واحدة فقط، و كان جيخار من ضمن هؤلاء الأطفال، لكنه لم يصل إلى سيبيريا إذ استطاع الهرب مع مجموعة من الأطفال اليتامى ليصبح بعد عدة سنوات مقاتلاً في صفوف القوزاقي الحر ستينكا رازين. رافقه في غزوته إلى فارس، وهناك حصل على الكثير من الغنائم التي سمحت له أن يشرب النبيذ لمدة عام كامل. وهاجموا أستراخان وسراتوف . اصطدموا مع الفلاحين الروس ولكن هؤلاء أجبروهم على التقهقر إلى المناطق السفلى . وبدأت قوات رازين بالتناقص حتى قام القوزاق أنفسهم بتسليمه إلى موسكو. أما جيخار فقد وقع في أسر التتار منذ سبعة وثلاثين عاماً قضى ثمانية أعواماً منها مربوطاً على ظهر السفينة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

عندما حل المساء كان قوباتي وجيخار قد تناوبا على النوم وأصبح بالإمكان التقدم إلى الأمام. بدأ الجوع ينال منهم رويداً رويداً. ولكن أحداً لم يشتكي من مثل هذه الصغائر، إلى أن تراءى لهم في الظلام، ضباب الجبال الثلجية المهيبة. ساروا طوال الليل على محاذاة خط الغابات وسفح الجبل، متجنبين الطرق والتجمعات السكنية. وعند الفجر توقفوا للمبيت ثانية، اغتسلوا، وشربوا.

- كم كان لطيفاً أن أحصل على لفافة تبغ - قال جيخار.

- لا..لا.. - هز كوانتشه رأسه - الأفضل الآن قطعة من اللحم وكأس من العيران.

- ما نحتاج إليه فعلاً الأسلحة، هذا ما نحتاج إليه - قال قوباتي وكأنه أكبرهم - وإلا فإننا نسير وكأننا دون سراويل، وبهذه الطريقة سوف نضيع مثل الفراخ، ناهيك عن السفر من دون سرج للحصان.

- ضحك جيخار فجأة وكأنه تذكر شيئاً.

- بالطاعون .. أصبتني بالطاعون؟ لقد أهلكتني.

ربت قوباتي على ظهر كوانتشه بلطف.

- إنه رائع.

زفر كوانتشه بحزن.

- رائع.. رائع.. ولكنهم قتلوا يموز.

- ليس لك في الأمر حيلة ، ثم أنه مات بطلاً - قال قوباتي بحزم.

أطرق كوانتشه وبقلق فكر في مصير جانبولات. ماذا إذا مات؟ ماذا إذا لم يصمد ثلاثة أيام؟

- هل علينا الركض كثيراً؟ - سأل جيخار.

- سنركض ليلة أخرى - أجاب قوباتي- وبعدها يمكنك أن تدخل أي منزل وأن تنام باطمئنان فالتتار لن يجوبوا تلك المناطق. لقد أرهبهم الأمير كورغوقة بشدة.

ما لا يعلمه الفتى أنهم كانوا منذ زمن بأمان.

إلى الأسفل من المكان الذي خيم فيه الفرسان الرائعون، انبسط السهل أمامهم وتراءى لهم عشرون فارساً خرجوا من الغابة قاطعين السهل بخطوات سريعة متجهين شمالاً. جلس قوباتي يراقبهم بتوتر... لا إنهم ليسوا من التتار. وفجأة قفز قوباتي واقفاً على قدميه وبأعلى صوته صاح:
- جانبولاااااات...
توقف قائد المجموعة في المقدمة والتفت بجواده بحدة نحو مصدر الصوت.

* *

تأجج النار أعطى المكان بهجة، وبدا جيخار سعيداً للغاية بين قطع اللحم الكبيرة والجبن المدخن وأباريق الماخسمة . قوباتي و كوانتشه سرعان ما أعلنا عن شبعهما، فالقليل من الطعام يكفي الجبلي. جلس الثلاثة بعد الطعام تحت شجرة تفاح هرمة يتبادلون الحديث، كان هناك رجل رابع من عمر جانبولات له أثر جرح واسع في صدغه وصل حتى عينه اليمنى، أو الأصح وصل حتى عينه السابقة اليمنى. قدمه جانبولات على أنه صديقه:
- هذا نارت شو. كنا شركاء في بعض المعارك الصغيرة الماضية.
تمتم نارت شو بكلمات غير مفهومة ولكن نظرته بعينه الوحيدة إلى جانبولات كانت تنم عن محبة عميقة.
- هؤلاء رجاله - استمر جانبولات - وهم فرسان أحرار ظهروا في شيغم عندما كنت راقداً تحت حراسة نالجان ولقد أبدوا استعدادهم للبحث عن ربيبي الشارد الذي أصبح مصدر إزعاج في الفترة الأخيرة. لو أنني أستطيع أن أعيده إلى ذراعي والده وأن أتنفس بحرية - شد جانبولات أذن قوباتي - والدرع أين أخفيته. كوانتشه يدعي أنه أخفاه في شق ولكنه اختفى دون أثر.

- أقسم يا جانبولات أنني كدت أحطم رأسي الغبي و أنا أفكر، إنني لم أعد أفهم شيئاً، ربما كان الدرع مسحوراً؟
- لا..لا.. إنني لا أؤمن بالسحر، فالناس يخترعون ألغازاً تحير أكبر السحرة. سوف نبحث مرة أخرى في تلك البقعة. هذه المرة سوف نبحث جيداً.
إلى جانب جانبولات سار قوباتي ممتطياً حصاناً رائعاً، كان سعيداً وفي قمة الغبطة، فهو يجلس على سرج قبرديني ممتاز، وأفضل ما في الأمر أن حزامه أصبح يحمل خنجراً ، وأي خنجر! خنجر محترم قبضته وغمده من الذهب هدية من نارت شو. عندما اعترض قوباتي طالباً هدية أكثر تواضعاً ضحك نارت شو وقال:
- خذه ، أنت الآن صديق الخان قبلان غيري المحبب، الهدية المتواضعة لا تناسبك.
على الطريق سأل قوباتي مربيه بهدوء:
- لقد كان الجرح عميقاً ولم يلتئم بعد أليس كذلك؟
سكت توزار قليلاً ثم أجاب:
- كان.... ولكن لماذا الحديث عن هذه التوافه، نحن اخترنا حياتنا هذه بأنفسنا وسوف نصاب فيها بالجراح. إنك عندما تمتطي حصاناً أبيضاً سوف تلتصق بك شعيرات بيضاء. قل لي ألم تعلم ماذا فعل والدك بجنود عليغوت؟ أنا لا أعلم ما لون حصان شوجنوقة ، ولكن هذا الشخص خطير.
- لقد سمعت عن الحادثة من بعض التتار ولكن شوجنوقة لم يفاتحني عن هذا أبداً، والسرعسكر لم يتطرق إلى ذلك.
- أوووه شوجنوقة.. شوجنوقة.. لماذا أطلقت سراحك في ذلك اليوم على ضفاف تيريتش.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لم تقض المجموعة وقتاً طويلاً في قرية بيديك بل تابعوا المسير قدماً للبحث عن الدرع.

أشار كوانتشه إلى شق بين الصخور حيث أخفى الدرع. ثم دل على المكان الذي كان ينام فيه ليلاً. شارك الجميع في عملية البحث. تفحصوا كل شبر من الأرض. كان نارت شو هو الذي حل هذا اللغز خلف الصخرة تماماً.

- انظر جانبولات إلى هذه الأثر العميق الملفت للنظر، وكأنها حفرت بواسطة طرف رمح.

- أرى هذا. ولكن ماذا يعني ذلك؟

- يعني إنني أعرف رجلاً يترك آثار طرف عصاه أينما ذهب.

الخبر الرابع عشر

الطائر يحتاج لجناحين ليحلق،
والأنسان يحتاج عقلاً ليسمو.

جلس ايوان العجوز على جلد شاة طالما كانت له فراشاً أيضاً. ترنح من جهة إلى أخرى. شردت عيناه اللتان ضاعتا تحت حجابيه الكثيفين وهما تحدقان في جدران الكهف الواسع الرحب. كان مدخل الكهف يطل على الجهة الجنوبية، مما سمح لنور الشمس بإنارة المكان، أما في الليالي فكان العجوز يسدل ستارة سميكة من جلد الثور على المدخل.

على جدار مائل ثبت العجوز خطافاً حديدياً علق عليه بقايا من لحم خنزير فاحت رائحته تحت النار الموقدة بالإضافة إلى رائحة عطرة لأعشاب مجففة. وأمامه توضع كتاب تآكلت صفحاته الصفراء الداكنة، وعل جانبه كانت هناك عصا طويلة ارتكزت إلى الأرض وشكلت نهايتها العلوية شكل صليب.

لقد تركت ساعات الوحدة الطويلة آثارها على العجوز الذي اعتاد التحدث مع نفسه، كان غالباً ما يتمتم بشيء غير واضح، لكن أحياناً تتقد عيناه ويبدأ العجوز بإلقاء خطاب حماسي وهو يلوح بيديه.

بدأ إيوان بتقليب صفحات الكتاب بتأن.

" أعتقد أنه النسخة الأخيرة في كل بلاد القبردي، للأسف لم أعد استطيع التواصل معه أصلاً. لقد نسيت ما أعرفه من اللغة الروسية التي برعت فيها في يوم ما . متى كان ذلك؟ أذكر أولئك المبشرين وهم يعبرون منطقة قبيلة بقسان تشله البلقرية متوجهين إلى بلاد الكرج، لقد كنت يافعاً لم أتجاوز النصف قرن

عندما رافقتهم حتى ممر دانغوز أورون باشا، وهناك أهدوني هذا الإنجيل، الحمد لله فأنا على الأقل مازلت أذكر بعض الصلوات "
رسم العجوز إشارة الصليب على صدره، ثم أخذت أفكاره اتجاهاً آخر، وراح يترنم بصوته الحاد بلحن أبعد ما يكون عن الصلاة.

"سيفي أوي، أيتها الدنيا.
حادة كأسنان الكلاب.
.... ثم ماذا؟ "

هز العجوز رأسه متنفساً بثقل، فكر طويلاً وهو يقبض على شعر لحيته، وأخيراً تذكر شطراً آخر من الأغنية.

" أوي يا دنيا لدينا
ابن باترز حه مشه
شواربه سبعة ضفائر
أما جسده ..جسده.. جسده....."

تلعثم العجوز مرة أخرى.
- أصبح العقل خرفاً، ماذا بعد باترز هذا؟
عاد إلى تصفح كتابه المقدس مرة أخرى ، ثم أخفاه تحت الفراء الصوفي.
" هل أذهب إلى ديغوليبخ؟ التوجه إلى هناك أصبح خطراً فالتتار يجوبون المنطقة، وسوف أصطدم بهم مع كل خطوة. إنهم يتساهلون مع الوثنيين، ولكنهم لن يرحموني أنا."
- قبل ألف عام، ونصف ألف عام أيضاً - تحدث العجوز بلهجة عالم - لاحق السلطان ديوكليتيان المسيحيين، جلد وقتل منهم الكثيرين. وكان بإمرته الجاسوس الوقح، هكذا كان إسمه في ذلك

الزمان، كانت عيناه ترصدان كل شيء وكان من الصعب الإختباء والتنصل منهما. واليوم يخدم هذا الجاسوس الوقح السلطان أحمد والخان قبلان، وهو لا ريب سوف يضع نفسه في خدمة حكام آخرين وسوف يبحث عن المارقين خلال ثمانية آلاف سنة قادمة. لا يمكن التخلص من الجاسوس الخالد. على الناس أن يتعايشوا وأن يتعاملوا بصدق وصداقة ولكنهم لا يستطيعون ذلك ..

عندما ظهر أحدهم على مدخل الكهف كان العجوز قد خرج عن طوره وراح يصيح باللغة الروسية بشيء لم يكن واضحاً وبدأ يهز رأسه غاضباً.

- السلام على سكان هذا المنزل.

انبسطت أسارير العجوز وعاد بسرعة إلى رشده .

- أووه... من شرفني بزيارته؟ أهذا أنت يا قليل العقل الملحد نارت شو؟

- نعم... نعم أيها الأب - ابتسم الضيف بسرور - هذا أنا صديقك القديم نارت شو الكافر الأول يزور آخر القساوسة.

- لا تسخر وإلا عاقبك الرب.

- عقاب الناس أقسى من أي عقاب.

- صن لسانك – وإلا فالعصا....

- أ... بعصا القس؟ - سأل نارت شو متظاهراً بالرعب.

أراد العجوز أن يفجر غضبه ولكنه تماسك.

- النقاش معك..... - نهض ايوان لاستقبال الضيف - أدخل ، تفضل أجلس ، لا تتقزز من الملح والباستة عندي.

- لست وحدي، معي أصدقاء. - دخل نارت شو إلى الكهف فرأى العجوز شابين ورجل في الثلاثينات على بعد خطوات من المدخل - لكنهم لن يعجبوا بالخبز والباستة رغم أن رائحتهما زكية - وأشار إلى لحم الخنزير.

- مفهوم ، تمتم القس بصوت بالكاد أن يسمع - وارتفع الصوت فجأة - عندي هنا عنزة ، أنظر إنها قرب البركة.

- العنزة يجب أن تبقى إذ لا يجوز أن تُحرم من الحليب أيها المضيف الغالي.لا تهتم فلقد جلبنا معنا عدة خرفان، يكفينا منها واحد والباقي سوف ندعهم لك.
- كم أنت مدلل أيها العجوز إيوان - تمتم القس.
انتعش العجوز وتوجه إلى خارج الكهف بكامل وقاره الكهنوتي ودعا جانبولات وصديقيه إلى داخل النزل. فعل ذلك وكأنه يدعوهم إلى قصر لا إلى كهف. وسرعان ما تعرف العجوز على ضيوفه لكنه لم يظهر ذلك على نفسه فقد يكون هؤلاء الناس ممن يريدون أن لا يتعرف عليهم أحد. وبدوره تعرف قوباتي على ذلك العجوز الذي التقاه عند الصخرة التي تشبه الكلب، إذ لم يمض وقت طويل على ذلك اللقاء والخنزير لم يلحق أن يدخن بعد. لم يشك في أن العجوز قد رآه بدوره. ولكن قوباتي لم يعلم أن العجوز كان يراقبه بفضول هناك في بيدك من خلف الشجيرات عندما كان مقيد القدمين، ويتابع ألاعيب كوانتشه المخادعة. ولم يعلم أن آخر القساوسة استغل الفرصة عندما اختفى الفتى البلقري في مكان ما لينام، وعندما صعد شوجنوقة إلى الأعلى، ليستولي لنفسه على الدرع. لقد كان يشعر بالعدائية تجاه التتري الصاخب والأمير الشرير، أما الأسير فقد أحس بالشفقة عليه.
بعد تناول الطعام استعد العجوز للتحدث عن مغامرته وقرر أن يعيد الدرع لهم عندما أتاه صوت نارت شو الهادئ:
- هل تعلم أيها القس المحترم أن صاحب ذلك المعدن اللماع الذي أخذته من تحت أنف عليغوكة شوجنوقة جالس إلى جانبك؟
تملكت الحيرة العجوز، فتح فمه ونقل نظراته من نارت شو إلى جانبولات.
- أنتم، وكيف عرفتم؟ هل يساعدكم الرب؟
ضحك نارت شو.
- لقد أخبرنا عكازك.

نهض العجوز من مكانه، اقتلع العصا من الأرض ثم أعاد غرزها مرة أخرى، هز رأسه وتوجه إلى ركن مظلم في الكهف و أخرج الدرع.
- هذا هو خذوه.
- لا نعلم كيف نكافئك أيها الرجل الطيب على هذا الصنيع - قال جانبولات بصوته الجهوري.
- على هذا الصنيع سوف يكافئني الرب - أجاب العجوز بوضوح ورسم إشارة الصليب.
- أليس من المناسب أن يكافئك الناس أيضاً؟ - قال نارت شو.
- كلماتك طائشة، ما من شيء إلا ويحمل حكمة الخالق، فلا يجري شيء في هذا العالم دون إرادته، أليس هذا واضحاً لك؟ سوف يأتي ذلك اليوم الذي سيطغى فيه دين المسيح.
- كل إنسان يعتبر دينه هو الدين الحق - تدخل جانبولات - والمشايخ يقولون أيضاً أنه بإرادة الله تسير الأمور، فأين وجه الاختلاف هنا بين المسيحيين والمسلمين؟
- سامحه يا رب، إنه لا يدري ما يقول.
ابتسم جانبولات بطيبة وقال:
- أعرف أيها الشيخ الطيب، قل لي ألا يذكر الكتاب المقدس أن الكفرة سوف يعاقبون بشدة؟
- نعم لقد ذكر ذلك.
- هكذا والقرآن الكريم يقول إن جهنم أعدت للكافرين. هناك مكان لجميع الكفرة في الجحيم، ثم أسألك أيضاً ألا يعد دينك المؤمنين بالجنة؟
- نعم صحيح.
- وكذلك يعد الله المسلمين أن لهم الجنة.
عبس ايوان، فهو الآن لا يحس بذلك الاندفاع السابق لإثبات وجهة نظره، ولم يعد راغباً بالدخول في الجدل ومحاولات الإقناع، إن ضيوفه سوف يغادرون بعد قليل، وسيبقى وحيداً تعصف الريح بأفكاره المضطربة، كما تعصف بالشجرة الوحيدة

في العراء. إنه لا يملك القدرة والمعرفة للإرتقاء بعقله والسمو به فوق القمم الجبلية، إنه لا يملك القدرة على التحليق. فهو لم يكتشف شيئاً جديداً، ولم يأت بشيء جديد ليخاطب به الناس. أما جانبولات فهو على الأقل استطاع أن يجد قاسماً مشتركاً بين الأديان المختلفة.

- لقد قام المسيحيون بتنظيم الحملات العسكرية ضد المسلمين باسم الرب، وكان الصليب شعارهم. وبدورهم قام المسلمون بإعلان الجهاد المقدس وأراقوا الدماء باسم الله. كان هؤلاء وأولئك يعتقدون بصواب عملهم وهم يقتلون ويحرقون وينهبون، وكانوا يتصايحون: قاتلوا باسم الرب ، باسم الله، ويؤكدون صحة معتقداتهم، وتناسوا أنهم إنما يسلبون أراضي ليست لهم. وأن الخيرات التي يقاتلون من أجلها إنما تعود لهذا العالم الرازح في الخطيئة لا للعالم الآخر.

- حسناً لقد اكتفيت، سوف نتناقش في وقت لاحق.

- حسناً فأنا في الواقع لست في حالة أرغب فيها بالثرثرة.

عندما هم الفرسان بالانصراف قدموا عباءة جديدة للعجوز الذي هز لهم رأسه شاكراً ولسان حاله يقول:

" لماذا العباءة؟ سوف أموت قريباً."

ودع نارت شو أصدقائه عند الجسر الذي أعاد سكان قرية يموز بناءه.

- أين سأجدك عند الحاجة؟ - سأل جانبولات.

ابتسم نارت شو ابتسامة مبهمة:

- عند الحاجة سوف أجدك بنفسي، لن أدعك تغيب عن أنظاري ياتوزار أبداً، لن أفقدك . أما الآن فإن الرفاق ينتظرونني - نظر بعينه اليتيمة إلى قوباتي وكوانتشه بمحبة - لا تلعبوا بالبلابل مع عليغوكة، فقد تنتهي الأمور بمأساة، بالنسبة لصديقكم القازاقي الروسي فأعتقد أنه أعجب بالحياة بيننا فلا تقلقوا عليه، ثم أنه لا يملك مكاناً يذهب إليه.

شب حصان نارت شو على قائمتيه الخلفيتين وطار إلى الغابة.

- رافقتك السلامة.
دوى صوت جانبولات الجهوري خلف نارت شو.وبدأت الشمس تنزلق نحو المغيب.

* *

خلال هذه الفترة عاشت نالجان وستناي على أمل عودة أصدقاء الروح، كما اعتادتا على تسمية أبطالنا. بعد مغادرة جانبولات عادت نالجان إلى منزلها وعملت جاهدة لإعادته إلى حيويته الماضية، وعادت المضافة تشع نظافة، وازدانت بأسلحة يموز التي توضعت على الجدران. علق قدر نحاسي ضخم فوق الموقد حيث الخشب الجاف ينتظر في أية لحظة أن يرسل تموجات لهيبه الساطعة مرحباً بأي ضيف. كما أن فرسان الضيعة المجاورة تعهدوا بحماية المنزل دون أن يشعر بهم أحد. حتى أن خيولهم لم تصدر أية ضوضاء. بقيت خفيفة الظل الثرثارة خاديجة تزورهم باستمرار، واستطاعت بدعاباتها أن تطرد روح الحزن من المنزل.
لم يتطرقا إلى الحديث عن مستقبلهما مع أصدقاء الروح، ولكنهما كانتا تصليان وتدعوان بأسماء جميع الأرباب التي سمعن بها في يوم ما طالبين منهم أن تعيدهم بالسلامة.
حاولت سانا أن تقرأ فألها عبر أصوات المقص ولكنها لم تسمع شيئاً محدداً، فقط صرير خافت للشفرات ولمعان مخيف للنصل العاري. أما نالجان فقد كانت تدرك أن وضعها بالمقارنة مع حال ابنة أخيها كان جيداً، لذلك كانت تشعر ببعض الذنب أمام الفتاة المسكينة، لهذا عادت نالجان إلى ارتداء قناع الاستياء المفرط من وضعها كما كان سابقاً. كانتا تنامان وتستيقظان كل صباح على أمل أن يتناهى إليهما أصوات سنابك الخيل وهي تعبر الجسر الخشبي، وأن تستقبلا جانبولات الفخور والفتى الهمام قوباتي والطيب المرح كوانتشه.

هكذا وفي موعد أبكر بكثير من المتوقع سمعتا أصوات حوافر خيول تعبر الجسر الخشبي، كان عدد الفرسان أكثر بكثير مما تنتظرن. من على بعد تعرفن على أحدهم ، قازنوقة جباغي. أما الآخرون فكانوا مجهولي الهويات.
كن يعتبرن جباغي شخصية لطيفة ومتواضعة، ولكن هاهو اليوم يرافق شخصية أكثر أهمية، كورغوقة حاتاجوقة الذي خاطبهن بلهجة ودية، ولكن ما أن انتهى حديثه معهن حتى عاد إلى تجهمه.
إن أخبار الحوادث الأخيرة التي كان بطلها الخائن شوجنوقة واختطافه لقوباتي الذي بالكاد عاد وظهر إلى الوجود، وصلت إلى مسامع حاكم القبردي قبل أي شخص آخر. والموضوع يتلخص في أن الأمير الأكبر توجه إلى الحصن الخشبي الروسي أوست تيريتش المبني على ضفاف تيريك.
عرض الأمير على القائد مجريات الأحداث بينه وبين السرعسكر التتاري وأشار إلى أن الحرب واقعة لا محالة وطلب العون من حلفائه، لكن الروس كانوا لا يزالون يرزحون تحت التأثير السيء للتمرد الذي وقع أخيراً وأودى بحياة الرماة والجنود الروس في أستراخان.
لقد رفض الروس إمداده بالأسلحة النارية ولم يزودوه حتى بمدفع واحد. حاول القائد تهدئة الأمير القبرديني بأن أهداه عباءة وقبعة مبطنة بالفرو.
أصبح واضحاً لكورغوقة أنه وحيد في مهب الريح وأن عليه أن يواجه الموقف معتمداً على نفسه فقط. اجتمع مع أمراء القبردي الصغرى والكبرى ، وكان حازماً معهم على غير العادة ، طلب منهم وضع مشاحناتهم الأبدية جانباً والتفرغ لما هو أهم، ويبدوا أنه قد حقق نجاحاً في هذا المضمار، خاصة وأن جباغي كان يشارك في عمليات الإقناع، فهو كان يختار الكلمة المناسبة ليطلقها في اللحظة المناسبة. وكان الأمراء والنبلاء يخشون حدة لسان قازانوقة وحكمته.

وأخيراً هاهو الأمير كورغوقة حاكم القبردي يتفرغ لشؤونه العائلية الخاصة ويصل إلى منزل المرحوم يموز. أراد أن يستفسر بنفسه عن الاعتداء الذي حصل هنا قبل توجهه مع مجموعته الصغيرة إلى الحدود الشمالية الغربية للقبردي، فقد تساعده بعض المعلومات المفيدة.
بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وفي مثل هذا الوقت، تسكن الجهة اليمنى للسفح في ظل دائم، لكنها الآن انتعشت للحظات، واشتعلت بالأشعة الذهبية البرتقالية التي سرعان ما انطفأت من جديد. وفي ذات الوقت وعلى المنحدر الأيسر للسفح أغرق الظل الليلي المكان متداخلاً مع الأشجار، ومعانقاً الأوراق المزركشة وملامساً الأشكال العجيبة المنحوتة بإبداع للجرف الصخري.
وإلى الصباح ستخلد الأزهار إلى النوم وتطفئ أنوارها. ولكنها الآن مازالت تشع نوراً رمادياً، بينما يتحول النور على الجانب الآخر إلى وردي. السماء بدأت بإيقاد نجومها وعبقت الأعشاب برائحة طازجة، وبدا صخب النهر أكثر قوة وثقة. لقد بدا المكان وكأنه يودع تلك الأيام الدامية.
إلى الشمال من بيت يموز. خرج قطيع من الخنازير البرية بحذر، لكن يبدو أن قائدة القطيع الضخمة اشتمت رائحة مخلوقات من ثنائيات الأرجل فآثرت الانسحاب متذمرة واختفت في الغابة الكثيفة وتبعها كامل القطيع.
أشعل فرسان حاتاجوقة نيران المواقد في جوف الليل، أما الأمير نفسه فلم يفارقه التجهم والحزن، جلس قبالة الموقد ومد يديه الباردتين إلى النار، لقد كان محموماً في الأيام الماضية ولم يكن العرق البارد يفارق جبينه. استلم قازانوقة واجبات صاحب الدار وساعده في ذلك عدد من شبان القرية ونالجان التي أصبحت مشغولة تحت سقف المطبخ.
كانت سانا تتحرك وكأنها في حلم، لم تعد تسيطر على نفسها ، فالأيدي والأقدام تتحرك من تلقاء ذاتها. لقد تحرك داخلها شيء يدفعها إلى الإنهيار، وهي تعيد بشكل ما ذلك اليوم الذي قتل فيه

والدها. أحست أنها قد تقدمت بالعمر عدة سنوات. لقد جلب الأمير الأكبر لها شعوراً برعب غير مفهوم، لم يكن ذلك الشعور خوفاً من الرجل، بل الخوف كان من شيء آخر أكثر رعباً ويرتبط بوالد قوباتي.
لم تتضح الأمور في البداية ولكن شيئاً فشيئاً ظهرت الصورة أمام سانا التي قررت أن لا تلتقي بقوباتي سواءاً عاد أم لم يعد. هكذا أفضل.
ولكن ماذا حدث مع عمتها؟ اتسعت عيناها فجأة واصفرت وكادت أن تتعثر وتقع في قدر الباستة الذي لم يبرد بعد. لقد أختلط الأمر عليها ظنت أن الرجل يتقدم بتمهل، لكن في الحقيقة كانت خطواته واسعة إليها. لقد عاد جانبولات وهاهو كوانتشه المخادع يقفز مبتسماً، بدورها اصفرت سانا ثم اصطبغت بالأحمر. ولكن أين هو قوباتي؟ لم تسأل سانا لكن نالجان طرحته فوراً.
- إنه هنا ، اطمئنوا، كل شيء على ما يرام - أجاب جانبولات هامساً ثم أشار برأسه إلى المضافة وسأل:
- هل هو هناك؟
- نعم إنه هناك . هل ستذهب إليه؟
- نعم.
- كيف وجدت الصبي؟
- أنا لم أجده، هو الذي وجدني. هذا الفتى سوف يفاجئ الجميع. أليس كذلك يا حلوتي؟ - كان السؤال موجهاً إلى سانا.
غطت الفتاة الحائرة وجهها بيديها وركضت باتجاه الحديقة.
- نالجاااان - صاح كوانتشه - أليس كوانتشه شخصاً جيداً حتى تتجاهليه؟ لا لن أخبرك عن أي شيء.
- آه منك يا صغيري - لكزت نالجان كتف الفتى بتحبب، وبالكاد تمكن كوانتشه أن يحافظ على توازنه -أنت نور عيوني وسعادتي ولو كان قوباتي هو الواقف أمامي لسألته عنك.
- حسناً - وانفرجت أساريره - سوف أحدثك عن كل شيء.

- إننا أصدقاء ياإميش، سوف يكون بيننا حديث، ولكن لاحقاً- ارتسمت على شفتي جانبولات ابتسامة مذنبة - يجب أن أذهب الآن.
- اذهب ، اذهب يا ابن توزار أما أنا فسوف أبقى هنا.
تخطى جانبولات عتبة المضافة ووقف عند المدخل.
- فلتعم البركة جلستكم.
ألقى توزار التحية المناسبة متجنباً رفع صوته، على حين ارتج كورغوقة قليلاً وامتدت يده بشكل لاشعوري إلى القدح الذي تناولها جباغي من يد الأمير، ليسلمها إلى توزار. شرب توزار الماخسمة وانتظر راعي المائدة أن يعيد ملئ القدح ليعيدها إلى جباغي، مع انحناءة، وعاد القدح إلى الأمير، ليسود صمت متوتر. صوب الأمير نظراته القاسية إلى عيني جانبولات مباشرة ولكن الأخير تجاوز تلك النظرة بهدوء ودون تحد. كان جباغي مضطرباً ينقل نظراته بين الرجلين وهو يفكر هل يقدم الرجل إلى المجموعة، لكن في هذا خرق للأعراف. وماذا في ذلك لا بد من تجاوز بعض الشكليات حينما تحتد الأمور وتصبح أكبر من القواعد الصغيرة للأديغه خابزه. غير أن كورغوقة أخرج جباغي من هذه الورطة الصعبة:
- هكذا إذاً أصبح ابن قارالبي - لم يتوقع جانبولات من الأمير أن يتعرف عليه وكذلك جباغي - لقد رأيتك وأنت صغير، إنني أنتظر منك أي شيء ولكن لا تقف عند الباب ، اجلس.
- قبل الجلوس هناك أهم ما يشغل بالك وأود أن أخبرك عنه. إن ابنك حي يرزق وهو حر ولم يصبه جرح، إنه قريب، حتى أنه يستطيع أن يسمع صوت ندائي.
لاحظ جباغي أن أنفاس الأمير قد انقطعت وأنه تناول قدحه بسرعة غير معتادة وارتشف منه.
- إن صوتك يا توزار يمكن سماعه من حدود القبردي الصغرى.
ضحك الجميع عدا الأمير و جانبولات.

- لقد مضى زمن لم أتواجد فيه على تلك الحدود - أجاب جانبولات بهدوء متعمد.
- هل تريد أن تسمع من حاتاجوقة إن كان يعتبرك مذنباً، أليس هذا سبب غيابك الطويل عن أرضك؟
سكت جانبولات.
- سوف أخبرك بصراحة ، إنني واثق بأنك لم تكن البادئ في ذلك النزال، وأستطيع أن أصدق أن أباك قتل أولاً ثم محمد ، ولكن ما يصعب علي تصديقه هو أن محمد مهما كان متهوراً فإنه لن يقدم على قتل شقيقه إسماعيل.
- لقد شاهد قوباتي كل شيء، وهو يستطيع أن يؤكد.
- أردت لو أنني استمعت إلى هذا التأكيد من .... شوجنوقة.
- إذا قبلت قسمي أيها الأمير، فإنني أتعهد بجر هذا الخائن بأنشوطتي إليك. إذ أنه في الواقع السبب في مقتل إخوتك ومقتل والدي.
- نعم ..إن التحريض أحد من نصل السيف وأشد فتكاً من الرصاص، سوف أقول لك، لن أستطيع أن أحدد عواطفي وما أشعر به تجاه قضيتك الآن، إنني لا أدري هل أثق بك أم لا، ولكنني أعلم أنك تحاول إخراج الشعرة من البيضة في زمن استعداد التتار للهجوم علينا.
انفرجت أسارير جباغي عن أسنانه البيضاء.
- هل تريد أن تقول أن على المربي أن يستدعي ربيبه؟
- عليك أن تفترض ذلك.
خرج جانبولات من المضافة ونادى:
- قوبااااتي....
سمع صوت حوافر جواد في الظلام يأتي من جهة الجسر، عاد جانبولات إلى الداخل ليتوجه مباشرة إلى المكان المخصص له قرب الموقد بجانب كورغوقة. ساد الصمت من جديد. صمت لم يشبه ذلك الصمت الذي رافق ظهور جانبولات. تجمد الجميع في انتظار الحدث الذي بدا أنه لن يتحقق.

علت أصوات خطوات عند المدخل تقترب مسرعة ثم ظهر الفتى، كانت عيونه السوداء تشع بذكاء رجل. وكانتا صافيتين كما هي عيون الأطفال أيضاً. ألقى نظرة سريعة على الموجودين لتستقر تلك النظرة على حاتاجوقة. نهض الأمير من خلف المنضدة ذات القوائم الثلاثة:

- اقترب أكثر أيها الفتى.

كان بطول أبيه. وضع كورغوقة يده على كتف ابنه ثم التفت إلى توزار:

- أرجو أن لا تكون قد استبدلته.

وهنا وللمرة الأولى ظهرت ابتسامة على وجه الأمير العابس. لامس قوباتي بجبهته صدر أبيه، في حين ربت كورغوقة على ظهر ابنه.

- حسناً اذهب وقف خلف مربيك ، فأنت لست في بيتك.

عاد الأمير إلى الجلوس، وبصوت جهوري قال:

- سوف تجري الأمور كما هي العادة ، سيعيد المربي ربيبه بنفسه إلى بيت أبيه، وسيتم الاحتفال بهذه المناسبة. سأغادر عندما يغيب القمر، أما أنت يا أخي جباغي ستبقى هنا ، انتظروا يوماً ثم شدوا الرحال مع توزار وربيبه. الآن كلوا واشربوا وأعتقد أن توزار لن يبخل علينا بسرد أخبار الحوادث الأخيرة.

* *

أمسك قوباتي بالركاب بينما امتطى الأب الذي أراد أن يسمع صوت ابنه، سأل وهو يمتطي صهوة جواده:

- أخبرني أيها الفتى ألم تفهم من خلال الأحاديث متى ينوي التتار شن هجومهم؟

أجاب الفتى بلهجة عملية.

- ما أن ينتهي مزارعونا من جني المحاصيل.

أدرك حاتاجوقة سبب هذا التوقيت، هز رأسه، أراد أن يضيف شيئاً ولكن اقتراب جانبولات أوقفه.
- أيها الأمير هذا هو الدرع الشهير.
كان الدرع يلمع تحت ضوء القمر لمعاناً مال إلى الزرقة الخفيفة.
- هذا هو إذاً. الآن فهمت، إن هذا الشيء قادر على أن يلعب برأس أي شخص حتى وإن خلا من القمل.
- سوف أكون سعيداً إذا تخلصت منه.. كورغوقه خذ هذا الدرع مني واحيي اتفاقك القديم مع والدي، وليكن الدرع من نصيب الفائز في المسابقات.
- عندها سيعود الدرع إليك ثانية - ضحك كورغوقة.
- لا، سيكون من نصيب فتانا، أنا لن أشارك في تلك المباريات.
- إذا كنت تشعر بالضعف من جراء جرحك يمكن تأجيل المباريات لفترة.
- جازاك الله خيراً أيها الأمير، ليس هذا سبب إحجامي عن المشاركة.
- لماذا إذن؟
- أريد أن يحصل .... ابتعد جانباً أيها الفتى.... أريده أن يحصل على الدرع، ولو أن الأمر عائد لي لألبسته إياه بكل الأحوال قبل أن أعيده إلى بيت والده.
وضع جانبولات الدرع على سرج حصان حاتاجوقة.
- إنني لم أعد أثق بأحد ... خذه.... وهكذا أكون قد تخلصت منه.
- لست جشعاً ولا حسوداً - قال الأمير ببطء.
- إنني خليفة والدي ، لقد كان أبي كذلك. فلتصحبك السلامة على الطريق يا كورغوقة الطيب.
- إننا على موعد وأنا أنتظركم.
رحل حاتاجوقة تاركاً خلفه خمسة عشر فارساً لمرافقة جباغي وجانبولات وقوباتي في اليوم التالي.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

حتى قبل الفجر كان قوباتي ينتظر سانا بلهفة خلف ورشة يموز عند زاوية الحديقة، كان هناك أرنب قبع في سلة قش وهو يقضم العشب الطري، أشرقت الشمس، وارتفعت فوق النهايات الخضراء ليشرب الندى المتكاثف على الأوراق من ضياءها. وارتفع صرير الجنادب يخالطه طنين النحل الصادر من فوق تويجات الأزهار الحقلية. تأخر ظهور الفتاة.

" إنها بالتأكيد سوف تأتي - أقنع الفتى نفسه - إنها لن تنسى أرنبها "

مد يده إلى السلة وراح يمسد على ظهر الأرنب.

" أووه في يوم واحد وفي ساعة واحدة كنا نحن الاثنان حبيسين في الأسر، لماذا لم أكن في مكانك، لو كان سجني مثل أسرك لقضيت العمر كله أسيراً. "

نهض بحدة عن الجذع الذي كان يجلس عليه ولكن ضعفاً اعتراه وشعر بوهن في قدميه عندما شاهد سانا وهي تقترب بهدوء، لم تكن الفتاة تنتظر رؤيته:

- آ... أهذا أنت؟ - لم يكن السؤال مناسباً - إذاً ... كيف أنت؟

ارتبكت الفتاة جداً عندما رأت قوباتي، ولكن منظره المضطرب وصوته المرتجف أعادتا إليها شجاعتها. أجابت كجبلية حقيقية حاضرة دائماً ولكن بتواضع، قادرة على أن تجيب على أي سؤال يُطرح بعزة وكبرياء.

- نعم هذه أنا وفي ذلك لا يشك حتى أرنبي.

التقطت سانا الأرنب من سلته وضمته إلى صدرها.

- لقد كنت أحسد هذا الوحش- تكلم قوباتي ململماً كلماته بصعوبة وهو يحاول التغلب على خجله - لو كان لدي مثل هذه السيدة...

- لا يوجد عند الأمراء سيدات مثلي - كان جوابها مبطناً بمعاني كثيرة .

- لماذا؟

- الأمراء يختطفون أمثالي ببساطة ثم يبيعونهن إلى التتار على ضفاف بسج.
- لم أعتقد أبداً أنك يمكن أن تكوني قاسية علي.
أدركت سانا أنها أغضبت الفتى حقاً.
- ولكنني لم أقصدك أنت.
- لا أريد أن تقارنيني بأولئك، وأرفض حتى التفكير بذلك.
- ولكن هناك من سوف يشبهك بهم.
أنزلت سانا أرنبها الذي ما أن لامس الأرض حتى رفع مؤخرته وتوجه نحو الغابة بتمهل.
- إنك تطلقينه؟
- نعم وهو سينمو مثلك حُراً، ولكن حريته ستكون حقيقية.
- أو لا أستطيع أن أكون حراً حقيقياً.
لقد فهم قوباتي جيداً إلى ماذا تشير سانا، وأدرك المقصود من اللمز، ولكنه أراد أن يجادل.
- من كان والده مثل والدك لن يكون ملك أمره أبداً.
سكت قوباتي طويلاً وراح يفرك ورقة خوخ بين أصابعه، كان يفكر أن هذه الفتاة أقرب إليه من أبيه.
- قل ما تريد.
- لا .. لن أستطيع ، لو أعلم أنك ستستمعين إلي لحلقت كلماتي بك إلى مستوى النجوم.
احمرت سانا خجلاً وارتعشت رموشها وللمرة الأولى نظرت الفتاة مباشرة إلى قوباتي لتتلاقى نظراتهما للحظة خاطفة أهتز لها الفتى بسعادة مثيرة، فكم من الطيبة تحمل هاتان العينان الساحرتان، وأي عمق أحاسيس يمكن أن تسبر، وأي إخلاص وتفاني . لم يكن الفتى ليستطيع شيئاً، لم يكن يريد الاسترسال في الكلام، الغناء لو استطاع أن يغني. ترك نفسه واقفاً يجتاحه مد من السعادة الغامرة، ولم يدري ماذا بعد، لكن سانا أنقذت هذا الموقف الذي بدأ يتعقد ببساطة ودون تكلف أو تفكير. لقد أقدمت

على ما أقدمت على فعله قبلها فتيات الأرض كلهن، إنها ببساطة ركضت مبتعدة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

أما توزار فلم يستطع أن يلتقي نالجان على انفراد لأنها كانت مشغولة طوال النهار بكل الأمور الخدمية، وثانياً كان عدد الأشخاص المتواجدين في باحة الدار كبيراً، ثم أن جباغي لم يفارق جانبولات. فهو معجب به إذ أنه لا يشبه بعض أولئك الأمراء الذين يسعون إلى صداقته رغم نسبه المتواضع، بل لصداقته مع الحاكم . أما توزار فكان من عجينة أخرى، مثل يموز وكورغوقة حاتاجوقة، لقد كان رجلاً صقلته التجارب فنشأ هادئاً مفكراً. كان أشبه بأولئك الفلاحين الذين يجيدون عملهم تماماً، الذين يعشقون العمل ولا يحبون هدر الكلمات، كان من الممتع والمفيد تجاذب الحديث معه وإيداعه أعمق الأسرار. فجانبولات كان يستمع إلى الأسئلة المطروحة ويجيب عليها باختصار ولكن دون أن يبخس السائل حقه بالجواب. أما أسئلة جانبولات نفسه فكانت نادرة، ولكنه إذا سأل كان السؤال هاماً والجواب صعباً، والحديث عموماً كان يدور حول العلاقات الإنسانية، التاريخ، الرؤية المستقبلية وطرق الوصول إلى غد أفضل.

- تقول يا أخي جانبولات أن العالم تحت القمر يتخبط في الضلالة وتشك في إمكانية عودته إلى الصواب، وأنه أضاع طريق العدالة الإنسانية. أخالفك الرأي فالعالم يمكن تنظيمه. ولكن أعترف أن هذا العمل خارج إمكانيات الجيل المعاصر. ولكن فكر إذا تجاوز الحديث نطاق الأسرة الواحدة والقرية الواحدة، لتشمل الإنسانية على ظهر البسيطة، هذه الإنسانية التي يدفعها احترام وشكر الأجيال اللاحقة لها لتغيير العالم ولو قليلاً،

يمكنها إنجاز ذلك فلو أن كل فرد وصل به وعيه إلى أن يخطو خطوة واحدة نحو الأفضل لغدا العالم برمته أكثر عدالة.
انتهت نزهتهما على ضفة النهر وعادا إلى الحديقة، التقيا بنالجان عند البوابة ، ابتسمت لهما ورمقت جانبولات بنظرة خاطفة.
سأل جانبولات قازانوقة:
- رغم أن حاضرنا موغل في الضياع لكن، ألا يستحق منا أن نعمل لأجله؟
كانت عيناه تعكسان الإهتمام الحي المركز والعميق للحديث، وومض فيهما أمل مبهم.
- نعم، إنه يستحق ذلك - تمتم جباغي، ثم أردف بحزم وبفرح- نعم إنه يستحق ذلك.
لقد كانت سانا المنفعلة تركض من طرف الحديقة وكادت أن تصطدم بالرجلين، وبارتباك شهقت ثم تابعت الجري دون توقف.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

في قرية حاتاجوقة اجتمع الناس قبل موعد الاحتفال بوقت طويل، ولم يتوقف توافدهم جماعاتٍ من القرى المجاورة ركباناً وعلى أقدامهم، ومن القرى البعيدة. لقد عم خبر عودة ابن الأمير كورغوقة في كامل القبردي، وانتشر بين الناس أن الفتى هو ند حقيقي للنارتيين.
تقع مزرعة كورغوقة عند سفح هضبة وهي تتألف من خمسة إلى ستة منازل بنيت أو الأصح أنها ضفرت بالطريقة القبردينية الاعتيادية، وتوزعت بين إسطبل ومخزن حبوب وحظيرة للماشية، انتظمت بشكل بسيط ولم يراع التنسيق عند بناءها. على مسافة غير قريبة عند ضفة النهر ارتفعت عشرات المنازل التي

يقطنها الفلاحون وإلى الأسفل بدت بيوت النبلاء المتواضعة تواضع بيت الأمير نفسه.
بين مزرعة كورغوقة والقرية سهل واسع منبسط، يستخدم في الأحوال العادية كمرعى، ويتحول أيام الاحتفالات إلى ساحة للاستعراض والمباريات.
بدا الجو غائماً وهطل مطر خفيف، لكن هذا لم يزعج الجمهور المتحمس، ويبدو أنها لو أمطرت وابلاً غزيراً من البرد ما كان هذا ليغير من الأمر شيئا. أوقدت النيران في الفناء الرحب للمزرعة وتلاعبت السنة اللهب بجوانب القدور النحاسية الضخمة. إن من رأى تلك القدور كان يصاب بالدهشة، إذ كان عليه أن يقف على أصابع قدميه حتى يستطيع أن يلقي نظرة إلى عمقه.
- ألم يجد الأمير هذا القدر في حفريات (اليونه)؟ - سأل أحد الرجال.
- ماذا تقول؟ - أجاب عجوز نحيل ارتدى ملابس رثة - لقد كانت قدور اليونه تتسع الواحدة منها لأربعين ثوراً أما هذه فبالكاد تتسع لثورين.
- هذا يكفي القرية كلها - أجاب شاب قوي البنية، له رقبة كالثور.
- يكفي إذا وفرت نصف شهيتك على المائدة يا شوت.
ضحك الجميع، وكان أكثرهم ضحكاً شوت نفسه.
- إنهم قادمون ، انظروا - صاح أحدهم - إنهم هم.
- لا- تكلم العجوز - إن الشاب حاتاجوقة سيظهر من الغرب أما هؤلاء فهم قادمون من الشرق - ثم أضاف - هذا آخلوف، الأخوة آخلوف. الأكبر في قبعته المشهورة، رغم أنه ليس الأمير الأكبر للقبردي إلا أن قبعته أطول قبعة في القبردي.
- أوو.. هناك طيور محترمة تقترب.
- نعم .. أرى .. إنه الأمير قاساي مع أولاده وحاشيته الضخمة الجائعة دائماً، سيجدون هنا ما يسد رمقهم ويسعدهم.

- يقولون أن قايتوقه أصلان بك هنا.
- وانجوقه محمد أيضاً وصل.
- وأتاجوقة ميسوست.
- وغازي اتاجوقة.
- إسماعيل بك ميسوست.
- كم هي رائعة ملابسهم.
- وأسلحتهم وتجهيزات خيولهم.
- نعم، الواحد منهم يمتلك تسعة عباءات أما نحن، فلكل تسعة عباءة واحدة.
- صحيح، إننا نملك ما يسترنا ولكن كيف لنا أن نخيطه.
لم تكن علية القوم تتوقف، وإنما كانت تدخل مباشرة إلى الفناء، كان شبان العائلات النبيلة من الدرجات الثانية والثالثة، تستلم الخيول والأكثر نبلاً كانوا يرافقون الضيوف إلى المضافة الرئيسية حيث كان سيد المنزل يستقبلهم. المناضد ذوات القوائم الثلاثية توزعت واصطفت عليها أقداح العسل وأطباق الجوز والفواكه المجففة والزبيب وأقراص الفطائر المحلاة، طبعاً كانت الماخسمة موجودة وكذلك المارماجيه والعرق المركز بالإضافة إلى قوارير خضراء جلبت من بلدة تيرك، وكذلك كان هناك نبيذ من صنع روسي. قطع الضيوف الوقت بالحديث وهم ينتظرون بدء الاحتفال. لقد كان الجميع يدرك المناسبة ولكنهم تجنبوا الخوض فيه، وكان والجميع يسترق النظر إلى المنضدة حيث وضع الدرع الثمين، ولكنهم كانوا يتصنعون اللامبالاة، إلا أنهم عندما دعاهم كورغوقة إلى تفحص الدرع تسابقوا إليه دونما استحياء والتفوا حول المنضدة وراحوا يهزون رؤوسهم ويتمتمون بألسنتهم و يتحسسون براحات أيديهم المعدن المصقول الناعم.
- بمثل هذا اللباس يمكن خوض أية معركة - تكلم أحد الاخوة آخلوف.

- لو كان لي مثل هذا الدرع - أعرب أتاجوقة غازي - لدخلت في معمعة ضد التتار وليتكاثروا علي.
- الغزال الذي لم تصطاده ليس صيداً أيها الأمير العزيز- أجاب إسماعيل ميسوست بخبث - التتار أقوياء والدرع لم يصبح بعد لك.
- فليكن ، ولكنه ليس لك أيضاً، ولن يصبح - أجاب غازي بحدة.
بدأ وجه ميسوست يتلون بالغضب، إلا أن كورغوقة تدخل في اللحظة المناسبة ودعا الجمع للعودة إلى خلف الموائد، مفوتاً عليهم تأزيم الموقف.

* *

كانت أجساد الثيران والخرفان تنظف، وكانت قطع اللحم الضخمة تتساقط في القدور، بينما حمل الهواء رائحة اللحم المقدد وراحت أفخاذ الخرفان والدجاج تتورد على الأسياخ. صدحت الموسيقا وارتفعت عدة أصوات تترنم بأغنية قديمة. وإلى ذلك الجمع المرح خلف منزل الأمير كان أحد المتأخرين يسعى.
- وأنت أيضاً أيها المغوار جذبتك رائحة الشواء إلى هنا؟ - قال شوت وهو يضرب بلطف ظهر صديقه الذي وصل من القرية المجاورة.
رد الرجل ضئيل الجسم، قصير القامة بابتسامة طيبة:
- لا يا صغيري، إن صوت الغناء عندي مثل رائحة الشواء عندك، فلنذهب .. انظر هناك فتيات أيضاً.
- لن أبارح هذا المكان، سوف انتظر لحم هذا القدر حتى ينضج ومن ثم يمكنني أن أرقص، لم يبق إلا القليل هاهم يزيحون الزبد.
من الجهة البعيدة للمرعى تدافع الأطفال حفاة وهم يخوضون في برك الماء الصغيرة.

- إنهم هنا...
-إنهم يسرعون .
- كل شيء لديهم يلمع كالشمس.
في الحقيقة كان كل شيء يلمع، إذ توقف الفرسان في مكان غير بعيد عن شاطئ النهر، وقاموا بتنظيف ملابسهم، غسلوا الجياد ومسحوا السيوف والخناجر وعتاد الخيول الفضية، وهاهم الآن يقطعون المرعى بتمهل تاركين للناس إلقاء نظرة على الربيب والمربي. موجة الحماس اجتاحت الجماهير التي لم تستطع الاحتفاظ بتعليقاتها:
- انظروا كم هو جميل!
- والمربي، هل هو أكبر من ربيبه بكثير؟
- إنهما متلائمان.
- اوه الفتى حاتاجوقة واضح أنه أمير.
- ابن القط لا يأكل العشب بل يصطاد الفئران.
- إنهم يجرون حصاناً احتياطياً خلفهم.
- كم هو رائع، لا بد وأن حصان ساوسروقة تخوجي كان يبدو كذلك.
- وحصان توزار رائع إنه من نوع خارا واسمه نالقوت، أنا أعلم ذلك.
- هذا الفتى من النوع الذي تنمو أسنانه بسرعة.
- يقال أن والده كان يشبهه في صغره.
- من الشوكة تتوالد الأشواك.
- من قليل الحياء الذي يغمز ويلمز؟
- انظروا يرافقهم قازانوقة جباغي.
- اووه نعم إنه ذلك الذي يرتدي البذة السوداء.
- جباغييييي....
- أدام الله سعادتك ياجباغي.
- إنه منا ، إنه رجلنا.
- بارك الله فيه.

- إنه صديق توزار.
- توزار أيضاً رجل فاضل.
- أحسنت توزار.
اختفى قازانوقة خلف باب المضافة، ثم جانبولات، وأخيراً قوباتي وهدأ التعليق والغمز. انتظر الجميع تقديم اللحوم بفارغ الصبر. بدأ الخدم بتوزيع الطعام على الموائد الدائرة، قطع من لحم البقر والغنم المسلوق، اللحم المشوي المملح والمتبل بمسحوق الكراوية، الدجاج المطبوخ مع القشدة، أواني ضخمة طفحت بلحم الأرانب والغزلان، أنواع اللحوم المقددة، الصلصة والخوخ المجفف والبهار، العسل وأنواع المربيات المختلفة، أخرجت أباريق الماخسمة من القبو المظلم، ولم يتم تناسي العلف للخيول .
لم ير سكان المنطقة البسطاء وليمة مثل هذه من قبل، ومع ذلك لم يفرطوا في التعبير عن إعجابهم، ولم يبالغوا في مدح الأمير. لم يتملقوا، ولم يتزلفوا، وسارعوا إلى خدمة بعضهم البعض مقدمين الآخرين على أنفسهم. الأطفال فقط هم الذين أشاعوا الفوضى بتحركاتهم السريعة، غير أن قطع اللقمه[١] كانت تكفيهم وتكفي البالغين أيضاً. حتى الكلاب لم ينقصها الطعام.
صدحت الموسيقا من خلف الأبواب المنفرجة لمنزل الأمير. تعانقت أصوات البخه ستشة ذات الأوتار الثلاثة مع أنغام الناي المنسابة بشاعرية، ودوى صوت البوق، كانت المزامير تحتاج إلى مهارة فائقة، انضمت إليها الشتشه بشنة، وراحت الآلات الموسيقية تنوح برقة متناهية عندما تمر الأقواس المصنوعة من شعر الخيل على أوتارها. وتميز صوت بشنه ديقواقوة الذي انفرد نغمه عن الأنغام الأخرى.

---

[١] - اللقمه – نوع من المعجنات الشركسية، حلوة المذاق

انتعشت نفوس العامة والأشخاص الوقورين الذين احتلوا المقاعد الطويلة تحت الأسقف المنصوبة، فراحوا يقللون من طعامهم ويكثرون من شرب الماخسمة.
الآن سوف يغنون أغنية حرب النبلاء- بثقة تكلم ذلك العجوز العارف بكل شيء -
كان محقاً، إذ ارتفع صوت من المضافة:

اسمعوا أغنية
عن الفتى كاراكان.
أغنية صاغها عند الهرم،
أب بطل همام.

زاخادجوقة الأب نفسه،
غنى وصاغ أغنيته.
في المنزل الكبير حيث عاش البطل،
ضيفاً عليه الخان حل.

لم ير النارت مثيلاً للهدايا
أقمشة حمراء وعطايا
ساعات سحريه وهدايا لا تعد
وفي عيون النارت تألق الحسد

هز العجوز رأسه بكآبة" وكأن هناك حدود للخجل"

يطير الأشراف إلى معسكره،
و باحترام ينتظرون إشارته
فهو الأمير الجسور الأسد
يقف في وجه النسور الجائعة

- هذا حق - علق العجوز- نسور، إنها نسور جيفة.

كاركان يدور حول موضوع وحيد،
غزوة جريئة جديدة.
حصانه الخواره مسرج
وهو بالسلاح مدجج.

خوذته الفولاذية تلمع
وتحت نور الشمس تسطع
قوسه من المعدن القاسي الفريد
صنعه تلبش إله الحديد

- وكأن لا هم لتلبش إلا مساعدة اللصوص.

يقبض على السيف بيده القوية.
يضرب به وجوه الأعداء القذرة.
أوي أين المفر من المرعب،
كاركان أمير القبردي العاصف.

كالأصابع رؤوس سهامه،
تطير بأجنحة النسور.
تلاحق الأعداء ترديهم.
سهام تفتح للموت طريق.

يجوب الغابات في الليلة الظلماء
يستولي على قطعان الماشية والظباء
وعندما تختفي المسالك، يهتدي إلى دربه،
ويقود الجياد والقطعان إلى مزرعته.

أوي ترتفع كلماته وتسموا،
وحيث لم يتواجد، بصيته سمعوا.
أسد هو بطل جسور
ندُ له لم تر العصور

بضمير أبيض
صرع النبيل بولاتوقة
هكذا غنى والد البطل
المبجل زاخادجوقة.

- بضمير حي أبيض، نعم مثل ليل دون قمر ومع ذلك الليل منير.
انقطعت أصوات الموسيقا الآتية من المضافة، وساد الصمت في المنزل وكذلك في الفناء.
- إن الوضع هنا أفضل من هناك - أشار العجوز بيده باتجاه المضافة - أنا أعلم ما يجري الآن هناك. كل واحد منهم يتلفت حوله شذراً في كل الاتجاهات. وكأن هناك من يتربص به ليكيل له الإهانة وينال من مقامه الرفيع، وإذا ما تكلم ولم تأخذ كلماته على محمل الجد، فسوف يخفي ثورته خلف قناع التواضع مدعياً البساطة. ولكن لا تفكر أن تجادله أو تثبت له خطأه. سيمتلأ بالغبطة عندما يشير إليه الآخرون. وسينتفخ سعادة عندما يتكلم عن نفسه. لا بد وأن ربيب توزار المسكين واقف الآن يتململ وهو يستمع إلى كم من الترهات. من الأفضل أن يستلم جباغي دفة الحديث وأن يتكلم كورغوقة... أما الآخرون ... توزار جانبولات ذكي ولكنه لن يتكلم، نعم ولماذا عليه أن يتكلم؟ لقد قام بما يجب عليه القيام به، ولا بد أن كورغوقة يغدق عليه الآن بكرم من طعامه المفضل نخاع عظم الغزال مع العسل، معتقداً أن هذا الطبق يساعد على استعادة القوى المنهارة بعد الجرح، ويعيد الشباب إلى الجسد. أعتقد أن فقدان القوة لا يشكل

مصيبة ولكن المصيبة تكمن في فقدان العقل. إن الطيور تحمل أجنحتها حتى الأيام الأخيرة من عمرها، والإنسان عليه أن يحافظ على رجاحة عقله حتى النهاية. الطيور أعطيت الأجنحة كي تحلق في السماء والرجل أعطي العقل ليسمو به. لا بد وأن أحدهم يلقي نخباً هناك في المضافة، فلنطلب من كبيرنا أن يلقي علينا نخباً قديماً.

انفرجت أسارير الكبار وتطوع أكثرهم جرأة، عجوز تكسوه لحية بيضاء كثيفة، رفع القدح بيديه المرتعشتين:

- لا أدري إن كان صوتي الضعيف يصل إلى مسامع الجميع. ولكنني على كل حال لا أملك إلا هذا الصوت، ومن لا يملك ثوراً يقرن إلى النير عجلاً. حسناً فليساعدني بسه تحه الطيب، أتوجه إلى جميع من يشاركنا وجيراننا والضيوف القادمين من البعيد ، إليكم جميعاً أرفع النخب الذي رفعه في الماضي أجدادنا. ندعو أن يتوفر الحليب في منازلنا ويفيض كما يفيض ينبوع الجبل، وأن تكثر أقراص الجبن بحيث يكون حجم كل قرص بحجم إطار عجلة عربة تتارية ضخمة. أدعو أن يحظى كل فرد منكم على تسعة زوجات، وأن تحمل كل واحدة منهن الشراب المركز إلى الضيوف. ولتكن أصواتهن وديعة كالحملان، لا يطنون كالذباب، ولا يقعقعون كالبط أو يقاقون كالدجاج، وليلدن الأطفال بكثرة وليخدمن منازلهن كما تخدم الفرس الشبعانة سيدها. ندعوا أن تكون أغنامنا مكتنزة لحماً وذات أليات عظيمة، وأن تحمل كل غنمة بحملين، ولتتوفر لهم على الدوام الأعشاب الطرية. ندعوا على من يعارضنا أن ينتفخ بطنه كجرة فخارية، وأن ينفجر أعدائنا مثل الفقاعات. نرجوا أن يتحقق دعائنا.

أبدا الجميع حماساً وقاموا بالثناء على هذا التحمادا[1] الأثري، الذي أكد أحفاده الذين تقدموا في السن أن جدهم يذكر أن مياه

[1] - التحمادة – هو كبير القوم أو أكبر الموجودين سناً، وكذلك تطلق الزوجة لقب التحمادةعاى زوجها، تعبيراً عن الإحترام، وهذا جزء من العادات الشركسية.

آخين العظيم تجمدت وتحولت إلى جليد قاسي من الشاطئ إلى الشاطئ.
قام عجوز آخر برفع عقيرته وراح ينشد أغنية بطولية قديمة تتحدث عن مآثر الفرسان وعن نهاياتهم التي غالباً ما تنتهي بموتهم.

في لحظة الموت
موت نارتي مثلي.
سوف أضع رأسي على طرف السرير،
وأذكر قسم وموت وزرميس.
يقطر وزرميس دماً
وبطل التتار يسارع إليه،
يريد أن يعجل في موته.
لكن بطلنا
ينتزع السهم المغروز في جنبه،
ويوتر قوسه،
ويرمي السهم إلى قلب عدوه.
ثم يجر وزرميس جسده ويأخذ وضعية الموت.
ومع انبلاج الضوء الأبيض يرحل
وزرميس يشانوقة.

وتتوالى الأغاني ، واحدة إثر الأخرى:

هذا الرجل الذي سقط عن حصانه الأصيل،
كان خارجاً إلى البراري.
ومن فوق حصانه قاتل كالفرسان.
إنه توزار سارالب الشجاع،
اعتاد أن يقاتل حتى يتفتت رمحه
من قوة اصطدامه بدروع الأعداء.

أي.. من معي؟ ينادي
ويقذف بنفسه في قلب العدو
كناب ثعبان
يلدغ كل أعداءه.
من يهرب سنلبسه ثياب الجبناء.
ومن سيتأخر
فليجلس تحت ذيول النساء.

أعطت هذه الأغنية إشارة بدء الألعاب والمباريات حيث يتصارع الخيالة مع المشاة. الخيالة عليهم تجاوز السور العالي الذي يمثل القلعة التي يحميها المشاة المسلحون برماح خشبيةٍ، على حين تسلح الفرسان بالسياط.
كانت الأذرع والأرجل تتلقى اللسعات ولكن يحدث وفي فورة الحماس أن يبالغ أحدهم ويلوح بسلاحه يميناً ويساراً ليصيب أحدهم بجرح خطير. الفرسان يحاولون دفع المدافعين بخيولهم وهؤلاء يحاولون اقتلاع الفرسان عن أسرجتهم، ليصبحوا خارج اللعبة. أما شوت الذي تحدثنا عنه، فبعد أن انتهى من تناول طعامه ، استطاع أن يرمي أحد الفرسان من على جواده، قفز الحصان المذعور على قوائمه وانطلق إلى أقصى المرعى. أما الفارس فقد تبين أنه توتوك نفسه، نهض بصعوبة وجر نفسه مبتعداً وهو يعرج.
- ماذا أيها البطل - ضحك شوت بمرح - رائحة الشواء أم صوت الموسيقا.
ضحك توتوك بطيبة قلب وهو يحاول كتم ألمه:
- لا بأس ياصديقي الصغير فأمامنا مباريات أخرى، سيكون من الممتع أن نتقابل في سباق الخيل.
- هذا بعيد المنال أما إذا انقلبت المسابقة وامتطت الخيول الفرسان عندها ستكون لي فرصة الفوز.

- حقاً، عندها لن يهزمك أحد- وافقه توتوك.في الطرف الآخر من المرعى، التف الشبان حول عمود طويل دهن بالزيت، ثبت في أعلاه خشبة، علقت عليها مختلف الخردوات والهدايا، من خناجر وأحزمة نسائية فضية وأقداح. وفي قمة العمود حيث يتعذر الوصول، وضعت قبعة جلاخستانية من الفرو الرائع، حقاً لم يبخل الأمير كورغوقة هنا أيضاً.
تدافع الفتيان والشبان كل يريد الوصول إلى القبعة، لكن النجاح كان حسب المقدرة، وبقيت القبعة تنتظر طويلاً، وبين ضحك وانتقاد لاذع من جمهور المتفرجين راح المتسلقون يتزحلقون، ولكن في النهاية استطاع أحدهم أن يصل إلى القمة ويتناول بيده الملطخة بالرماد قبعة نسائية زينت بالخرز، ولم تسعفه قواه لحصد المزيد فانزلق إلى الأسفل خائراً ولكن غانماً. قدم الفتى غنيمته إلى فتاة كانت تراقبه، تناولت الهدية بابتسامة وتراجعت لتفسح المجال لباقي الفتيات، بسرعة اختفت جميع الهدايا المعلقة الخاصة بالنساء وبقيت جوائز الرجال والقبعة النفيسة التي لم تقهر.
من جهة منزل الأمير علا صوت حماسي:
- ايييييي... أيها القوم، استمعوا إلي جيداً .. لقد آن الأوان لكي نتعرف على أفضل من ارتدى البذة الشركسية وقضى الوقت على ظهر جواده أكثر مما أقام تحت سقف منزله. ستبدأ مباريات المبارزة والرماية وسباق الخيل والمصارعة.
أيها الناس أخلوا الساحة للمباريات الكريمة . إن كل من يمتلك حصاناً وسلاحاً يمكنه المشاركة في المسابقات وإن كان فلاحا بسيطاً. جائزة الفائز... الدرع الرومانية التي لا تثمن. هذا قرار الأمير الأكبر كورغوقه.
من بوابة المنزل خرج الفرسان، الواحد إثر الآخر حتى بلغ عددهم العشرين فارساً. يمتطون أروع الخيول الأصيلة، والتي يمكن سرد تسلسل نسبها حتى الجيل الرابع عشر. خيول صبورة مدربة مسبقاً ومجهزة لكل أنواع الاختبارات. كانت تأكل

الحبوب المختلفة والدريس لكن أصحابها لم يسمحوا لها باكتناز الشحوم أو إضعاف عضلة واحدة.
حمل الخدم مقعداً طويلاً إلى أعلى الرابية ليتثنى لكورغوقة وضيوفه من الأمراء وكذلك توزار الذي امتلك الحق في التواجد معهم كمربي ابن أمير الأمراء من متابعة المباريات. تم تجهيز المكان بالموائد التي حفلت بالطعام والشراب.
تميز قوباتي بسنه الصغير وبكتفيه العريضتين. كان جواده أسوداً مثل اسمه، دون أية علامة، يقف مسمراً دون حراك. لم تكن أسلحته براقة ومزينة كأسلحة رفاقه الفرسان، إلا أن العين الفاحصة تستطيع أن تلاحظ أن يداً ماهرة هي التي صنعت خنجر ابن الأمير وحسامه.
ودونما موعد وبينما الفرسان يجهزون أنفسهم، ظهرت خاديجة بينهم، راحت العجوز تنتقل بين الجياد برشاقة وهي تداعب جوانبهم، وبثقة كانت الجياد تمد برؤوسها إليها. تفحصت العجوز كل خيال وهي تقف أمامه مائلة بجذعها وملقية برأسها إلى الخلف، مثرثرة كديك لا يكف عن الصياح:
- يا إلهي متى دخلت إلى هنا؟ وماذا سيظن الناس، العجوز ستشارك في الرماية الغبية التي لا معنى لها. أوه أقسم بتحه أن المارماجيه عند حاتاجوقة ليست سيئة. كم أنتم رائعون، أما هذا - وأشارت بإصبعها إلى قوباتي - فهو أفضلكم. ألا ترون أن القبردينيات قادرات على ولادة مثل هؤلاء، أصدقكم القول كل أولاد الأمراء هؤلاء لا يقارنون به.
- أيتها العجوز - صاح أحدهم - أعتقد أن المارماجيه كان قوياً بحيث لم تتعرفي على ابن الأمير كورغوقة.
- أوي يا لمصيبتي !! - ولولت العجوز - لقد فقدت رشدي، كيف لم أدرك ذلك بسرعة؟ وعادت تشير بإصبعها إلى قوباتي - ابن أمير!!!!
في هذا الوقت دوى صوت جهوري يعلن عن جاهزية الميدان و يمكن البدء بالتنافس على صلابة اليد وحدة النظر.

حملت مسابقات الرماية بالأسلحة النارية والسهام طابعاً أديغياً، فعلى الأعمدة العالية ثبتت حلقات لا تتجاوز أقطارها نعل الفرس، وكان على الفارس أن ينطلق بجواده بأقصى سرعة، ثم أن ينحني إلى أسفل عفرة جواده مثبتاً نفسه على سرج حصانه بواسطة قدمه اليسرى فقط، وعلى هذه الوضعية عليه أن يوتر قوسه ويرمي رميته باتجاه الحلقة المحددة.

ترافقت الرمايات مع ضجيج الجمهور الذي دب فيه الحماس، ليس لتلك السهام التي أصابت أهدافها فقط، بل ولتلك التي ابتعدت عن أهدافها. اثنان فقط من المجموعة تمكنا من إرسال سهميهما إلى داخل الحلقة، قوباتي وتابع كورغوقة توتوك الذي هلل له صديقه شوت كثيراً. أما في مسابقات الرماية بالأسلحة النارية، لم يستطع توتوك مجاراة قوباتي. فرغم كونه فلاحاً سيد نفسه، إلا أنه لم يستطع اقتناء سلاح جيد. لقد شعر قوباتي بتأنيب الضمير مقرراً إهداء الشاب بندقية ممتازة. أما الآن وبعد أن أصاب من على مسافة مائة خطوة يقطينة صغيرة، طلب استبدال الهدف ببيضة دجاجة. شحن قوباتي بندقية توزار الشهيرة التي أصبحت له. كان واثقاً من نفسه ومن أن بندقيته لن تخذله، إذ استخدم تلك النوعية من البارود (طبعاً النوعية الأفضل). فقط عليه الانتباه الشديد للكمية المستعملة للشحن، ثم لا يجب التنويع في الرصاص المستعمل. لقد أتبع قوباتي تلك التعليمات بدقة.

لم يصدق أحد من الحاضرين أن البندقية تمتلك تلك الدقة في الرماية. إن جميع الأسلحة، روسية كانت أم قبردينية أو تركية لها دقة تصويب تقريبية، إذ يكفي أن تجرح ساق الخصم أو الطريدة من مسافة خمسين خطوة. ولكن قوباتي يريد إنجاز ما لم ينجز، فها هو يسدد واقفاً على الأرض مسنداً ماسورة البندقية على محراث. سكتت الجماهير حتى بدت وكأنها انقطعت عن التنفس. دوى الطلق الناري وتحول الهدف الأبيض الصغير الذي لم يتوقع أحد إصابته إلى نتف صفراء. شهق الجميع وكأنهم تلقوا

إيعازاً بذلك، وراحوا ينظرون إلى بعضهم البعض وهم يهزون رؤوسهم غير مصدقين ما رأته أعينهم.
دوت أصوات طلقات صوبت نحو اليقطينة إلا أن اثنان فقط من النبلاء تمكنا من تحقيق الإصابة أرزامس اقارت وأباشه سلطان علي (بالمناسبة كان هذان النبيلان من ضمن الوفد الذي توجه إلى بيتربورغ).
عندما بدأ سباق الخيل، لم يشك أحد في فوز قوباتي. ولكن شوت الطويل راح يشجع ويوقد الحماس القتالي في صدر صديقه توتوك:
- قد لا نفسح المجال لهذا النبيل آ..؟ إنك خفيف وجوادك سيحملك كريشة خفيفة.
- لا يا صغيري- أجاب توتوك بحزن - طبعاً سوف أشارك في السباق، وأريد أن أرى هذا الفتى الجميل الذي سقط علينا من القمر، والذي لا يمكن قهره الآن.
لم يكن حصان صديقنا بالمستوى المطلوب، وهو لم يجد الوقت الكافي لكي يتدرب. كان على المتسابقين الوصول إلى شجرة البلوط الباسقة التي كانت تشاهد بوضوح من الطرف الآخر للسهل. وعلى كل واحد منهم اقتطاع غصن منها والعودة إلى نقطة الانطلاق. والفائز هو من يسلم الغصن إلى كبير محكمي المباريات الجالس إلى جانب كورغوقة أولاً. النبيل العجوز ذو اللحية البيضاء اينال فقوه. (رفض كورغوقة هذا الشرف، فمن غير اللائق أن يحكم على قدرات ابنه).
دوى طلق ناري لينطلق أربعون فارساً إلى السهل كالرماح. تصدر توتوك مقدمة هذا الحشد الفوضوي من الفرسان تلاه مباشرة قوباتي، ومن خلفهم كان النبلاء المتحمسون والطامعون بالفوز يلهثون وقد تلطخوا بالطين المتطاير من سنابك الخيل، وتحولت أرديتهم الجميلة البراقة إلى ألبسة باهتة زاد عليها الرذاذ المطري الذي لم يكن راغباً بالتوقف وإنما على العكس كان يزداد إصراراً وقوة. لم يكن أحد ليعلم نتيجة المباراة، ولا

كيف سينتهي ذلك النهار. وما كان أحد يعلم أن الدرع الشهير في ذلك الوقت لم يعد موجوداً في منزل حاتاجوقة. فهذا الشيء الذي لا يثمن ضاع. وفقد مرة أخرى. وكم من مرة ضاع هذا الشيء.؟؟

كلمة المراقب المتأمل

في السادس عشر من صيف أيار عام ١٧٠٣ ظهرت على جزيرة في نهر نيفا قلعة حملت اسم سانكت- بطرسبرغ.
بسرعة وكما ينمو الفطر بعد مطر خفيف دافئ، ظهرت جدران سور خشبية اصطفت من جذوع الأشجار، وارتفعت ستة حصون مع منزل للقيصر بطرس ومربض للسفن، كما انتشرت الثكنات العسكرية فيها.
هكذا ولدت عاصمة جديدة فتية لدولة شابة صارمة، كتب لها أن تكون من أندر العواصم في العالم، التي لم يستطع معتد أوغاز على احتلالها ولو ليوم واحد.
كان الشاب الثلاثيني طويل القامة يتجول في جزيرته وهو ينادي مصدراً أوامره بصوته الأجش، محتدماً غيظاً، وعيونه اللامعة الجاحظة تلمع بجنون. كان يسارع إلى تناول مطرقة الحداد تارة ويشغل نفسه بالفأس تارة أخرى، وغالباً ماكان يشاهد وهو يتمشى جيئة وذهاباً على الشاطئ خلف مرابض سفنه صامتاً وهو يفكر، أو يتذكر، أو ربما يحلم بشيء ما.
إن تعزيز قدرات روسيا لم تكلف جهداً قليلاً، ومازال أمامها الكثير من الجهد، وسواء كانت هذه الجهود صالحة أو شريرة إلا أنها كانت جهود جبارة وثقيلة.
كانت حملة آزوف عام ١٦٩٦ أول أمجاد القيصر الشاب. فبعد احتلاله للقلاع أصبح الطريق مفتوحاً أمامه في النهاية إلى البحار الجنوبية.
قبل ثلاثة أعوام مضت وصل إلى كيريتش نفسها بواسطة أول عشر سفن كان قد بناها في فارونج. على إحدى هذه السفن قاد الأوكراني سفارة بطرس إلى استانبول، أما بطرس نفسه فقد عاد إلى آزوف ومن ثم إلى موسكو. هز ظهور الأسطول الروسي

المفاجئ في البوسفور الأتراك الذين وقع معهم بعد سنة اتفاقية سلام لمدة ثلاثين عاماً.
في السنوات العشر اللاحقة كانت انتصاراته أكثر أهمية، وصل إلى النروج وأخذ ديربت، وانهارت أمامه عظمة السويد في معركة بلتافا، واحتل ريغا وفيبورغ، ثم انتصار الأسطول الروسي اللامع في غانغوتا.
استمر تعزيز التحصينات ومضاعفة قدرات الدولة. لكن هذه التحصينات وزيادة قدرة الدولة كانت تضغط أكثر فأكثر وبألم وبلا رحمة على أكتاف الفلاحين الروس. كان التعامل معهم يتم بالصراخ تارة وعند الحاجة يتم استخدام السيوف. لقد كان الفلاحون هم من هتف، وهم من بنى تلك الحصون، وهم من حطمها، وهم من أطعم الدولة وقدموا لها عظمتها مقدمين حياتهم من أجلها.
عام ١٧٠٥ – ١٧٠٦ اندلعت انتفاضة الجنود والرماة في استرخان شاغلين المناطق الجنوبية للفولغا وشواطئ بحر قزوين. من مدن غوري وحتى بترسكي. بالكاد تم إطفاء هذا الحريق، ليشتعل حريق آخر أكثر هولاً. انتفاضة الفلاحين القازاق بقيادة كوندراتي بولافين والزعيم نيكيتا غولوي. امتدت هذه الانتفاضة حتى حدود فارونج والفولغا مروراً بساريسن وساراتوف، وقد هزت تامبوف وبينزا. تم التعامل مع المتمردين بوحشية. وكان على الآلاف من هؤلاء أن يقدموا رؤوسهم للقطع على يد الجلاد.
نعم... لم تكن الهموم الثقيلة الكبيرة التي رزح تحتها القيصر الأبيض كل يوم بالقليلة. لقد كان حلها يتطلب منه يد قاسية حازمة، وفي كل مكان. لقد وصل بطرس إلى كل مكان، لكنه لم يصل إلى أولئك المساكين الأقرباء في شمال القفقاس الذين انتظروا منه الحماية والعون.
في ذلك الوقت تقريباً كانت تفاحة نيوتن تسقط إلى الأرض، التقطها العالم الإنكليزي ليضع قانون الجاذبية العام. لكن القانون

لم يزد الناس دفئاً ولا برداً. لقد كان هناك قانون جاذبية آخر مس كيانهم، قانون الإنجذاب العالمي للقوى العظمى إلى الأراضي الطيبة التي يمتلكها الطيبون الآخرون.
على اليابسة، وفي البحر. وعلى شواطئ أوروبا وشواطئ أمريكا، اندلعت الحروب لتصفية المستعمرات الإسبانية، وفي روسيا وعلى تخوم الأراضي القريبة منها استمرت الحرب الشمالية لمدة أطول. وفي هذه البلدان كان الناس يطلقون النيران ويطعنون ويحرقون ويقطعون ويسرقون. وفي البلدان التي لم تشارك في هذا الشجار، كان الناس يشحذون أنصال الخناجر ويخزنون البارود وهم يراقبون بكل انتباه جيرانهم المتصارعين. من منهم سوف ينزف دمه أولاً؟ ومن تلك التي ستفقد قبضته قوة التمسك بخيرات بلاده وثرواتها.
عموماً كانت نظرة السلطان التركي إلى القفقاس أكثر من نظرة مهتمة... لقد كانت نظرة طامحة مشتهية.

الخبر الخامس عشر

قبل أن تهدي وبر الدب إلى فتاتك، اسلخ جلد الدب أولاً.

مرت أيام تموز الحارة الجافة بسرعة دون أن تلحظ، ورغم أن الأيام التي تلتها حملت قيظها، إلا أنها كانت أكثر لطفاً وراحة للجسد والروح معاً. فأيام الحصاد الشفافة جاءت بثغاء الغزلان.
في مثل هذا الوقت من العام وعلى سفوح الجبال والهضاب الرعوية المتدرجة، والسهول المنبسطة، يسود صمت مطمئن. وتبدو أوراق الأشجار وكأنها سكنت لتغرق في التفكير، وتتعلق غيوم منتصف النهار في السماء دون حراك. حتى العصافير تحد من نشاطها وتحاول أن تزقزق بهمس. والأنهار تبطئ من تدفق مياهها، حتى يكاد يسمع لها الخرير. الأرض كلها، حيث امتدت يد الفلاح، وحيث قامت الطبيعة نفسها بغرس النباتات البرية والغابات العذراء، تبدو وكأنها تعي بأنها تمتلك قلباً وضميراً كما هو عند بني البشر. وأن هذا الضمير يشرق بنور كريستالي ناصع، يسكن له القلب دعة وسلاماً.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

سار قوباتي و كورغوقة متمهلين بين النهر والسهل المؤدي إلى الغابة حيث انتهت مؤخراً أعمال الحصادين. فموسم هذا العام فاض بالخير. كان المزارعون الأحرار قد ضمنوا الأرض الأميرية لذلك تضافرت جهودهم وعملوا بروح الجماعة، متنقلين من حقل إلى حقل. البعض عمل في الحصاد والبعض جلب الماء وآخرون جمعوا الحطب ومنهم من راح يعد الطعام. و في نهاية الحقل نصب سرادق ضخم قامت على خدمته (سيدة الدخن).

يعتبر آخر أيام الحصاد عيداً فلاحياً. فيه تعلو الأغاني ويتحمس الراقصون، و يتنافس الشباب على الجسارة، ويكثر الدعاء للأرباب. في مثل هذا اليوم ترتفع الابتهالات إلى الإله (تحه غلدج) رب النبات والعمل الزراعي . أما الآن فإن المرأة التي نالت شرف اختيارها سيدة الدخن راحت تخبز(الكرجين) المقدس من طحين الموسم الجديد، بمقلاة واسعة بلغ حجمها حجم عجلة عربة. وسعى الجميع للحصول على قطعة من هذا الرغيف. كان الجميع يعمل بحماس ومرح وكأن الموضوع هي لعبة ما وليس عملاً جاداً يقومون به.

بعضهم تعرف على كورغوقة ، وهذا الأخير لوح لهم بيده محيياً. إنهم مدهشون هؤلاء القبردينيون، إنهم يعلمون تماماً أنهم عرضة للهجوم بين عشية وضحاها، ويدركون أن ناقوس الخطر سوف يدق ليتركوا خلفهم طعامهم ومتاعهم وليقودوا زوجاتهم وأطفالهم ومواشيهم إلى الجبال الصعبة المنال. وهاهم الآن راضون تماماً بما رسمه القدر لأنهم وعند المساء سيطلقون أساريرهم ويفرجون عنها، وسيمرحون بكل جوارحهم.

التفت كورغوقة واسترق نظرة إلى ابنه الذي سار إلى يساره متخلفاً عنه قليلاً، إنه شاب رائع ، لا تنقصه القوة والرجولة ورجاحة العقل والتربية الحسنة. إن أحداً من كبار السن لم يتذكر من هو ند لهذا الفتى، الشيء الوحيد الذي كان يقلق كورغوقة هو انطواء الصبي على نفسه. لا بد وأنه يخفي أمراً غريباً لم يفهمه.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لقد كان الشعور متبادلاً ، فقوباتي بدوره كان يحس ببرودة أحاسيس والده تجاهه، كان يراه وهو يتباسط مع الآخرين، يتضاحك ويتمازح معهم. هل كان عليهما حقاً أن يقوما معاً بنزهة اليوم؟ إن الأمير يحمل من الهموم ما يحمل وكأنه واقع

في كأس مليئة بالشوك، لقد كان يصعب انتزاع كلمة منه. صحيح أن نظراته إليه كانت تحمل الطيبة ولكنها كانت نظرات نادرة جداً. إنه لا يستطيع أن يكسر هذا الحاجز بينهما ليبادره بالحديث.
تذكر السباق الأخير عندما مرا بالقرب من الشجرة التي كان قوباتي ثاني الواصلين إليها ليقطع منها غصناً يعود به إلى نقطة النهاية. أما ذلك الرجل الذي سبق قوباتي فإنه ذات الرجل الذي رمى رميته الصائبة بسهمه. لقد تمكن قوباتي من تجاوزه في طريق العودة، على حين تأخر الفرسان الآخرون عنهما كثيراً. لا بد وأن توتوك شاب رائع، تعرف قوباتي على اسمه. لقد كافئ توتوك نفسه فيما بعد معوضاً ما فاته في السباق. إذ قام بتسديدة صائبة، وأصاب بسهمه الحزام الذي ثبتت عليه القبعة الجلاخستانية التي لم يتمكن أحد من قهرها. ومن ثم ومن غير أن يترجل عن صهوة جواده التقط القبعة من على الأرض، بين تشجيع وتهليل الجمهور له، وطار بها إلى منزله حيث ارتدى ملابس جديدة وعاد إلى حيث تصدح الموسيقا وألحان الوج والقافة الجذابة. وهناك توجهت الفتيات إليه، ترمقنه بنظراتهن الساحرة، وكل منهن تتمنى لو أنه يشاركها الرقص.
إلى ذلك المكان حيث احتل كورغوقة وعلية القوم أماكنهم، نودي على الفتى قوباتي وعلى بقية الفرسان. نهض كبير المحكمين الذي حمل أسماً نادراً قارابين قاره وأعلن أن الدرع الذي لا مثيل له في كل بلاد القبردي وحتى في الأناضول، أصبح ملكاً لابن كورغوقة، ولورثته من بعده ولا يحق لأحد أن ينازعه في ملكيته هذه.
- وليعلم الجميع هذا، حتى أولئك الذين يقتلون الكلاب في مياه شربهم، والذين يسرقون الزوجات من بيوت أزواجهم.
أدرك الجميع أن هذه إشارة وجهت إلى عليغوكة شوجنوقة، فهزوا رؤوسهم موافقين. أما جانبولات الذي لم يكن بعيداً عن منصة التحكيم فقد تنفس الصعداء، و وافق شوت بسعادة على

نتيجة التحكيم وهو يمد يده إلى القدر الضخم الذي مازالت تسبح فيه قطع اللحم. اقترب منه توتوك الذي أصابه الإعياء من جراء السباق والرقص:
- لا تأكل وحدك دون أن تقاسم أحداً كما يفعل عادة أمير النوغاي.
- آ....آ... أنت أيها النارتي الند لساوسروقة[١]، هل جئت لتسرق النار من ذلك الموقد؟ نحن هنا سنشوي حصتنا وسنقلي اللحم.
- أوخ يا عصفوري.... هل من المعقول أنك لم تنفجر بعد؟
- أرد عليك قائلاً، من السهولة معالجة معاناة المعدة ومن الصعوبة معالجة معاناة القلب. ومع ذلك إن سعادة المعدة لا تدوم طويلاً.
- انظر..... ماذا يحصل هناك؟
كان أحد الذين ذهبوا إلى المضافة لإحضار الدرع يصيح:
- الدرع ضاااااع ....
تدافع الجمهور وتزاحم باتجاه المنزل.
- سرقوه!!!! سرقووووه.
لم يتحرك حاتاجوقة الأب والابن من مكانيهما، كذلك قارابين قارة، و جانبولات الذي شعر باللوعة والسخط رغم أن هذا لم يظهر عليه. أحس كورغوقة بالمهانة، أما قارابين فقد كان متوقداً بحماس لا يتناسب مع عمره.
- إنه لأمر خطير، يجب أن نوضح المسألة هل هي يد إنسانية تلك التي امتدت إلى الدرع أم أنه عمل قوى خفية؟ إذا كان أحدهم سرق الدرع فيجب أن نرمي بشريان ذئب في النار. في هذه الحالة سوف تلتوي يد السارق. ولكننا لن نعرفه لأنه سوف يكون متوارياً عن الأنظار، وقد يكون بعيداً، ثم من أين نأتي

[١] - ساوسروقة بطل الملاحم الشركسية ،أمه سيدة النارتيين ستناي غواشه. ولد من رحم الحجر الملتهب.

بشريان ذئب؟ أوه هذه الساحرة العجوز خاديجة قادمة وقد يكون عندها شر...

- أوخ قاره - ضحكت خاديجة - فلتبحث عن الساحرة داخل منزلك، لو كان لي مثل عمرك لاستمعت إلى صوت الحكمة، ولكني أخاف على أذناي فقد لا تحتملان هذا الصوت.

- إذا كنت تشعرين بألم في الأذنين ما عليك إلا أن تبصقي كل صباح لمدة ثلاثة أيام وعلى الريق عبر عتبة دارك وأنت تضعين إبهامك بين أسنانك.

- ابصق أنت، سوف تصيبني بالحمى.

- الحمى، بسيطة ... ارم نفسك في الماء وأنت بكامل لباسك تتعافين.

التفتت خاديجة إلى كورغوقة:

- اسمع يا أمير، إنني أعلم ما لا يعلمه الآخرون رغم أنني لست بساحرة كما يرددون. أنا أعلم عن خصائص الأعشاب المختلفة وأعلم عن طبيعة الأمراض البشرية التي يمكن أن تصيب أي شخص. وهذه هي أسراري، ولكن هناك بعض الأسرار لا تذاع وبعضها سوف يموت معي خاصة ما يتعلق بك يا كورغوقة. أوخ لقد ابتعدت عن طريقي، ويجب أن أكون أكثر حرصاً في كلامي. إذاً اسمع: الدرع سرق بالطبع. وسارقه أحد أذناب شوجنوقة. ولا يجب أن تشك للحظة في هذه الحقيقة. هذا كل شيء.

- أعتقد أن هذه المرأة قد صدقت - قال توزار.

- وأنا أعتقد ذلك. ولكن كيف عرفت هي ذلك؟ - أجاب كورغوقة.

- أنا أعرف الناس - أعلنت خاديجة.

- إنني واثق أنها على حق - أكد جانبولات.

- لا ... استمعوا إلي - قال قارابين.

- الحمد لله، استمعت واكتفيت - أشاحت خاديجة بيدها - لقد نصحتني بحيث أصبحت مدينة لك بهدية. أنصحك يا قارابين بأن

تشرب منقوع جذر الأنديز فهذا يساعد في حالات الإسهال وسوف يساعدك على الاحتفاظ بكلماتك، ثم لا تبول على الصخور الجرداء.
ابتسمت العجوز بترحاب لقوباتي وحدجت باقي الرجال بنظرة استخفاف، وابتعدت بكبرياء. تبادل حاتاجوقة وتوزار النظر ثم أشاحا بوجهيهما وهما يكتمان ضحكتيهما.
أسرع الجميع إلى داخل الدار فلقد بدأ المطر. وفي كل الأحوال آن أوان الجلوس خلف المائدة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

تجاوز آل حاتاجوقة الحقل الذي انتهى حصاده بتمهل متجهين إلى الضيعة، حيث يهب من هناك نسيم يحمل معه رائحة القرع المغلي الشهي.
في كل عام في مثل هذا الوقت من السنة، تقوم النساء بتحضير هذا النوع من المأكولات اللذيذة لتخزينها.
الذباب يحوم حول وجوه الخيل دون أن يتجرأ على مسها، فالحيوانات مسحت جلودها بمنقوع قشر الجوز الإغريقي الأخضر. وحصان كورغوقة الكبير كان يدرك أن سيده الساهم يسبح في تأمله بعيداً عن الطريق الذي يسلكه الآن، بعيداً عن المرج الذي يغطيه العشب الطري الكثيف. انعطف باتجاه الهضبة الخضراء، وتوقف. حذا جواد قوباتي حذوه. أرخا الأب وابنه العنان لجواديهما ليتسكعا دون قيادة.
- ألم تسأم من المنزل؟ - سأل كورغوقة ابنه بغتة دون أن ينظر إليه.
ارتبك قوباتي قليلاً، لكنه أجاب دون تردد:
- لا.. إن كل شيء رائع.
- لكن الهدوء ثقيل.
- أحياناً يجب أن يقدر الإنسان حتى الهدوء.

نظر كورغوقة إلى الفتى بتمعن:
- صدقت، رغم أنك لا تدرك حجم الصدق الذي تحمله كلماتك - شدد على كلمة الحجم - رغم أن حظك من المغامرات والمخاطر لم يكن قليلاً، إلا أن نصيباً كبيراً ينتظرنا جميعاً.
- إنني أشعر بهذا.
تجرأ الفتى وأعلن ذلك ولكن كورغوقة لم ينتبه إلى أن ابنه أجاب دون أن يُسأل.
- لايفكر أمثالك ومن في سنك بمخاطر المستقبل، إنهم ينسون مشاكلهم حالما يستيقظون في الصباح. أما أنت فقد أصابك أرق التفكير الدائم ، أنت تفكر بعمق تارة، وتشرد تارة أخرى. أنت ساهم في مسألة تقف الشجاعة والسلاح والبطولة عاجزين أمامها.
اصفر وجه قوباتي، وتوقف شيء في حنجرته أعاق تنفسه:
- أنا...أنا لم أفهم تماماً....
- أنت تفهم - أجاب كورغوقة بثقة - لا بد وأن أديوك[1] جميلة ذات عيون كالحملان ولدت هناك على شاطئ نهر شيغم.

ارتسم وجه سانا أمام كورغوقة، ولم يدر لماذا أزعجه ذلك. كأن أحدهم حمل إليه أمراً مكرباً. أما قوباتي فكان كل ما يريده أن لا يفتح هذا الموضوع. إذ أن أحداً لا يعرف ما تحمله الأيام القادمة، وخاصة أن المعركة مع التتار وشيكة. لكن كيف له أن يتخلص الآن من الإجابة على والده. استجمع الشاب كل دهائه دون أن يجد الجواب المناسب للتملص من الحقيقة. إنه لا يريد أن يكذب، ولكنه لا يريد أيضاً أن يصارح أباه. ومن حيث لا يتوقع جاءه الفرج، كان أحدهم يحث جواده الذي بدا أنه يعاني الإرهاق،

---

[1] - أديوك – شخصية ضرب بها المثل في الجمال، وهي إحدى أبطال الأسطورة الشركسية.

ويسرع بأقصى طاقته. على الأغلب كان يبحث عن حاتاجوقة الكبير.

- أخبروني أن الأمير كورغوقة وابنه يتنزهان في هذه الأرجاء، لم أتوقف لقد أتيت مباشرة إلى هنا.
كان الفارس يصيح ببحة في صوته، حتى أنه نسي إلقاء السلام. كان يتكلم القبردينية بلكنة تتارية واضحة، بل ويمكنك الاستنتاج أنه تتاري من بدانته الظاهرة. تعرف قوباتي على أحد معارفه القدامى خليلي، ولكن هذا آثر أن يكتم معرفته به. لم يفاجأ الفتى فلقد تذكر أن الصديق التتاري كان يتبع قاعدة حكيمة تقول: لا تندفع إلى إظهار ما عندك إذا لم يكن هناك ضرورة لذلك. كانت أعوام طويلة قد مرت لم ير فيها كورغوقة سائسه القديم، ولم تخنه الذاكرة.
- أية ريح طيبة أتت بك إلى ربوعنا يا خليلي.
ابتسم كورغوقة بطيبة قلب ولكنه كان قد أحس بيد ثقيلة تقبض على قلبه.
- ليست رياحاً طيبة يا أمير...ليست طيبة وإنما رياح شريرة - هز خليلي رأسه بأسف - إن قبلان غيري الآن على الشاطئ القفقاسي.
- متى يتقدم بقواته؟ - سأل كورغوقة بلهجة عملية.
- إنهم يتقدمون، ولكن ببطء.
- هل هم قرميون فقط؟
- من القرم ومعهم مجموعات كبيرة من الناغوي، وهم اليوم لا يحسبون حساباً للشابسوغ والوبخ ولا لإخوتكم الآخرين، إنهم ثلاثون ألف مقاتل.
- ثلاثون ألف - رد كورغوقة بتعب - يبدو أنهم قرروا أن يستنزفوننا مرة وإلى الأبد حتى لا تقام لنا قائمة أبداً.
- نعم وهذا ما يريده السلطان العثماني.
- وأنت يا خليلي الطيب ، لماذا أتيت لتحذرنا؟

- إنها حرب شريرة، لا تسأل أيها النبيل.
- حسناً إلى أين ستتوجه الآن؟
- إلى البعيد.. إلى الجبال . سوف أذهب إلى البلقر، سأعيش بينهم هناك - كان خليلي يتنفس بصعوبة.
- حسناً سوف تأخذ خمسين رأساً من الغنم من عندي.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

في ذلك اليوم تفرق رسل حاتاجوقة في طرقات القبردي المختلفة، يحملون رسائل حاكم القبردي التي تدعو فيها كل من يعتبر نفسه أديغياً ويستطيع حمل السلاح إلى التجمع العاجل.
كان سرور قوباتي لا يوصف عندما أرسله كورغوقة إلى مربيه ليجمع الرجال بقدر ما يستطيع، وليعرج في طريقه على قازانوقة ثم صاح في إثره:
- لا تظن أن حصانك مجنحاً، لا تقوده كطائر يطير بجناحيه.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان جانبولات سعيداً لعودته إلى منزل يموز. فهنا يستطيع أن يتمتع بحقوق رب الأسرة، ولما كانت العائلة التي استضافت جانبولات أثناء مرضه قد حلت عليهم ضيفاً، لذا لم يكن عليه أن يقلق على شرف النساء من القيل والقال.
أكثر ما أبهج جانبولات هو وضعه الجديد، فيده لم تعد فارغة بعد أن أجزل كورغوقة له العطاء، مائة رأس من الغنم وثلاثة أزواج من ثيران الناغوي ومهر أصيل ومسدس بمفتاح حلقي وسيف تركي ذو حدين من أفضل أنواع السيوف، وأخيراً خادم أربعيني قادر على الاعتناء بالحيوانات بمهارة.
نظر الضيوف الكبار إلى أنفسهم غير مصدقين عندما أعلن كورغوقة خلال احتفال تكريم جانبولات، أن تربية الابن قامت

بتصفية حساب الدم بينهما. كان رأي الأمير تجاوز الماضي ونسيان الأحقاد والخلافات. أما توزار فقد كان سروره بإعادة الإعتبار له أكبر بكثير من تحوله من جديد إلى ملاك. ويبدو أن المياه النظيفة قد غسلت الإفتراءات القذرة. وانتهت حياة الخطر والشعور بالمهانة الذي لم يكن يستحقه والذي كان يعاني منه جانبولات.
آن الأوان ليفكر بحياته من جديد، بحيث لا تكون أسوأ من حياة الآخرين. كان يفكر ببعث رماد والده من جديد، ولكنه لن يستطيع أن يحدد مصيره الآن وهل ستكتب له النجاة بعد المعركة المرتقبة مع التتار. هذا شيء لا يجب تجاهله، إن القدر لا يكشف أوراقه فمصيره بل ومصير الوطن مجهول. كان يسترسل في أحلامه ويضع نفسه في أشد الأماكن سخونة في أرض المعركة حتى أنه خجل من نفسه في استرساله الساذج والبعيد عن أرض الواقع هذا، لكنه لم يقاوم إحساسه ببهجة الأيام السعيدة المقبلة.
كانت تصرفات الناس المحيطين به تزيد من حيرته، فلا أحد منهم قام بإعادة النظر في أسلوب حياته بما يتناسب والظروف المستجدة لما قبل الحرب المنتظرة. الفلاحون حددوا الأراضي التي عليهم أن يحرثوها في الربيع، وتلك التي سترتاح في السنتين أو الثلاثة القادمة. رؤوس العائلات تفاوضت على مهور الفتيات، ولم يتم تأجيل حفلات الزفاف المقررة. وكبار السن رأوا أن الصقيع سوف يبكر في القدوم هذا العام لهذا من المستحسن الإسراع بغرس شتلات العنب، وجمع الثمار البرية.
" لماذا هذا الاستخفاف - سأل جانبولات نفسه - أي شعب هم هؤلاء الناس، إنهم تحت ضغط الظروف الراهنة يحافظون على هدوئهم وإيمانهم بالمستقبل المشرق."
بعد هذا التأمل قرر جانبولات أن يتكلم من جديد مع نالجان.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

بالكاد كانت الشمس قد أشرقت، وفي مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح تكون الثمار الساكنة الضاربة إلى الزرقة مغطاة بقطرات الندى الصغيرة. جمعت نالجان ثمار الخوخ اليانعة التي اقتطفتها في صندوق خشبي كبير.
- تبدو لذيذة مع ندى الصباح - قالها جانبولات محملاً صوته الجهوري ما يستطيع أن يستوعبه من الهدوء.
لم ترتعد نالجان ولكنها تجمدت في مكانها للحظة لتلتفت بهدوء.
- لم أسمعك تقترب، عندما يريدون اختطاف فتاة يفاجئونها بهذه الطريقة.
- لا يا أميش العزيزة لست أنا... بل أنت التي اختطفتني.
توردت خدود نالجان.
- ماذا تقول يا بن توزار؟ لا تطرح علي ألغازاً تفوق قدراتي العقلية. من الأفضل أن تتناول خوخة.
- الخوخة الواحدة من بين يديك قليل - قالها وهو يتصنع الحزن.
- حسناً خذ خوختين، أو خذ ثلاثة.
- لست بحاجة إلى الخوخ.
"كيف أبدأ الحديث؟ حقاً لقد صدق من قال أن العمل الذي لم يبدأ، تكمن فيه الأفعى "- فكر وقد أصابته الرهبة الباردة.
- حسناً، وماذا تريد؟ - حاولت نالجان أن تجنبه الإرتباك - أتريد تفاحاً؟ أم أنك تريد أجاصاً؟ ربما تريد الحقل كله؟
- ليس الحقل ما أريده، بل سيدة الحقل.
قالها جانبولات فجأة دون تردد، حتى أنه هو نفسه تعجب.
لم تفاجئ كلمات جانبولات نالجان. فهي كانت تعلم أنه آجلاً أم عاجلاً سوف تسمع منه هذا الإقرار.
- أنت بالنسبة لي يا نارتي العزيز نجم القطب في الليالي، لا أريد أن أعرف أحداً آخر غيرك، ولا عيناي تريدان رؤية غيرك. أعلم أن قلبك يسعى إلى قلبي. ولكن ماذا بعد؟ إن المنبت يفرق بيننا. نحن لا نصلح لبعض.

- استمعي إلي يا سيدة الحقل - كان جانبولات شاحباً ومضطرباً، لكن حديثه بدا متماسكاً - ليقدر الناس أوزان بعضهم بطبقاتهم، أما أنا فلا أريد لنفسي زوجة غيرك. هذا كل شيء. يمكنك الآن أن تفكري.

* *

في ذلك اليوم عند صلاة العشاء، شاهد جانبولات فارساً على جواد أسود يرمح عبر الجسر. عرف فيه مباشرة قوباتي. أسرع لاستقبال ربيبه الذي كان يستقبله للمرة الأولى كضيف. أوقف جانبولات سانا قرب المدخل.
- احزري هذا اللغز. ما هو الشيء الذي له ستة أقدام وأربعة عيون وأربعة آذان و ذيل واحد؟
- هذا لغز للأطفال - ضحكت الفتاة - هذا رجل على حصان طبعاً.
- وإذا كانت إحدى الآذان الأربعة مخدوشة برصاصة.
تجمدت سانا مثل عمود. ثم تقهقرت بتمهل إلى داخل المنزل لتدخل مخدع النساء وترتمي على السرير دافنة رأسها في الوسادة.
بدا كوانتشه المتحمس الدائم أسعد الجميع بقدوم الضيف، ولم ير حرجاً في إظهار مشاعره.
من الطبيعي أن يسر جانبولات ونالجان، لكنهما كانا قلقين، إذ من السابق لأوانه أن يزور الربيب مربيه ولم تمر إلا أيام عدة منذ أن افترقا. إن لقدومه سبباً. لم يتركهما قوباتي ينتظران بل شرح سبب زيارته دون تلكؤ.
حتى المساء كان الرجال قد قلبوا الأمر وأعدوا العدة. نظفوا أسلحتهم وشحذوها، تفقدوا عتاد الجياد والأمتعة، الملح في مكانه في علبة العظم، وفي الكيس الجلدي الخاص، مخرز وشفرة، وزيت ومسن مع حجر من الصوان. تحت الغطاء اللبادي

توضعت الأسلحة، في كل جعبة ثلاثون سهماً كالعادة. لم ينسوا الأحزمة الرابطة للجياد ومخازن البارود ومساند السروج والكؤوس الجلدية. وكذلك قطع الأقمشة البيضاء النظيفة لوقف النزف في حال تطلب الأمر.

كان لدى النساء ما يكفيهن من العمل. قمن بتحضير اللحوم المقددة، وملأن الأكياس بالطحين، وجهزن الباسته والجبن.

عندما أخذت سانا الدورق وخرجت لجلب الماء كان قوباتي يقوم بالحراسة. ودون أن يلاحظه أحد خرج وانزلق إلى ضفة النهر لينتصب أمام الفتاة مثل مهاجم أوقع فريسته في كمين.

- لا تخافي هذا أنا!

- لست خائفة.

- هل تتزوجينني؟ تعلمين إلى أين أنا ذاهب؟

- أعلم.

- لم أطلب الإجابة على السؤال الثاني.

- الأفضل أن لا تسألني عن شيء.

- لماذا؟

- اسأل والدك.

- أفهم ذلك! من الطبيعي أن أسأله، ومن المستحسن أن تسير الأمور بشكل حسن. ولكن أريدك أن تعلمي، مهما كان جواب والدي فإنني مقدم على ما عزمت عليه.

- ألا يهمك ردي.

- أنت رفضت الإجابة والآن....

- ليس الآن ولكن عندما تعود.

- أنا عائد بالتأكيد. هل تتمنين عدم عودتي؟

ضحكت سانا.

- لست قاسية وأملك ضميراً، ولست عدوة تتمنى هلاكك.

ضحك قوباتي بدوره من غير حماس.

- رغم أن كلماتك هذه ليست تلك التي انتظرتها ولكن ليرعاك الله وليحفظك.

- حرام أن تسخر مني باسم الله.
- سانا استمعي إلي.- قوباتي لا.... لقد آن أوان عودتك إلى الرجال. اذهب وسوف أجلب الماء.
- وما هو ردك عندما أعود؟
- أوي أيها المحتال عندما ترجع بالسلامة سوف نتكلم. ستكون المعركة أمام والدك أشد هولاً من المجزرة التي يحضرها التتار. هل ستصمد؟
- سوف أصمد.
قالها قوباتي بعناد من بين أسنانه.
- إلى ذلك الوقت سوف نرى، أما الآن اذهب، لقد قضينا وقتاً طويلاً.
- أنا ذاهب - قالها قوباتي بحزن- لن نتمكن من مواصلة الحديث. قريباً علينا امتطاء صهوات الجياد.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

على الطريق الضيق المؤدي إلى السفوح الشمالية لجبال القفقاس، ارتفع الغبار تحت سنابك خيل ثلاثين ألف محارب من مقاتلي قبلان غيري. كانوا يحرقون البيوت والحظائر الخالية بحقد، وكانوا يخاطرون بالتجول في الأطراف بحثاً عن غنيمة ما، وإن كانت مجرد شاة صغيرة. وكان يحدث أن يتيه بعضهم في الغابات الكثيفة مبتعدين عن كتلة الجيش الرئيسية، فيقعون فريسة هجوم مباغت من قبل الفرسان الشراكسة، الذين ينقضون بصلابة ثم يختفون دون أثر.
وقع صدامان حقيقيان شارك فيهما قرابة الألف مقاتل، أسفر عن خسائر واضحة للتتار، بينما انسحبت قوات الأديغة محافظة على قدراتها.
كل فارس تتاري قاد خلفه حصاناً إضافيا خصصه لغنائمه المنتظرة. وكانت هناك عربة يجرها حصانان قويان لكل عشرة

مقاتلين لنقل الغنائم القيمة. يبدو أن القرميون لم يسمعوا بالمثل القبرديني القائل" لا تهد الفتاة جلد الدب الذي لم تصطده بعد "
انتصبت خيمة قبلان غيري الذهبية على ضفة نهر مالقا، المحطة الأخيرة للتتار قبل المعركة الحاسمة. ومع حلول المساء وصلت كتلة الجيش الغازي بفوضوية صاخبة، وعسكرت للمبيت على أصوات الضحك واللعنات. ارتفعت ألاف ألسنة اللهب على المنحدرات الرعوية، وفي الوهاد بين التلال، وسط الجزر النادرة في الغابات والشجيرات الشوكية. وعبق الجو بالرائحة النفاذة للأجساد المتعرقة، وللملابس الرطبة التي لم يعرف أصحابها مياهاً غير مياه الأمطار. ولو أنهم وجدوا ملاجئ تقيهم لما سمحوا للمطر أن يبللهم .
أقام عليغوكة بين الحاشية المقربة خلف خيمة الخان، كان ساخطاً، فهو حتى الآن لم يتمكن من الحصول على الحظوة التي كان يأمل بها بين أشراف التتار. لقد ساءه هروب قوباتي والهرج والمرج الذي صاحبه فوق ظهر المركب. لقد بدا وكأن قبلان غيري قد نسي وجود الأمير القبرديني الوفي. حتى أنه لم يمن عليه ولو بنظرة جانبية. هل يعتقد الخان الذي أصابه الذعر في تلك الليلة المشئومة أن شوجنوقة هو السبب. كان الأمير يشحذ فكره عله يجد طريقة يتقرب بها ويلفت أنظار حاكم القرم إليه. هل يتزلف إلى أحد الأشراف ليتوسط له عند الخان؟ من المؤكد أن صديقه القديم عليغوت سوف يحجم عن مساعدته، فهو بالكاد خرج من الأحداث الأخيرة محتفظاً بجلده. وهو الآن ينتظر كالأفعى السامة الخائفة من الوهق. وعليغوكة تخطاه حين سلم نجل حاتاجوقة إلى الخان.
لم تجر الأمور بالطريقة التي يراها السرعسكر، فالأسير قانوناً هو ملك له. لم تتوقف الأمور عند هذا الحد. لقد ضاع الدرع الرومي، وعليغوكة هو السبب مرة أخرى. إن هذا الحيوان حانق وكأن أحدهم قام بسرقة إرث والده من تحت أنفه. إنه الآن مثل كلب جائع احتد لأنهم قدموا له قطعة من اللحم ليشمها ثم أبعدوها

عنه. ولكن ماموقف الباشا المغفل لو علم أن الدرع المشهور موجود على بعد خطوات منه في خيمة شوجنوقة. حيث يقوم ظريف المتجهم بحراسته. ابتسم عليغوكة بحقد وهو يرمق الباشا بنظرة تلقاها الأخير فاستدار مهمهماً. ليلتفت عليغوكة متفحصاً الجهة المقابلة لضفة مالقا.

من هذا المكان وباتجاه مغرب الشمس يمكن رؤية قمتي الأوشحه مافة بوضوح، لكن ستار الغيوم الكثيف يحجبهما اليوم. إلى أسفل مجرى النهر أمتد السهل الذي يسميه السكان المحليون ببالك " الذي تحول بتحريف روسي إلى مالك". وأمامه مباشرة غير بعيد عن المخاضة كان هناك طريق يتلوى بين الصخور حيث تقع أملاك شوجنوقة غير بعيدة.

الآن يتذكر شوجنوقة ما تناقلته عائلته عن الظهور الأول للدرع في القبردي. وغداً صباحاً سيظهر هذا السلاح الرائع المتقن الصنع من جديد كما ظهر للمرة الأولى قبل مائتي عام مضت. إن سعيه إلى الدرع له غاية واحدة، هي تقديمه هدية إلى الخان، الذي سيظله بحمايته، ناهيك عن الشرف الذي سوف يناله منه، بحيث لن يقف أي أمير أديغي بوجهه وهو يحاول الوصول إلى السلطة.

يبدو أنه لا شيء يعيقه الآن، فالدرع في نهاية المطاف أصبح بين يديه. هكذا بدت الأمور ولكن هناك حاجز واحد على عليغوكة أن يتجاوزه. وهو تعلقه المفاجئ بهذا الدرع. إنه يكاد أن ينفجر إلى أشلاء، وفي داخله يتصارع جنيان بعنف.

هذا الصراع لم يكن بين جني أبيض يمثل الخير والآخر أسود يقف مع الشر كما يحدث عادة. وإنما صراع جنيين أسودين، أحدهما أحد ذكاءاً من الآخر، لكن الثاني أشد طمعاً من الأول.

- سلم الدرع إلى الخان ولا تخطئ التقدير- أقترح الجني الأول.

- لا..لا أريد إن هذا الشيء نفيس جداً - أجاب الجني الثاني.

- الفائدة واحدة.

- لا قد أجد له تصريفاً أفضل.

- لن تجد ولا تكن أحمقاً. فكر في الأيام التي حطمت فيها رأسك لكي تتقرب من الخان من جديد.
- فلتلتهمه البراغيث.
- إن النظر إلى الدرع يفتنني ويسعدني.
- سوف تأتيك السعادة عندما تحمله إلى الخان.
- لا أعلم....لا أعلم.

* *

أنهى قبلان غيري صلاته ثم أمر برفع ستار خيمته ليتسلل ضوء ضعيف لنهار يكاد أن يرحل. سرعان ما أصبح الضوء أشد سطوعاً بعد أن تأججت النيران على جانبي مدخل الخيمة من الخارج. وصلت إلى الخان رطوبة النهر الندية فتدثر بالرداء التركي السميك. جلس على كرسيه المتنقل مستنداً على وسائد حريرية فاخرة. بالكاد أومأ بإشارة من يده حتى بدأ الموظفون الكبار بالمثول بين يديه وقد تهدلت أكتافهم وانتفخت بطونهم وغضت أبصارهم. لم تتذمر الحاشية أبداً، بل اصطفت بتواضع ذليل على طول جانبي جدران الخيمة حتى المدخل غير متجرئة على تجاوز العمود المركزي للخيمة حيث انتصب الحراس الشخصيون للخان كالحجارة.
استهل الخان كلامه بأن دعا الله بنصر سهل وباجتياح موفق للقبردي، وكذلك بغنيمة قيمة لكل محارب. كان الرد عليه هديراً متحمساً وأصوات متملقة عبرت عن شكرها قمر الأقمار، ومشيدة بسعة حكمته التي لا حد لها وكذلك عطفه اللامتناه.
لم يطق عليغوت باشا صبراً على السكوت:
- إن نصر خاننا العظيم محسوم، ما عليه إلا أن يمد يده الكريمة إلى الضفة الأخرى من النهر.

- وإن قام حاتاجوقة بمقاومتنا - قاطعه الخان بلهجة ساخرة لا رحمة فيها- كما قاوم سابقاً عزيزنا اللامع عليغوت. طبعاً عندها سوف نحطمه دون أي جهد.
انكمش عليغوت وغارت عيناه بينما غطت الحاشية أفواهها بأيديها وهي تضحك بتواضع. انتظر الخان لبعض الوقت مفسحاً المجال أمام حاشيته لكي تتمتع برجاحة عقله، ثم بدأ الحديث عن الأعمال:
- إن قواتنا كثيرة العدد وهي مسلحة بشكل جيد، لكن وبكل الأحوال يجب أن نعرف أية قوة يمتلكها عدونا؟ وأين ينوي مهاجمتنا؟
- إن الشراكسة يشكلون فصائل غير متكاملة من الفرسان، ومجموعات مشاة من الرعاع مسلحة بأي شيء يمكن أن يقع في اليد، وجواسيسنا نقلوا لنا معلومات عن تجمعات غير كبيرة تتواجد في الغابة الواقعة على منحدر السفح الجبلي الذي نراه من هنا جيداً. هناك انظروا إنه أقرب إلى النهر، والمنحدر يشرف على السهل، وحسب المعطيات والدلائل فإن جنود القرم البواسل سوف يصطدمون مع قوة لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة آلاف من الأعداء ليس أكثر.
طبعاً كان القائد يناقض الحقيقة التي يعلمها جيداً. فقوات الأديغة أكثر بكثير مما ذكر، وهم متكاملون ومسلحون جيداً. لكنه يعلم أيضاً أن الخان لن يستمع إلى الحقيقة وإنما نقل إليه مايحب أن يسمعه.
- بكل الأحوال سوف نصطدم بهم - نوه الخان - فأنتم تعلمون أن الشراكسة محاربون أقوياء وشجعان. وعندهم مثل شعبي يتداولونه" البعوضة التي بالكاد تراها، تمتص دم أسد." أليس كذلك يا صديقنا الطيب عليغوت؟
تراخى الباشا المسكين، أصبح أقصر قامة فالأمر لم يعد دعابة. ترى هل تنتظره عقوبة ما؟ غير أن الخان لم يكن عازماً على القضاء على نمام مخلص له يمكن أن يستفيد منه كثيراً.

- حسناً اهدأ، سوف تقدم خدماتك، وستحظى بفرص جديدة ولكن، أين هو رفيقك القبرديني؟ ذلك الذي اسمه شبيه باسمك.
وأخيراً تذكر الخان وجود شوجنوقة. دخل الأمير خيمة الخان وهو يقاوم الضعف الذي أصاب قدميه وانحنى انحناءة واسعة.
- تكلم - قال الخان.
" وماذا أقول؟ " فكر عليغوكة برعب، لكن دهاءه وتحايله لم يخذلاه هذه المرة أيضاً.
- أيها الخان الوهاج، يامن يختطف من البدر ضياءه، فلتصل يداك إلى ما يصبو إليه عقلك الراجح، وصدرك الرحب. إن عدوي اللدود كورغوقة حاتاجوقة يستطيع أن يتسبب بخسائر فادحة للقوات القرمية إذا ما تبعثرت وتفرقت على الطريق إلى مجموعات منفصلة. إن القبردي مهرة في نصب الكمائن وفي شن هجوم مباغت. إذا سمح لي الخان العظيم بالاقتراح التالي، لا يجب التمهل ولا ليوم واحد، لا يجب إضاعة الوقت في معارك جانبية. يجب أن يفصل بين كورغوقة والطرق الجبلية، ومن ثم إخراجه تدريجياً من الغابات إلى الأرض المكشوفة. يمكن ملاحقة مجموعات كبيرة من السكان الذين يتحركون مع أعداد ضخمة من الماشية على الدروب الوعرة لسلسلة جبال القفقاس الرئيسية.
- إننا نعرف هذا دون استشارتك.
أشاح الخان بيده ولكن نظرة الأمير النفاذة لم تخف عليها أن كلماته كانت تجد لها صداً وأنها تُسمع بانتباه شديد، وسوف يُحسب حسابها.
-هل قلت كل شيء؟ - سأل الخان -لقد أدرك شوجنوقة أن إنهاء الحديث لن يجلب له أية منفعة، رغم أنه لن يتأذى. ويبدو أن الجني الذكي تسيد الموقف عنده لذلك أردف قائلاً:
- ليس في قوتي الضعيفة ما يفيد أو يساعد الخان العظيم مساعدة قيمة ولا حتى مساعدة صغيرة. ولكن قد يأتي العون من قبل

رائعة حربية، يمكنها أن تساهم في المعارك. وقد تم تحصينها في عاصمة الإسلام.
- وما هي هذه الأداة؟ - سأل الخان باهتمام.
وهكذا عاد الدرع القديم إلى الظهور من جديد. سرعان ما أضيئت الشموع في الخيمة. تلك الشموع التي كانت من النوادر حتى في بيوت الأمراء، رغم أن القبردي تصدر الشمع إلى القرم وإلى تركيا.
عندما انزلقت أصابع الخان على الفولاذ المزرق الذي توهج على ضوء الشموع، لمعت عيناه اللتان لا لون لهما، وفقد فجأة قسماً من عظمته، وأصبح يشبه الناس نوعاً ما.
- إذاً أنت تؤكد أنه يعود إلى صلاح الدين؟ وأنه حصن في حرم الكعبة الشريفة؟ وأنه يمتلك قوة عجيبة في دفع الشر؟
وافق شوجنوقة بهز رأسه موافقاً بسرور. يبدو أنه لن يندم على هذه الخطوة أبداً. قام الخان بقياس الدرع على جسده، لكنه كان واسعاً عليه. هنا اقترح بطال باشا أن يلبس الخان صدريتين، أو أن يرتدي صدرية جلدية لكي يصبح الدرع على مقاسه تماماً.
- ماذا تعني الكلمات المكتوبة باللغة العربية؟ - التفت الخان إلى شوجنوقة.
أجاب الأمير أنه أديغه بسيط، وأنه يجهل اللغة العربية بل ويجهل اللغات الأخرى تقريباً. ولكن يقال بأن المكتوب هي آيات من القرآن الحكيم.
- أين هو العالم؟- سأل قبلان غيري القاضي بإلحاح شديد- لقد كنت تثني عليه وكأنه يعرف كل لغات العالم.
تنفس القاضي العجوز السمين بصعوبة وقال:
- إن كلماتي سوف تغضب قمر الأقمار، وسوف يكون محقاً في غضبه. إن قلبي يمتلئ حزناً وهو ساخط على ابن الحرام . إن زبل الحمار قام الليلة الماضية بتدخين النبتة الشيطانية الحشيشة، ومن غير انتباه سقط على الجمر المتقد في الموقد وأحرق مؤخرته. وهو الآن فاقد الوعي في خيمتي.

- اجلده عدة سياط عندما يصحو- رد الخان بطيبة فلم يكن عازماً على تعكير مزاجه.
لم يستطع أحد أن يبق دون مبالاة بالدرع. لقد تطاولت رقاب الموظفين الكبار الغليظة وراحوا يتهامسون، بل ارتفعت أصوات البعض. كان الفولاذ بمساميره الذهبية والوجه المزمجر للأسد المذهب يتمتع بفتنة ما وخصائص إغوائية.
الوحيد الذي بقي ساكناً هو عليغوت باشا الذي كان ينظر إلى شوجنوقة بين الفينة والفينة بنظرات حاقدة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

خرج الأمير عليغوكة من خيمة الخان متعرقاً، لكن سعيداً فهو يحمل كيساً امتلأ بالنقود الذهبية، وما زال صدى كلمات الخان العذبة ترن في أذنيه، لقد وعده الخان بالنظر في وضعه مستقبلاً.
(تبين أن الخان كان يتذكر اسم الأمير بشكل ممتاز.)
في الظلام سقطت جثة رجل على شوجنوقة وسدت عليه الطريق.
- من أين حصلت عليه؟ لماذا أخفيته؟
- لم أخفه عن الخان.
- كان يجب أن نكون في هذا الأمر معاً. لقد كنا هناك معاً، رأيناه معاً، كان يجب أن نجلبه للخان معاً..معاً.
- كان الأفضل أيها الباشا اللامع أن أعمل وحدي. أليس كذلك؟
انحنى شوجنوقة بسخرية وخطا مبتعداً في الظلام. تمتم عليغوت باشا بشيء غير مفهوم وبدا لعليغوكة أنه قال:
" أيها الثعلب يا مقمل الرأس."
"حسناً..حسناً، - فكر شوجنوقة - في وقت ما سوف أذكرك يا جاحظ العينين، أيها الخنزير. أما الآن فيمكنك أن ترغي وتزبد ، ولكن احترس لا تمت من فرط الإجهاد."

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

اجتازت جحافل التتار وابل الشلالات قبل الفجر وقد ابتلت حتى العظام. لقد أخفى فيضان النهر رؤوس الصخور التي كانت ظاهرة بالأمس تحت أمواج التيار، ولم تكن الرياح التي هبت فجأة، آتية من جهة السلسلة الجبلية بالمريحة.
كانت القوات الغازية تجتاز النهر مع توقفات متعددة. ووصلت المياه إلى أعلى عجلات العربات التي كانت تستعصي بين الحجارة. ولم تكن الجياد التي وجدت أنفسها في وضع صعب قادرة على تحريك الحمولات الثقيلة. وحتى الفرسان الذين كانوا أخف حملاً، كانت المياه تجرف بعضهم. لقد اختطف مالقا الجامح الكثيرين من المخاضة وألقى بهم في المياه العميقة. حيث كان يمكن رؤية عدة أشخاص يتخبطون في المياه ثم يغرقون وقد أخذهم التيار بعيداً. انقلبت عشرات العربات وتحطمت إلى أجزاء. حتى الجياد التي لم تتحرر من أحزمتها التي وثقت بالعربات غرقت.
جر القرميون معهم مدفعاً ثقيلاٍ، أردفوه خلف ستة جياد. كان المدفع هدية من سلطان تركي ما إلى خان تتاري ما. لم تكن هناك فائدة عملية للمدفع في هذه الحرب، ولكن يبدو أن قبلان غيري قرر أن يجره خلفه ليدب الرعب في قلوب أعداءه. ولكي يضيف وزناً جديداً إلى مقامه.
ما أن عبر الجيش النهر حتى باشر جلالته قمر الأقمار بالعبور مع حاشيته، محملين بالفرش والسجاد واللباد وكذلك المدفع الذي تجره ستة خيول وثمانية رجال من أجل تحريك العجلات. كان الخان ينتفض بكامل جسده وهو يحزق.
عبروا إلى الضفة الأخرى وشغلوا المنطقة التي خلت من الغابات.
عند العشاء كان الجيش التتاري كله قد عبر النهر.

الخبر السادس عشر

يحذر من يتناسى قول الفلاح القبرديني الحكيم:
" الدرنات المبعثرة على المنحدرات، تقلب العربات"

قبع توتوك الصغير مع صديقه شوت ورجلين آخرين متوارين في حرش كثيف، وهم يراقبون تدفق الجيش القرمي إلى أعلى الهضبة. كان أكبر الأربعة رجلاً في الستين من عمره يحمل أثر جرح في وجهه الأحمر الملفوح، امتد حتى قصبة أنفه. كان يحمل ترساً دائرياً خشبياً دقت على سطحه مسامير حديدية، مع سلاح روسي قديم، وخوذة على رأسه. كان واضحاً أن تلك الأسلحة الدفاعية والهجومية التي تسلح بها العجوز أكبر منه عمراً بكثير. بل ربما هي أكبر من عمر جده. أما حفيد ذلك المحارب المحترم، الفتى الغر عديم الشارب، فقد تسلح بحربة قصيرة لها نهاية مسننة حادة. تقلد توتوك قوساً كبيراً وسيفاً، أما شوت فقد اختار لنفسه سلاحاً يناسبه تماماً، هراوة ضخمة انتفخت رأسها المدعمة بالزوائد المعدنية.

لاحظ أولئك الرجال أن الحركة في أعلى الهضبة أصبحت أكثر حياة مما أفاد به الرعاة.

- إنهم يمشون ويمشون- قال شوت- وكأنهم قطيع ماشية لا نهاية له.

- لا توجد ماشية تتسلح بمثل هذه الأسنان- تمتم المقاتل الصلب.

- إنهم كثيرون، كثيرون جداً - هز شوت رأسه بأسف - سوف يضربوننا.

انفجر توتوك ضاحكاً:

- اسمع يا صغيري لا ترفع طرف ردائك قبل أن تصل إلى المخاضة.

ألقى الفارس العجوز نظرة متسامحة على الإخوة الشبان.

- إن أمهاتكم لم تكن قد فكرن بعد بولادتكم عندما ضربنا هؤلاء التتار. قاتلهم الباسل قاسبولات ابن موسالا وحفيد سونتشالي في سهوب تورغوت، وكذلك عند شاطئ آزوف، وعند نهر أوكرايينا الكبير. لماذا كانوا دائماً يبدون لنا كثيري العدد؟ ورغم ذلك كنا في كل مرة نشتتهم مثل باشق ينتف حجلة. وكنا دائماً نضيف إلى أمجادنا أمجاداً. كان المسكين قاسبولات يحبني لأن اسمي سونتشالي على اسم جده، ثم أنني كنت قد تميزت في القتال. نعم - وأشار برأسه إلى جهة الأعداء - كان يجب أن نهاجمهم وهم يعبرون النهر. عندها ما كانوا ليقاتلوا بالطريقة المعتادة. انتشار واسع، واندفاع بكامل القوات مثل انهيار جليدي جامح. مثل هذا التكتيك لن يكون مفيداً إلا في الأرض المكشوفة المنبسطة، حيث التأثير الفعال للفرسان...نعم على ضفة النهر وفي المكان الضيق، أقسم بأقدام تلبش الحديدية، كان علينا أن نهاجمهم هناك.

- إنك تقول الصواب يا سونتشالي- وافق شوت- عندها كنا قد لونا بالك بالأحمر النقي. من المؤسف أننا لم نلتق في الوقت المناسب. هناك في الغابة ينتظر كورغوقة وقد فقد صوابه، فبعض الأمراء لم يسارع إلى ندائه، ومن حوله قليل جداً.

- وبعضهم استسلم للخان برضاه - فجأة تكلم الفتى الغ.

رفع سونتشالي حاجبيه الأبيضين بتعجب:

- ماذا!! لقد حلا لفتانا الديك أن يصيح، يالها من مصيبة. سوف أسامحك هذه المرة يا بيشكا.

ثم التفت إلى شوت وتوتوك:

- هذا لأنه منفعل، فهذه معركته الأولى، ومع ذلك هو لم يقل إلا الحقيقة، ولكن كان يجدر به أن يصمت حتى يُسأل.

ساد الصمت وهم يراقبون التتار. كانت الغيوم الرمادية المتجعدة معلقة فوق الجبال حاجبة بكثافتها أعلى القمم. لم تكن هناك رياح، لكن الرطوبة الباردة كانت تتغلغل حتى العظام.

بدا العالم لهم وكأنه يريد العودة بترو متدحرجاً إلى الوراء، إلى ذلك الزمن السحيق عندما حرم الإله الغاضب باقو النارتيين من نعمة النار، وقيد على صخور الأوشحه مافه الملساء نسرن الحكيم الشجاع. ومازال زعيم النارتيين مقيداً في الثلج المتحجر، والنسر المتوحش يغطي بجناحيه العملاقين النور وهو ينهش من كبد البطل. وإلى الآن لم يأت البطل المنقذ ليقتل الطائر العجيب، ولم يحرر بعد نسرن طويل اللحية، زعيم النارتيين، ولن تعود النيران المتوهجة لتشتعل في المواقد لتبث الدفء في الصدور الكئيبة للناس.

- إنهم لا يشعلون النيران - قال توتوك بهدوء.

- بعد الحمام الكامل من غير المحتمل أن يجدوا حطباً جافاً- أجاب شوت- والعشب جمعناه بالأمس وأخفيناه في الغابة. يالمبيتهم البائس، لن يجفوا، ولن يشربوا الحساء الساخن، ولن تجد جيادهم ما تعلفه من الدريس. انظر إنهم ينصبون الخيام، هناك مجموعة منهم.

تلمس شوت قوس صديقه متحسراً.

- إنهم بعيدون عنا. خمسة أضعاف مائة قدم.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

في دروب الغابة، وتحت ظلال أشجار البلوط، تجمعت جماهير غفيرة من أولئك الذين عبروا المراعي التي احتلها التتار. قدم كل من استطاع أن يحمل بين يديه سلاحاً وادعى أنه أديغي. امتلأت الغابة منذ الصباح بالمدافعين عن أرض الوطن. توافدوا مثل شراب انسكب من إبريق في قدح. في البداية كان الدفق غزيراً، ثم تحول إلى خيط رفيع. وفي النهاية تساقطت القطرات الأخيرة. كان المشاة أقل من الفرسان، وعموماً تجمع حوالي ثمانية آلاف رجل. مقاتلون بسطاء من أشد المزارعين فقراً.

أثمن حملهم، عباءة وكيس يحتوي على زادهم. ووصل الحطابون على حميرهم المحبة للعمل.
حانيف دائم البشاشة الذي استقبل في بيته الأمير كورغوقة مؤخراً كضيف، دس حزمة من الحشائش لحماره وراح يتحدث معه:
- خذ المزيد أيها الرمادي، لا تلق بالاً إلى هؤلاء النبلاء المتكبرين وهم يتجاوزوننا، وينظرون إلينا باستهزاء واستخفاف، وهم يخفون أنوفهم الفخمة. إنهم يأنفون من رائحة شعرك القذرة، ومن ملابسي الرثة الموحلة. لا تتأثر فنحن أيضاً كالنبلاء، إننا لا نأخذ جيادهم لنرويها.
كاد الأخوة أولاد حبالا من القرية المجاورة لقرية حانيف،حزيشه، حقواشه، حاشر، حناشخوه يقعون من الضحك وهم يستمعون إلى حوار حانيف مع حماره.
- افهموا ... إنني أخاطب الابنة حتى تسمع الكنة. تذكر أيها الرمادي- استمر حانيف- إننا طوال العمر نكدح من الغسق إلى الغسق لنطعم ليس فقط أنفسنا، بل هؤلاء الأشراف المتغطرسين، بهذا نحن لا ندس رأسنا حيث يتوضع ذيلنا، ولا نتمنى لغيرنا ما لا نتمناه لأنفسنا.
سر آل حبالا بكل جوارحهم، ومدحوا صديقهم.
في ذلك اليوم كان ينتظرهم حوار أخر ولكن من نوع مغاير تماماً.
تغلغل الشيخ الأشقر عادل غيري بين صفوف المحاربين محاولاً رفع الروح المعنوية، لكن كبار السن كانوا يتجنبون خوض حديث مع هذا المثقف مفضلين الحكايات الغابرة، عندما كان الأوشحه مافة أقل ارتفاعاً وأنديل ساقية صغيرة. أما نارتشو الأعور وأفراد عصابته فقد سخروا منه معتبرين أن عادل غيري يحاول أن يرتفع إلى مرتبة النبلاء متناسياً أن عائلة فلاحية هي التي أنجبته. ولولا خشية العواقب لرد عادل غيري على سخرية نارتشو بضربة خنجر. في النهاية انتهى به المقام

إلى أولاد المرحوم حبالا وصديقهم حانيف. في البداية استمع الرجال إليه باهتمام شديد، ثم راحوا يطرحون عليه الأسئلة المحيرة.
- أنت تقول أيها العالم المحترم أنه في الجنة رياض رائعة تجري من تحتها الأنهار أليس كذلك؟ - سأل حانيف.
- هو كذلك - أكد عادل غيري موافقاً.
- إذاً أخبرني أليست أرض الأديغة روضة رائعة؟ هل تنقصها الأنهار الجارية؟ ألا تكفي مياهها لإنبات حدائق أكثر بمئات المرات مما هو موجود حالياً، ويتبقى منها ما يكفي لإطفاء نار الجحيم.
- رويدك أيها الجاهل! - تبسم عادل غيري- الجنة نعيم خالد، راحة وأطايب طعام، حور عين. إناث يتمتع بهن المؤمنون الذين ماتوا وهم على العقيدة. هناك لا هم ولا غم. سعادة دائمة وشكر لله.
- آه يا عادل غيري الطيب، - أعرب حقواشه - إذا وجدتني زوجتي مع الحور أو ماذا يسمون هذه الإناث هناك سوف تلتقط مغزلاً أو صحناً وسوف تطاردها، فإذا كانت نساء الجنة سريعات وتسعفهن خفتهن في الركض فإنني أخاف أن يلحقني شيء منها.
- غريب أنت، لن يسمح للنساء بدخول الجنة، وكذلك لن يسمح للكلاب والقطط.
- والجياد؟ - سأل حزيشة بقلق.
- عن أية جياد تتحدث !- أجاب عادل غيري متأسفاً وبشيء من الضجر.
- لماذا هذا التعامل المشين والظالم للنساء؟- سأل حانيف- جاباغي قازانوقة يقول لا تحكموا على أمر مرتين ولا تهينوا زوجاتكم. المرأة هي أم الجنس البشري ومنهن أمك يا عادل غيري، هن من اخترعن المطرقة والملقط والمنجل. تتحدث الأساطير القديمة عن إله الحديد تلبش الذي كان يعجن الحديد

المنصهر بيديه العاريتين على الحجارة ثم يطرقها بقبضته، إلى أن جاءت ستناي وردة النارتيين، إنها لم ترم له مطرقة صنعتها له أوسنداناً وكلابة. لقد أوحت له بفكرة الملقط عندما ثبتت ثعبانين متصالبين بعصا حادة. والعجوز ورسار أنشدت أغنية عن المنجل عندما لم يكن أحد يعلم ما هو المنجل. في ذلك الزمن كان العشب يجمع بالأيدي.

إذا قمت بثني الحيد المبسط
مثل ريشة من ذيل ديك
ومن ثم شحذت أطرافه الداخلية
مثل عرف الديك
يبقى أن تصنع له قبضة
لتحصل على منجل.

- أنتم ترددون التفاهات والخرافات مرة أخرى- هذه المرة غضب عادل غيري - أنتم جهلة أيها السادة فاقبعوا في بؤسكم وشقائكم داخل قراكم ولا تتعلموا شيئاً.
- ولكننا تعلمنا منك الآن الكثير- أعلن حانيف.
- أنت تقول أننا سوف نفارق أخواتنا وبناتنا، وسوف نملئ بطوننا بالحلوى. لن نملك كلباً يساعدنا في حراسة الخرفان. ولن نمتطي جواداً ننطلق به في المراعي الخضراء، كيف يمكن أن يمر الربيع دون أن نسطر أخدوداً في الأرض؟ كيف يمكن أن لا أسمع صياح الديك عند الفجر؟ لا لن تناسبنا حياتك الرتيبة التي تعدنا بها.
نهض عادل غيري على قدميه وقد اعتصره الألم. قد تكون هذه الليلة هي ليلتهم الأخيرة ومع ذلك الشيطان يعلم كيف يفكر هؤلاء الوثنيون.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان كورغوقة يفكر في المذبحة المقبلة، ويحاول أن يتوصل إلى قرار صائب. كيف يمكن التعامل مع العدو بقواته المحدودة؟ ماهي أفضل الطرق؟ لم يتطرق الحل إلى رأسه أبداً. ماذا لو هاجم التتار عند الفجر بشكل صاعق ثم ارتد..لا لن تنفع هذه الطريقة. فإذا ما انغمس القبردينيون في حمى المعركة لن يردعهم شيء، ولن يتعاملوا مع أي أمر بالإنسحاب. لديهم مفاهيمهم الخاصة حول البسالة والشجاعة. لن يكتفوا باقتطاف زهرة النصر في هجوم سريع مباغت ثم التراجع إلى الغابة بتعقل وانتظار فرصة أخرى. بل سوف يتوغلون في المطاردة آملين بأزهار أخرى ومن ثم سوف يجدون أنفسهم في أعماق المستنقع التتاري الذي يفوقهم عدداً. هذا ما سينتظرهم. عندها لن يتمكنوا من التراجع. لا هذا لن ينفع، لن تصمد أمام التتار بهذه الطريقة. سوف يتمكن العدو من اللحاق بالنازحين وسوف يسد المنافذ إلى الشعاب مثل زجاجة يحكم إغلاقها بسدادة. وأسوأ مافي الموضوع أن كورغوقة سيعمل بإصبع دون أن يعلم كيف تتصرف الأصابع التسعة الأخرى.
كان الأمراء و النبلاء متحلقين حوله ينتظرون أوامره دون أن يقدم أحد منهم أي اقتراح. لاحظ أن عيون حانيف المرحتين النفاذتين تحدقان به من على بعد. لقد كان كورغوقة يتذكر هذا الرجل الرائع. وهاهم أبناء القرية يعودون من أطراف الغابة، شوت طيب القلب والماهر توتوك الذي أثبت أنه أقوى الجميع. لقد كاد أن يستحق الدرع الشهير لولا أن منافسه كان قوباتي الذي كان يخفي نفسه جانباً خلف توزار وقازانوقة. يمكن لهؤلاء أن يعبروا عن آرائهم.
نهض كورغوقة من على جذع الشجرة المنهارة التي كان يجلس عليها منذ مدة طويلة و بوضعية غير مريحة.أصلح هندامه. تنبه الأمراء والأشراف وتقدموا إلى الأمام:
- إإإي أيها الجار - صاح حاتاجوقة - ماذا رأيت هناك مع صديقك؟

نهض شوت برضى :
- القرميون هناك يعجون كما النحل في الخلايا عند غروب الشمس. لقد لعبت معهم الطيبة "بسخوه غواشه"وداعبتهم بوابل المطر وبحمام كامل في بالكا. إنهم الآن يفتقدون إلى مواد التدفئة الجافة. وهم الآن يرقدون مبتلين دون نيران مشتعلة. من المؤسف أنهم لا يعطسون معاً وباتجاه واحد. عندها لأزالوا خيمة الخان وباشواته.
- أمنيتك كريمة - رد كورغوقة مبتسماً - ولكن غداً ينتظرنا يوم، الإعتماد فيه فقط، وفقط على رجولتنا.
- ولماذا لايكون ذلك اليوم؟ - سأل ارزامس اقارت.
انتعش الأصدقاء جباغي و جانبولات وقوباتي. تناقشوا فيما بينهم بحرارة ثم اقترب قازانوقة مسرعاً إلى الأمير.
- بالفعل.. لماذا لا نهاجمهم اليوم؟ وكلما كان الظلام دامساً كلما كان ذلك أفضل. إن هذا الشاب - أشار جباغي إلى شوت- بخلاياه ونحله ذكرنا بالعنزة المحترقة التي أحرقت الحقل. وهنا خطر لأحدهم لولم تكن العنزة عنزة واحدة، وإنما مجموعة عنزات، ولو لم تكن العنزات عنزات.
رفع كورغوقة يده:
- توقف لا تكمل . لقد فهمت .. شوت إنني آمرك أن تأخذ مايكفي من الرجال، واقتد جميع الحمير التي تصادفها عند حدود الغابة. وحملوا كل حمار حزمة جافة من القش. أعتقد أنكم تستطيعون جمع ثلاثمائة حمار.
- مفهوم أيها الأمير - قال شوت بسعادة - نستطيع أن نجمع ثلاثمائة حمار إذا اعتبرنا أن كل ما دب على أربعة حوافر وكان له أذنان طويلتان حماراً.
توجه شوت لتنفيذ المهمة وهو يضحك عالياً.
- هل فهمتم أنتم أيضاً؟ - التفت حاتاجوقة إلى حاشيته المحيطة به.
امتعض الأمير اسلام بيك الذي كان يرى مفاوضة التتار:

- وهل تريد من الحمير أن تقاتل عنا؟ وأي شرف هذا للأديغة؟
- أنا لم أسمع أن أجدادنا طلبوا عوناً من الحمير يوماً- تمتم قارابين قار.
- لا تُشهد الماضي يا كبيرنا قارا- قال جباغي للعجوز مبتسماً - إن الجيل الجديد يرتفع على أكتاف الجيل القديم لكي يرى أبعد منه.
- أما أنت يا ميسوست باشا- تبسم كورغوقة - لا تنزعج فالعمل الذي أمامنا يكفينا. اسمعوا جيداً وتذكروا، مع قدوم الليل سوف يقوم المقاتلون المشاة بقيادة قطيع الحمير إلى التتار مباشرة، وقبل إطلاقها سوف يضرمون النار في حزم الأعشاب التي على ظهورها. هذه ستكون إشارة للفرسان. سوف يقتحم فرساننا معسكر الخان مع المشاة عندما تبدأ الحمير بالتراكض عبر التتار. لن يتمكنوا من التراجع، وسيتساقطون من المنحدرات مثل تساقط القذارة من القبعة العالية.
- هكذا إذن- صاح سلطان علي أباشة بحماس- سوف نطير عليهم مثلما ينقض البوم على الفئران - وجرد نصل سيفه اللامع ملوحاً به في الهواء مصفرا.
استحسن الجميع الخطة دون أن يفرط الأمراء إسلام موسى واصلان قايتوقة وتترقان مورزا والبلقري غابلا وبالقاروقة، بحماسهم وسارعوا مباشرة إلى الجياد لتهيئة مقاتليهم إلى المعركة المقبلة.
ربت كورغوقة على كتف جباغي قائلاً:
- نعم هناك رأس يعمل جيداً.
- بل بشكل ممتاز. وإن كنت تعتقد أن هذا الرأس هو رأسي فأنت مخطئ هذه المرة. لا تسألني سوف نتكلم عن هذا في مرة قادمة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

رُبطت حزم الأعشاب الجافة على ظهور أكثر من ثلاثمائة حمار هادئ، لا علاقة لهم بهموم البشر. واصطفوا كالجنود عند حدود الغابة في رتل واحد.
اقتربت القوات القبردينية من معسكر الأعداء، تقدم المشاة الفرسان. كان الكل يدرك المعنى الكامل للهجوم الليلي.
- حسناً أيها الرمادي- قال حانيف مخاطباً حماره المحبب - إن في إنجازك هذه المهمة شرف ما سبقك حمار إليه ولا حلم به.
ارتفعت أصوات الضحكات من الجانبين، ولكن حانيف تصنع شهقة متمماً خطابه:
- إنني أحسدك أيها الصديق، فمن المحتمل أن تصل إلى قبلان غيري نفسه وأن تتحلى بشرف تدفئته بحرارتك.
عاد الضحك من جديد.
- هييي... أنتم هناك اهدءوا- جاءهم صوت آمر من الخلف.
تكلم أحدهم بما يشبه الهمس:
- أصبح الظلام دامساً، وكأنك في قدر أحكموا عليك غطاءه، لا يمكن مشاهدة نجمة واحدة، والتتار هادئون. لا شك أننا سنبدأ الزحف.
- كان الظلام حالكاً عندما وقفنا أمام الصخور المنحدرة لشاطئ بسيج....
أما ما حدث على ذلك الشاطئ فلم يستطع العجوز صاحب الصوت المبحوح أن يخبره.
- هيا انطلقوا... فلنذهب- تناهى إليهم صوت آمر حاد.
انطلقت الحمير تحت ضربات السياط ووخزات الخناجر مخترقة الظلام وهي تنهق بحزن. وقبل معسكر العدو بعدة مئات من الخطوات دوت طلقة الإشارة ليلتهب ثلاثمائة موقد متحرك، تأججت نيرانها في وقت واحد. وخلال لحظات كانت تلك الحيوانات التي أصيبت بجنون هستيري تتوسط جيش التتار بعدته وعتاده. إن الفوضى التي تنشرها أسراب النحل الغاضبة تبدو باهتة أمام تلك التي افتعلتها الحمير. عويل بشري مستميت

ونهيق حميري متألم بالإضافة إلى أصوات عشرات آلاف الحوافر، وصهيل الجياد الحاد. كل هذا تداخل حتى بدا أن السماء لن تحتمل المزيد وأنها سوف تقع على الأرض.
عندما وقع الآلاف تحت حوافر الحيوانات مُحَطمين حتى الموت، لم تكن القوات القبردينية قد دخلت أرض المعركة بعد. ورغم أن ثمانية آلاف مقاتل باشروا القتال مطلقين هتافاتهم الحماسية، إلا أن رنين المعدن لم يكن مسموعاً في تلك الفوضى الشاملة.
كان كل مقاتل يدرك تماماً أن عليه أن يلحق أكبر قدر من الإصابات بالتتار قبل أن ينطفئ العشب. حقيقة تنبه إليها بعضهم فأضرم المزيد من النيران لينتشر الضوء، رغم أن بعض الحمير الفطنة وقد أحست بالنار تحرق ظهورها، راحت تتمرغ على الأرض لإطفائها. أما القسم الآخر فقد وصل إلى الطرف البعيد من معسكر التتار، وراح يدفع بكتل الجياد والناس أمامه إلى الضياع. لقد كان الدفق الحي المندفع من القوة، بحيث عمل عمل مكنسة جبارة راحت تكنس الناس إلى النهر. وراح أولئك الذين وقعوا تحت حكم الحمير يستميتون وهم يلوحون بسيوفهم مصيبين رفاقهم. وما كان للنبالين أن يوقفوا هذه الكتلة المندفعة، وما كانوا لينقذوا أنفسهم من السقوط في الهاوية.
غير بعيد عن خيمة الخان دوى صوت المدفع التتاري للمرة الأولى والأخيرة. فالمدفعيون قاموا بشحن المدفع بكمية كبيرة من البارود، فانفجرت ماسورة المدفع وتفتتت إلى قطع صغيرة أصابت عدة رجال وقتلتهم وجُرح الكثيرون، ليزداد الهرج والمرج.
- أشعلوا النيران - ارتفع صوت كورغوقة وهو يلوح بسيفه المخضب بالدماء- أضرموا الحرائق.
رأى الأمير شوت يتوسط الميدان حاملاً هراوته الضخمة بيد، وفتيلاً مشتعلاً باليد الأخرى، وشاهده كيف أشعل حزمة كبيرة ليرتفع دخان لهيبها. أحد الغرباء الملتحين بشعره الطويل

الأشعث ركض من جانب الأمير، كان يطارد اثنين من التتار وهو يزعق بشكل طفولي، مطلقاً لعناته باللغة الروسية. التفت التتاريان وراحا يصدان بسيفيهما القصيرين المعقوفين سيف الأشقر الثقيل ومن أحد الجوانب ظهر فارس أعور:
- أصمد جاريتش- وضرب بسيفه تتارياً.
" أين قوباتي؟- فكر كورغوقة وهو ينطلق إلى مركز المعمعة - وقزانوقة لا أراه."
كان قوباتي قد اختار لنفسه وسط المعسكر مكاناً، وبذلك تفادى ذلك السيل الهادر من الحيوانات المسعورة والناس الذين تحولوا إلى قطيع غير عادي. بعد أن مرت الموجة القاتلة، حمل التتار السلاح، وتزاحموا بشكل غريزي أمام النيران المشتعلة، حاول البعض أن يصل إلى جواد وامتطاءه.
نازل قوباتي فارسين وآخرين من المشاة الذين حاولا الوصول إليه بسيوفهم الحادة. اقترب أحدهم أكثر مما يجب فأصابته وخزة صاعقة في حنجرته جعلته يتأوه بشدة قبل أن يسقط أرضاً. صدم أسود بصدره جواد أحد الفارسين، كان عريض الكتفين يلوح بسيفه الثقيل. تجنب قوباتي ضربته منحنياً ومبتعداً عن حسام الفارس الآخر، وفي الوقت نفسه أرسل سيفه مصيباً كتف أحدهما، فراح يولول مثل امرأة وطأت دون قصد ضفدعة، ليتهاوى من على صهوة جواده. غير أن الفارس العملاق لم يكن سهلاً، كان ماهراً في امتطاء الحصان وفي استعمال سيفه، إضافة إلى جسارته ورجولته. كان التتاري الراجل ملحاحاً في هجومه ولم يعط الفرصة لقوباتي حتى يستطيع التعامل مع الفارس. تدخل بيشكا الذي لم ينبت شاربه بعد والذي ظهر إلى جانب عمه لينقذ برمحه قوباتي من ورطته.
- أحسنت أيها الفتى، أقسم بأقدام تلبش الحديدية - صاح المحارب العجوز- ولكن لا تتحمس.
تقدم سونتشال وبيشكا إلى الأمام مفسحين المجال أمام قوباتي ليبارز الفارس الذي يستعمل السيف ذي الحدين بمهارة. كان

على قوباتي أن يستعمل كل فطنته ومهارته حتى لا ينكسر سيفه تحت ضربات سيف خصمه الثقيلة. كان يرسل سيفه ليستقبل نصل حسام التتاري ليهبط في اللحظة الأخيرة إلى الأسفل ممتصاً قوة الضربة، كان يدفع خصمه يريد أن يحاصره عند النيران المشتعلة عندما صاح الأخير وهو يلهث:

- أوو هذا باتي ....أيها الكلب.

- أو يا رفيق الدراسة - تعرف قوباتي على أحد معارفه الباختشساريين- كيف تعيش يا عثمان؟

- أعيش كما يجب. أما أنت فلم يتبق لك من الحياة شيء.

شن الفتى التتاري هجوماً حاداً لكنه لم يصب قوباتي.

- لا أنا سوف أعيش- استعد قوباتي للهجوم- أما أنت فيجب أن تغادر هذه الحياة، لقد كان معلمك رائعاً - صوت ارتطام المعدن- والآن ياعزيزي عثمان- صوت صفير سيف- لقد أصبحت خطراً.

- إذاً خذ هذه أيها الحيوان.

- أعيدها إليك.

شهق عثمان وأغرق العرق عينيه، لقد تأخر لحظة واحدة كانت كافية لكي يلمس سيف قوباتي أسفل جبهته. لوح بسيفه عشوائياً ثم سقط على عنق حصانه. استعد قوباتي ليضربه مرة أخرى لكنه أحجم، إذ لا طائل من ذلك. وفي النهاية سقط التتاري على الأرض مثل كيس ثقيل، واندفع جواده مبتعداً عن السنة اللهب.

انطلق قوباتي عبر الممر الصخري المظلم شاقاً طريقه إلى الأعلى حيث شكلت النيران المتوهجة حاجزاً. امتلئ الدرب تحت حوافر الأسود بالجثث والجرحى.

- أين جانبولات؟ أين كوانتشه؟

كان كوانتشه يرزح تحت ثقل جواده القتيل، فما أن انطلق طائراً وهو يحاول اختراق الصفوف، مفعماً بالحماس القتالي وشاعراً بقوة جبارة. حتى سقط جواده. لسوء حظه لم يلحظ السهمين الطائشين الذين شقا الهواء إليه من الظلمة ليستقر الأول في رقبة

الجواد ولينال الثاني من فروة رأس كوانتشه. وهو الآن في نصف غيبوبة غير قادر على النهوض.
قاتل جانبولات أمام رتل العربات المشتعل حيث لم يكن هناك مجال للتتار بالتراجع أكثر. لذلك كان قتالهم مستميتاً كالذئاب التي تجرعت السم. قاتلوا ملتصقين بجدار اللهب من خلفهم وبالصفوف المتراصة للخيالة والمشاة القبردينية من أمامهم.
ضربات توزار كانت سريعة وخاطفة، مرعبة ودقيقة، أغلب ضرباته كانت غالباً تصل إلى أهدافها. بقي جباغي إلى جانب صديقه توزار الذي كان يراقبه خلسة، فهو ما كان ليسمح له بدس رأسه الثمين في المعمعة وإلا لأمر رجاله بسحبه إلى مكان آمن.
من اليمين انطلق صوت قارابين قاره،الحاد كصوت الديك:
- اضربوا يا أديغة.. قاتلوا.
بل إنه تحت تأثير الموقف القتالي سيطرت عليه الروح الحماسية فراح يغني:
- اووو ريرا و ري را!
فجأة تراخى الديك المقاتل وعانق عنق جواده، زوج من الفرسان وصلا إليه واقتادا جواده باتجاه الغابة. التفت قاره مودعاً غير عابئ بالجرح العميق الذي أصاب فخذه:
- هكذا يا أولاد.. اضربوا.. تعلموا من الفتى توزار .. إنه يعمل باجتهاد.
قاتل توتوك إلى يسار جانبولات متقلباً بين التتار كعباءة بلقرية تتزحلق على الجليد. كان من الصعب مراقبة نصل سيفه الذي كان يتطاير منه الشرر حين يرتطم بمعدن أملس. وقد أثبت بعد أن قتل جواده أنه لا يقل كفاءة في قتاله كراجل من كفاءته كفارس.
لم يعد حاتاجوقة الذي كان إلى الأمس القريب يحلم بمعجزة تنقذ القبردي يسعى إلى النصر فقط، بل أصبح طموحه يدفعه إلى تدمير القوات التتارية تدميراً تاماً.

" لو أصل إلى خلف العربات المشتعلة حيث خيمة الخان وأتباعه عليغوت باشا وعليغوكة أجرب الرأس، لابد وأن هناك أكثر من ألفين من الجنود يحرسونهم. السهام تتطاير من هناك ولكن لا أثر لهجمة مرتدة، ولن تكون على الأرجح "- فكر كورغوقة.

إنهم يعلمون أنهم محاطون من الجوانب الثلاثة، والجانب الرابع هاوية سحيقة. كان يعلم أن أباشه وقارت وبالقاروقة يحمون الميمنة من بداية المنحدر نزولاً حتى المخاضة في النهر. في الميسرة كان نارتشو مع عصابته ومجموعة من الفلاحين البسطاء يقاتلون، أما أفضل قواته فإنها تقاتل في الوسط. لمح كورغوقة ابنه على بعد خمسين خطوة منه، نظر إليه باعجاب رغماً عنه دون أن يخالجه ظل خوف عليه.

" مثل هؤلاء لا يموتون وهم صغار، إنهم يعبرون طريقاً طويلاً من المآثر والمجد - فكر حاتاجوقة - "

- ايييي فرقوا العربات...

فجأة دوى صوت هدير عميق غطى كامل ساحة المعركة. ارتفع فوق أصوات المهاجمين المتحمسين، وأنين التتار المسحوقين، ولهاث وصهيل الجياد.

إنه توزار حتماً - تمتم كورغوقة.

لقد جاءت ملاحظته في الوقت المناسب. تقدم شوت الضخم إلى حيث كانت نار تتوهج وراح يضربها بهراوته حتى أطفأها ومن ثم انتقل إلى عربة مشتعلة مخمداً النار فيها.

- خذوا هذه معكم في طريق عودتكم إلى القرم ، ولا تنسوا جثة خانكم.

تدفقت القوات القبردينية من الثغرة التي تشكلت مثل تدفق تيار مائي من صدع في خزان ماء.

كان أول المارقين جانبولات، قوباتي، جاباغي، شوت، ولم يتأخر عنهم حاتاجوقة الذي أدرك أن التقدم إلى الأمام أكثر هو

انتحار فالظلام دامس، ولا يمكن القتال وعصابة سوداء تغطي عينيك، ثم أن السهام التتارية تصفر بكثافة النحل المستفز.
وصل كورغوقة إلى توزار وأمره بأن يعيد الجميع إلى ما وراء خط العربات المشتعل، وانتظار الفجر.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

في الليلة الماضية عندما كان قبلان غيري في خيمته قرب الموقد الذي يتوهج فحمه، يأخذ نفساً من مبسم النارجيلة، لم يدر في خلده أن القبردي يمكن أن يشنوا هجوماً. ولكنه تحسباً لكل احتمال مفاجئ أمر بأن يطوق مكانه وخيم خاصته وحاشيته بطوق يتألف من ثلاثة آلاف فارس من حرسه الشخصي، الأمر الذي حمد الله عليه وعلى الوحي الذي ألهمه بُعد النظر هذا. فيما بعد تقلب في فراشه بقلق لكنه سرعان ما راح في سبات عميق.
الهدوء الذي أرخى سدوله والعتمة التي أطبقت أغرتا حراس الخان على التراخي، فراحوا في شخير. لم يوقظ العويل الحيواني المتشنج الخان من نومه، حاول أن يدفن رأسه تحت الوسادة، لكن صياح جيش بكامله وصهيل وحشي لآلاف الخيول جعل قبلان غيري يقفز من سريره وقف حافي القدمين ليشاهد بطال باشا وهو يدخل الخيمة زاحفاً على أربعته:
- أووو... يا نور القمر لا يجب أن نضيع الوقت.
- أعلم لقد احتطنا بالأمس لهذا.
- الأفضل أن ننقل مركز المراقبة والقيادة إلى الجانب الآخر من النهر- قال بطال باشا بصوت باكي.
- طبعاً فمن هناك يمكن أن نرى بشكل أوضح.
أبدى قبلان ملاحظته المختصرة، فرك عينيه وهو يدمدم:
- إنني أتعفن في حفرة.
خلال لحظات كان الخان يمتطي جواداً أسوداً أصيلاً يحيط به فرسانه المخلصين. اخترق الطوفان الهائج لينحدر ببطء إلى

ضفة النهر. و قبل أن تنقلب خيمته على جانبها تحت ضغط الخيول المذعورة، كان الخان قد خرج منها حافي القدمين دون أن ينتعل حذاءه المزين بالخيوط الذهبية. أزاح رجال بطال باشا بضعة عربات جانباً وانطلقوا مسرعين وهم يلوحون بالسياط يميناً ويساراً مطوحين بجنودهم. وبالكاد كانوا قد نجوا من طوق الكمين عندما تذكر قبلان غيري فجأة الدرع، فكر في إرسال من يأتيه به، لكنه لم يفعل. لقد بدت له تلك القطعة الرائعة في تلك اللحظة بعيدة عنه بعد القمر الذي يتشبه به.

* *

في ذلك الوقت كان عليغوكة قد عاد واستحوذ على الدرع من جديد، إنه وفي خضم الأحداث التي لا يمكن تصورها استطاع أن يحافظ على هدوءه وحساباته المتوازنة، وتحرك بسرعة وحسم مثل ابن عرس في قن الدجاج. وجد الدرع تحت خيمة الخان المتداعية، وسرعان ما أخفاه في كيس قبل أن يطأ جسد رجل انكب على وجهه، عرف فيه القاضي التتاري الذي ومن فرط رعبه راح يتعوذ من الشيطان الرجيم. كانت الخيمة قد بدأت تشتعل ولم يكن الأمير قد قرر بعد هل يخمد خنجره في صدر القاضي. لكن الأخير كان قد اختفى في الظلام.
كان ظريف ينتظر سيده وهو قابض على لجام جوادين مرهقين. استطاع الرجلان اتقاء الهجمة القبردينية عندما سبحا مع التيار العام، والآن عليهما التحرك في المنطقة الخطرة حيث تدور معركة الفرسان والمشاة. لا بد من الخروج من المعمعة قبل أن تهلكهم. أحدهم تمسك بقدم عليغوكة اليسرى وراح يزعق بشدة. لم يكن صعباً على الأمير أن يتعرف على عليغوت باشا الذي فقد حرسه وجواده.
ـ أنقذ نفسك بنفسك أيها الذكي.

صاح شوجنوقة وهو يدفع كتف عليغوت باشا بقضيب. ترك الباشا قدم عليغوكة ولكنه لم يستطع أن يحفظ توازنه فسقط من أعلى المنحدر. كان عليغوكة وظريف آخر من تمكن من عبور المخاضة والنجاة من الطوق المفروض. لم يعد هناك ما يجمعهما مع التتار. لقد افترقت الطرق، خاصة وأنهما لم يعودا ينتظران خيراً من الخان.
مع الصباح كانت المعركة قد بدأت بالإنحسار، مع بعض المقاومة غير الفعالة لبعض المقاتلين التتار الذين لا يتجاوز عددهم الألف، الذين احتُجزوا في الجبال. علم كورغوقة أن الخان هرب مع ألفين من جنوده وهم كل ما تبقى من جيشه الجرار. لم يكن هناك الكثير من الجرحى والأسرى، وكانت خسائر القبردينيين بالمقارنة مع خسائر العدو متواضعة، ألف وخمسمائة فقط.
أراد كورغوقة ملاحقة فلول التتار والقضاء على الخان نهائياً، إلا أن باقي الأمراء لم يتحمسوا لفكرة مغادرة الساحة الصخرية التي امتلأت بالخيرات والغنائم. انتشر النبلاء المتحمسون على الأرض بينما حامت أسراب الغربان في الجو.
لم يجدوا أثراً لشوجنوقة. رأى أمير القبردي عليغوت باشا مستقراً على غصن شجرة كانت قد نمت بشكل عشوائي في المنحدر الصخري. لم تكن الشجرة بعيدة ولكن عليغوت باشا كان قد فارق الحياة، يبدو أن قلبه لم يحتمل ذلك الرعب فانفجر.
ظهرت تعابير خيبة الأمل على وجه كورغوقة، أما جباغي فقد لوح بذراعه فقط، وغير بعيد عنهما وقف شوت وهو يحدق في الهاوية.
- يقولون لا ترم بأوساخك عندما يحل الظلام، فهذا فأل سئ. لم نستمع إلى هذه المقولة. ومع ذلك ها قد نجحنا. أين هو الخان المرعب؟
- لقد أكل وشبع ثم نظر إلى الباب ورحل- أجاب صديقه توتوك- ولكن لا تنس أننا استضفناه بشكل رائع.

وغير بعيد عن المكان شاهدوا حانيف وهو يمشي بخطوات متثاقلة وقد ساق خلفه حماره الذي خرج سالماً بأعجوبة من المعركة، وأمسك بيده زوج من الأحذية المزركشة الرائعة التي تركها الخان.
- فليمتد عمرك مائة عام أيها النبيل كورغوقة - قال حانيف - ولتكن كلها انتصارات كهذا النصر. هذا حذاء الخان أعطيه لك.
- خذه لنفسك - ابتسم كورغوقة - وليغني أحفادك أغنية تمجدك. ولكن الحمار حي؟ يا للغرابة!
- نعم إنه حمار بطل، أعتقد أنه يستحق رتبة نبيلة.
ضحك كورغوقة وجباغي.
- حمارك الرمادي لا أدري أما بالنسبة لك فسوف نعمل على ترقيتك. ما رأيك يا جباغي؟
- إنه يستحق ذلك - أجاب جباغي بجدية.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

في ذلك الوقت كان جانبولات وقوباتي قد عثرا على كوانتشه وانتشلاه من تحت جثة الجواد. نهض كوانتشه بعد أن عاد إلى وعيه، ابتسم بهدوء وقال:
- جيد.. حسناً..

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

هبط اتباع كورغوقة إلى السهل المعشب ليحتفلوا بالنصر، ومن عدالة القدر أنهم وجدوا قطيع الماشية الخاص بشوجنوقة، فتقاسموه فيما بينهم. بينما تجمع المنتصرون البسطاء على ملكية حاتاجوقة ليحتفلوا بدورهم، ولم يتخلف نارتشو وعصابته عنهم.
- من المؤسف ألا يتواجد سونتشالي معنا الآن، فاللحم المشوي متوفر بكميات تطمئن روحه.

- وروحك أنت ستجد ضالتها فهي تسكن في معدتك - علق توتوك.
- صحيح، لكن ليس ذنبي أننا لا نملك غير الماء لنشربه مع كل هذا الطعام.
عب شوت الهواء بمنخريه وقال:
- إن الهواء القادم من بيت الأمير لا يوحي بأنهم يشربون الماء هناك.
- ياللحظ - ربت توتوك عل كتف شوت- للبعض شراب الخوخ، ولآخرين القندبسو[1].
- أقسم بعظم لوحة الكتف هذه أنهم يشربون هناك ال...
- لماذا تتكهن، الأفضل أن تقرأ لنا الفال.
- ممكن. لا تقاطعوني ها أنا أقرأ البخت.
رفع شوت القطعة العظمية إلى مستوى عينيه ووجهها إلى الضوء، كانت الشمس قد ارتفعت فوق حافة الغابة.
- لن يكون الخريف ممطراً هذا العام، وسيحل شتاء بارد ومثلج. لكن قطعاننا ستصمد حتى الربيع القادم، وينتظرنا عمل كثير وقاسي. أما التتار فلن تقوم لهم قائمة في هذه الديار لمدة طويلة. وسوف يقوم الأشراف مقامهم في ممارسة السلب والنهب.
انفجر توتوك ضاحكاً:
- ياله من متنبئ.
صادف أن استمع نارتشو إلى تكهنات شوت:
- أنت تقرأ الطالع بشكل جيد أيها الفارس المقدام، لكن عيني الواحدة رأت ما خفي عن عينيك الإثنتين، اعطني العظمة.
أخذ قطعة العظم، نظر إلى الشمس من خلالها وقال باختصار:
- الآن سوف نشرب من ما يشربه النبلاء .
قذف بقطعة العظم وعاد إلى رفاقه، وراح يتضاحك معهم. نهض شابان قويان من مكانيهما ودخلا دونما ضجة بين الشجيرات

[1] - القندبسو – نوع من المشروبات الشركسية

الشوكية ثم عادا مسرعين وهما يحملان دورقين ضخمين. كانت رائحة الشراب تتطاير إلى مسافة عشرين خطوة.
- عسل قوي... - قال شوت بسعادة - فلتقضم الفئران أنفي إن لم يكن هذا عسلاً قوياً.
- نعم إنه كذلك - أكد نارتشو- إنه من مراعي الجبال العالية. لقد حضرناه هناك.
كان عسلاً مخمراً من أزهار الأضاليا والروديندورا.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

جاءت المعلومات عن الأمير شوجنوقة من مصدر غير متوقع أبداً. وقف القاضي الأسير وقد ظهرت آثار الحروق على وجهه مع كاتبه وهما يرتجفان رعباً أمام كورغوقة. لكنه لما أدرك أن مركزه الديني يحميه، وأن لا خوف عليه، بل إنهم وعدوه بإطلاق سراحه بسلام. تجرأ وتجرع بعضاً من العسل ثم بدأ بمواعظه:
- لا يخاف المؤمن إلا من الله.
- وهل خاف قبلان غيري من الله؟ - سأل أحدهم.
- عندما تحين الساعة وتتأرجح السماء، عندما تتحرك الجبال ويطالب الدم المهدور ظالمه لماذا أرقتني. هنا تنال كل نفس جزاء ما صنعت.بسم الله الرحمن الرحيم : إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء والله أعلم بالمهتدين.
- وما ذنب الرجل المغفل إذا لم يهتد إلى طريق الحق؟
- تلعثم القاضي قليلاً لكنه وجد الجواب المناسب:
- وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير.
تدخل قازانوقة:
- والله يقول : ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها.واضح أن الله ألهم الإنسان الفجور والتقوى.
لوح القاضي بإصبعه.

- لقد سمعت عنك، أنت قازانوقة الملحد المعروف، وصديق الروس. لا.. لا يجب على الشراكسة مصادقة الروس الكافرين، عليهم أن يكونوا حلفاءنا حتى يجزيهم الله خير الجزاء. مثلما فعل عليغوكة باشا- سكت قليلاً- رغم أننا إذا تمحصنا قليلاً في الأمر، هذا الرجل خائن على الطرفين. إنه يقدم لشبيه القمر الدرع المقدس بيد، ويسرقه بكل وقاحة باليد الأخرى.
تعالى الهمس بين أفراد حاشية حاتاجوقة.
- أين عليغوكة الآن؟- سأل الأمير بهدوء جليدي.
- لقد هرب. ومعه ذلك الذي يشبه الجاموس المتوحش.
- إلى أين هرب؟
- لا أدري ولكنه لم يسلك طريق الخان، فهذا الدرب خطر عليه.
- هل قرأتم ماكتب على الدرع؟
- لا- نظر القاضي في عيني معاونه- أعطني بعض العسل.
ثم راح يحدث نفسه.
- سوط... هل أجد سوطاً. لقد أمر قبلان غيري بنفسه جلده - وأشار إلى كاتبه.
- لا - قال كورغوقة- إن القبردينيين يمكن أن يقتلوا، ولكنهم لا يقومون بتعذيب أحد أبداً. إننا لا نجيد تعذيب الناس.
- لماذا؟- قال القاضي مندهشاً.
- لا يستطيع البعض أن يدرك معنى هذا- قال قازانوقة.
- أنتم ضيوفنا أيها المبجل، حتى نجد عليغوكة - قرر حاتاجوقة.
- لا بأس، هل بقي شيء من العسل؟
طبعاً كان هناك الكثير من شراب العسل، ولقد شربوا طويلاً ورفعوا أنخاباً كثيرة بصحة الحضور، ولم يبخسوا الخان حقه من الدعاء، فليحرم من المحصول، ولتكن حاله مزرية، وليقع في مصيدة فوق الصخور، وليجف جلده كما تجف جلود الجياد، ولتجحظ عيناه كما تجحظ عيون الخيول الكفيفة، وليحرم من الظل صيفاً، ومن الرداء شتاءاً، ولننعم نحن بالسعادة وليكن

العشب وفيراً لتقتات به حتى كلابنا، ليرفل الخان في الشقاء، ولتختطف كل نساء بيته.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

- رأس من ذلك الذي عمل جيداً؟ - سأل كورغوقة جباغي- لقد وعدتني أن تخبرني من فكر بالهجوم الليلي؟ من ابتكر فكرة الحزم المشتعلة؟

-الآن يمكن أن أصارحك أيها الأمير المبجل، ولكن لا تأسف أن فتاً غراً كان يعلمنا- كان جباغي مرحاً- لقد كان قوباتي هو من فكر بهذه الخطة.

كلمة المراقب المتأمل

إن منظر فرار الخان كان بائساً، فالخيول المتعبة كانت تجري ورؤوسها متدلية إلى الأسفل، تاركة وراءها آثاراً عميقة في الوحل. وكان على الفرسان التتار المنهكين الجائعين أن يتفادوا سهام الشراكسة وطلقاتهم التي كانت تأتيهم من بين الأشجار باستمرار. وأما من تخلف منهم فقد وقع فريسة هجمات المجموعات الصغيرة التي تلاحقهم، ولسان حالهم يقول: "أنتم قدمتم إلينا بصوف طويل الوبر، سنعيدكم بعد أن نحلقه لكم."

كان على التتار أن يمروا عبر أماكن مميتة، باردة، رطبة، أشبه ما تكون بالمستنقعات. أما في الغابات فكان يسمع صوت أنين الجرحى والمرضى ومن لم يسعفه الحظ في مواصلة الطريق أو تخلى رفاقه عنه، لم يبق لهم إلا الاعتماد على الله، الذي لم يكن يرغب في مساعدتهم على الأغلب.

أما قرب نهر كومو فقد تساقطت الجياد بشكل جماعي وقضى المرض على أعداد كبيرة من التتار ما كان للمدافعين عن الوطن الأديغي أن يحلموا بالقضاء عليه.

في ذلك العام كانت الكارثة التي حلت بالتتار وبمن ساعدهم من الأتراك كبيرة، كذلك النتائج التي تبلورت في العام الذي تلاه من أحداث الكوبان والتي أدت إلى خلع الخان قبلان غيري من منصبه.

لقد كانت الخطط المرسومة تقضي بشن هجوم جديد عام ١٧٠٩ لكن السلطان أحمد قرر خرق معاهدة السلام مع روسيا. وكان عليه التوجه إلى أوكراابينا بمرافقة خان القرم حيث كان حليفهم الملك كارل السابع ينتظرهم مع جنوده. بذلك تكون الظروف كلها مواتية لشن هجومهم ..ولكن..

في أيار قام بطرس الأول بتجهيز أسطول حربي تكون من ٢٤١ سفينة من أحدث السفن في بحر آزوف. وكان استعراض القوة هذا كافياً ليعدل السلطان التركي أحمد من خططه، مما ترك الملك السويدي كارل يواجه الروس وحيداً.

في يوم المعركة توجه كارل السابع إلى جنوده بالكلمات التالية :

- لقد أعد لنا بطرس الأول طعاماً وفيراً، وسوف نتناوله، وغداً سيكون المجد بانتظارنا.

لكن هذا الطعام كان عسير الهضم. فعندما انتهت المعركة لم يكن هناك وجود للجيش السويدي الذي بلغ عدد مقاتليه أكثر من اثنين وثلاثين ألفاً. هرب كارل بصعوبة إلى القسطنطينية ليحتمي بالسلطان.

يقول المؤرخ الفرنسي الكبير لوي سن سيمون وهو يقيم أحداث عام ١٧٠٩ بشكل صحيح :

- إن هذه الأحداث غيرت وبشكل جذري الأوضاع في الشمال.

إن سقوط السويد التي كانت تخيف جيرانها هز حتى الإمبراطورية النمساوية، إذ أن قوة جديدة كانت إلى الأمس مجهولة ولا تؤثر إلا على جيرانها القريبين جداً منها قد بدأت الأن بالنمو على الساحة الدولية.

لم يكن الوضع قد حان بعد لكي يحدث مثل هذا التغيير في الجنوب، كما حدث في الشمال. ولكن كانت هناك مؤشرات تشير إلى المستقبل القادم، وبعض هذه المؤشرات كان له علاقة مباشرة بالأديغة.

الخبر السابع عشر

يذكر بكلمات أغنية تلبش في الملحمة:
أنا ابن أم لم تلدني أبداً، أنا ابن أب لم أعرفه أبداً

في اليوم التالي من المعركة، عاد الأمير كورغوقة إلى منزله، وتفرقت مجموعة الفرسان في اتجاهات مختلفة، بينما تشتت المشاة من السكان دون أن تحصل على شيء من الغنائم. لقد توازع الأشراف الخيول التتارية بالجملة، فعندما كان هؤلاء العقلاء يتقاسمون الغنائم كان المزارعون يدفنون القتلى.
كان من الواضح أن مهمة القبض على عليغوكة ستقع على عاتق توزار جانبولات وحاتاجوقة قوباتي. لكن أين تكمن البداية للقبض على ذلك الخائن. هذا ما تبين لاحقاً.
ما أن أعرب جانبولات عن نيته الاستعانة بنارتشو، حتى سمع ضحكاً ألفه منذ طفولته.
- أخبرتك، سأكون متواجداً عندما أكون مفيداً، مازلت أذكر تلك الأيام القديمة عندما كان ابن قارالبي لا يخرج للصيد دون مرافقة نارتشو.
- وأنا أفكر بصديق يعينني في مهمة صعبة.
- حسناً إذا كان الدب أمامك، لا تبحث عن آثاره.
- يتحتم علينا البحث عن آثار ثعلب.
- مقتفي الأثر ذي العين الواحدة اشتم رائحة ما.
- هل تمزح؟ - سأل جانبولات مبتسماً ولكن دون ثقة.
- هناك الوقت الكافي للمزاح. بعد وليمة النصر تمكنت من إلقاء نظرة على قرية المقمل.
- كان يجب أن أفكر في هذا.
- لو كان عليك أن تفكر في كل الأمور وحدك ما احتجت إلى الأصدقاء والأقرباء.
- وماذا اكتشفت هناك؟
- لقد مر عليغوكة على داره.

- ومن ثم؟
- تزود بالأطعمة وأخذ حملاً ثميناً و..- أشار نارتشو بسوطه إلى الأوشحه مافه.
- مفهووووووم- مط توزار شفتيه- لقد شبع الرجل من إلية الغنم والآن يريد اللحم، لا يجب إضاعة الوقت.
- إضاعة الوقت هو الغباء بعينه، خاصة وأننا لا نملك منه إلا القليل.
- كم يلزمنا من الرجال؟ - سأل جانبولات.
- يرافق ذلك المقمل إذا صدق خدم منزله، نبيل واحد يدعى ظريف، ولكن قد يجد من يرافقه على الطريق.
- سوف أصطحب معي قوباتي. وأنت؟
- هل نأخذ كوانتشه؟- ابتسم نارتشو- أما زال محتفظاً بمرحه بعد جرح رأسه؟
- تصنع نارتشو جهله بتواجد كوانتشه خلف توزار.
- أأي.. أنت، لا تصدع رأسك بألم رأسي - قال البلقري الشاب وهو يتطلع من خلف ظهر توزار بغضب.
- اوو.. إنه هنا. إذاً يا صديقي إذا كان رأسك على ما يرام عليك بحل هذه الأحجية. ما هو الشيء الذي له أربعة رؤوس وذيلان وسبعة آذان وسبعة عيون؟
راح كوانتشه يفكر بجدية، حتى أنه قلص عينيه من فرط التفكير ثم بدأ يقهقه طويلاً دون أن يتمكن من نطق كلمة واحدة.
- نعم .. إنه .. نعم إنه - وأشار بيده إلى نارتشو دون أن يستطيع منع نفسه من متابعة الضحك - إنه الأعور نارتشو مع جاريتش بأذنه الوحيدة وهما يمتطيان جواديهما.
ضحك جانبولات ونارتشو بكل جوارحهما وقررا معاً عدم الاستغناء عن رأس مثل رأس كوانتشه. اقترب المدعو جيخار سابقاً، جاريتش حالياً من الأصدقاء وهو يقود جوادين مجهزين وتساءل عن سبب المرح، ليقهقه بدوره بسعادة مع الباقين. على

حين خرج قوباتي من الخيمة المنتصبة وتوجه إليهم. لقد اكتملت المجموعة.

- هل تزودت بتوجيهات ما قبل الرحيل- سأل جانبولات.

- نعم - أجاب قوباتي بكآبة - وهو يطلب منك أن تعود بالمقمل حياً، ويؤكد على ذلك.

- لقد كان قد طلب مني هذا بنفسه. حسناً يجب أن لا نتأخر. هل الأسود جاهز؟

- نعم.

صفر قوباتي فانفصل حصان أسود عن قطيع الخيل الذي يرعى في الحقل وركض باتجاه الفتى.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

" نصائح ماقبل الرحيل - فكر قوباتي بكدر وهو يتأرجح على سرجه - لقد أومأ برأسه مودعاً، هذه هي كل توجيهات أبيه. رغم أنه كان غارقاً في نقاش مع القاضي."

كان رداء القاضي ملوثاً وقد تناولت النيران بقعتين أو ثلاثة منه، ورغم ذلك كان وجه رجل الدين يتحلى بالطمأنينة والسكينة وعلى قدر كبير من الوقار، وهاهو يتحدث عن السماء المرفوعة من غير عمد يرونها، ويسوق الآيات القرآنية لدحض أي شك في قدرة الله تعالى.

استمع الجميع إلى القاضي بانتباه شديد، كان بعض المضطلعين يهزون برؤوسهم موافقين، أما عادل غيري فقد استولت عليه حالة وجدانية.

كان القاضي يتوجس من قازانوقة منتظراً منه مداخلة لن تسره، وكان محقاً في تخوفه.

- إن الناس يتساوون أمام الله سبحانه، وهو يحاسبهم على أعمالهم وفق تقواهم، فلماذا نرى من حولنا المؤمنين المسلمين

وهم يغرقون في بؤسهم بينما يترفه الأغنياء الغارقون في ذنوبهم وكفرهم؟ - سأل جباغي.
ابتسم القاضي بتسامح:
- يقول الله تعالى في كتابه إنه يعطي من يشاء، ويعطي لطالب الدنيا ما يريد.
- ألم يقسم الله الأرزاق بالتساوي؟
تجهم القاضي وراح في مداخلة طويلة مبتعداً عن الموضوع المطروح، داعماً أقواله بحكمة الكتاب المبين. ولما اقتنع بأنه أقنع الآخرين كان السكون يلف المكان. لم يتسن لقوباتي أن يعبر عن رأيه فهو أصغر الحاضرين. تطرق أحدهم سائلاً:
- أليست كل الأديان من إله واحد.
وهنا كان على القاضي أن يشرح لكن أحد كبار السن تدخل في النقاش ليوفر على القاضي الشرح المعقد الذي كان يستعد له:
- لقد قابلت في حياتي رجال دين عديدين، لقد كانوا جميعاً مسالمين وكل آمن بدينه. والواقع أن الأديان كلها نابعة من عند إله واحد، أرسل الرسل والأنبياء لينقلوا رسالته إلى الناس. في البداية أرسل موسى لهداية اليهود، وقد مهد الطريق أمام عيسى، الذي جاء في موعده المحدد. لكن تعاليمه السامية كانت شاقة على الجنس البشري الضعيف، الذي تجاوز القوانين الصارمة واستمر في ممارسته للخطيئة. إنه لمن الصعب أن نجعل من أحدب فارساً يقاتل في الميدان، ومن أعور رامياً ماهراً على بندقية. لذلك ولحكمة منه أرسل رسوله محمد للتخفيف من صرامة القوانين.
أما ما تم بعد ذلك من نقاش وما كان رد القاضي المبجل أو رأي قازانوقة في الموضوع، فهذا ما لم يستمع إليه قوباتي. أشار الأب لابنه مودعاً، نهض الفتى ونظرات المتواجدين تلاحقه. خرج من الخيمة بينما كان جباغي يربت على كتفه مودعاً.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

منذ البداية كان الهاربان عليغوكة وظريف يسبقان المطاردين مسافة نهار كامل. لكنها كانت قد تقلصت إلى النصف عند وصولهما إلى منابع المياه الكبريتية الحارة أعالي نهر مالقا. في الواقع لم يعتقد الهاربون أن مطارديهم كانوا قريبين منهم، بل لم تكن لديهم قناعة بأن هناك مطاردة أصلاً. أقام عليغوكة وظريف محطة استراحتهم بين حطام الكتل العشوائية للصخور، والصخور العملاقة المجاورة لسيل الانهيارات الجليدية.
كان منتصف النهار صافياً، مشمساً، وأشرقت الكتلة الضخمة البيضاء اللامعة للأوشحه مافه باستعراض ووقار، حاجبة خلفها نصف السماء. ضجت ينابيع المياه الحارة فوق الصخرة الغرانيتية المرتفعة، وهي تتجمع لتشكل نهراً حقيقياً تلون حوضه بلون صدأ الحديد. ويبدو أن أحدهم قام بصنع فجوة عميقة في مجرى النهر، حيث يمكن الجلوس فيها حتى العنق، والتلذذ بالإستحمام في المياه الطبية، وهذا ما قام به شوجنوقة. كان يقلص مابين عينيه بغبطة وسعادة ويغطس رأسه الأجرب في الماء. بدت له حياته فجأة رائعة روعة هذا اليوم الصافي الذي خلا من الغيوم، مثل شعاع الشمس الذي لا عيب فيه، مثل الثلج المتلألئ على الأوشحه مافه. وتدفقت روحه القاسية المغطاة بعفن الجرب لتتوضع على راحة أغنية.
" ألم تكن الأرباب تجتمع في ضيافة بسه تحه - فكر عليغوكة - على الأوشحه مافة في مثل هذا اليوم من كل عام لتشرب خمرة العنب. ألم تدعوا الأرباب فتى النارت الباسل ساوسروقة ليقدموا له القدح الممتلئ بشراب العنب. لم يُفقد الشراب صواب الفتى بل قذف ببرميل الشراب المسكر مع البذور إلى أسفل الجبل، لينبت العنب في قرى الأديغة القديمة، وأعطت البذور شتلات، لتنمو العناقيد العجيبة في كل مكان. أليست ستناي أول من تعامل مع العنب، فجمعته في برميل ثم هرسته بصخرة كبيرة. فار العصير المتشكل وقذف غطاء البرميل بعيداً. ومنذ ذلك اليوم والنارتيون يشربون شراب الآلهة."

ولكن أين هي العناقيد الآن؟ لقد ذبلت الشتلات الرائعة كما اندثرت عقيدة الأرباب القديمة، ربما سقط القسم الأعظم من البذور في الجهة الأخرى لسلسلة الجبال حيث يعيش الجورجيون.
ومع ذلك هاهو شوجنوقة يستحم الآن في تلك المياه التي كانت تسمى منذ القدم مياه الأم النارتية، والتي لم يتبق من اسمها إلا الاسم (شراب النارت).
انتظر ظريف بنفاذ صبر خروج الأمير من المياه، إذ لا يحق له مشاركة الأمير حمامه. خرج عليغوكة من الماء وباشر بارتداء ملابسه. طلب ظريف من عليغوكة الإستدارة ليتسنى له خلع ملابسه، استدار شوجنوقة عابساً، كان يعلم أن الشعر الأسود الكثيف يغطي كامل جسد ظريف.
عندما انتهى الأمير من ارتداء ملابسه، كان ظريف يستمتع بالمياه الدافئة. اقترب عليغوكة وجلس قبالته:
ـ إذا تمكنا من الوصول إلى شعب باقسان اليوم ـ قال عليغوكة ـ عندها في الغد يمكن الوصول إلى جبال تشيغيت وعبور مضيق دونغوز أوزون.
ـ لقد أصيب حافر جوادي، سيبطئ هذا من حركتنا.
ـ إننا في عجلة من أمرنا ـ أعلن الأمير ـ ماذا لو كانوا يطاردوننا؟
ـ وماذا عني؟ أنا قبضة سيفك ووتر قوسك.
ضيق الأمير عينيه بسخرية:
ـ وأية فائدة ترتجى من كلماتك العذبة، إن كنت دون بنطال.
ـ أوه أيها الأمير، الكامل لا يعترف بالناقص. وبالمناسبة ، لقد كنت أنت نفسك دون بنطال قبل قليل.
ـ أرى أنك أصبحت أكثر نباهة منذ أن ضربك الأمير الصغير على رأسك.

لم يستطع عليغوكة أن لا يستفز شريكه، رغم علمه المسبق بالمثل القائل " إذا دست ذنب الكلب عضك ". كان جواب ظريف صاعقاً، ضرب براحة يده صفحة الماء وصاح بغضب:
- إنه ليس أميراً حتى.
- كيف؟ ماذا قلت؟ أعد ...كرر ... - بهت عليغوكة .
- إنني أعيد وأكرر، فتاك قوباتي هذا ليس أميراً. إنه ليس ابن كورغوقة حاتاجوقة.
- ابن من إذاً؟
- تابع ابن تابع.
- ومن أين لك هذه المعلومات؟ من أخبرك؟ - سئل عليغوكة صائحاً.
تمضمض ظريف مغرغراً الماء في حلقه، ثم بصقه.
- لم يخبرني أحد، لقد سمعته بنفسي. فعندما ذهبت لأجلب الدرع من بيت كورغوقة، استلقيت بعيداً أتحين الفرصة وأنتظر، وهكذا....
- هكذا ماذا؟ تكلم.
- دخلت الحديقة عجوز شمطاء، كانت تلتقط الجوز وهي تحدث نفسها - راح ظريف يقلد صوت العجوز بعد أن رسم تكشيرة على وجهه - خاديجة تعرف كل شيء... كل شيء تعرفه خاديجة... ولا أحد يعرف أن خاديجة تعرف. إنني صادقة... الفتى أفضلهم... لا أحد من أولاد الأمراء يضاهيه. ولدتك خادمة يا قوباتي... لقد ماتت زوجة كورغوقة أثناء الولادة، وكذلك الطفل، لكن خاديجة الماكرة جلبت طفلاً آخر ووضعته في مهد ذلك الطفل المسكين بمساعدة امرأة أخرى. كان أبوه خادماً، وقبل ذلك...
- وماذا قبل ذلك؟
- لا أعلم لقد ذهبت العجوز وأخذت الجوز.
- فلتغص بهذا الجوز، ألم تسمع شيءاً آخر؟
- لا... استدر سوف أخرج.

- انتظر لماذا لم تخبرني عن هذا قبل الآن؟
- ولماذا أخبرك؟
- أحمق.
- أقسم بهذا الحديد أيها الأمير أنني خدمتك دائماً مثل كلب مخلص وعوضاً عن مكافأة سخية...
- أحمق مضاعف، لا تنتظر مني أية مكافأة بعد الأن فليتزين رأسك الأحمق هذا بقرص زبل بقري.
- استدر ودعني ارتدي ثيابي - صاح النبيل.
قرأ عليغوكة في عيني ظريف تهديداً جدياً. فبعد رحلتهما الطويلة هذه معاً، راح البرد يتسرب إلى عليغوكة من الرعب.
" إن هذا الثور يمكن أن ينطحك، أو يقتلك. أما أن يسرقك ويتركك في الجبال دون حصان فهذا مؤكد."
استجمع الأمير نفسه بسرعة فاختطف مسدسه، تأوه ظريف وغطس في الماء حتى رأسه. إلا أن عليغوكة لم يكن عازماً على قتل ظريف، فهو حتى الآن لم يقتل في حياته رجلاً واحداً.
دوى صوت طلق ناري لينزوي حصان ظريف بين الصخور متشنجاً وهو يحتضر. عندما رفع ظريف رأسه شاهد كيف اختطف شوجنوقة ملابسه وركض باتجاه جواده، لحظات وكان الأمير على ظهر جواده.
- تقول، تريد ارتداء ملابسك، لا لن ترتديها قريباً.
صاح النبيل الذي كان قد تخلى عن ضميره ليخلص لسيده كدب وقع في مصيدة. لوح له عليغوكة بيده ساخراً، ومن غير تسرع ذهب في طريقه، لتنهمر خلفه اللعنات، حتى أن ظريف قفز من الماء وركض عدة خطوات خلف عليغوكة، إلا أنه أمسك فجأة، وبرعب عاد ثانية إلى المياه. وهناك شعر بالطمأنينة. بل إنه راح يضحك، ثم أنه بصق بالاتجاه الذي سلكه الأمير، ثم راح يتمتم " المهم أنه لم يرني عارياً " لقد قرر أن أهم شيء أن لا تراه عين حي على هذه الشاكلة. ثم أنه هز رأسه وراح يغني أغنية كان قد سمعها من جدته أيام طفولته:

لم يبق من اللحم قطعه
والهر يتظاهر بالعزه
حتى لو كان اللحم كثيراً
لن أتذوق منه أبداً.

ثم بدأ شيء ما يتسرب إلى رأس ظريف، حتى أنه نسي لغة الحديث البشري.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

تبين أن معلومات نارتشو كانت صحيحة، فآثار الثعلب أصبحت واضحة للعيان في ذلك اليوم. كانوا قد قابلوا قبل محطتهم الأولى راعياً قاد قطيعاً صغيراً من البقر عائداً من المراعي الجبلية العالية إلى قرية أسفل الجبل، أخبرهم الراعي أنه قبل يوم رأى على بعد فارسين يتوجهان إلى الأعلى.
- أعتقد أن أحدهما كان مقمل الرأس عليغوكة - قال الراعي جازماً.
- لماذا تعتقد ذلك؟
- إنني من أولئك الذين خوت بطونهم لكن آذانهم أصبحت مرهفة، وفي أفواههم أخبار دائمة - ضحك الراعي - أما الشائعات فهي مثل العصافير التي تطير بأسرع من السنونو. لقد هزم التتار، ونحن نعود أدراجنا مع القطعان، الخائن عليغوكة لم يهرب مع التتار، وهو لم يقع في الأسر، فأين اختفى؟ لقد كان هو ولا أحد غيره. إن المسافة حتى مضيق سوني مسيرة ثلاثة أيام.
- ثلاثة للبعض ويومان للبعض الآخر - أعلن نارتشو منزعجاً.
- إنك على حق - وافقه توزار - يجب أن نسرع.
كان الطريق يمر عبر أماكن خيالية الجمال، وهو يتلوى بغرابة حول الحواف الصخرية للمنحدرات الجبلية وقد غطس في كثافة

الغطاء النباتي، ممهداً التربة على جوانب التلال، حيث كان العشب يصل حتى صدر الرجل صيفاً. تضافرت الجداول الصغيرة التي توحلت جوانبها ونبتت على الضفاف خمائل الورد البري الذي التصق وتسلق المنحدرات الصخرية. ومن الأسفل زمجر نهر مالقا. كان الطريق يصل إلى هناك، حيث المجموعات الفيروزية تمتد على الجدران المسننة اللامتناهية لسلسلة جبال القفقاس. وأمام تلك الجدران ارتفع الأوشحه مافه كبرجين لا يقهران شيدا للحراسة. وبلغة كوانتشه مينيغيتاو. بدت شمس المغيب تلامس ثلج الإلبروس لتتوهج ذهباً صافياً، فتشاهده عين الفارس المقترب من منطقة نارتسانه.

- أخبرني نارتشو - خرق قوباتي صمت الطريق.

- ما أخبار ذلك الشوجن العجوز.

كانوا يهبطون ببطئ ممراً متعرجاً باتجاه النهر.

- آ... لقد دفنا ذلك المسكين.

- من المؤسف ذلك، لقد كان العجوز طيباً، وممتعاً للغاية.

- إنه أخر من تبق من الخوارنة المسيحيين - قال نارتشو بحزن

- لقد صلى جيراتش عليه ودعا له في قبره بالروسية. أعتقد أن إيواننا لن يضيع في العالم الآخر.

- وتثرثر أيضاً.

أظهر جيراتش انزعاجه رغم أنه كان من الواضح أنه يخفي تحت لحيته الكثيفة ابتسامة راضية.

- توقفوا - صاح جانبولات - ما هذا؟ انظروا.

- جواد يتمرغ - مد كوانتشه جذعه إلى الأمام متعجباً، ثم كتم أنفاسه - رجل الغابة هاهو يركض .. يركض.

نعم، لم يقصد توزار الحصان، وإنما كائن عار تماماً غطى الشعر الكثيف كامل جسده كان يقفز عبر الحجارة ويختفي خلف صخرة ضخمة ملساء، مولياً الأدبار ومبتعداً عن النبع. وصل الكائن الغريب إلى الطرف الآخر من المنحدر وهو يطلق زئيراً فظيعاً موحشاً. وقف الفرسان المصعوقين أمام جثة الجواد:

- هذا حصان ظريف - قال قوباتي متعرفاً على الجواد.
أسرع جيراتش وانتزع سرج الجواد الميت.
- أعتقد أنني أعلم ما حدث هنا - ابتسم نارتشو - الكذاب لم يعد يثق بالكذاب، لذلك عندما ذهب أحدهم إلى الماء ليستحم، أخذ الآخر ملابسه وسلاحه واختفى.
- صحيح - أكد جانبولات - إن الخنزير ينتقم من الكلب، جيراتش هل أنت جاهز؟ إذاً إلى الأمام.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

خلال فترة وجيزة انتشرت أقاويل وشائعات مثيرة بين الرعاة والمزارعين، وبين سكان تلك القرى المتاخمة للغابات، حول الظهور المتكرر لرجل الغابة العجيب، الذي يسطو على الدجاج ويسرق الخرفان، ويدخل مخازن الحبوب ليلاً. وهو يتخلص بسهولة من الكلاب باستعمال عصا أو يقذفها بالحجارة. لم يشاهده أحد إلا لمحة، وكان ظله دائم التواجد على الطرق والسهول والغابات، ولم يكن يظهر في النهار.
ويبدو أن جسوراً أعلن أنه اقتفى أثر أقدام عارية على الثلج أخذته إلى عرين رجل الغابة. كانت مغارة ضيقة امتلأت بجلود الثيران والعنب والعشب المجفف، ولحسن حظ ذلك المقدام لم يكن رجل الغابة في وكره. ثم راح الناس يتناقلون عن رؤيتهم لمخلوق بقرون على رأسه، وثلاثة عيون حمراء في وجهه تتوقد كالجمر، وأظافر طويلة تضرجت بالدماء. وصرح البعض أن رجل الغابة هذا كان يخور كالثور أو يعوي كالذئب.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

تمكن الفرسان من اللحاق بشوجنوقة وهو يهبط شعب باقسان. رأوا الأمير فجأة بالقرب من النهر، بين أشجار الصفصاف

الهرمة التي أشرفت على الماء. يبدوا أنه كان يبحث عن منطقة للعبور إلى الضفة الأخرى. كان باقسان يزمجر بعنف مزبداً، وهو يتخبط في اصطدامه بالنتوءات البارزة للحجارة في قعره.
انتبه عليغوكة متأخراً جداً ولم يحاول الفرار. كان من المرعب أن يلتقي مجدداً مع توزار، خاصة بعد أن التئم جرحه المميت. رفع مسدسه بيد مرتجفة وصاح بحشرجة وهو يصوب السلاح نحو قوباتي، الذي كان أقرب الجميع إليه.
- لا تقترب ... إن كنت خنجراً فأنا سيف.
- أنت مسمار صدئ - قال نارتشو وهو يحرك بندقيته.
- هل أقطع له رأسه بهذه البلطة وننتهي من الأمر - قال جاريتش بطيبة - لماذا علينا أخذه كله إلى كورغوقه، يكفي أن ننقل رأسه فقط.
أسقط شوجينوقة سلاحه من يده، لقد فاته أن يعيد شحنه بعد أن أطلق النار على حصان ظريف.
- هذه هي النباهة - دوى صوت توزار - يمكن الاتفاق بالحسنى دائماً. فاللطافة تخرج الأفعى من جحرها. أين الدرع؟
تناول قوباتي الكيس المتأرجح على سرج حصان الأمير.
- هاهو - وأخرج الدرع البراق من الكيس.
أراد الجميع لمس الدرع.
- هل تستطيعون إطلاقي الآن؟ - سأل شوجينوقة بصوت ميت، وهو يعلم سلفاً أن طلبه مستحيل.
- وكيف يمكننا ذلك أيها الغالي النفيس - أجاب نارتشو بلهجة تصنع فيها الحيرة - أن القبردي كلها متلهفة إلى رؤيتك.
انطفأت عينا عليغوكة الصفراء، وبدأت أسنانه الحادة القليلة تصطك، ثم راح جسده يتهاوى ببطئ. التقطه جاريتش مانعاً إياه من السقوط.
- ماذا حدث له؟ - تعجب كوانتشه.

- ماذا.. يا للسؤال. - أعقب جاريتش - يكاد أن يموت من الرعب، هذه المرة الأولى التي أرى فيها قبردينياً على هذه الحالة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

المجزرة التي حذرت سانا قوباتي منها أقامها حاتاجوقة للفتى صباح انعقاد محكمة الأمير الهارب. لم يكن قوباتي واثقاً من التوصل إلى نتيجة مرضية مع والده. فالحديث لم يكن ودياً، وقد أصابه بالقنوط.

- كيف استطعت التفكير بهذه الطريقة؟ - لم يستوعب كورغوقة الأمر - ألم تخبرك دماؤك عن شيء؟

كانا يتحادثان في مضافة الشريف فيقوه على انفراد ودون أن يزعجهما أحد.

- لم يكن ينقصني إلا أن يقال عن أحفادي أنهم هجينون.

- ألا تحدد أفعال الناس مقاماتهم؟ - سأل قوباتي بهدوء.

ابتسم كورغوقة بتسامح:

- طبعاً الأصح أن يتم تقدير الناس ليس بأصولهم ولا أنسابهم، غير أن ذلك في زماننا ليس سهلاً. فهناك اعتبارات لا تتجاوزها طبقتنا أبداً.

- وإذا ما تصرف الإنسان على هواه؟ - عاند قوباتي.

- لا تجرؤ حتى على التفكير بهذا - غضب الأمير - سوف تقابل في حياتك أكثر من واحدة تضاهي حمامتك ذات العنق الأبيض كما تقول الأغنية.

" يكفي إلى هذا الحد في المحاولة الأولى - لم يعاند قوباتي والده أكثر - ستكون هناك مناسبات أخرى، عندها من يدري. "

ومن جهته خفف كورغوقة الضغط عن ابنه وقال ملاطفاً:

- آخ.. إنك تذر برادة الحديد في العيون - مشيراً إلى مهارة ابنه في أعمال الحدادة وربما إلى مآثره القتالية. - فلنذهب لقد آن الأوان، لا بد وأن صديقك عليغوكة قد مل من الإنتظار.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

مثل المجرم عليغوكة أمام المحكمة العليا التي انعقدت تحت شجرة الإجاص البرية الهرمة. تألفت المحكمة من رجلين، الوالي، وهو أكبر الأمراء سناً. وقد نال هذا الشرف أحد الأخوة اخلو، وتم اختيار اينال فيقوه معاون له ممثلاً عن النبلاء.
كان اخلو يشعر بنوع من الضيق، فقد مضى زمن طويل لم تعقد فيه محكمة من هذا النوع. ولا أحد يذكر أن أية محكمة سابقة قامت بالنظر في قضية بطلها أمير.
وهكذا مثل ... لا لم يمثل تماماً إنما جلس عليغوكة على جذع متلفتاً حوله بتوجس. خلفه توضع مقعد خشبي طويل جلس عليه حوالي خمس عشرة رجلاً من أشراف الدرجة الأولى. احتل كورغوقة مكانه بينهم في المركز، إلى جانب جانبولات توزار وقازانوقة جباغي واسلام بيك ميسوست، وإلى جانب حاتاجوقة جلس القاضي التتري، بينما وقف الشبان النبلاء غير بعيدين، وبينهم كان قوباتي الذي كان يهمس بشيء ما بالتتارية في أذن معاون القاضي الذي لم يكن موفقاً مع سيده. حشد من الناس البسطاء اجتمعوا والتفوا حول المحكمة العليا.
في البداية طلب من شوجنوقة أن يسرد أحداث ماجرى قبل سبعة أعوام، وأن يبين طريقة موت الأخوين محمد وإسماعيل حاتاجوقة وكذلك قارالبي توزار.
لم يرد عليغوكة أن يكرر اتهاماته وأكاذيبه الماضية، بل ألقى كل اللوم على محمد حاتاجوقة ذلك البغل بطبعه الشرس، فهو الذي قتل أخاه إثر مشادة كلامية، وهو أي شوجنوقة لم يستطع أن يوقف محمد الذي هاجم رجال قارالبي توزار، وقام بذبح النبيل

المحترم، وهنا لم يستطع شوجنوقة أن يردعه، ثم هاجم محمد منزل توزار في طلب للدرع الثمين - كان الدرع متوضعاً أمام أخلو على منضدة ثلاثية القوائم - لقد أراد أن يقتل جانبولات ليتخلص من ثأره الدموي.

كان شوجنوقة خلال كل هذه الأحداث يرافق حاتاجوقة محمد ولم يستطع أن يوقفه عند حده.

حتى عندما اصطدم محمد وجانبولات في معركة مميتة لم يكن بيده حيلة لإيقافهما.

كان الجمهور يستمع وهو يخشى أن تفوته كلمة واحدة من مرافعة عليغوكة، وهو الآن يتململ:

- إنه الآن يدحض أكاذيبه التي أطلقها بنفسه.

- يا لتوزار المسكين، لوث اسمه الناصع البياض بالدم لسبع سنين.

- حتى الكلب يمكنه تمييز الثلج الناصع البياض.

- اييييي.... انصتوا..... قوباتي يتكلم، إنه الشاهد الوحيد.

قام قوباتي بعرض وقائع الأحداث وتصرفات عليغوكة بدقة ووضوح.

- إذا كان محمد هو البارود، فإن عليغوكة كان الصاعق والفتيل، أما في ما تعلق بالدرع...

قفز شوجنوقة رافعاً يده معارضاً:

- هل يمكن تصديق هذا الكلام والاعتماد عليه؟ لقد كان طفلاً، ثم لا تنسوا أنه جلس في عربة غريبة مدة سبع سنين وتعلم أن يردد أغنية توزار عن ظهر قلب.

عدل اخلو من وضع شاربيه الفاخرين وتكلم بهيبة:

- نعم ... الأمر مبهم ومن الصعب فهم ملابساته، لكن الأهم أن الأمير عليغوكة اعترف الآن بأن توزار بريء من تلك المجزرة.

- الأمير عليغوكة شخص ذكي - ارتفع صوت جباغي الساخر - فهو يعلم أن الوشاية الفاضحة يمكن كشفها بسهولة، خاصة حين يتم خلط الحقيقة بالباطل بشكل مصطنع.
استقبل الجمهور تعليق حبيبها برضى.
- صحيح جباغي.
- إنه قول قوي.
- جباغي منا.
نظر أعضاء المحكمة اخلو وفيقوه إلى كورغوقة بانتظار كلمته.
- المحكمة تريد مني التكلم حسناً - نهض الأمير من مكانه - لم يعد الأمر يستحق من المحكمة أن تخوض أكثر بما يخص عائلة حاتاجوقة وتوزار، والحمد لله أنه لا يوجد بيننا لا ثأر ولا دماء. فلنتكلم عن خيانة عليغوكة المشينة، وأية حجج سوف يسوقها لنا عندما قام بتحذيرعليغوت باشا من الهجوم ثم مساعدته على الهرب؟ وماهو تبرير تواجده على الجهة المعادية عندما تم الهجوم السافر على منزل أفضل حدادي وصانعي الأسلحة في القبردي، يموز، حيث قتل هذا الرجل الرائع.
تكلم اخلو الواقع تحت ثقل المهمة الصعبة، التي تفرض عليه العدالة الإنصاف، بصوت جهوري جميل ولكنه غاضب:
- لماذا أنت ساكت؟ أجب.
- سوف أجيب - ارتعد شوجنوقة - إذا كانت الصداقة تجمعني مع عليغوت باشا ألا يدعوني الواجب إلى إنقاذه من الموت.
- لماذا لم تبق معه إذاً - ارتفع صوت فيقوه للمرة الأولى - لماذا انضممت إلينا؟ لتتجسس علينا؟
- والله إنها لطلقة صائبة - علق أحد النبلاء.
رغم أن رياحاً منعشة هبت أتية من جهة البحر، ورغم أن الشمس كانت تختفي خلف الغيوم، إلا أن عليغوكة كان يتعرق.
- لم تكن رغبتي أن أنجرف مع التيار التتري - تحجج الأمير - وأنا لم أمتشق خنجري ضد قومي.
ومن غير انتظار راح القاضي التتري يضحك بسخرية:

- حقاً لم ترفع خنجرك - لم يستطع القاضي أن يبقى ساكتاً - ألم تسد الخان النصائح الطويلة القيمة التي تمكنه من تطويع القبردي؟ ألم تقدم الدرع هدية للخان لتعود وتسرقه من جديد.
- أليست هذه خيانة؟ - ارتعشت حواجب اخلو البيضاء - أجب أيها الأمير عليغوكة.
- دعوه يحدثنا عن يموز - صاح أحد من الجمهور.
- نعم وهذا مهم - وافق الوالي - وماذا عن يموز؟
- لست المذنب في موت يموز - عارض الأمير بحرارة - إنه عمل عليغوت باشا، لقد أراد استرجاع مقتنياته الثمينة المسلوبة.
- من الجيد إلقاء اللوم على الأموات - قال حاتاجوقة - فهم لا يستطيعون دحض الكذب.
ارتفع صوت توزار الجهوري القوي محاولاً التماسك:
- أراد عليغوت باشا استرداد مجوهراته، وأراد عليغوكة سرقة الدرع.
- لقد قلتها والأن أكررها، الدرع يعود لعائلة شوجنوقة - أعلن عليغوكة بوقاحة.
- نعلم هذه النقطة واعتراضك عليها، لكننا لم ننته من موضوع خياناتك.
- ولكنني لم أقتل في حياتي رجلاً واحداً... في حياتي كلها رجلاً واحداً.
كان قازانوقة أول من تصدى له مجيباً:
- ولكن بسببك هلك المئات من الناس. إن ذنب حامل الفأس في خرق قعر البرميل ليس بأقل من ذنب الفأس.
أحس شوجنوقة بأنه يتخبط في مياه تتجمد تارة وتغلي تارة أخرى بشكل لا تحتمل. وهو بذل جهداً يائساً للوصول إلى الشاطئ الضحل، ولم يكن ليستطيع أن يتنفس هواءاً نقياً، وهاهو الآن ينجذب نحو دوامة مائية ليبتلع مياه تحرق جوفه من شدة غليانها ومن برودتها القاتلة. كان قوباتي أحياناً يقع في دائرة نظره، فكان السر الذي اكتشفه مؤخراً ينقر رأسه ككروان واقع

في المصيدة، وهو إلى الآن لم يعرف كيف يستطيع أن يحول هذه المعلومة لصالحه. بعد القبض عليه وفي طريقهم من باقسان فكر أن يهدد قوباتي أوجانبولات بكشف القناع عن السر، لكنه أحجم خوفاً. لقد كان من الحماقة والطيش محاولة شراء حريته بحفظ السر وتعهده بعدم كشفه. الأرجح - فكر الأمير - " كانوا ليسحقوه مثل جرادة، ولأغلق قوباتي فمه إلى الأبد، ولو تكلم مع المربي والربيب دون تواجد الشهود لانتهى الأمر بخنجر في حلقه. ثم بماذا تهدده هذه المحكمة الغبية، لن يكون هناك حكم بالإعدام، إذ لم يحصل في تاريخ القبردي أن حكم أمير بالإعدام. الموت في مبارزة للثأر أو في حادثة اعتداء فهذا شأن آخر. الأفضل الانتظار إلى ما سوف تذهب إليه الأحداث. وعندما يخرج من هنا حياً لابد وأن يجد طريقة ينتقم بها من الأمير الأكبر، وسيكون السر الصغير سيفاً في يده "

- مهما يكن أنا لا أحمل دم أحد، والدرع الذي يحمل كتابة عربية هو ملك آل شوجنوقة.

كان شوجنوقة المجرم يعاند واثقاً أن الوقاحة لا تجلب النصر، لكن لا بأس أن ينتقل الحديث إلى الدرع. وهذا ما حدث.

أصلح اخلو من وضعية شاربيه من جديد، وبدهاء سأله غامزاً الحاضرين بخبث:

- هل تخبرنا أيها النبيل عليغوكة، ماهي تلك الكلمات المنقوشة على الدرع المقدس التي لا يمكننا قراءتها والتي تثبت أحقيتك به؟

ما أن تهيأ شوجنوقة للإجابة حتى قفز القاضي التتري من مكانه وهو يلملم عباءته كما تلملم النساء أرديتها.

- إننا... إننا نستطيع قراءتها - صاح بصوت من يدعو إلى الصلاة - تعال إلى هنا يا معاوني العزيز، اقترب أكثر. إنني وهذا الرجل كنا قد وعدنا الأمير كورغوقة بترجمة الكتابة المقدسة له. هذا الرجل يمتلك من المؤهلات ما جعله يحوز على منصب - أمين الدفاتر - عند شبيه القمر حاكم القرم. والآن إقرأ.

- إقرأ... إقرأ ...
ارتفعت عدة أصوات بين جمهور الفلاحين وتزاحموا مع صفوة نبلاء القبردي. ظهر على وجه أمين الدفاتر المتجعد الكئيب اهتمام حقيقي، انحنى نحو الدرع وتمتم بشفتيه الكبيرتين المتشققتين، ثم استقام. لاحظ الجميع كيف تبددت الابتسامة عن وجهه.
- ماهو المكتوب ... تكلم - أمر حاتاجوقة .
- سوف أتكلم - بدأ المثقف وقد فقد صوته - سوف أتكلم، ولكن هذه...هذه تعويذة غريبة، لكن أقسم بأنني سأخبركم بالصدق.
- نعم سوف يخبرنا - وعد القاضي.
أخذ المثقف نفساً عميقاً إلى صدره.
- سوف أقول لكم ماتعنيه كل كلمة هنا. ياإلهي ياحنان ويا مجيد، وتعني الحق القادر- هز من كان يدرك معنى العبارة بين الحضور برأسه موافقاً - ياالله ياحنان يا مجيد فلتنصب لعنتك على رأس الخنزير الذي يرتدي هذه الحلة القادمة من بلاد الكفار وليهلك صاحبها وهو يعاني الألم المرير.
لو أن عجلة ساوسروقة تدحرجت من أعلى الجبل الآن، أو أن الكلب سامير بأجنحته الأسطورية حط على شجرة الأجاص الهرمة مطلقاً صراخه، لما كان المتواجدون أكثر دهشة.
فقط اخلو، مسح براحتيه وجهه بمهابة وكأنه يقوم بالوضوء، وقال:
- آمين.
لو لم تكن كلمة آمين هذه التي قالها بكل بساطة لشعر كل الحاضرين بالخزي والمهانة، لكن وبعد دقيقة من الشرود دوى صوت ضحك مرح تقاطع مع أصوات بعض المستائين.
قهقه الأمراء والنبلاء الشامتون، ابتسم توزار بسخرية هازاً رأسه، وكذلك قوباتي... كم من المصائب، كم من الخسائر الفادحة، الدم والقذارة، وكل هذا من أجل ماذا؟

احتمل كورغوقة حاتاجوقة الصفعة بصعوبة وبهدوء عابس، رفع ذراعه مرغماً الجميع على الصمت.
- لم تقل المحكمة كلمتها الأخيرة بعد. أية عقوبة يمكن أن يحملها هذا الخائن؟
كان الأمير في هذه اللحظة وأكثر من أي وقت مضى يشعر بأشد الكراهية والضغينة تجاه عليغوكة، رغم أن النقش على الدرع لم يكن لعليغوكة يد فيه.
تلفت اخلو وفيوقه من دون حماس. لف الصمت المكان. الحكم الذي دار في رؤوس الجميع والذي لم يستطع أي منهم إعلانه سبقهم إليه القاضي التتري. صحيح أنه لم يعلنها للمحكمة بل قالها للجالس بجانبه اسلام بك ميسوست، لكن الجميع سمعها:
- الخائن الذي يقع في قبضتنا، يحكم بالموت السريع. ولكان الخان قد أمر بنزع جلد عليغوكة وشده على طبل كبير.
- ماذا تقول أيها المحترم؟ - اضطرب ميسوست - أن تحرم حياة أمير... أميييير.
- إذاً جردوه من لقب الإمارة. - صاح أحد الحاضرين .
قفز ميسوست من مكانه:
- لم يحدث أبداً أن حرم أمير من لقبه. ألا يكفي أن نطرده؟
توقف اسلام بك عن الكلام وجلس، وكأنه تكلم بأكثر مما يجب.
صدر الحكم النهائي كالتالي:
" يوضع الخائن شوجنوقة على حصان وضيع غير مسرج، ويقاد إلى حدود القبردي دون أي حق في حمل سلاح، ويتم الإعلان أن شوجنوقة قد جرد من لقب الإمارة، ويستطيع أي شخص أن يقتله إذا ما رآه على الأرض القبردينية، وتصادر جميع ممتلكاته وتوزع "
استمع عليغوكة إلى الحكم دون إحساس. فبعد أن كشف سر التعويذة الملعونة فقد كامل وقاحته ورغبته في المقاومة. ماذا لو أن الخان قرأ هذه الكلمات الصغيرة، إذاً لهدر صوت جلد عليغوكة المشدود على طبل، قرعاً بالعصي.

وجدوا فرساً هزيلة، وتطوع عدة شبان متشوقين لصحبة كهذه.
- ألبسوا الخنزير درعه - أمر الأمير.
سارع اثنان من الفتيان إلى تنفيذ الأمر وهما يتضاحكان. لم يقاومهم عليغوكة المسحوق. رافقه الحشد كله حتى حدود النهر. كان عليه أن يعبر النهر إلى الضفة الأخرى، ثم المتابعة حتى حدود القبردي في رحلة مشؤومة. تتبعه التعليقات الساخرة، لكن عليغوكة لم يكن يسمع شيئاً من هذا كله. فجأة عندما وصلت المياه إلى خاصرة الفرس، التفت على صوت عجوز ثاقب، ورأى الجمع يرقصون باستعراض وهم يغنون:

" من يأكل الملح
يطلب شرب الماء.
لن تعرف أين يكمن الحظ
إذ يحدث أن تسقط أسنانك وأنت تشرب الحساء "

هنا انتعش شوجنوفة وانتفض وكأنه يرمي الوساوس العكرة عن نفسه، وبكل ما حملته رئته الضعيفة من قوة زعق:
- عند الوداع سوف أسعدك يا كورغوقة اللعين... لا ابن لك... لا يوجد عندك ولد، لقد مات ابنك لحظة ولادته، واستبدلوه بأخر من صلب خادم... قوباتيك الذي أعطيته لقب نبيل... كل هذا من صنع يد العاهرة خاديجة. في حال لم تصدق اسألها.
لكز شوجنوقة فرسه بقدميه واتجه نحو منتصف النهر. وقع الحصان في التيار القوي وانجرف إلى المنطقة العميقة، لكن وكما لم تستطع مؤخرة تابعه حاغور من الصمود فوق الحصان، لم تستطع مؤخرة عليغوكة الصمود. أخذ التيار السريع الحلة الرومية، بأزرارها الذهبية ووجه الأسد المزمجر والكتابة العربية المنقوشة في مكة المكرمة لتختفي في القاع.
في البداية حاول الجمع هضم الخبر المزلزل الذي أطلقه الأجرب. ثم انحرفوا عنه لينشغلوا لبعض الوقت بموته.

ومن جديد قفز القاضي بهياج :
- لقد تحققت اللعنة التي انطلقت من مكة المكرمة - وأشار بيده باتجاه القبلة - الخنزير المذكور هاهو يموت ميتة بشعة اختناقاً. اللهم اغفر له ذنوبه... آمين.
- عندما لا يتم الدفع تكون الدعوة للميت مختصرة.
علق أحد الشباب المزارعين دون أن يتحمس له أحد. إن كلام القاضي أيقظت في نفوس الغالبية شعوراً دينياً، حتى أن أحد المسنين وجه اللوم إلى الشاب.
- هذا ماكان ينقصنا أن نستمع إلى التفاهات - علق أحد الملحدين.
قاطعه بقوة :
- قبل أن تتهم الناس بالتفاهة، أثبت أولاً أنك أنت لست تافهاً.
موت عليغوكة لم يمس الأمير كورغوقة إلا قليلاً، لكن الطلقة التي أصابت القلب، كانت كلمات الأجرب. لماذا صدق بسرعة الأمر؟ ويبدو أن الكثيرين صدقوا تلك الشائعة. توجه بنظره إلى العجوز، نظر إليها نظرة ثاقبة، وهو يشعر بعشرات العيون قد سلطت عليه. عيون فضولية وأخرى مستفسرة غير صبورة.
شعرت خاديجة بالخوف وحاولت الإختباء خلف الجمع، لكنهم لم يسمحوا لها بذلك. عاد الناس من النهر بعد أن فقدوا اهتمامهم بمصير شوجنوقة.
- تكلمي أيتها المرأة الطيبة - كان صوت كورغوقة تعباً - ولا تحاولي أن تخدعيني.
- وماذا علي أن أقول؟ - صاحت خاديجة - إنني لا أعلم شيئاً.
- تعلمين، إذ بين يديك توفيت زوجتي.
- على يدي، ولكن لا علم لي بما ثرثر به هذا المجنون. اسأله، اسأل الثعلب المتفسخ نفسه.
- ماذا تظن نفسها هذه الساحرة العجوز - احتدم ميسوست غيظاً
- دعونا نضعها بين نارين، وعندها سوف تغني لنا أغنية أخرى.

- يمكن أن نضعها - وافق كورغوقة وهو مازال يحدق بثبات وعناد في عيني خاديجة.
ارتعدت العجوز. إذا تعاملوا معها كساحرة سوف يضعونها بين نارين، وسوف يجبرونها على الإعتراف وتسمية مساعديها الشياطين الأربعين، عندها هي لن تذكر أربعين إسماً فقط، وإنما ستسمي أربعة أضعاف الأربعين إسماً. ثم سيجبرونها على أكل كبد كلب مشوي، يغرز على عود، ومن ثم سوف ينظفون حلقها بذلك العود. وهي ستتقيئ قدراتها السحرية وتراقب لمدة ثلاثين يوماً لا تأكل خلالها لحم الدجاج، وإلا سوف تسترد تلك القدرة مرة ثانية.
نادراً ماكانت هذه المعالجة تطبق، ومن الطبيعي أن لا يسمح كورغوقة بهذه الوحشية، لكن لابأس من تهديد العجوز العنيدة.
تكلمت خاديجة عن كل شيء. كيف أن زوجة كورغوقة لم تحتمل المخاض، تكلمت عن موت الوليد، وكيف أسرعت تلك الليلة إلى منزل الخادمة التي توفيت قبل أيام تاركة وليداً دون معيل. أخذت الطفل الذي يكبر ابن كورغوقة الميت بقمر ونصف، ووضعته مكانه، ثم وعن طريقها وجدت للطفل اليتيم مرضعة. دعي الطفل بقوباتي، وتكنى باسم الأمير. والده الحقيقي كان خادماً مات قبل ولادته بانهيار صخري في الجبال.
- والآن أنا أسألك - تشجعت خاديجة بعد اعترافها - لمن أسأت بهذا؟ ماذا خسرتم عنما ترعرع بينكم هذا الفارس الباسل؟ أي جانبولات ... لاتندم على الجهد الذي صرفته.
- لست نادماً - قال توزار بسرعة.
- وأنت أيها الفتى لا تبتئس - التفتت العجوز إلى قوباتي - مَن من الأشراف يجاريك قوة وشكلاً، وجمال وجه؟
- وعلى ماذا؟ - رفع قوباتي صوته وخطا نحو الفلاحين - يقولون إذا لم تكن راعي ثيران جيد، لن تصبح فارساً جيداً. لقد أصبحت فارساً، أعتقد أنني أستطيع أن أكون راعي ثيران جيد لحاتاجوقة.

- أي خادم هو - قال كورغوقة هامساً - إنه فارس حر.
بخطوات عجوز توجه الأمير إلى حصانه.
أخذ قازانوقة قوباتي من كتفه، وباليد الأخرى أمسك بيد جانبولات.
- اللهم وفق كل واحد منا لتربية واحد من أمثال هذا الخادم.
همهمت الجماهير المحتشدة مستحسنة مقولة جباغي.

* *

لم يكد آل يموز وجيرانهم من القرية المجاورة يصلون إلى منازلهم، عائدين من ملاذهم حتى وصلتهم الأنباء على أجنحة السعادة تفيد بتحطم قوات القرم. كان الملجأ محاطاً من جميع الجهات بالصخور العملاقة العالية، وكان قريباً من شلالات تشغم، ويصل إليه طريق ضيق بين الجدران الغرانيتية. وهو من الضيق بحيث لا يسمح لفارسين بعبوره معاً، حتى أنهم نقلوا المتاع والحاجيات يدوياً.
في ذلك الملاذ نمت الأعشاب بوفرة، وكذلك الأشجار البرية المثمرة، بينما انحدر شلال من أعلى إحدى الصخور.
عاد أبناء القرية إلى منازلهم السليمة هذه المرة، ولم تكن أية امرأة بحاجة إلى الصراخ " ياالله هذه بقرتي حلت ضيفة عندك "
أخبار القبض على عليغوكة الأجرب، والمحكمة، والنهاية المخزية للأمير، وقصة الدرع العجيب، كذلك الرواية عن أصل الفتى قوباتي الذي تبين أن أمه لم تلده أبداً وصلت إلى مسامع نالجان وسانا وجيرانهم قبل وصول جانبولات وكوانتشه. لم يرغب قوباتي بالعودة معهم. كبرياءه لعب لعبته، وقد تفهم توزار الأمر وأدرك أن ما يحتاجه قوباتي الآن أن يبقى بعيداً عن وصاية الأكبر سناً. رحل الصبي مع نارتشو، وحاول كوانتشه أن يتبعه لكن جانبولاط لم يسمح له.

ـ لماذا تركته يرحل ـ قال كوانتشه بدهشة.
ـ لأن هذا يشابه الرجل الذي ذهب ليرقص فطلبوا منه أن يعيد البنطال بسرعة.
ـ آ آ آ...
فهم كوانتشه المرح، فأردف بصوت منخفض وبلهجة عملية:
ـ وماذا في ذلك، دعه يرقص.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

أضحت سانا حزينة، حالمة، وراحت تضع الخاتم الذي أهداه قوباتي لها علناً، لكنها كانت تخفي أحاسيسها، كذلك كنة أخ الزوج. ثم أنها قامت بتأليف أغنية دون أن تذكر فيها أية أسماء حتى لا تؤذيها الأرواح الشريرة (تحدثت فيها عن قوباتي ومواصفاته.)

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كانت قد مضت أربعة أعوام، أعاد فيها توزار بناء منزله على أرض أبيه. ثم أنه صار يرتدي القلبق بطريقة تمس حوافه حاجبيه، أي أنه تزوج. تمنوا له حياة متماسكة كما الشعر الملتصق بالعسل. وأن يحصل على كم من الطيبة بحيث يكون الدخان المنبعث من مداخن منزله دائماً فضية من فرط الطيبة. وتمنوا لنالجان أن لاينفتق ما تطرزه، وأن تحيا بسعادة مثل إوزة، وبحنان مثل حمل، وأن تكون ولودة مثل دجاجة، وكريمة مثل التربة، وأن يكون قلبها كالنار حاراً.
عاشت سانا مع الزوجين منتظرة قوباتي. أما كوانتشه فقد بقي في منزل يموز وصار يطرق السندان بالمطرقة.أطلق توزار لحية جميلة كثيفة، شذبتها له نالجان. وفي الوليمة التي أقامها

على شرف اللحية ظهر قازانوقة جباغي وكذلك نارتشو، أما العنيد قوباتي فقد تغيب.
أخيراً وافقت نالجان بعد محاولات إقناع مضنية من جانبولات وسمحت بزواج ابنة أخيها من قوباتي. وهي تؤكد وتقسم بتحه أن الخنجر الذي سوف يقطع الشريط الحامي لعفة ابنة أخيه لا يجب أن يكون لرجل وضيع.
التقى جانبولات مع ربيبه وطلب منه العودة إلى منزل يموز الذي آل إليه وتكلم معه عن الفتاة. قطب الشاب حاجبيه، وارتج شارباه المعلقان عند زوايا فمه القاسي وهمهم عن حاجز ما، مثل ما يعطى شفقة لا ينفع للتخزين. مع علمه التام أن توزار ونالجان لا يشفقان عليه.
في إحدى المعارك الجانبية يقتل نارتشو فيتوجه قوباتي مع جاريتش الذي أصابته رصاصة أعطبت قدمه إلى المزرعة ليستلم ورشة الحدادة بسرور، وليقوم جاريتش برعي ماشية المزرعة. كان يعرج بشدة وقد شاخ كثيراً خلال الأعوام الأربعة التي مرت.

القسم الختامي

الخبر الثامن عشر والأخير

إذا مات الحداد... بقيت أفعاله
إذا مات الحكيم... بقيت أقواله

في ربيع عام ١٧١١ توجه الأمير ألكسندر بيكوفيتش تشركيسكي النقيب في الحرس الروسي، صديق ومستشار بطرس الأول إلى القبردي في مهمة تتعلق بالبلاد الشرقية.
(من جلالته المعظم ... تنفيذاً لأوامر جلالته الخاصة بالمهام الملحة، يرسل ألكسندر بيكوفيتش تشركيسكي من موسكو إلى قازان ثم استرخان ثم تيرك. ومن ثم عليه العودة من تيرك إلى موسكو. على أن توضع تحت تصرفه ثلاثين عربة لخدمته على الطرق البرية وسفن مع أطقم مجدفين لعبور الطرق المائية.).
رحل تشركيسكي بقوة ومهابة حاملاً معه من بطرس إلى (الأمير تترخان وإخوته والحكام الآخرين، وإلى عموم الشعب القبرديني، كلمته المباركة)
"وصلنا نحن السيد الأعظم من أخينا الأمير ألكسندر القائم على خدمتنا أنكم ترغبون الإنطواء تحت حماية الدولة العظمى والقيصرية الجليلة من نير الأتراك وعبودية القرم... الذين لا يكنون الود لكم وتعيشون معهم في مشاحنات دائمة... كما وصلت رسائل إلى تابعنا القيصر ارتشيلو فاخنانغيفيتش تحمل نفس المحتوى. لذلك قررنا أن ننظر إلى طلبكم بعين العطف، وأن نضعكم تحت تابعيتنا، وسوف نقوم بالدفاع عنكم، على أن تظهروا الثقة بالوقوف ضد السلطان العثماني وخان القرم الذين أعلنا الحرب ضدنا، خارقين السلام، ومهددين بالعدوان

مجتمعات كثيرة. إننا وفي حال انضمماكم إلينا لن نطالبكم بأية ضرائب وإنما سنمدكم بما ينفعكم كما مددنا سابقاً ايوك - خان وبتخصيصكم بالرواتب، وسنطلب منكم التعاون مع القالمق وقوزاق الدون واليلسك والغريينسك.
حرر في اليوم الرابع عشر من آذار ١٧١١ . السنة ٢٩ من عمر حكومتنا."

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

أقام أشراف القبردي الاحتفالات على شرف الضيف الرفيع، تخللتها مسابقات الفروسية والرماية. كان هناك كثير من الجدل والعتاب المتبادل بين هؤلاء النبلاء، فالجميع يريد أن يكون مركز الاهتمام، وأن تكون كلمته محطة الأنظار. لم يتبرم ألكسندر (أو دولت غيري كما كان اسمه في شبابه، قبل تحوله إلى المسيحية.) حاول جاهداً أن يجيب على جميع الأسئلة المطروحة. كانت الأسئلة متفاوتة، بعضها بدا ذكياً، صعباً، خبيثاً، وأسئلة محرجة وغبية، بل وحمقاء محضة.
- لماذا لا يقدم لنا القيصر البنادق والمدافع؟
- لا يوجد لدى القيصر حالياً مايسد به حاجة جيشه.
- هل في نية الروس أجبارنا على الدخول في ديانتهم؟
- لا لن يتم ذلك.
- في حال الهزيمة مع الأتراك، ألن يتركنا الروس من جديد؟ ألن يرموا بنا إلى التهلكة؟
- لم يحدث أن تركَكم القيصر من قبل. ولن يحدث مستقبلاً.
- هل يعيد الروس لنا عبيدنا الهاربين إليهم؟
- سوف نتفق على هذا.
- ماهي مقدار الضريبة التي سيفرضها علينا القيصر؟
- لاتوجد ضريبة، إنه لن يفرض أي شيء.
- لماذا لم تتزوج من ابنة القيصر؟

- ......
- كم من الجياد في قطعان القيصر؟
- مايكفي لسلاح الخيالة وليس للاتجار بها.
- هل صحيح أن بطرس يأكل في الوجبة الواحدة ثوراً بأكمله؟
- إنه يأكل كما يأكل فرسان القبردي.

على هذا المنوال دارت الأسئلة بين نبلاء القبردي وممثلي روسيا العظمى. كان النقاش شاقاً ولكنه لم يكن صعباً، بحيث لا يصل تشركيسكي إلى هدفه الأساسي، فالجماعة المؤيدة لإسلام بك ميسوست بدت قليلة ولم تتخذ موقفاً واحداً. وقد رجح ألكسندر الكفة إلى جانبه. فهو كان قد التقى بأمه وعلم منها خلفية كل أمير يؤيد الأتراك والقرميين. فكان من السهولة شق ذلك الصف واختراقه. من الطبيعي أن ذلك كلفه الإغداق على البعض بالهدايا والمال لتصبح الغالبية إلى جانبه. ولكي يؤكد حضوره بين أفراد القبيلة كرسول من القيصر، وأنه واحد منهم أيضاً، كان يظهر أحياناً بالزي الخاص بفوج بريابراجينسكي مع الشعر المستعار، وأحياناً في لباسه الشركسي التقليدي مع القلبق، وهنا كان يتميز عن الحضور بوجهه الحليق تماماً. وخلف الموائد كان يرفع الأنخاب الجميلة، ويتملق بمهارة ويلقي النكات بفظاظة.

لو أن تشركيسكي لم يلعب لعبته تحت غطاء الدبلوماسية لترك انطباعاً كرجل مخلص وصادق، ومقتنع بقضيته وعدالتها.

ذات ليلة احتدم نقاش حقيقي في منزل الأمير تترخان مورزا. كان الليل الصيفي يتنفس من خلال باب المضافة التي عبقت برائحة الأعشاب وأشجار التفاح الناضجة، وكانت الرياح تنقل رائحة الدخان والزبل أيضاً.

تأرجحت الشمعات الطويلة في المضافة الرحبة، وتشرب الحطب المشتعل بالدهن، وبدت وجوه الناس تلمع بحبات العرق وبتأثير الشراب القوي.

- والله...والله لا أفهم، كيف تريدون الإتفاق مع الكفار؟ - صاح الأمير العنيد محمد كورغوقين - اشرحوا لي هذا من فضلكم.

تكلم تترخان صاحب الرسالة إلى القيصر موضحاً بهدوء، بعد أن هز رأسه بعتاب.

- قبل أن نقرن اسم الله بكل كلمة يامحمد يجب أن نتذكر أن للسيف قانون، طالما هو حاد، هو قاطع. والذئب يلتهم الحمل دون أن ينظر إلى العشب. وأولئك إخوتنا في الدين كم مرة أفرغوا أرضنا، وكم من الناس وقعوا عبيداً بين أيديهم، اقتادوهم إلى البلاد الغريبة. وهاهم يتحضرون من جديد لعدوان تخريبي أخر، والخان الجديد يطالب بأربعة ألاف فتى وفتاة، لم تعد الثلاثة آلاف تعجبهم. إن حكام باختشيساري أصبحوا يتعاقبون على الحكم بأسرع مما تتبدل أوراق الأشجار، وكل منهم يسارع إلى اقتطاع لقمة دسمة من القبردي.

- أوافق معك أيها الأمير تترخان - قال قاساي بك أتاجوكين - اللباس المطرز بالذهب لن يخفي دمامة مرتديه، كذلك الإيمان إن لم يتوافق مع العمل.

فتح الأمير المعظم اخلو فمه وهو يعدل من وضعية قلبقه :

- بالنسبة للحمل والعشب، كيف يمكن أن أشرح لك الأمر يا عزيزي كورغوقين حتى تفهم المغزى تماماً. لدي جياد من أنواع مختلفة ممهورة بدمغة عائلتي، وعند قريبي ذات الأصناف من الجياد ولكنها تحمل دمغة أخرى.

ارتفعت أصوات استحسان وضحك، بعد حديث أتاجوكين و اخلو.

- أقسم أن هذا صحيح، إننا والروس أقرباء رغم اختلاف أختامنا.

- أما بالنسبة للأتراك والتتار، فإننا جيادنا مختلفة.

- بالضبط رغم رابطة الدين التي تجمعنا معهم.

- لاتنس أن الدين جمعنا مع الروس في وقت ما.

- نعم كانت الديانة الإغريقية منتشرة بين القبردينيين قبل الروس بزمن طويل.
لوى إسلام بك شفتيه، أما كورغوقين فقد حدق أمامه بعبوس. بينما ابتسم تشركيسكي ابتسامة نبعت من أعماق قلبه، وبدت مسالمة، بل وخجولة نوعاً ما. كان ينتظر تعليق قازانوقة جباغي.
تغير قازانوقة خلال الأعوام الأربعة التي مرت. أصبحت قسمات وجهه أكثر حدة، ونظراته أكثر صرامة، واختفى التألق المرح السابق فيهما، وظهرت خيوط بيضاء في لحيته السوداء.
هدأت الأصوات كلها معاً وكأنها تلقت إيعازاً، وتوجهت الأنظار إلى قازانوقة.
نهض قازانوقة من مكانه ببطء، نظر باتجاه باب المضافة المفتوح. من هناك ومن خلال الظلمة كانت تأتي أغنية لآلاف الضفادع.
- لقد بدأوا بالشغب مثل العساكر التتارية المخيمة - قال قازانوقة.
ارتفع ضحك قصير خافت، اهتزت شعلات الشموع، عاد الصمت من جديد. ماذا سيقول العجوز ابن الثلاثينيات؟
- الكثيرون منكم شاهد الآثار القديمة على شواطئ زيلينتشوك و اتوكو - بدأ جباغي بالحديث - عمر هذه الآثار أكثر من ألف سنة. والكلمات المنحوتة على هذه النصب الحجرية لا يستطيع أحد اليوم قراءتها. إنها رموز إغريقية بكلمات قبردينية. لقد كان أجدادنا يمتلكون ناصية الكتابة التي ساهم الأتراك بزوالها وبزوال العقيدة الإغريقية.
- فليعاقبك الله على كلماتك هذه يا جباغي. - لم يستطع ميسوست الاحتمال أكثر.
- فليكن كما تريد يا إسلام بك... واسمح لي بمتابعة حديثي. لقد خسرنا الكثير وتقلصت أعدادنا، وجاء الأتراك والتتار، سدوا علينا الضوء لكي نبقى في ظلام دائم وعبودية، وهاهم الآن

يدعون أنهم إخوتنا في الدين. لماذا سفكوا دمائنا وأخذوا منا بالقوة خيراتنا؟ وهم الآن يريدون أن يأخذوا الكثير مقابل القليل، منذ غابر الزمان والدول الأقوى تسعى لجعل جيرانها الأضعف لقيمات سائغة لها، حيوانات في فناء حظائرها، وجنود تنتزع من بين الشبان لتتحول إلى قوى شابة طازجة تخدم في الحملات والغزوات.

- هذا من أجل الحملات المقدسة - قاطعه كورغوقين.

- غزوات - شدد ميسوست على الكلمة.

ابتسامة مست شفاه جباغي.

- كيف يمكن للحملة الموجهة لنهب خيرات الأخرين أن تدعى حملة مقدسة؟ ....

- أنت تريد أن تصبح عبداً للروس. - لم يتراجع ميسوست.

- لا - قال قازانوقة - لم يكن الخضوع صفة ملازمة للأديغة أيها الأمير إسلام - شدد جباغي على الأسم دون أن يتبعها بالبيك - إننا شعب قليل العدد، لكن لن نصبح مطية لأحد، لن نخضع ونحط من كرامتنا وشرف إنسانيتنا، لن نتبع من يريد أن يهين هذا الإنسان كائناً من كان، طفلاً أم امرأة، مسيحياً أو وثنياً. هنا القيصر لايريدنا أجراء له، إنما أصدقاء، وهو لا يطلب جزية أو ضريبة، هو مستعد لتقديم العون لنا. مقابل ماذا؟ مد يد العون له في حال اعتدى التتار على الأرض الروسية. وبدورهم سيمدوننا بالمساعدة إن هاجمنا القرميون. إنه يريد أن يطمئن وأن يعرف أنه بين بحري آخين وخازاس يعيش أصدقاء مخلصون له. لماذا علينا البحث عن أقرباء بعيدين، إذا كان في الجوار أخ أكبر، قوي وطيب.[١]

---

[١] - لقد أثبت القيصر أخوته الصادقة للشعب الشركسي عندما أعطى أوامره بتهجير الشراكسة خارج أرضهم- وهذا ما لم يعايشه الحكيم قازانوقة - دافعاً بمئات الآلاف منهم إلى شواطئ البحر الأسود في رحلة التهجير المشؤومة إلى داخل الدولة العثمانية، ناهيك عن الإبادة الجماعية التي مارستها روسيا القيصرية والتي ترتقي بلغتنا المعاصرة إلى مستوى جرائم حرب. وحتى اليوم مازال أحفاد هؤلاء المهجرين في الشتات يتطلعون إلى

لف قازانوقة الجالسين بنظرة منتبهة نفاذة.... انتظر صامتاً الاعتراضات المحتملة، ثم جلس. ساد الصمت لبعض الوقت في المضافة حتى أن خرخرة الجياد كانت تسمع بوضوح. وبصوت هادئ يخشى أن يقطع به هذا الصمت المخيم تكلم تشركيسكي :
- إن كلمة أخينا جباغي لها أجنحة عريضة، وهي ستطير حتى البحار الشمالية، إنني أعيش بعيداً عن أرض وطني لكنني أحمل روحها معي دائماً، عاداتها دوماً معي. هذه الروح التي علمتني أنه إذا ذهب الحداد بقيت أفعاله، وإذا ذهب الحكيم بقيت أقواله.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

تقاطرت الأفواج التتارية إلى منحدرات نهر بسيج وقد سنت أسنانها لالتهام القبردي واستعدت قبائل الناغوي للانضمام إليها. غير أن خطة الهجوم المرعب كانت قد انهارت، فلقد تقدمت قوات ابراكسين بأعدادها التسعة آلاف مقاتل من الشمال مشتتة خيالة الناغوي الحليفة للقرم، مجبرة إياها و قوات كبيرة من تتار ماوراء الكوبان على الفرار.
كان من الصعب إيجاد فرصة أكثر ملائمة من هذه ليهاجم القبردينيون أفواج الخان. استطاع تشركيسكي إقناع نبلاء القبردي أنها الفرصة الثمينة لإظهار الصداقة والولاء للقيصر. هاجم القبردينيون التتار بحزم وضراوة، بحيث راحت القوات المعادية تتساقط في النهركما تتساقط الصخور من أعلى الجرف. كان من المستحيل إحصاء عدد الذين قتلوا وغرقوا في الكوبان، بدا واضحاً أن العدوان التتاري غرق في الكوبان. وكان الأمير

وطنهم الأم بقدسية، منتظرين من ورثة جميع الجهات التي كانت معنية في نكستهم الإعتراف بحقوقهم المشروعة و العودة إلى وطنه الأم.

تشركيسكي سعيداً جداً بنجاحه، لذا سارع لإرسال تقريره إلى روسيا.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

مرسوم مجلس الشيوخ الحكومي الخاص بمطالب رسل القبردي، سلطان علي اباشي و ارزامس اكارت وغيرهم من الموفدين من قبل أ . تشيركيسكي, الذين حملوا خبر انتصارهم على تتار ما وراء الكوبان.

وصلت رسالة ترويتسكي إلى الأدميرال جنرال في سلاح الخيالة الكونت فيودور ماتفيتيتش يقول فيها أن الأمير ألكسندر بيك مورزين ابن تشيركيسكي كتب له عن المعركة بين تتار الكوبان بقيادة مراد الدين سلطان، والشراكسة. حيث قتل ٣٥٩ من التتار، ووقع ٤٠ في الأسر. وقد جرح سلطان في المعركة إلا أنه تمكن من الفرار مع مجموعة صغيرة، والباقي غرق في النهر. الغنائم كثيرة. ومع هذه المعلومات أرسل حكام القبردي ثلاثة من نبلائهم مطالبين مقابلة جلالة القيصر.

بعد المعركة راح عدد من الأمراء بينهم تشيركيسكي وقازانوقة يتمشون على طول الخط الضيق للشاطئ، حيث هدأت المعركة منذ عهد قريب. لحقهم وسبقهم بسرعة فارس امتطى جواداً اسوداً لا تشوبه شائبة، كان يصلح من وضعية رداءه الأسود الذي تهدل على كتفه. التفت برأسه للحظة خاطفة محيياً قازانوقة. تذكر تشركيسكي الفتى صاحب الوجه القاتم والحواجب العابسة مع التقطيبة الحادة بين الحاجبين:

- من هذا؟ - سأل تشيركيسكي جباغي - لقد رأيته خلال المعركة يقاتل كحصاد في حقل.

نظر قازانوقه إلى الفارس المسرع بتفكر:

- اسمه قوباتي.

- من أية عائلة هو؟

- إنه من البشر، وينتمي إلى عائلة الرجال الأديغة.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

في ذلك اليوم جرى حديث هام بين قازانوقة وجانبولات، فبعد أن أجاب كلٌ الآخر على الأسئلة التقليدية الأبدية، الصحة، العائلة، الأعمال، الأخبار المتفرقة، وبعد أن عبر كل منهما للآخر عن انطباعاه حول معركة اليوم، تطرق حديثهم إلى قوباتي.
- لقد رأيته، حتى أنه لم يتوقف.
- لا أدري كيف ستجري الأمور - هز توزار رأسه بأسى - الأحمق يعتقد أنه بتواجده معنا إنما يثقل علينا.
- لا ليس أحمقاً، لكنه الكبرياء .
- أدرك ذلك، ولكن كيف أشرح هذا للفتاة المسكينة؟ رغم أنها تدرك الأمر وهذا لا يقلل من شقائها.
- هل ما زالت تنتظر وتأمل؟
- إنها تنتظر.
- حاول أن تقنعه.
- لقد حاولت، لكنني أريد منك أنت يا جباغي أن تفاتحه بالأمر، وسوف تنجح في إقناعه.
- وماذا في ذلك... سوف أفاتحه، سوف أفاتحه بالتأكيد.
- هل فكرت في شيء ما؟
- نعم ولكن لا بد أن أحذرك...

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

بعد عدة أسابيع، وفي ليلة متأخرة، دخل فارس إلى ساحة دار يموز السابقة.

- آيييي... قوباتي ! اسرج حصانك بسرعة - دوى صوت ما، لرجل ما وهو يشير إلى الفتى.
ارتدى قوباتي ملابسه بسرعة وسارع إلى الساحة، اقترب من الضيف غير المنتظر وعلى ضوء القمر تعرف على قازانوقة. أسرع كوانتشه وأخذ لجام الحصان.
- تفضل أيها الضيف.
- لا يا كوانتشه أنا لم أحضر إليكم ضيفاً، أنا بحاجة إلى قوباتي.
توجه قوباتي إلى حصانه الأسود ليسرجه دون أية كلمة.
- وأنا ألست بحاجة إلي؟ - عبس كوانتشه.
- عمليتي لا تحتاج لأكثر من رجلين، وخلال يومين سيعود قوباتي إليك.
عند الفجر كانا بعيدين خلف بقسان. عند مغيب الشمس بعد استراحة النهار كانا قد اقتربا من تيرك. تلفت قوباتي حوله بحزن وهو يتذكر الحوادث التي مضى عليها أحد عشر سنة، فهنا أحد أعمامه قتل عمه الآخر، وهنا قتل توزار الأب ورجاله أمام ناظريه، وعادت ذكرى أمواج المياه الباردة والليلة المرعبة التي قضاها خلف جثة عمه إسماعيل. عند ذلك مرت قشعريرة باردة عبر ظهره.
ما أن أظلمت حتى كان الفارسان قد عبرا المخاضة عبر تيرك. وعلى الضفة الأخرى من النهر، أخبر جباغي رفيقه عن هدف الرحلة.
- سوف نختطف عروساً.
انتعش قوباتي إلى حد ما.
- إذاً لقد قرر عزيزنا جباغي أن يتزوج ! إنه لشرف أن أرافقك، ويسعدني أنك منحتني هذا الشرف.
- جوادك أكثر جلداً من جوادي - استمر جباغي دون أن يعلق على كلام قوباتي - لذلك سوف تنقل الفتاة أنت، وأنت من سيخرجها.
- حسناً.

- لا توجد هناك كلاب، والعروس على علم مسبق بالعملية، وستكون جاهزة.
- واضح.
في الواقع كان هناك الكثير من الغموض لم يدركه قوباتي. فلماذا يقوم رجل بسمعة جباغي على اختطاف فتاة؟ هل هي موعودة لرجل آخر؟ في هذه الحالة ألا يشوه اختطاف عروس رجل آخر سمعة جباغي الطيبة؟ على كل حال ليس من عادة قوباتي طرح الأسئلة الفضولية، ثم أن الأمر لا يعنيه هو.
عندما ظهرت من على بعد قرية صغيرة توقف جباغي.
- فلننتظر حلول الظلام. يبدو أنها ستكون ليلة مقمرة، لكننا سننتهي قبل طلوع القمر.
"في هذه البقاع يعيش جانبولات" - فكر قوباتي - وأحس بألم في قلبه.
شق قوباتي طريقه عبر الحديقة الصغيرة ذات الأشجار الذابلة، لقد شرح جباغي له كيف يجدها بدقة. انفتح الباب من تلقاء نفسه قبل أن يمسه الفتى، ورأى جسد فتاة غير واضح المعالم وقد تدثر بغطاء قاتم. حملها قوباتي بين ذراعيه بسهولة وكأنها طفل رضيع وخطا باتجاه سياج الحديقة.
خلال الطريق كله كان قوباتي متحفظاً فهو لم ير وجه الفتاة ولم يسمع صوتها أيضاً.
عند المحطة الأخيرة أخبر قازانوقة الفتى بلهجة من يدافع عن نفسه بأن الفتاة سوف تحمل إلى منزل قوباتي. وافق قوباتي بسرور، إذ لم يكن هناك شيء غير عادي، فالعروس المختطفة لا تحمل عادة إلى منزل الزوج وإنما إلى منزل أحد الأصدقاء. لقد كان قوباتي مفتوناً بالسعادة، فجباغي يعتبره صديقاً حقيقياً. اجتاحت موجات الغبطة صدر الفارس.
لم يدخل جباغي منزل قوباتي. كان كوانتشه الذي قفز من تحت السقيفة قد أوقف حصان قازانوقة الذي لوح بيده قائلاً:

- فلتعيشوا بسلام ... وليغني أولادكم في المستقبل أغاني المجد، سوف أحضر حفلة العرس.
- كيف؟؟؟ ما معنى هذا؟ - صعق الفتى - والعروس؟
- أنا لم أقل أننا سنذهب لاختطاف عروس لي، العروس لك أنت.
قهقه جباغي ثم لكز جواده وانطلق مسرعاً. انطلقت ضحكة نسائية من خلف قوباتي، بينما كان كوانتشه يهتف مندهشاً.
نظرت سانا في عيني قوباتي بارتباك لم يخل من الجرأة.
- والآن إلى أين يمكنك الهروب مني؟
- أوووو... أيتها العروس - شهق قوباتي - لم أشعر في يوم من الأيام بهذا الكم من السعادة.
- بما أنك اختطفتني بيدك خذني إلى المنزل.
- بل أنت من اختطفني، وعلى يدي أنا.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لم يعد ابن العرش البطرسي ألكسندر تشيركيسكي إلى وطنه أبداً. في عام ١٧١٤ كلفه القيصر بمهمة هامة جداً. كان عليه تتبع شاطئ قزوين وخاصة الجانب الشرقي منه ورسم خارطة له، فهذا الجزء لم يكن قد درس بعد. شارك في البعثة ألف وخمسمائة جندي مع ثلاثين كاسحة وسفينة شراعية، بالإضافة إلى تسعة عشر مدفعاً.
لم تذهب أيام دراسة الضابط المثقف في الخارج عبثاً، فلقد أتم مهمته على أكمل وجه ورسم أول خارطة جغرافية علمية دقيقة لبحر قزوين.
في عام ١٧١٧ كلفه بطرس بقيادة بعثة أخرى أكثر صعوبة وخطراً. كان قبلها قد تعرض لمصيبة مرعبة. ففي الفولغا عند استرخان هلكت زوجته مروه ابنة الأميرة غولسن وابنتيه الضعيفتين خلال عاصفة هوجاء أغرقت السفينة التجارية، لم

يتمكن فيها إلا إنقاذ ابنه. ومنذ ذلك الوقت تنتاب الأمير ألكسندر الأفكار القاتمة والأحاسيس المأساوية.
كان عليه أن يعبر صحراء خيفين مع أفراد بعثته. استقبله الخان شيرغاز بوجه لطيف، وتقبل من تشيركيسكي الهدايا بشغف، وأظهر اهتمامه بالعربة الفخمة التي صنعت خصيصاً له على يد أمهر الصناع الباريسيين. ثم استضاف الخان أفراد البعثة الستة آلاف مقسماً إياهم على خمسة مقاطعات، متعللاً صعوبة استيعابهم جميعاً في منطقة واحدة.
كانت خطيئة تشيركيسي القاتلة أنه وثق بالخان ووافق. إذ في ليلة واحدة ذُبح أفراد البعثة الروسية جميعهم، ولم يسلم تشيركيسكي من إعدام رهيب.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

استمر خانات القرم لمدة طويلة يغزون القبردي، غير أن الروس وخلافاً للسابق كانوا يدافعون بشكل جدي عن القبردي والجبليين.
حتى في عهد آنا التي أولت اهتمامها بمحبوبها وتناولت لحوم الخنازير المسلوقة على الغذاء، وشربت حتى الثمالة، مع العدد الكبير من الأزواج الحكوميين، أقربائها بالدم والمهتمين بشؤون روسيا، ماكانت لتترك أحداً من الرسل القادمين من شمال القفقاس دون اهتمام.
" نتوكل على الرب الخالد طالبين منه أن يسدد خطوات الأمبراطورة المتألقة العظيمة، ومع خضوعنا الكامل للرب نطلب ونتمنى أن يمن عليها بالتوفيق.
نعلمكم أننا ومنذ أيام القيصر ايفان فاسيليفيتش كنا مطيعين للأوامر ونتواجد في تلك الأمكنة التي يطلب منا الخدمة فيها. ونحن ومنذ ذلك الزمن مخلصين روحاً وجسداً.

إننا نعيش على حدود بقسان، لكن منذ أعوام عديدة لا نجد الأمن في بلادنا نتيجة العدوان المتكرر علينا من قبل القرم. لقد اعتدا قبلان غيري على حدود ممتلكاتنا بجيشه الكبير، لكن إرادة الرب اقتضت أن يهزم الغازي وأن يقتل معظم المقاتلين. لم نكن البادئين بالقتال، ونحن لم نذهب إليهم. ثم بعد فترة هاجمنا السرعسكر سلطان القرمي يرافقه باختي غيري سالتان، وكانا في عداد القتلى الكثيرين. وهذه المرة أيضاً كانوا هم المعتدين. إننا ندافع عن أرضنا ولا نجد راحة لا صيفاً ولا شتاءً، لا ليلاً ولا نهاراً. إننا عازمون على الدفاع عن أرضنا ولن نتخلى عنها أبداً"................

في عام ١٧٣١ عاد قبلان غيري للمرة الثالثة إلى غزو القبردي بعد أن أعيد تنصيبيه خاناً للقرم، لكنه هزم من جديد ....
لم تكن روسيا لتسمح للإمبراطورية العثمانية باحتلال القبردي....
في عام ١٧٣٥ هاجم العثمانيون والتتار القبردي مجدداً، مما تسبب بحرب الأعوام الأربعة بين روسيا وتركيا. كان آخر عدوان للخيالة الإنكشارية التركية والتتار على القبردي عام ١٧٧٤ وقد قام الأخ الأقوى والأكبر والأطيب بدوره.
لقد تكبدت القوات التي قادها خان دولت غيري هزيمة ساحقة عند حصن بيشتامارك ومنطقة الأنهار الخمسة حيث تتفرع أنهار باقسان وتشيرك ومالقا و مجرى تيرك. هرب الخان إلى الجبال حيث تمت تصفية قواته بالكامل قرب قرى باقسان وكوندولين.
ولم يكن اليوم الذي ستمحى فيه دولة القرم نفسها عن الوجود بعيداً.

كلمة المراقب المتأمل

عندما يحين موعد الفراق مع أناس لطفاء، فلتكن لحظة الوداع سعيدة، بحيث يتمنى الجميع لبعضهم البعض حياة مديدة مفيدة.
نحن نعلم أن مثل هذه الحياة توفرت لقازانوقة جباغي، بل إنه حظي على أكثر من ذلك، فهو لم يبق ابن زمانه، بل انتمى إلى تلك الشخصيات التاريخية النادرة التي عاصرت حياة قاسية بكل تفاصيلها وحاولت أن ترى مستقبل وطنها من خلال هذه الحياة.
لقد أدرك أن المستقبل يتعلق بما ينجزه الجيل الحاضر، بحيث يدفع الجيل التالي، بل والأجيال الأبعد إما إلى حياة الخمول والعبودية، وإما إلى حياة مشرقة واعدة. وأدرك أن الوصول إلى القمة لا يأتي عن طريق نثر الذهب، إنما عن طريق التفعيل الدائم للعقل البشري، ورهافة القلب الإنساني. وأن الأفضل من لا يسأل السؤال غير المناسب مثل **من** سوف يقوم بالعمل؟ وإنما **كيف** سنقوم بالعمل؟
لقد حظي القبردي دائماً عبر تاريخه القديم برجاله وحكمائه، وتبنوا مقولة السيد المسيح " أحبوا جاركم كما تحبون أنفسكم " كما لم تتبناها الكثير من الدول المسيحية...
على الأرض الشركسية كانت الكلمة العاقلة والفعل الطيب يقيمان عالياً، والأولوية للاستقامة والعدالة والذهن المنفتح. أما الحماقة فكانت العدو الذي يجب محاربته، حتى أن أحدهم قال: " إن الآلهة نفسها تقف عاجزة أمام الحماقة. " لكن ليس الإنسان.

الفهرس

القسم الختامي

اسم الملف: قوشحه مافه ٢
الدليل: C:\Documents and Settings\دار رسلان\My Documents
القالب: C:\Documents and Settings\دار رسلان\ Application Data\Microsoft\Templates\Normal.dotm
العنوان: P
الموضوع:
الكاتب: MERVAT RAJAB
الكلمات الأساسية:
تعليقات:
تاريخ الإنشاء: ٢٠٠٦/٠٥/١١ ٠٧:٥٩:٠٠ م
رقم التغيير: ٤٣٩
الحفظ الأخير بتاريخ: ٢٠١٢/٠٣/٢٢ ٠٣:٥٨:٠٠ م
الحفظ الأخير بقلم: دار رسلان
زمن التحرير الإجمالي: ١٥,٢٣٠ دقائق
الطباعة الأخيرة: ٢٠١٢/٠٣/٢٥ ٠٢:٥٢:٠٠ م
منذ آخر طباعة كاملة
عدد الصفحات: ٤٥٥
عدد الكلمات: ٨٢,٦١٢ (تقريباً)
عدد الأحرف: ٤٧٠,٨٩٤ (تقريباً)